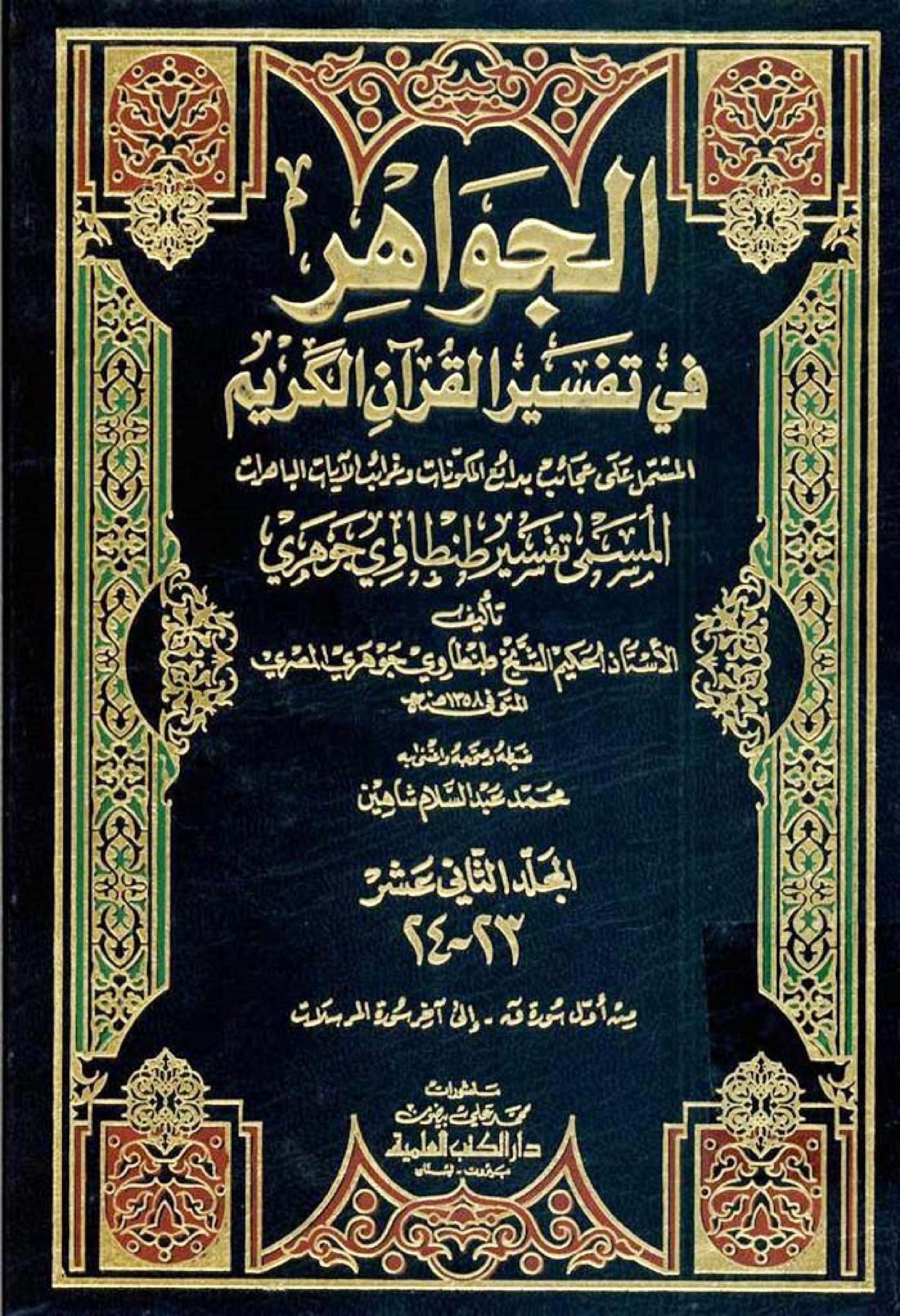

الجواهر
في تفسير القرآن الكريم
المشتمل على عجائب بدائع المكونات وغرائب الآيات الباهرات
المسمى تفسير طنطاوي جوهري
تأليف
الأستاذ الحكيم الشيخ طنطاوي جوهري المصري
المتوفى في ١٣٥٨ هـ
ضبطه وصححه واعتنى به
محمد عبد السلام شاهين
المجلد الثاني عشر
٢٣-٢٤
من أول سورة ق - إلى آخر سورة المرسلات
منشورات
محمد علي بيضون
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

الجواهر

في

تفسير القرآن الكريم

المشتمل على عجائب بدائع المكونات وغرائب الآيات الباهرات

تأليف

الأستاذ الحكيم الشيخ طنطاوي جوهري المصري

المتوفى ١٣٥٨ هـ

ضبطه وصححه واعتنى به

محمد عبد السلام شاهين

٢٣ - ٢٤

المحتوى:

من أول سورة ق - إلى آخر سورة المرسلات

منشورات

محمد علي بيضون

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾
[النحل: ٤٤]

تفسير سورة «ق»

هي مكية إلا آية:

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ ﴾

فمدنية

آياتها ٤٥، نزلت بعد «المرسلات»

وهي في إثبات النبوة والحشر

وذلك في مبحثين:

الأول: في النظر في السماوات والأرض، وأخبار الأمم الماضية، من أول السورة إلى قوله: ﴿ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾ ﴾.

المبحث الثاني: في الكلام على الموت وسكراته، وعلى الملائكة المراقبين حركات الإنسان وسكناته وفي أحوال يوم القيامة، من قوله: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ﴿١٦﴾ ﴾ إلى آخر السورة.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ﴿١﴾ بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ﴿٣﴾ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ﴿٤﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴿٥﴾ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴿١١﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ

وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾ وَقَالَ قَرِينُهُ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ ۞ قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَٰكِن كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ ﴿٤٠﴾ وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾ ﴾

المبحث الأول : فيه ثلاث مقامات :

المقام الأول : في تفسير البسملة .

المقام الثاني : في معنى : ﴿ قٓ ﴾ .

المقام الثالث : في تفسير الآيات من أول السورة إلى قوله : ﴿ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾ ﴾ .

المقام الأول: في تفسير البسملة

للرحمة في هذه السورة أدوار ثلاثة: دور البداية، ودور أهم النشاط في الأعمال، ودور النهاية، وذلك كأدوار الإنسان، فهو شاب، وكهل، وهرم، وكأدوار قصة يوسف:

(١) فهو مع إخوته في مشاكل الحسد، والمنافسة، والإلقاء في البئر، ووقوعه في شرك امرأة العزيز.

(٢) ثم في حفظ مال الدولة المصرية والقيام بسياستها، وإكرامه إخوته وأبويه.

(٣) ثم انتهى إلى الله وقال: ﴿ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾[يوسف: ١٠١].

(١) هكذا الحكماء الذين عرفوا الله بعقولهم كسقراط، فأول حياته شك في نظام العالم، وفي خالقه، وعموم علمه، في مقابلة حسد إخوة يوسف ورميه في الجب إلى آخر ما تقدم.

(٢) ثم إنه عثر على رأي «أنكساغورس»، فعرف شيئاً من الألوهية ثم استكمل علمه.

(٣) ثم انتهى إلى انقضاء حياته.

(١) وهكذا خاتم الأنبياء، فهو في مكة في مشاكل ومجادلات ومخاصمات مع كفار قريش.

(٢) وهو في المدينة فاتح البلاد وناشر الإسلام.

(٣) ولما انتهى الأمر رجع إلى ربه.

فهكذا هذه السورة، فأولها إنكار النبوة والبعث، وأوسطها الحث على النظر في السماء وزينتها وبهجة بنائها، وفي الأرض وجبالها الشامخات، وزروعها النضرات، ومطرها المدرار، ونخلها الباسقات ودولها الهالكات، من عاد إلى أصحاب الأيكة وقوم تبع، وما استحقوا من وعيد ومحاسبة، ونهايتها تقريع الإنسان على أعماله، وأنه مسؤول عن دخائل نفسه، في مجالس أنسه، وعند إخوته، وفي خلوته وأنه محوط بالكرام الكاتبين، يحصون أعماله، ويرقبون أقواله، حتى إذا جاءت سكرته، وحانت منيته حوسب على قول كل كلمة، وحوسب على كل عمل عمله، وشهدت عليه الشهود، وكشف له الغطاء ووقع الخصام، واضطرب النظام، وتعادى المحبون، وافترق المجتمعون وغضب الرب غضبته، فملأ جهنم بأهلها، ورحم أعظم الرحمات بملء الجنة بذوي الإيمان والصلاح، ذلك لأنه لا يجعل المتقين كالفجار، ولا المؤمنين كالكفار، ولو استوى الخبيث والطيب لكان خلق هذه العوالم باطلاً، ولكان نظامه حائلاً، ولكن النظام معلوم، ودوامه مصون.

وجه الرحمة هنا

وإنّما مني الإنسان بهذه الوقائع، واتصف بتلك المناقب والمثالب؛ لأنه لا يتسنى له الارتقاء إلى الملأ الأعلى إلا بمعاناة الضدين، ومقاساة الأمرين، حتى إذا جاءت سكرة الموت كانت سكرة الطرب، لا سكرة الجزع والهلع، فبينما هو ينظر في السماء كيف بنيت، وفي الأرض كيف زينت، وفي الزرع كيف ابتهجت، إذا به ارتفع إلى عالم أجمل، وبهاء أكمل، ومقام أرفع، فمعاناة الضدين، ومقاساة الأمرين سلالم يصعد الإنسان عليها إلى العلا، وصفت سكرة الموت المكروهة ليحترس منها، ويجعل حياته

حياة صحو وعلم وعمل ليفارقها وهو مسرور، لا مختبط وهو مجبور، وإلى هنا تم الكلام على المقام الأول في تفسير البسملة. كتب ليلة الأحد ١٥ نوفمبر سنة ١٩٣١م.

المقام الثاني: في معنى: ﴿ قٓ ﴾

قد تقدم الكلام في «آل عمران» وفي غيرها من السور كـ «العنكبوت» و«الروم» و«يس» و«ص» وما بينها، ووضح فيها بعض الحكم والعجائب التي تضمنتها هذه الحروف التي في أوائل السور، ولكن البحث هنا يكون خاصاً بالحرف «ق» الذي في أول هذه السورة، واعلم أن هذا يحتاج لمقال يتقدمه فأقول:

اعلم أن الله علم قبل أن ينزل القرآن أن أمة الإسلام ستجمع الأحمر والأبيض والأسود، وأنه سيأتي عليها زمان يتناكرون وهم مسلمون، ويتعدون وهم موحدون، ويجهلون وهم مؤمنون، ويذلون وهم متفرقون.

علم الله أننا سنكون على هذه الحال فأنزل لنا من أعاجيب القرآن هاتين العجيبتين: «الحجرات» و«ق»، هاتان سورتان تضمنتا ما به معرفة الأنفس، وما به معرفة الآفاق، أما ما به معرفة الأنفس، أي أخلاقها وتهذيبها فهو ما مر في سورة «الحجرات»، وأما ما به معرفة الآفاق فهو علم السماوات والأرض والبحث في عجائبهما وبدائعهما، وحكمهما وغرائبهما، فيصبح المسلم مهذب النفس، عارفاً بما يحيط به من العوالم.

علم الله أن المسلمين ستمر عليهم أجيال وقرون وهم لا يعرفون من القرآن إلا الأحكام الشرعية يعيشون ويموتون وهم لا يعقلون إلا هو، وما هو إلا علم القضاء وبعض العبادات الظاهرة.

علم الله أن العالم بالأحكام الشرعية الذي يقبل المسلمون يده يواظب على شروط الصلاة، ويواظب على طهارة ثوبه، ونظافة مكانه، والاتجاه للقبلة في الصلاة، وفي الوقت نفسه يطلق للسانه العنان، ويغتاب الإخوان، مستحلًا ذلك لا يبالي.

علم الله أننا نحن الآن سنترك أحكام الأنفس فنجهلها ولا نعرف كيف نطهرها، ولا كيف نحسن أخلاقها، ولا كيف نصقلها بالمعارف الحقة، والعلوم المكتسبة، التي تحيط بنا في الآفاق من نبات وحيوان، وهواء وماء، وكهرباء وبخار، ومغناطيس، ونجوم وسماء، وأنوار، فأنزل سورة «ق» ناظماً تلك المباحث في عقدها لنتحلى بها بعد التخلي من الرذائل.

علم الله أن المسلمين سينامون جاهلين كسلاً وغفلة آماداً وآماداً، ويتبع الآخرون الأولين، ولا ينظرون إلى القرآن إلا نظرة البركة، لا نظرة الحكمة والموعظة، ويقولون: قد نظر فيه الأئمة فاستخرجوا لنا علم الفقه، وهو كل شيء، وما القرآن إلا بركة، وإذا ذكر آية في الاستدلال فإنّما نتبع من قبلنا، وما لم يذكر في الفقه من الآيات فلا نظر لنا فيه إلا نظراً سطحياً تارة، وتبركاً تارة أخرى.

علم الله قبل أن ينزل القرآن أننا سنجهل كيف نتعارف، وأن أبناء العرب الذين تقاربت ديارهم واتحدت لغتهم وجنسهم ودينهم، يجهل بعضهم بعضاً، فلا يتحدون بلغتهم ولا بدينهم ولا بجنسهم ولا بوطنهم الذي جمعهم وهم متجاورون فيه.

علم الله ذلك، وعلم أن أمم أوروبا تتحد وجهة كل منها، وأن الولايات المتحدة في أمريكا التي هي أمة جامعة لقوم من شتات الأمم لما علموا وعقلوا اتحدوا وطناً ولغة بالتعليم، وإن اختلفوا أجناساً وديانات، فأما أمم الإسلام فلا اتحاد بينهم لأنهم لم يتعلموا ولم يدرس أبناء العرب تاريخ أسلافهم، ولا منشأهم، ولا أحوالهم الاجتماعية دراسة تشوقهم إلى أصلهم القديم، فيرجعوا مجدهم كما كان ويتحدوا، وليس معنى هذا أنهم يكونون عذاباً على الناس، كلا. بل ينظرون إلى أمم الترك الذين اتحدوا معهم في الدين وفي الجوار، وهكذا الفرس وأنهم أمم شرقية ويتحدون معهم، وهكذا يتحدون مع جميع الأمم الإسلامية، ويكونون عوناً مع جميع الأمم ليعيشوا بسلام.

علم الله قبل أن ينزل القرآن أنا سنكون في هذا الزمان خاملين نائمين، فلا علوم ولا تهذيب ولا حكمة فنكون متفرقين، وتدوسنا الفرنجة، ونحن أذلاء بين أيديهم، كل هذا بجهلنا وعلم الأمم، فعلمهم هو الذي سلطهم، وجهلنا هو الذي أذلنا، فانظر ماذا قال الله لنتلافى هذا العيب، قال: ﴿ لِتَعَارَفُوٓاْ ﴾[الآية: ١٣] في سورة «الحجرات»، فالتعارف لن يكون إلا بالعلم، فإن لم يكن علم ودرس فلا تعارف، إن التعارف لن يكون إلا بعلم، فإذا لم تعلم أن زيداً أبوك لن تكرمه، وإذا لم تعلم أن خالداً من أقاريك لم تحافظ عليه، وإذا لم يعلم المسلمون علم تاريخهم ولغتهم، ومنشأ دولتهم، وجغرافية بلادهم، وظلم أوروبا لهم، وموازنة هذا بما كان عليه آباؤهم؛ إذا لم يفعلوا هذا وغيره كدراسة الأرض التي يسكنوها، ومعرفة خباياها في مصر واليمن وغيرها، ويعرفوا معادنها وحاصلاتها وخيراتها وما أشبه ذلك، إذا لم يعرفوا ذلك فكيف يتعارفون؟ إنهم إذا رأوا ذلاً جامعاً، ولغة متحدة، وأمماً جامعة لإذلالهم، وأرضاً ذات خيرات يطمع العدو في الانتفاع بها، هنالك تكون الحمية، حمية الإسلام والمحافظة على الأوطان، ومجاراة الأزمان، وحفظ الإخوان، وإذا لم يعرف العرب أمم الترك ولا الترك أمم العرب، ولم يدرسوا الثمرة التي تنتج من اتحادهم فكيف يتحدون؟ وإذا لم يدرس هذان الشعبان أحوال الأمم الإسلامية فكيف يتحدون معها؟ وإذا لم يدرس هؤلاء المسلمون جميعاً نظام الأمم في الأرض كلها ولم يعرفوا أحوالها فكيف يتحدون معها على رقي الإنسانية؟.

كل هذه المعاني داخلة في قوله تعالى: ﴿ لِتَعَارَفُوٓاْ ﴾[الحجرات: ١٣]، بغير هذا لا يكون تعارف، وبغير هذا لا يكون اتحاد، وبغير هذا لا يكون سلام في الأرض، وبغير هذا لا يكون تمام قوله تعالى: ﴿ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ﴾[التوبة: ٣٣]، وبغير هذا لا يتم تماماً واضحاً قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴾[الأنبياء: ١٠٧].

نحن إذن خلفاؤه صلى الله عليه وسلم فلنكن رحمة للعالمين، ولنقم بالأمر بعد أن نتعلم ونتربى فلا تسبقنا أمم الممالك المتحدة في التعليم، والتهذيب، والرقي، ونظام المدارس، ونظام السجون التي جعلوها للتهذيب لا للتعذيب.

وأقول أيضاً: علم الله أن هذا الداء سيحيط بالمسلمين ويشملهم جميعاً، فأي دواء أعده له؟ الدواء «ق»، ولعلك تقول: وهل هذه المعاني كلها في «ق»؟ وهل كلمة «ق» تفيدنا أن المسلمين يقتصرون على علم الفقه ويجهلون في الغالب آداب النفوس، ويشتت شملهم، ويسبقهم غيرهم

وهكذا، ثم يصف بها الدواء؟ أقول لك: نعم، فاعلم أن «ق» أول حرف في القرآن المذكور في آخر سورة «ق»، قال تعالى: ﴿ فَذَكِّرْ بِالْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾[ق: ٤٥]، كأن الله تعالى يقول: إذا نزلت بكم أيها المسلمون صاعقة التفريق، وأصبح كل منكم كالغريق، وتخبطتم في دياجير الظلام، وكنتم عبرة الأمم، وسلوة الزمن، وأنتم فرق متشاكسون وأفذاذ متفرقون، ونبذتم فهم القرآن، فلأذكركم بالقرآن، فارجعوا إليه، ولا تسمعوا كلام بعض قدامى الفقهاء الذين ادعوا أن الدين ما عرفوه، وما سواه فلا حاجة إليه، كذلك لا تصغوا لقول العباد، ولا لقول الصوفية، ولا لأقوال الأغنياء، فإن كلًّا منهم يعيب الآخرين ظناً منه أنه هو المخصوص بالكرامة، وما عداه فهو في جهالة، لا تسمعوا لهؤلاء جميعاً، وادرسوا القرآن، فقد جربتم صغار الصوفية، وجربتم صغار الفقهاء، وجربتم الأغنياء، وجربتم العبّاد ـ بتشديد الباء ـ والصالحين، فقد استبد كل فريق بناحيته، واستقل بأمره، وجهل ما عند سواه، فتفرقت الأمم الإسلامية شذر مذر، وأحاطت بهم الأمم من كل جانب، وأذاقوهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا، ﴿ فَذَكِّرْ بِالْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾[ق: ٤٥]، والوعيد قسمان: قسم يختص بهلاك الأمم في الحياة الدنيا، وقسم يختص بعذاب يوم القيامة، وكلاهما في القرآن فلتقرؤوه، وعلى مقتضاه تدرسون جميع الكائنات.

هذه المعاني كلها مخبوءة في كلمة «ق» التي جاءت بين السورتين المختومتين بقوله: ﴿ فَذَكِّرْ بِالْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾[ق:٤٥] المشتملتين على ما يصفي النفوس وعلى معرفة الآفاق، وهذان الصنفان من العلوم داخلان تحت قوله تعالى: ﴿ لِتَعَارَفُوٓاْ ﴾[الحجرات: ١٣] كما أوضحناه.

ألا تعجب معي أن يقول بعد هذا بعض علماء التفسير: إن «ق» اسم من أسماء القرآن، وهذا هو المعنى الذي أوضحناه لك الآن. انتهى تفسير كلمة «ق»، والحمد لله رب العالمين.

المقام الثالث: في تفسير الآيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ قٓ وَالْقُرْءَانِ الْمَجِيدِ ﴾ أي: الشريف الكريم على الله، الكثير الخير والبركة، وجواب القسم: لتبعثن، ﴿ بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ﴾ إنكار لتعجبهم مما ليس بعجب، وهو أن ينذرهم بالخوف رجل منهم وقد عرفوا عدالته وأمانته، ومثله لا يكون إلا ناصحاً لقومه، خائفاً عليهم من وقوع مكروه ومتى أظلهم مكروه وعلمه لزمه أن ينذرهم، ﴿ فَقَالَ الْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ﴾ حكاية لتعجبهم، يتعجبون من اصطفاء محمد صلى الله عليه وسلم للرسالة، ﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ﴾ أي: أنرجع إذا متنا وصرنا تراباً ﴿ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ﴾ أي: بعيد عن الوهم والعادة والإمكان، قال تعالى: ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ ﴾ ما تأكل من أجسادهم بعد موتهم، إنهم لما استبعدوا البعث رد الله عليهم بأن من لطف علمه حتى علم ما تنقص الأرض من أجساد الموتى وتأكله من لحومهم وعظامهم كان قادراً على رجعهم أحياء كما كانوا، ﴿ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ﴾ محفوظ من الشياطين، ومن التغيير، وهو اللوح المحفوظ، وهو حافظ لما كتب فيه، ثم إنهم جاؤوا بما هو أفظع مما قبله، فاستحق الإضراب عنه، فلذلك قال: ﴿ بَلْ كَذَّبُواْ بِالْحَقِّ ﴾ أي: النبوة الثابتة بالمعجزات من أول وهلة بغير تفكر ﴿ لَمَّا جَآءَهُمْ

﴿ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴾ مضطرب، يقال: مرج الخاتم في الإصبع إذا اضطرب من سعته، فيقولون تارة شاعر ومرة كاهن، ومرة ساحر، لا يثبتون على رأي، ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ ﴾ حين كفروا بالله وبالبعث ﴿ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ ﴾ إلى آثار قدرة الله تعالى في خلق العالم ﴿ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا ﴾ رفعناها بلا عمد ﴿ وَزَيَّنَّٰهَا ﴾ بالكواكب ﴿ وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴾ فتوق بأن خلقناها ملساء متلاصقة الطباق، وهذا هو الرأي الحديث في عالم السماوات، بل الرأي الحديث معجزة للقرآن، وبيانه أن العلماء في عصرنا الحاضر يقولون: إن هنا عالماً لطيفاً أرق من الهواء، وألطف من كل ما نراه، هو مبدأ كل شيء، وأول كل شيء، هو العالم المسمى بالأثير، وهذا العالم لم يره الناس وإنّما عرفوه من وصول أضواء الكواكب إلينا، فإن من الكواكب ما لا يصل ضوءه إلينا إلا فيما يزيد على ألف سنة نورية. ومعلوم أن نور الشمس ـ التي تبعد عنا مقدار سير القطار إليها لو أمكن نحو ثلاثمائة وخمس وستين سنة ـ يصل إلينا في مدة ثمان دقائق و١٨ ثانية، فانظر كيف يكون بعد تلك الكواكب التي تحتاج بسير النور إلى مليون سنة ونصف مليون سنة، وانظر كيف يدل هذا على أن ذلك الضوء محمول على شيء موجود، والشيء الموجود هو الأثير، فلو أن طبقة من الطبقات لم يكن فيها الأثير لانقطع سير النور إلى الأرض ولم نره.

هذا هو السر في قوله تعالى: ﴿ وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴾، فلو كان هناك فروج تتخلل السماوات لانقطع سير النور إلينا، ومعلوم أن آراء الجهلة في كل أمة أن كل سماء منفصلة عن الأخرى، وبينهما فضاء كما يظن لأول وهلة فيما بيننا وبين السماء الدنيا، فجاء القرآن على عكس ذلك تماماً، وقال: لا فروج في السماء، وبعبارة أخرى: لا خلاء في العالم.

رأي القدماء

هكذا كان رأي بعض القدماء في «إخوان الصفاء» إذ قالوا: إن النور والظلمة إما أن يكونا جوهرين أو عرضين، فإن كانا جوهرين فليس في العالم خلاء لأنه لا يخلو من نور وظلمة، وإن كانا عرضين فالعرض لا بد له من جوهر يقوم به، وإن كان أحدهما عرضاً والآخر جوهراً فهو معلوم من سابقيه. فإذن العالم لا خلاء فيه كما ذكرناه في سورة «البقرة»، فانظر كيف كان نظر الحكماء قديماً وحديثاً وهو عين ما جاء في هذه الآية: ﴿ وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴾، ﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا ﴾ بسطناها ﴿ وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ ﴾ جبالاً ثوابت ﴿ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ ﴾ من كل صنف ﴿ بَهِيجٍ ﴾ حسن ﴿ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾ راجع إلى ربه، متفكر في عجائب صنعه، يقول الله: بنينا السماء وزيناها، ومددنا الأرض، وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج، كل ذلك فعلناه لأجل تبصرة العبد المنيب وذكراه، وهذا من حيث المعنى، وإن كانا في الإعراب منتصبين بالفعل الأخير فإن رفعت السماء فلذكراه، وإن زينتها بالكواكب والنور فليتبصر بما يراه، وإن بسطت الأرض وأرسيتها بالجبال فكذلك، وإن أنبت النبات زينة للأرض، فليعتبر ويذكر بمرآه، ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا ﴾ كثير المنافع ﴿ فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ ﴾ أشجاراً وثماراً ﴿ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴾ وحب الزرع الذي من شأنه أن يحصد كالحنطة والشعير والأرز والعدس وغيرها، ﴿ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ ﴾ طوالاً أو

حوامل، يقال: أبسقت الشاة، ذا حملت، ﴿ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴾ الطلع: كل ما يطلع من ثمر النخل، والنضيد: المنضود بعضه على بعض لكثرة الطلع وتراكمه، أو لكثرة ما فيه من ثمر، ﴿ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ﴾ أي: أنبتناها رزقاً للعباد كما جعلناها تبصرة وذكرى للمنيب منهم، فالتبصرة للمفكرين والرزق لجميع الأحياء من الآدميين، فهي مآكل الآكلين من نوع الإنسان، ﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾ [الإسراء: ٢٠]، فنحن نطعم عبادنا ونرزقهم، ولكنا لا نجعل هذه البساتين والأشجار والثمار درساً معروفاً، وعلماً مقروءاً، إلا للممتازين من نوع الإنسان، فالخواص للنبات دارسون، والعامة والخاصة منها آكلون.

ولما كانت دراسة النباتات والاستفادة من علومهما لم يظهر له مثال؛ أعقبه بذكر مثال يبين كيف يدرس فقال: ﴿ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ ﴾ بذلك الماء ﴿ بَلْدَةً مَّيْتًا ﴾ أرضاً جدبة لا نماء فيها ﴿ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴾ أي: كما حييت هذه البلدة يكون خروجكم أحياء بعد موتكم، فالناس يتغذون وينمون، ويتزوجون ويلدون، وهذه الأحوال كلها في النبات، فهو له حياة وغذاء ونمو وتوالد وموت، ثم تيبس الأرض، ثم تحيا بالنبات، فليقس عليه حال الإنسان فإنه بعد موته يحيا، وهذا برهان إقناعي، ونظيره في كلام سقراط، يقول: إن الإنسان يحيا بعد الموت لأن كل ضد يتولد عنه ضده، فالصحة بعد المرض والعز بعد الذل، وهكذا مما لا نهاية له، فلتكن الحياة من بعد الموت. فانظر كيف أتى الله بهذا القياس التمثيلي الذي يجعل للنفس ائتناساً بالموضوع وفهماً فيه من النبات، ليفتح للعقول مجال التبصرة بمئات من المسائل العلمية، فتفكر فيما قدمته في سورة «الشعراء» وغيرها من أنواع النبات الكثيرة التي تفرعت كلها من أصل واحد، وكان تنوعها كلها ظاهراً في زهراتها فالزهرة تنوعت أنواعاً كثيرة لكل صنف من النبات شكل في الزهرة خاص.

فإذا قرأت ذلك دخلت في بحر لا ساحل له من العلم والحكمة. وعرفت سر البدائع الإلهية، وهناك ثم هناك تفهم قوله تعالى: ﴿ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾، وهكذا مواضع أخرى من هذا التفسير، ثم قال تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ﴾ أي: فرعون وقومه ﴿ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ ﴾ كل واحد أو قوم منهم الخ، ﴿ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴾ فوجب وحلّ عليه وعيدي، فلتستعد يا محمد ولتستعدوا لنزول العذاب يا أهل مكة، وانظر أيها الذكي كيف كان ترتيب سور القرآن، إن قوم نوح وأصحاب الرس وثمود وعاداً وفرعون قد تقدموا في السور السابقة، فانظر كيف ذكروا في هذه السور بطريق إجمالي، فهناك ذكرت القصص والتاريخ وهنا ليكون الاعتبار.

يقول الله: هاأنتم أولاء قرأتم قصص السابقين، وأخبار الأولين في السور المتقدمة، فلأذكركم بأحوالهم فقد كذبوا فهلكوا.

يقول الله: أذكركم بالسماء والأرض والجبال والماء والنبات، أذكركم بهذا كله، وأذكركم بالأمم الخالية، والأجيال البائدة، كيف هلكوا وهم مكذبون، وكيف نصرنا الأنبياء، فليكن هكذا محمد وكل مصلح من أمته، فهم منصورون وبضدها تتميز الأشياء.

يقول مؤلف هذا التفسير: إن ظني بالله جميل أن يجعل هذا التفسير نافعاً للأمة الإسلامية، وأن يكون مساعداً على الانقلاب الفكري في العالم الإسلامي، حتى يصبح المسلمون أمة حكمة وعلم ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾[الحج: ٤٠].

تذكرة: هذه الجملة كتبتها حين تأليف الكتاب، وهو الآن بصدد الطبع، ولقد صدق ظني وأجيبت جميع مطالبي، وإني أحمد الله، فلقد تقدم في المجلد السابق في سورة «الفتح» أن الفكرة قد عمت مسلمي بلاد الصين والتركستان الصينية فضلاً عن سائر بلاد الإسلام.

ثم قال تعالى: ﴿ أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ﴾ أي: فعجزنا عن الإبداء حتى نعجز عن الإعادة، يقال: عيي بالأمر، إذا لم يهتد لوجه عمله، والهمزة للإنكار، ﴿ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾، يقول تعالى: هم لا ينكرون قدرتنا على الخلق الأول، بل هم في خلط وشبهة، قد لبس عليهم الشيطان وحيرهم، وذلك تسويله إليهم أن إحياء الموتى أمر خارج عن العادة. انتهى المبحث الأول من السورة.

المبحث الثاني: في الكلام على الموت وسكراته وعلى الملائكة المراقبين حركات الإنسان وسكناته وفي أحوال يوم القيامة

قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ﴾ ما تحدثه به نفسه، وهو ما يخطر بالبال، والوسوسة: الصوت الخفي، ومنه وسواس الحلي، ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴾ أي: ونحن أعلم بحاله مما كان أقرب إليه من حبل الوريد، أهذا مثل في فرط القرب، والوريد عرق في باطن العنق، والحبل: العرق، أي: حبل هو الوريد، فأجزاء الإنسان وأبعاضه يحجب بعضها بعضاً، ولا يحجب عن علم الله شيء، فهو بيان لكمال علم الله تعالى بالإنسان، أو يقال بالاختصار نحن أعلم به منه، فيكون تجوزاً بقرب الذات لقرب العلم، وقوله: ﴿ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ ﴾ ظرف لقوله: ﴿ أَقْرَبُ إِلَيْهِ ﴾، يقول الله: نحن أعلم بحاله من كل قريب حين يتلقى، أو يتلقن الحفيظان ما يتلفظ به مع أننا أغنياء عن استحفاظ الملكين لشدة قربنا منه، ولكن هكذا كان نظامنا لإلزام الحجة، وقوله: ﴿ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴾ أي: عن اليمين قعيد وعن الشمال قعيد، أي: مقاعد، كجليس، وقد حذف الأول لدلالة الثاني عليه كقوله:

ومن يك أمسى بالمدينة رحله ... فإني وقيار بها لغريب

وكقول الآخر:

رماني بأمر كنت منه ووالدي ... بريئاً ومن أجل الطوى رماني

أي: كنت منه بريئاً وكان والدي منه بريئاً وقد يطلق الفعيل للواحد والمتعدد كقوله تعالى: ﴿ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴾[التحريم: ٤]، ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ ﴾ ما يرمي به من فيه ﴿ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ ﴾ ملك يرقب أعماله ﴿ عَتِيدٌ ﴾ حاضر معه فيكتب ما فيه ثواب أو عقاب، وكل شيء حتى أنينه في مرضه، وفي الحديث: «كاتب الحسنات أمير على كاتب السيئات، فإذا عمل حسنة كتبها ملك اليمين عشراً، وإذا عمل سيئة قال صاحب اليمين لصاحب الشمال: دعه سبع ساعات لعله يسبح أو يستغفر».

واعلم أن هذا الحديث هو الموافق لنظام هذا العالم، ألا ترى رعاك الله أن الله لم يخلق الناس لتعذيبهم، وإنّما خلقهم لتهذيبهم وتربيتهم، وليس معنى التربية أن تكون كلها تعذيباً، فكل ألم فهو لرقي النفس، فإذا كان كاتب الحسنات أميراً على كاتب السيئات، فلأن العالم المادي الموجود من طبعه أن يكون نفعه أكثر من ضره، وعلى هذا الناموس يكون خلقنا لغاية شريفة نافعة لنا، والحسنات أصل والسيئات عارضة كما أن المنافع في الطبيعة أصل والمضار عارضة، النار خلقت لمنفعة، والماء لمنفعة، والهواء لمنفعة، فإذا أحرق ثوب الناسك، وأغرق رب صبية لا عائل لهم، وأصاب البرد عالماً فانتهى بموته، فهذا كله عارض، والأصل في هذه كلها المنافع، هكذا نوع الإنسان خلق للخير ولكن الشر عارض، وللحسنات ولكن السيئات عارضة، فقول النبوة من منبع النظام الأصلي العام، ثم إن الله لما ذكر استبعادهم البعث للجزاء، وأزاح ذلك بتحقيق قدرته وعلمه أعلمهم بأنهم يلاقون ذلك قريباً عند الموت وعند قيام الساعة، ولذلك عبر بالماضي تنبيهاً على اقتراب ذلك فقال: ﴿ وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّ ﴾ أي: شدته الذاهبة بالعقل ملتبسة بالحق، أي بحقيقة الأمر أو بالحكمة، ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ الموت أيها الإنسان ﴿ مَا كُنتَ مِنۡهُ تَحِيدُ ﴾ وتهرب، ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِۚ ﴾ نفخة البعث ﴿ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡوَعِيدِ ﴾ أي: ذلك اليوم الذي وعد الله الكفار أن يعذبهم فيه، ﴿ وَجَآءَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّعَهَا سَآئِقٞ وَشَهِيدٞ ﴾ كاتب السيئات سائق، وكاتب الحسنات شهيد، ويقال له: ﴿ لَّقَدۡ كُنتَ فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا فَكَشَفۡنَا عَنكَ غِطَآءَكَ ﴾ أي: الغطاء الحاجب لأمور المعاد، كالغفلة والانهماك في المحسوسات، والإلف بها، وقصور النظر عليها، ﴿ فَبَصَرُكَ ٱلۡيَوۡمَ حَدِيدٞ ﴾ نافذ لزوال المانع للإبصار، فكأن الغفلة غطاء غطى بها جسده كله، أو غشاوة غطى بها عيناه فلا يبصر شيئاً، فإذا كان يوم القيامة تيقظ وزالت عنه الغفلة وغطاؤها فيبصر ما لم يبصره من الحق، ويكون مبدأ ذلك عقاب الموت، ﴿ وَقَالَ قَرِينُهُۥ ﴾ وقال الملك الموكل به: ﴿ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴾ أي: معد محضر، أي يقول الملك: هذا الذي وكلتني به من بني آدم قد أحضرته وأحضرت ديوان عمله، فلما قال قرينه ذلك، قال الله للسائق والشهيد: ﴿ أَلۡقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٖ ﴾ معاند للحق ﴿ مَّنَّاعٖ لِّلۡخَيۡرِ ﴾ كثير المنع للمال عن الحقوق المفروضة، وللإسلام أن يذاع وأن ينتشر، كالوليد بن المغيرة لما منع بني أخيه عنه ﴿ مُعۡتَدٖ ﴾ متعد ﴿ مُّرِيبٍ ﴾ شاك في الله وفي دينه، ﴿ ٱلَّذِي جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ﴾ بدل من «كل كفار»، وقوله: ﴿ فَأَلۡقِيَاهُ ﴾ تكريراً للتأكيد ﴿ فِي ٱلۡعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴾، فقال الكافر: يا رب إن قريني من الشياطين أطغاني، ﴿ قَالَ قَرِينُهُۥ ﴾ أي: الشيطان المقيض له ﴿ رَبَّنَا مَآ أَطۡغَيۡتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٖ ﴾ عن الحق لأنه هكذا استعداده، وهكذا كان ديدنه وطبعه فسار على النهج الذي يناسب أخلاقه، أي: في ضلال بعيد طويل لا يرجع عنه إلى الحق وهذا كقوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِيۖ ﴾ [ابراهيم: ٢٢]، ﴿ قَالَ ﴾ الله تعالى: ﴿ لَا تَخۡتَصِمُواْ لَدَيَّ ﴾ في موقف الحساب إذ لا فائدة فيه ﴿ وَقَدۡ قَدَّمۡتُ إِلَيۡكُم بِٱلۡوَعِيدِ ﴾ وقد أوعدتكم بعذابي على الطغيان في كتبي وعلى ألسنة رسلي فما تركت لكم حجة، و«قدمت» بمعنى «تقدمت» فعدي بـ«الباء»، ﴿ مَا يُبَدَّلُ ٱلۡقَوۡلُ لَدَيَّ ﴾ أي: بوقوع الخلف فيه، فلا تطمعوا أن أبدل قولي ووعيدي بإدخال الكفار النار، ﴿ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴾ فلا أعذب عبداً بغير

ذنب جناه، و« ظلاّم » إما بمعنى ذي ظلم، وإما للمبالغة، يقول الله: واذكر ﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴾ مزيد مصدر كالمجيد، أي: هل من زيادة، وهذا السؤال والجواب جيء بهما للتخييل والتصوير، والمعنى أنها مع شدة زفيرها وحدتها لا تزال في شغب بدخول العصاة فيها، فهي كالنهم الذي لا يشبع، فكما أن الجنة لا نهاية لمداها، هكذا النار لا نهاية لمداها، ويقول ابن عباس رضي الله عنهما: سبقت كلمته: ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾[هود: ١١٩]، فلما سيق أعداء الله إليها صارت لا يلقى فيها فوج إلا ذهب فيها ولا يملؤها شيء، فتقول: ألست قد أقسمت لتملأني؟ فيضع قدمه عليها فيقول: هل امتلأت؟ فتقول: قط قط امتلأت وليس من مزيد. وروى البخاري ومسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: « لا تزال جهنم يلقى فيها وتقول: هل من مزيد، حتى يضع رب العرش - وفي رواية - رب العزة فيها قدمه، فيزوي بعضها إلى بعض وتقول: قط قط بعزتك، ولا يزال في الجنة فضل حتى ينشئ الله لها خلقاً فيسكنهم فضول الجنة ». ولأبي هريرة نحوه، وزاد: « ولا يظلم الله من خلقه أحداً ».

واعلم أن هذا القول يرجع إلى النظام العام، وهو أن الله تعالى خلق العالم للخير لا للشر، وأن الشر عرض والخير أصلي، فإذا سمعت أن الرب أسكت النار وقالت: قط قط، وأنه خلق للجنة قوماً يسكنون في فضولها فذلك هو الذي يفهم من أعماله في هذه الحياة، فإن الحياة طافحة بالخير في هذا العالم مع نقصه، فتراه لا يدع حالاً من الأحوال إلا أدخل فيها الحياة، فالنبات يعيش في الشمس، وخلق للظل نباتاً يعيش فيه، ولم يذر البحر ولا البر من حيوان ولا نبات، فلا ملوحة البحر، ولا برودة الثلج، ولا حرارة القيظ، ولا غور البحر، بمانعات من الحياة، ومعنى هذا أن الرحمة فائضة، وهذا دلالة على أن جنته التي هي الرحمة الكبرى أوسع من جهنم التي هي دار العذاب، ومثل هذه الأحاديث لا يدرك سرها ولا المقصد منها إلا بدراسة علوم الحكمة، وفهم نظام العالم، وحكمة المدهشة، وإذ ذاك يدرك الناس ماذا يقصد النبي صلى الله عليه وسلم بمثل هذه الأحاديث، فأما تفسير الألفاظ فهو سهل متى عرفنا أن هذا تمثيل وهو ظاهر في علم المعاني ولا حاجة إلى التطويل. ﴿ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ ﴾ قربت وأدنت ﴿ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ الذين اتقوا الشرك حال كونها شيئاً ﴿ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾، ويقال لهم: ﴿ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ ﴾ هذا الذي وعدتم به في الدنيا على ألسنة الأنبياء، وقوله: ﴿ لِكُلِّ أَوَّابٍ ﴾ رجاع عن المعصية إلى الطاعة بدل من المتقين بإعادة الجار، وقوله: ﴿ حَفِيظٍ ﴾ أي: حافظ لحدوده، ﴿ مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ ﴾ أي: خاف الرحمن فأطاعه وإن لم يره، وفي الخلوة بحيث لا يراه أحد ﴿ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴾ مخلص مقبل على طاعة الله، يقال لهم: ﴿ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ﴾ سالمين من العذاب وزوال النعم، أو مسلماً عليكم من الله والملائكة، ﴿ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ ﴾ في الجنة إذ لا موت فيها، والخلود هنا مقدر كقوله تعالى: ﴿ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴾[الزمر: ٧٣]، ثم إن الناس يسألون الله ما يشتهون في الجنة فيعطون ما يسألون، ثم يزيد الله عباده فوق ما سألوا، وذلك قوله تعالى: ﴿ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾ مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ومن أجلّها النظر إلى وجه الله الكريم، إذ يتجلى لهم الرب في كل جمعة في دار كرامته، فهذا من المزيد. ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم ﴾ قبل قومك

﴿ مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا ﴾ قوة كعاد وثمود وقوم تبع ﴿ فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴾ التنقيب : التنقير عن الأمر والبحث والطلب ، فهم ساروا وتقلبوا في البلاد ، وسلكوا كل طريق وتصرفوا فيها ، وجالوا في الأرض كل مجال حذر الموت ﴿ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴾ أي : هل لهم محيص من الله ، أي : فلم يجدوا مهرباً من أمر الله ، ولا مفر من الموت الذي يعقبه عذاب الله ، فهكذا أهل مكة ، لأن ما جاز على أحد المثلين جاز على الآخر ، فهم أيضاً تصرفوا ونقبوا في البلاد ، فلا مهرب لهم من عذاب الله إما بإنزال العذاب عليهم كعاد وثمود ، وإما يموتوا فيدخلوا النار .

ولما كان ما تقدم في هذه السورة وما قبلها من أبدع الحكم والعلوم ، وهما مع اختصارهما قد جمعا تفصيلاً آداب الأمم مع النبي صلى الله عليه وسلم ومع أنفسهم ، وكيف يكون السلام بين الناس وكيف يكون الصلح ، وكيف يصان اللسان ، وكيف يتعارفون ويتعلمون وينظرون في خلق السماوات والأرض ، وفي العجائب المدهشة ، بحيث إن هاتين السورتين اللتين فصل بينهما بلفظ « ق » الذي شرحناه لك قريباً يكفيان لرقي الأمة الإسلامية وإسعادها متى رجعوا إليهما ، فيذهب التقاطع ، ويتعلم الجاهل ، ويجتمع الشمل ، وينتظم الجمع ، ويخيم الأمن في ربوع الأمة الإسلامية ، لذلك قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ ﴾ الذي تقدم في السورتين لأن الأولى للتخلية والثانية للتحلية ﴿ لَذِكْرَىٰ ﴾ لتذكرة ﴿ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ ﴾ أي : قلب واع يتفكر في حقائق الأشياء المذكورة فيه ﴿ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ ﴾ أي : أصغى لاستماعه ﴿ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ حاضر بذهنه ليفهم معانيه ، ليس بساه ولا غافل ، وفي تنكير القلب إشعار بأن كل قلب لا يتفكر ولا يتدبر كلا قلب ، ثم أعقبه بما يجول فيه القلب ويتفكر فقال : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾ إعياء وتعب فنحن قد ملأناهما بالعجائب ولا نزال نزيدها كل حين لأنا لا يلحقنا التعب والإعياء ، فاقرؤوا عجائبنا التي لا نهاية لمداها ، ولتتجه قلوبكم إليها ولتلقوا فيما تسمعون من القول السمع وأنتم حاضرو الذهن فعجائبنا لا تتناهى ، ولتكذبوا اليهود الذين قالوا : إن الله خلق السماوات والأرض في ستة أيام أولها الأحد وآخرها الجمعة ، واستراح يوم السبت ، واستلقى على العرش ، فنحن لا يمسنا لغوب ، وعجائبنا لا تقف عند حد ، ﴿ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾ على ما يقوله المشركون من إنكارهم البعث ، فإني خلقت العالم بلا إعياء ، فإذن أنا أقدر على بعثهم ثم أنتقم منهم ، ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ ونزهه عن العجز عن أي ممكن كان كالبعث حامداً له على ما أنعم عليك من إصابة الحق وغيرها من النعم الكثيرة التي لا تتناهى ﴿ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴾ أي : وقت الفجر ووقت الظهر والعصر ﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ ﴾ أي : وسبحه بعض الليل ﴿ وَأَدْبَـٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴾ وأعقاب الصلاة ، ومعنى هذا أن يقول : « سبحان الله والحمد لله » في أحوال أربعة : وقت الفجر ، ووقت الظهر والعصر أو العصر فقط ، وفي الليل ، وعقب الصلوات ، فيكون التسبيح على ظاهره ، وقيل : إن التسبيح نفس الصلاة ، فيكون صلاة الفجر ، وصلاة الظهر والعصر ، وصلاة المغرب والعشاء ، أو التهجد ، والرابع النوافل به الصلوات ، وإنّما سميت هذه الصلوات تسبيحاً تسمية بالجزء منها ، وهو ما في الركوع والسجود من التسبيح ، فالتسبيح على الأول خارج الصلاة ، والتسبيح في الثاني داخل فيها ، ولا جرم أن الحمد مذكور في « الفاتحة » والتسبيح في

الركوع والسجود، ومعنى: ﴿ أَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴾ وقت انقضاء السجود، كقولهم: آتيك خفوق النجم. وفي حديث البخاري عن ابن عباس قال: أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يسبح في أدبار الصلوات كلها، يعني قوله: ﴿ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴾. وفي حديث مسلم: تحديد التسبيح ٣٣ والحمد ٣٣ والتكبير ٣٣ وتمام المائة لا إله إلا الله وحده لا شريك له. له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير، وذلك كله دبر كل صلاة.

وعلى ذلك يكون التسبيح أعم منه ومن الصلاة، فالآية تشمل القسمين، فليصل المؤمن الصبح والظهر والعصر والمغرب والعشاء، وليصل النوافل التي هي وقت أدبار السجود وليصلّ بالليل، وليسبح بعد الصلوات. كل ذلك داخل بالآية، فكله تسبيح بالحمد، وبهذا جمع بين الأقوال كلها.

﴿ وَٱسْتَمِعْ ﴾ يا محمد لما أخبرك به من أهوال يوم القيامة، وفي ذلك تهويل وتعظيم لشأن المخبر به، وما هو ذلك الخبر؟ إنهم يخرجون من القبور ﴿ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ ﴾ وهو إسرافيل، أو جبرائيل، فيقال: أيتها العظام البالية، والأوصال المتقطعة، واللحوم المتمزقة، والشعور المتفرقة، إن الله أمركن أن تجتمعن لفصل القضاء. يقول الله: يوم يناد المناد ﴿ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴾ بحيث يصل نداؤه إلى الكل على السواء ونظيره في الدنيا أن الرزق والحياة والنور والنوم واليقظة، كل هذه تأتي إلى أهل الأرض جميعاً كأن منادياً يناديهم من قريب، ويأمرهم بالنوم والحياة وبالاستيقاظ وبالأكل وبالشبع وما أشبه ذلك، فهكذا يوم القيامة، لأن الله مع كل نسمة خلقها، فنداؤه قريب في الدنيا وفي الآخرة، وقوله: ﴿ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ ﴾ أي: النفخة الثانية، وهذا بدل من: ﴿ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ ﴾، وقوله: ﴿ بِٱلْحَقِّ ﴾ متعلق بـ﴿ ٱلصَّيْحَةَ ﴾، والمراد به البعث والجزاء، ﴿ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴾ من القبور. قال الله تعالى تلخيصاً لما تقدم كله من أول السورة إلى هذه الآية: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ ﴾ أي: نحيي في الدنيا ونميت عند انقضاء الأجل ﴿ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴾ في الآخرة ﴿ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ﴾ أي: يوم تتصدع عنهم فتخرج الموتى من صدوعها حال كونهم مسرعين ﴿ ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴾ هين، وقوله: ﴿ يَوْمَ ﴾ متعلق بقوله: ﴿ يَسِيرٌ ﴾، وقدم للاختصاص. ﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ فيك وفينا، وهذا تهديد لهم، ﴿ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ ﴾ بمسيطر، أي: ما أنت بمسلط عليهم، إنّما أنت داع وباعث، أو ما أنت بوالٍ عليهم تجبرهم على الإيمان، ﴿ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾، كقوله: ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴾[النازعات: ٤٥] إذ لا ينفع التذكير إلا فيه، انتهى التفسير اللفظي.

في هذه السورة ثلاث لطائف:

الأولى: في عجائب السماوات، وهو قوله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ ﴿٦﴾ ﴾.

الثانية: في عجائب الأرض في قوله تعالى: ﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ ﴾.

الثالثة: في قوله تعالى: ﴿ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ ﴾.

اللطيفة الأولى:عجائب السماوات

لقد أطنبت في هذا التفسير في السماوات وعجائبها وغرائبها وحكمها وبدائعها ونظمها في «البقرة»، وفي «آل عمران»، وفي «الأنعام»، وفي سور كثيرة فلترجع إليها.

اللطيفة الثانية:في عجائب الأرض والنبات

لقد جاء في سورة «الأنعام» و«الشعراء» وغيرها بدائع النبات ورسم الزهرة، وكيف كانت أنواع النبات التي تعد بالآلاف قد ظهر تنوعها في الزهرة وتقسيمها ناجم منها، وكذلك في كثير من السور، ولكن لا بد من أن آخذ بيدك الساعة، وأطوف معك في الحدائق والجنات، ذلك لأن السور السالفة قريباً لم نكثر فيها من الكلام على العجائب النباتية، فلتقم معي، ولتطف في حدائق الأرض، ولتنظر أفانين الزهر، وأعاجيب الثمر، وأصناف الشجر، والطرف الشائقة، والنعم الواردة من المقام الأقدس، والهدايا والتحف والمزايا، ولست أقف بك مع طائفة الجامدين الذين لا يقصدون إلا لذات الجسم التي لها حد محدود، ومقدار موقوت، بل أريد أن تكون من الذين قال الله فيهم: ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾[ق:٨]، وأن ترتقي عن الطوائف التي قال فيها: ﴿رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ﴾[ق:١١] فلتكن تلك رزقك، وليكن علمها نوراً لقلبك، فجسمك يتغذى بأثمارها، وروحك تحظى بحكمها، إن المزارع والأشجار كتاب كتبه الله بيده، خطه في الأرض ورسمه وهندسه وزوقه، ورفع الأستار عن بعض القلوب، وقال: يا عبادي انظروا جمالي الذي احتجب عنكم فهذه آثاره، وعلى مقدار علمكم به يكون نظركم لوجهي يوم القيامة، ألم أقل: ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ [الحديد:١٢]، ولا نور إلا ما اكتسبه الفكر، واقتبسه النظر من العوالم المشاهدة المسطورة، والمصورة المنمقة المشروحة، الشارحة للصدور.

إن الدراسة تكون لأربعة أشياء:

للكتب السماوية، وللمناظر الطبيعية، وللكتب الحكمية التي اقتنصتها من العوالم العقول البشرية، وللنفوس الإنسانية.

هذه هي الصحائف الأربعة التي يدرسها الإنسان، فكتاب الطبيعة كتابي، وكتاب نفوسكم كتابي، وكتاب الدين كتابي، وكتاب الفلسفة والحكمة إشراق من نوري على عبادي فهو كتابي، وما كتب الفلاسفة ولا كتب الوحي والديانات إلا مرشدات لبحثكم العلمي في العالم السماوي والأرضي وممهدات لكتاب النفس وكتاب الأفق، وكل ما قرأتموه في الطبيعة فإنه مخزون في صحائف قلوبكم ويكون نوراً مبيناً.

إن من نظر في العجائب النباتية، وفكر في الغرائب الحكمية، ازدادت بصيرته هدى، وعقله حكمة، وازداد أجنحة يطير بها إلى العلا، إن للملائكة أجنحة مثنى وثلاث ورباع يزيد في الخلق ما يشاء، تلك أجنحة القدرة والعلم، والعلم هو الأصل، فليزد الناس فكراً في النبات وغيره تزدد عقولهم عدداً كما ازداد الملائكة مدداً، إن النظر في النبات ازدياد أجنحة للطيران إلى عالم الأفلاك فوق السماك.

حديقة فيها ٢١ نوعاً من الشجر
وأفانين العبر مختلفة الثمر

النخل، والرمان، والنبق، والجوز، واللوز، والتين
والعنب، والأجاص، والمشمش، والخوخ، والأترج
والنارج، والليمون، والحبة الخضراء، والفستق، والسماق
والصنوبر، والبلوط، والعفص، والسرو، والإهليلج

(١) **التمر الذي هو ثمر النخل**: طويل الشكل، مدحرج الخلقة، مختلف الألوان، على نواه قشرة رقيقة، حريرية، لينة الملمس، صلبة النسج، وعلى هذه النواة شحمة ثخينة، عليها قشرة صلبة ملساء، وعلى ظهر النواة نقرة، وفي الجانب المقابل نقرة مستطيلة فيها حشو ليفي، وعلى رأس الثمرة من خارج قمعة، عليها شظيات متفرقة متشبثة بالتمرة، ومادة هذه التمرة قبل النضج عفصة، وبعد النضج حلوة لزجة، فهذه خمسة عشر وصفاً للتمرة.

(٢) **شجرة الرمان وثمرها**: ثمر الرمان: شكله مستدير، وخلقته كبيرة، عليه قشرة كثيفة ليفية ثخينة، مجوفة من الداخل، واسعة فيها خزائن مقسومة، فيها دعاص مقسمة، عليها حبوب مرصعة، أشكالها مخروطة، في جوف تلك الحبوب نواة خزفية، رخوة، في داخلها لبة دسمة، وفي خارج رأس الثمرة من خارج فتحة مستديرة، فيها غشاوة ليفية، وعليها شظيات ناتئة زبيرية، وحولها شرفات قائمة مخروطية.

(٣) **النبق وثمره**: ثمر النبق: مستدير، أملس، شحمته ثخينة، في جوفه نواة مستديرة، حسن اللون، خشن الملمس، في داخل النواة لبة دسمة.

(٤) **الجوز**: ثمر الجوز: أشكاله مستديرة، سفطية، عليها قشرة ليفية ثخينة، في داخلها قشرة أخرى خزفية صلبة مجوفة، فيها خزائن مقسومة، فيها لبة دسمة، عليها قشرة رقيقة، وبينها حجب، منخرقة أقسامها مهندمة، وإذا فصلت هذه الثمرة انفصلت بنصفين كالسفطين.

(٥) **اللوز**: ثمر اللوز: شكله مخروط، سفطي عليه قشرة ليفية، في داخلها قشرة خزفية صلبة، فيها ثقوب نافذة، فيها فتائل ليفية، في داخل هذه القشرة لبة دسمة، عليها قشرة رقيقة صلبة.

(٦) **التين**: ثمر ليس له نوى، عليه قشرة فحمية، وشكله مخروط صنوبري، وفي أسفله ثقبة مستديرة، فيها شظيات زبيرية، وفي جوف هذه الثمرة حبوب صغار رخوة، وطعم مادته قبل النضج لبن أبيض غليظ حاد محرق، وبعد النضج طعمه حلو.

(٧) **العنب**: ثمره مختلف الأشكال: مستدير ومستطيل ومدحرج ومخروط، ومختلف الألوان: أسود وأبيض وأحمر وأصفر وأغبر، عليها قشور رقيقة صلبة ملساء ملتزقة بشحمتها، وفي جوف شحمتها حبوب مختلفة الأشكال، زيتونية، فقاعية، مفردة ومزدوجة، وثلاثة وأربعة، خزفية وعظمية، ومنها صلبة، ومنها رخوة، في جوف تلك الحبوب لبة دسمة، ومادة شحمتها قبل النضج حامضة، وقبل ذلك عفصة، وبعد النضج حلوة.

(٨) **الأجاص** (٩) **والمشمش** (١٠) **والخوخ**: أشكال ثمارها مخروطة، أو صدفية، عليها قشور رقيقة ملتزقة بشحمتها وهي غليظة ثخينة، في داخلها نواة خزفية، أشكالها صدفية، داخلها ملساء، فيها لبة دسمة، وألوان هذه الثمار مختلفة.

(١١) **الأترج** (١٢) **والنارنج** (١٣) **والليمون**: أشكال ثمارها كروية، أو مستطيلة، أو مدحرجة، وعليها قشور لحمية غليظة، شحمتها حامضة، وفي داخلها حب صغار، على دعاص مرصعة شبه التلال، ما بين خللها لحمة، طعمها حامض، وألوان قشرها حمر وخضر وصفر، ومادتها قبل النضج عفصة.

(١٤) **الحبة الخضراء** (١٥) **الفستق** (١٦) **السماق** (١٧) **حب الصنوبر**: ثمارها ذات حبة صغيرة، وفي داخلها نواة خزفية، وفي جوفها لبة دسمة.

(١٨) **البلوط** (١٩) **العفص** (٢٠) **السرو** (٢١) **الإهليلج**: ثمار هذه الأشجار لا تنضج.

انتهى الكلام على هذه الحديقة وأشجارها ٢١ شجرة.

وهاك عشرين حكمة لتقيس عليها حكماً أخرى في الشجر والنبات:

(١) الحب: ننظر الحب فنراه مخلوقاً في أوعية تشبه الخرائط، وتلك الخرائط على رؤوسها أمثال الأسنة لتمنع الطير أن يأكلها لتحفظ للإنسان، فكأن الحبوب في حصون محصنة لتحفظ للإنسان. يرى الإنسان سنابل القمح تتمايل ذات اليمين وذات والشمال، ويرى تلك السفا كالأسنة فوقها، فالجاهل لا يدري، والحكيم يعرف نعمة الله، ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[الأعراف: ١٨٧].

(٢) الشجر وأصناف النبات: مخلوقات لا قدرة لها على الحركات كما للحيوان، فوقفت رابضة في أماكنها وأخذت ترضع من الأرض كما يرضع ولد الحيوان لبن أمه، وتجتذب الأغذية من الأرض، وتلك الأغذية تقسم على الورق والأغصان والأزهار والأثمار، كل يأخذ ما يناسبه.

(٣) جذور النبات: تمتد في الأرض كما تمتد الأطناب، فكما أن الخيام تمتد أطنابها من كل جانب لتثبيت تلك الخيام فلا تسقط ولا تميل، هكذا النبات عروقه منتشرة في الأرض، ممتدة إلى كل جانب لتمسكه وتقيمه، ولولا ذلك لم تثبت الأشجار العالية، لا سيما في الرياح العاصفة، إن حكمة الله سبقت في النبات فامتدت عروقه إلى الجهات كلها ليحفظ الشجر عند العواصف، هكذا صنع الناس الخيام وجعلوا أطنابها ممتدة من سائر الجهات تقليداً لما رأوا في الأشجار.

(٤) نسج الورق: انظر إلى الورقة الواحدة كيف ترى فيها ما يشبه العروق مبثوثة، فمنها الغلاظ الممتدة في طولها وعرضها، ومنها الدقاق المتخللة في تلك الغلاظ، المنسوجة نسجاً دقيقاً عجيباً، لو كان البشر هم الصانعون له لم يفرغوا من ورقة واحدة في طول الأزمان، وبالنظر إليها يرى أنها كجسم الإنسان المنبثة فيه العروق الغلاظ، ثم الدقاق، ثم الشعرية الدقيقة جداً، ثم إن العروق الغليظة تمسك الورقة بصلابتها وقوتها، انظر هذا المقام موضحاً بالأشكال في سورة «يس» عند قوله: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا ﴾[يس: ٣٦] الخ.

(٥) العجم والنوى: اعلم أن الله جعلنا مغرمين بكنز الذهب والفضة والأحجار الثمينة، فترانا نخزنها ونصونها، وهذا معروف عند العامة والخاصة، فأما العامة فإنهم يموتون ولا يدرون حكمة غرامنا بتلك الجواهر، وأما الخاصة فإنهم يقولون: لننظر إلى ما كنزه الله أمامنا، إن الله حكيم ولا يخزن شيئاً إلا لحكمة، فما الحكمة إذن في وضع النواة في باطن التمرة، والعجم في باطن الفاكهة؟ إننا نكنز الأشياء ذات القيمة، ولكن الله يكنز ما لا قيمة له في نظرنا، كنز النواة، والنواة لا ثمن لها، وربما طحناها وجعلناها علفاً للإبل، وبعد التفكر العظيم يقولون: عجباً! إن النواة أفضل ألف مرة من الماس والياقوت والمرجان، إن النواة تستحق أن تخزن في أعز خزائننا في خرائط الجواهر الثمينة، هذا هو السبب في أن الله خزنها، إن النواة أصل النخلة كما أن الحبة أصل نبات القمح، فالله خزن النواة وحصنها، وجعل جرم الثمرة غطاء لها لأنها أصل النخلة وهكذا بقية النوى، فإن الله حافظ عليها وأكثر منها، فذلك للمحافظة على حياتنا، أما إذا وضعنا الدرة اليتيمة في حرز فليس لها منفعة إلا في التحلي بها، والنواة منفعتها حياتنا وبقاؤنا، وما به البقاء خير مما به التحلي، إذ لا حلية إلا للأحياء، فجلّ الله إذ عرفنا قيمة هذه المخازن والخرائط والصناديق المقفلة.

(٦) الصلابة في النواة: إن صلابتها ممسكة لرخاوة الثمار ولرقتها، فلو أن النواة لم تكن صلبة لسرى الفساد إليها قبل إدراكها.

(٧) قشرة الحب والنوى: خلق لكل منها في ظاهره قشرة، فإذا سقطا في التراب أو غيره لم يفسدا سريعاً، وإذا ادخرا لوقت الزراعة بقيا محفوظين، فصار قشرهما الخارج حافظاً لما في باطنهما، فالذي في باطنهما كالشيء النفيس الذي له صندوق يحفظه، ولولا تلك القشرة على النواة والحبة لأسرع إليهما العطب ولم يصلحا لزرعهما مرة أخرى، وكم من امرئ يأكل القمح والذرة وهو لا يدري لم كانت هذه الصلابة، ولو علم الحقيقة لأدرك أن تلك الصلابة عليها مدار بقائنا وحياتنا، وأن هذه القشرة أشرف من كل ما يحفظ أجمل الجواهر، فباطن الحبة محفوظ أولاً بغلافها وبسفائها ثم بصلابتها، وباطن التمرة محفوظ أولاً بالكفري وهو وعاء الطلع، ثم بجرم التمرة، ثم بالصلابة.

(٨) نبات الحب والنوى متى وضع كل منهما في الأرض وسقي خرج منه عرق في الثرى وغصن في الهواء، وكلما ازداد غصناً ازداد عرقاً تتقوى به أصل الشجرة، وينصرف الغذاء منه إلى الغصن فتكون الفروع محفوظة عن السقوط بالهواء والانكسار، ويصعد الماء في جذرها إلى أعالي الشجرة.

(٩) تقسيم الغذاء على أجزاء الشجر والزرع تقسيماً عادلاً كما تقدم.

(١٠) خروج الأوراق قبل الإثمار: انظر إلى الثمرة تجدها ضعيفة عند خروجها تستضر بحر الشمس وبرد الهواء، فخرجت الأوراق قبلها لصيانتها، كما خلق النبات والحيوان قبل الإنسان لحياته ومنفعته.

(١١) نظام الأوراق: إن الأوراق تكون ساترة للثمرة لحفظها من الحر والبرد، ولكن الثمرة لا تزال في احتياج إلى الحرارة الشمسية لتنضجها، لذلك ترى بين الأوراق مداخل وفروجاً في خللها لدخول الشمس والهواء التي لا غنى للثمرة عنها، وكما جعلت الأهداب على العين مانعة للغبار،

مدخلة للضياء، هكذا هنا منعت الأوراق الحر والبرد، وأدخلت ما يلزم من الهواء والحرارة، هذا هو العلم الذي يرقي العقول. هذا هو الذي يقول الله فيه: ﴿ قٓ ﴾ على ما فهمت من معناها. هذا هو الذي قال الله فيه: ﴿ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾[ق: ٤٥]، هذه هي الحكمة الشريفة، والآيات المنيفة والعلوم العالية، والجواهر الغالية، ألا تعجب لكنوز مكشوفة مستورة، وجواهر محجوبة منظورة، وأسرار ظاهرة خافية، وبدائع غالية رخيصة، انظر كيف يجلس المسلم تحت الأشجار والأثمار، والريح تعبث بالغصون والأوراق، ولا يدري لم هذه الأوراق. انظر لمسلم الزمان المستقبل كيف يفهم ما حجبه الله عن المسلم القديم، يقرأ سطور الكائنات في خلال الأوراق، ويعجب من شمس تتخللها، وهواء يداخلها، ليعطي الثمرة حظها، ويقرأ المسلم في المستقبل: ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴾[الرعد: ٨]. أما أكثر المسلمين والفقهاء فيما مضى، فقد كانوا عن الفهم محجوبين، العلم أمامهم مكشوف ولكنهم لا يفقهونه، اقرأ قول الله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾[محمد: ٢٤] فإذا أقفلت القلوب لم تفهم الحكم التي سمعتها في حب الحصيد، ولا في النخل الباسقات التي لها طلع نضيد.

(١٢) الثمرة في غلافها: منذ أيام كنت ماراً أمام «كوبري الملك الصالح» وأمامي نخلة قد انشق كفراها، أي: غلاف طلعها، وانشقاقه كان من الجهة الغربية حيث تصيبه الشمس لأنه مكشوف من جهتها، أما الذي في جهة الشرق فلم ينشق، ثم إني عجبت كيف كان انشقاقه تدريجياً شيئاً فشيئاً، فأخذت أفكر في ذلك العجب، وأن الذي برز إلى الشمس هو الذي قوي على تحمل الجو، وأن الذي لا يزال مستوراً هو الذي لم يقو، وكلما اشتد مستور ظهر للشمس والريح، ومنذ يومين مررت فوجدت جميع طلع هذا الغلاف قد ظهر، فأما غيره فإنه لا يزال بحاله لم يشقق، لبعده عن ضوء الشمس.

(١٣) موازنة بين الثمار وبين الأجنة: كلاهما ما دام لا يقوى على الجو يبقى في مكمنه، فمتى قوي خرج منه.

(١٤) اعتبر ذلك في أمم الأرض من حيث الدين والعلم، يعلم الناس الدين ويحجبون عن الحكمة المخبوءة فيه، كما ترى في أمة الإسلام يقرؤون الأحكام الشرعية، فإذا قويت العقول والفطن أطلعهم الله على بدائع صنعته، فهذا الذي نقوله الآن لا يفهمه أكثر الناس، لكن لا يذوق الحكمة ويحس بها في نفسه إلا من أصبحوا أشبه بالجنين وقد نزل من الرحم، وبالثمرات وقد خرجت من الأكمام، فأما من عقله لم يزل ناقصاً فهو أشبه بالتمر في الأكمام، فليلزمه شيوخه بالعبادات، وليمنعوه من هذه الآيات.

(١٥) حب الرمان المرصع المتقدم ذكره: ترى في داخل الرمان كما تقدم شحماً مركوماً غليظ الأسفل رقيق الأعلى كأمثال التلال في ألوانه، أو كالبناء الذي وسع أسفله للاستقرار عليه، ورقق أعلاه حتى صار مرصوفاً رصفاً كأنه منضد بالأيدي، ولا جرم أن الأيدي تعجز عن ذلك التداخل الذي نظم حبها في الشحم المذكور، وترى هناك أقساماً كل قسم منها مقسوم وبلطائف رقيقة منسوجة أعجب نسج وألطفه لتحجب حبها حتى لا يلتقي بعضه ببعض فيفسد، ولا يلحق البلوغ والنهاية.

(١٦) غذاء الحب في الرمان: لو أن الحب كان هو الحشو للرمان لا سواه ولم تكن هناك حواجز فمن أين يستمد الحب الغذاء؟ فلذلك جعل ذلك الشحم خلاله ليمده بالغذاء، فلذلك ترى أصول الحب مركوزة فيه، لماذا؟ ليمدها الشحم بالغذاء، وهنالك عروق رقاق توصل للحب غذاءه، وإلى حبة حبة غذاءها.

(١٧) في حب الرمان أيضاً الحلاوة في المرارة: ترى الحب حلواً وهو مغروس في أصول مرة شديدة المرارة قابضة، وهناك لفائف لطيفة على الحب لتمسكه فلا يضطرب وتحفظه، وحفظ جميع ذلك في قشر غليظ واق تمام الوقاية.

(١٨) عود الرمانة: قد جعل متيناً قوياً حتى تستكمل خلقها فلا تسقط قبل بلوغها الغاية.

(١٩) البطيخ واليقطين والفقوس: عود هذه النبات محتاج إلى الماء أشد الاحتياج، لأنه على الدوام يجتذب ماءً كثيراً، ولذلك نرى الفلاحين في ضواحي مصر يسقون تلك النباتات كل يوم مرة، لأنها تجتذب ماءً كثيراً لتملأ ثمرها العظيم جداً، فترى البطيخة مثلاً كبيرة كالجرة العظيمة، وربما كان في الشجرة الواحدة كثير، فكان العود دائماً مشبع بالماء ليوصله إلى ثمره، فكان أشبه بالقناة الرطبة، فلن يستطيع أن يكون قائماً، لذلك انبسط على الأرض، وترك ثمره على الأرض والأرض تحمله، لأن هذا العود الطري اللين لا يقدر على حمل نفسه فضلاً عن حمل هذا الثمر العظيم.

(٢٠) البطيخ وما معه: لا تخلق إلا عند الحاجة إليها، وفي الأزمنة المناسبة، فلا يخلق في الشتاء لأنه بالصيف أليق.

فهذه عشرون حكمة ذكرتها لك لتدرس رياض الجنات في الدنيا، وتنال رياض الجنات بدراسة هذه الرياض في الآخرة، والله هو الولي الحميد.

شذرات علمية في النبات

(١) نبات يفيد ويستفيد: قال اللورد أفبري في كتابه «محاسن الطبيعة»: هناك أنواع الفطر ـ بضم الفاء والطاء ـ والكمأة التي تنمو بين الأشجار، وقد تكون على الجذوع أيضاً، وقد ترى القسم الظاهر من جذور الشجرة مغطى بطبقة من هذه النباتات المجهولة الفصائل حتى الآن، وهذا النبات قد كان يظن النباتيون أنه يضر الشجر ضرراً كبيراً، وقد عرفوا أخيراً أنه يمتص الغذاء بالجذور ويصير عصيراً في تلك النباتات، ويتسرب في عروق تلك الشجرة ويزيدها نماء.

(٢) وصف الغابات في البلاد الحارة: قال اللورد المذكور: عجب عجب للغابات في المناطق الحارة، ترى الشجرة ملتفة بالشجرة متعانقة الأغصان، محبوكة منسوجة نسيج الثياب سدى ولحمة، فكأنها بساط عظيم، ترفع بصرك فترى شبابيك من الأغصان المشتبكة المختلطة المتدخلة المتعانقة، والأزهار تقبل الأزهار، والأثمار تحيط بالأثمار، والأوراق متلاصقات، وربما وقفت بين جذوع عاريات لا جمال فيها، ثم ترفع بصرك فترى نفسك تحت قبة في جو السماء خضراء بهجة تسر الناظرين، وقد حجبت نور الشمس وقت الظهيرة بذلك السقف المرفوع الزبرجدي البهيج المنسوج البديع.

(٣) كيف خربت أقطار واسعة من سوريا وفلسطين وآسيا الصغرى وشمالي أفريقية، يقول اللورد المذكور: إن تلك الأقطار كانت أكثر سكاناً، وأعظم مدناً، وأنعم عيشاً، وبلادها تدر لبناً وعسلاً، ثم تحولت إلى صحاري قاحلة، وأرض جرداء خالية، قال: إن الأمم انقرضت لما انقرضت أشجارها وغاباتها، ولو أنهم حرصوا على غاباتهم لكانوا أشد حرصاً على دولتهم، يريد أن من أولع بالتخريب صار ذلك ديدنه فيؤول أمره إلى البوار. انتهى الكلام على اللطيفة الثانية.

اللطيفة الثالثة: في قوله تعالى:

﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾

لقد أسلفت في هذا التفسير في مواطن كثيرة آراء القدماء والمحدثين في عالم الملائكة، وعالم الجن وسأذكر هنا مختصراً موجزاً منه، فأقول:

(١) لقد ترى أن الناس يختلفون في أشكالهم وألوانهم وأخلاقهم، حتى إن كل امرئ يكاد ينطق بما استكن في نفسه، وهيئة الإنسان وسيماه تدل على ما في نفسه من المحاسن والمساوئ كما شرحه العلامة ابن خلدون في المقدمة.

(٢) إن الأمم اليوم ومنها أمتنا المصرية قد عرفت أن خطوط إبهام اليد في المرء لا تشتبه فيها بسواه، فلذلك جعلوه علامة على صاحبها لا تختلط بسواه.

(٣) قد رأى الناس اليوم الآلة الحاكية وهي «الفونوغراف»، فهو كصدى الصوت يحكي ما قيل بلا خلل. وقد أمكن الناس اليوم أن يحفظوا الأصوات في أسطوانة ويديرونها فتنطق بما نطق به الإنسان، ويتكرر ذلك سنين وسنين، قد زاد الإنسان على ذلك، فترى علماء النفس في بلاد أمريكا عرفوا علماً يسمى علم الأثر، وملخصه كما تقدم موضحاً في سورة «النساء» أن بعض النفوس إذا غابت بتنويم مغناطيسي، ثم أعطي لها أثر إنسان أو حيوان أو جماد أو نحوه أخذت تلك النفس تقص ما جرى لصاحب الأثر، حتى إن أحد هؤلاء القادرين على ذلك المتعودين عليه إذا دخل في حجرة ذكر كل ما مر بها من خير وشر، ووصف هيئات الذين عاشوا فيها وحسناتهم وسيئاتهم.

(٤) قد علمت أن علم الأرواح انتشر، ولقد قدمت لك آراء آلاف من العلماء قرروا هذه الحقائق، ولقد مضى في هذا التفسير أن اللورد «أوليفر لودج» قال في محفل عام أيام الحرب الكبرى: إن هناك عوالم أعقل منا تحيط بنا وتساعدنا، والله نفسه يساعدنا. كل ذلك بالتجربة العلمية.

(٥) أفلست ترى معي أن العلم الحديث كأنه إنّما جاء ليعرف الناس دين الإسلام، وإلا فكيف يقول الله تعالى: إن هنا ملكين أحدهما على اليمين والآخر على الشمال، ويقول: إن الإنسان له قرين من الملائكة وقرين من الجن، ويقول: لكل امرئ ملك يسوقه وملك يشهد عليه.

هذه أمور سمعية ليس للعقل فيها مدخل، ولكن العلم الحديث أثبت هذا كله، أثبت ما هو أعجب! أثبت أن الجماد الذي يحيط بنا يرسم فيه ما يجول بخواطرنا فضلاً عما نعمل أو نتكلم به، حتى قال أحد علماء النفس في أمريكا كما تقدم في هذا التفسير: سيأتي قوم بعد ألفي سنة أو أكثر وبهذا العلم يمسكون بحجر مما كان حولنا، ويقصون حسناتنا وسيئاتنا وآراءنا وأخلاقنا، وما كنا نخشى أن نقوله بألسنتنا.

يا عجباً كل العجب! فإذا كان الجماد أصبح يخبرنا ويخبر غيرنا بما عملنا، فكيف لا تعرف ذلك الأرواح المجردة من المادة؟ المادة أصبحت مخزناً لعلومنا، فكيف بالأرواح المجردة التي أثبتها العلم الحديث.

اللهم إن دين الإسلام لا يظهر إلا في المستقبل، أما القرون الماضية فلم يكن بعد الصدر الأول من العلم إلا القشور، اللهم إنك أنت أنزلت الإسلام، وهاأنت ذا سبحانك تفهمنا قولك: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾[فصلت: ٥٣]، فدين الإسلام الآن يظهر في الأنفس ويظهر في الآفاق، وما نحن فيه الآن ظهوره في الأنفس.

ففز بعلم تكن حيًّا به أبداً ... فالناس موتى وأهل العلم أحياء

اللطائف العامة في هذه السورة

اللطيفة الأولى: في سر «ا ل م» في قوله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ ﴾.

اللطيفة الثانية: في أسرار قوله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ ﴾[الآية: ٦] الخ. وفي هذه اللطيفة مبحثان: المبحث الأول: في عجائب العين اختصت بنظر السماء. المبحث الثاني: في عجائب نفس السماء، وذلك بفهم آلة النظر والجسم المنظور.

اللطيفة الثالثة: في قوله تعالى: ﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ ﴾.

اللطيفة الرابعة: في قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾ ﴾.

اللطيفة الأولى: في سر «ا ل م» في قوله تعالى:

﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ ﴾.

ما كدت أكتب هذا العنوان حتى حضر صديقي العلامة الذي اعتاد محادثتي في هذا التفسير، فقال: إن غرامك بالعلويات والسفليات من الكواكب والزروع والشجر والجبل جعلك مغرماً بالكلام فيها، حتى إن أكثر هذا التفسير راجع إلى هذه المعاني، فهلا أقللت من هذه المعاني في نحو هذه الآيات؟ فقلت: يا صاح، قد تعجلت ولم تستطع صبراً على ما أريد أن أقوله، إن كتابي في هذه الليلة إحدى ليالي شهر شعبان سنة ١٣٥٠ هجرية الموافقة ليلة الخميس ٣١ شهر ديسمبر سنة ١٩٣١م ترجع إلى «ا ل م» في قوله: ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ ﴾[ق: ٦]. فقال: وما لهذه في هذا المقام؟ فقلت: يا صاح، إن هذه بينها وبين «ا ل م» في أول سورة «البقرة» صلة. فقال: وأي صلة بين «البقرة» وسورة «ق» وما فيها من الآيات؟ فقلت: صلة وثيقة عجيبة، إن هنا سراً كان مخبوءاً والله أبرزه اليوم في هذا التفسير، وحرام علي أن أكتم عن الأمم الإسلامية ما وقع في صدري في هذا المقام من عجائب القرآن. فقال: إنك تصف أمراً عظيماً فما هو؟ قلت: «ا ل م» من مفاتيح علوم القرآن. فقال: أرجو الإيضاح. فقلت: ابتدأ الله القرآن بـ «الفاتحة»، وابتدأ «الفاتحة» بالبسملة، فالبسملة أشبه بمقدمة لـ «الفاتحة»، وبراعة استهلال، و«الفاتحة» كذلك بالنسبة للقرآن، ولم يبق بعد براعة الاستهلال أو المقدمة وهي «الفاتحة»

التي هي أم الكتاب إلا أن يبتدئ في تفصيل ذلك المجمل، فكان الابتداء برمز هو «ا ل م» وهي من الحروف التي في أول السور، وقد تقدم الكلام عليها في كل سورة على حدتها، وأعم الكلام فيها ما جاء في أول سورة «آل عمران»، فقد ذكرت هناك آراء طوائف المتقدمين الثلاثة، وهي ما يذكره أمثال ابن عباس رضي الله عنهما، وأمثال ما يذكره بعض الصحابة والتابعين من مناسبات هذه الحروف من حيث أوصافها وأحوالها وانتظام أوضاعها ـ راجعه هناك ـ ومن حيث مناسباتها للعالم المحيط بنا إلى آخر ما هنالك، ومثل ما تبدى لنا في هذا الزمان من العجائب والبدائع، ومثل أن «ا ل م» في سورة «آل عمران» تذكر مسلمي زماننا بما قصه الله من حال اليهود في زمن النبوة، وأنهم باتكالهم على شفاعة آبائهم وتخفيف العذاب عنهم يوم القيامة، أو تحديد أيامه في جهنم قد أخلوا بشرائط الدين، فذلوا وزال ملكهم، واستولى المسلمون على ما يملكون. فإذا عرف المسلمون أن «ا ل م» في أول «آل عمران» قد أشارت بطرف خفي إلى هذه المعاني، ورأوا أن ذلك إيقاظ من الله لهم في زماننا هذا يدعوهم ذلك إلى الجد والتشمير في العمل، وأن من ظن أن الشفاعة التي أجمع عليها المسلمون يعقبها الكسل والتواكل وترك العمل كما كان اليهود في زمن النبوة فهو مغرور، وأن الأمة الإسلامية التي تكون هذه حالها لا محالة آيلة إلى الاضمحلال والزوال.

أقول: إذا عرف المسلمون ذلك جدوا حالاً في العلم والعمل وعدم التواكل كما هو الحاصل فعلاً الآن، وهذه المعاني التي ذكرتها في سورة «آل عمران» هي الموافقة لقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾[محمد: ٢٤] ولا جرم أن «ا ل م» من القرآن، ولقد تدبرناها فألفيناها ناطقة بهذه المعاني، وهذه المعاني سائغة، وفيها من البلاغة ما لا حد له، والمعنى المأخوذ منها عظيم الأثر جليل النفع. فقال صاحبي: نعم هذا تقدم ولكن نحن الآن في سورة «ق»، و«ا ل م» فيها في وسطها لا في أولها. قلت: أيها الصديق لا تعجل، إن المفتاح الذي جاء بعد «الفاتحة» قد فتح به أولاً خزائن علوم الصبر على مكاره القتال، وعدم الفرار منه، وعن الشهوات حتى يقدر الجندي على المصابرة في الحرب، فهما صبران: صبر على اصطلاء نار الحرب، وصبر عن شهوات النفس، وهذان لا يتم نصر إلا بهما، فالأول في آية: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ﴾[البقرة: ٢٤٣]، والثاني في آية: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ﴾[البقرة: ٢٤٦] فقد جاء في هذه الآيات مسألة شرب الماء، وأن من شرب منه قليلاً أمكنه المصابرة في القتال، ومن شرب كثيراً كر راجعاً مهزوماً فالقليل من هؤلاء الصابرون فازوا في الحرب على الكثير من الأعداء الشهوانيين الكافرين، فهاتان خزانتان فتحتا بهذا المفتاح في سورة «البقرة»: خزانة الصبر على مكاره نفس الحرب، وعلى مكاره ترك الشهوة، أي: الشجاعة والعفة، وباجتماعهما مع العلم يكون كمال الإنسان، والخزانة الثالثة جاء مفتاحها «ا ل م» في سورة «آل عمران» وهي ترك الأماني والتعليل بالأباطيل كما ذكرناه، بل يجب تجريد الشفاعة من المعاني المناقضة للنشاط والإقدام والمثابرة، وإلا كان هذا الفهم مجتثاً للدين من أساسه، وكم من خزائن في القرآن فتحت بهذا المفتاح، مثل قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَـٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾[الأعراف: ١٠٠]

وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوٓاْ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ۝ وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [إبراهيم: ٤٤-٤٥]، فهاهنا في هاتين الآيتين جاء ذكر «ا ل م» وجعل ما بعدها مذكراً لمن فوق الأرض بأحوال من هم تحتها في قبورهم، وأن الله قد ضرب الأمثال للأحياء فإذا لم يتعظوا أصابهم الله بذنوب الأموات الذين سكنوا ديارهم، وهذا بعينه هو الذي حصل في ديار الإسلام.

يا سبحان الله، ويا عجباً يا ربنا، ألم يسكن المسلمون أيام الدولة الأموية والعباسية ديار أمم الروم والفرس، ألم يصب الله هذه الممالك بعدوى الفرس والروم، فابتدأ معاوية رضي الله عنه بتقليد الروم في أبهة الملك الظاهري كما قدمناه، واتسع ذلك النطاق فكانت الدول الإسلامية شديدة الإسراف واتبعوا سنن من قبلهم، أليس هذا بعينه قوله تعالى: ﴿أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [الأعراف: ١٠٠]، وقوله تعالى: ﴿وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ﴾ [إبراهيم: ٤٥] الخ.

ولا جرم أن المسلمين السابقين واللاحقين تبين لهم كيف فعل الله بدولتي فارس والروم اللتين حل المسلمون بديارهم وسكنوها ورأوها، فلم يعتبروا، فحل بهم ما حل بمن قبلهم، لأن الله بالمرصاد وعدل وحكيم. اقرأ هذا المقام في سورة «الأحقاف عند الآية ٢٠»: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا﴾، ثم اقرأ تفسير سورة «القتال» و«الفتح»، ففي غضون ذلك ترى هذه العجائب من تاريخ الإسلام. فإنك ترى أن الله طبع على قلوب هذه الأمم، بحيث ترى الأسلوب في النظام واحداً في بغداد ودمشق وقرطبة ومصر قديماً، كل ذلك يرجع للمفتاح الذي في أول سورة «البقرة» الذي ذكره الله بعد «الفاتحة».

هذه هي الخزانة الرابعة من العلم التي مفتاحها «ا ل م»، ولنتجاوز ذكر الخزائن الأخرى الذي يفتحها هذا المفتاح، لأنك أيها الذكي يسهل عليك فتحها بعد ما اقتصرنا عليه مما بيناه، ولنذكر الخزائن التي في هذه السورة في هذه الآية، وهي خزائن علوم السماوات والأرض، إذ يلفت الله نظرنا نحن المسلمين إلى آيات الكواكب والأقمار والشموس والمجرات والسدم، فهذا المفتاح الذي فتحت به خزائن العلوم في سور كثيرة جيء به هنا لفتح العلوم. فقال: إن هذه العلوم مفتحة الأبواب، وقد فصلت في هذا التفسير كثيراً كما قلته في أول سؤالي. فقلت: نعم، ولكنها لم تفتح خزائنها إلا في هذا الزمان، ولما فتحت عرفنا بعض أسرار «ا ل م» التي جاءت في أوائل السور، وهاهي هنا بها فتحت تلك العلوم.

فقال: إن التماس هذه المعاني من الحروف فيه تساهل، وهل سبقك بهذه المعاني أحد؟ أوَليس هذا يعد تفسيراً بالرأي؟ ثم إن تكرار الكلام على عجائب السماوات والأرض يشعر المسلمين بأن المفسر يجب عليه أن يعرف علوم الفلك والطبيعة وغيرها من علوم عصرنا ولم يقل به أحد، ألا ترى أن صاحب الإتقان ذكر شروط المفسر وحصرها في ١٥ علماً وهي: (١) اللغة. (٢) والنحو. (٣) والصرف. (٤) والاشتقاق كاشتقاق المسيح هل هو من السياحة، أو من المسح، والمعنى يختلف تبعاً للاشتقاق. (٥) والمعاني. (٦) والبيان. (٧) والبديع. (٨) وعلم القراءات. (٩) وأصول الدين.

(١٠) وأصول الفقه. (١١) وأسباب النزول والقصص. (١٢) والناسخ والمنسوخ. (١٣) والفقه. (١٤) والأحاديث المبينة لتفسير المجمل والمبهم. (١٥) وعلم الموهبة، وهو علم يورثه الله تعالى لمن عمل بما علم الخ.

قال: ثم قال: فهذه هي العلوم التي أوجبها العلماء على المفسر. فلما أتم سؤاله قلت له: أما قولك: إن هذه المعاني لم يسبقني بها أحد، وإني فسرت بالرأي، وإن العلوم الكونية من العلوم التي تشترط في المفسر فجوابه أن أقول:

اعلم أن فعل العاقل يكون مشابهاً لقوله، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴾[الأحزاب: ٧٠-٧١]، فمن أصلح قوله صلح فعله، وبين أدب النفس وأدب الدرس مناسبة، والله الذي ليس كمثله شيء قال وفعل، ونحن لم نعرف من قوله إلا الوحي، وفعله هي هذه العجائب في السماوات والأرض، نراه أبدع المجرات والسدم والشموس والأرضين، فأولاً خلق الأثير، ثم من الأثير خلق المجرات والسدم، ومن هاتين أخرج الشموس، ومنها أبدع السيارات والأرضين، ومن هذه أبدع الأشجار والزروع، وعلى هذه نثر الأزهار والأثمار، فكل عالم من هذه العوالم زهر لما قبله، فالزهر للشجر، والشجر زهر الأرض، والأرض والكواكب أزهار الشمس، والشموس أزهار المجرات، والمجرات أزهار الأثير، والأثير صنع الله بلا مادة.

هذا كله في عوالم المادة التي منها الإنسان الذي هو من زهر الأرض، فهذا الإنسان أيضاً له زهر وزهره هي الحكم التي تلقى على قلبه، وقد اختص به دون سواه من العوالم، إن عوالم الحيوان كذوات الفقرات من الطير والسمك، وذوات الأربع كالحشرات، كل هذه زهرات في الأرض ولكن الإنسان أرقى، إن كل حيوان فيها يعيش بغريزته، والغريزة منحة من الله لا نصب في تحصيلها، ولكن الله يريد عالماً أرقى من ذلك العالم، يجب أن يتعلم الاستقلال في عمله ورأيه، وذلك بوقوعه بين متضادين، وهما الخير والشر، فيربي ملكته ويحكم بعقله ولا يتكل على الغريزة، لأن الله يريد عقولاً مدبرة لها استقلال، وهذه العقول لن يملكها إلا الإنسان، فهو يربى ليتعلم الاستقلال، والاستقلال لا يكون إلا على هذا المنوال، نصب وجد في الاختيار والأعمال، وإصدار أحكاماً فيما تشابه من الأمور خيرها وشرها، ومتى كملت تلك العقول عرجت إلى ملأ أعلى وإلا بقيت في العوالم المنحطة، فهذه العقول الإنسانية لها زهر أيضاً، وهي الحكم التي يلقيها الله على القلوب، وهي الشرط الخامس عشر الذي ذكرته أنت من شروط المفسر، وقد جاء في الصفحة ١٨١ في نفس كتاب «الإتقان» بعد ما ذكرته أنت من شروط المفسر ما نصه: علم الموهبة علم يورثه الله تعالى لمن عمل بما علم. وإليه الإشارة بحديث: «من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم».

قال ابن أبي الدنيا: وعلوم القرآن وما يستنبط منه بحر لا ساحل له. قال: فهذه العلوم التي هي كالآلة للمفسر لا يكون مفسراً إلا بها، فمن فسر بدونها كان مفسراً بالرأي المنهي عنه، وإذا فسر مع حصولها، لم يكن مفسراً بالرأي المنهي عنه. قال: والصحابة والتابعون كان عندهم علوم الدين بالطبع لا بالاكتساب واستفادوا العلوم الأخرى من النبي صلى الله عليه وسلم. انتهى.

فانظر إلى قوله: علوم القرآن وما يستنبط منه بحر لا ساحل له. أيها الأخ، نحن جئنا في زمان فيه وجدنا أوائلنا قد محصوا هذه العلوم تمحيصاً وسهلوا دراستها لنا، فهذه القرون الطويلة بعد النبوة لم تدع قولاً لقائل، ومهدت الطرق لنا، وسهلت السبل لنا، وأصبحنا حين تقرأ القرآن نجد أمامنا الأبواب مفتحة في كتب أوائلنا، فنجدهم قد استوفوا لنا تلك الشرائط وأكملوها فلا نصب اليوم في تحصيلها، إنّما النصب في تحصيل العلوم الأخرى التي أشاروا لها بالموهبة والتي قالوا: إن علوم القرآن وما يستنبط منه بحر لا ساحل له.

فهذا الذي نقوله نحن من أن «ا ل م» في أول «البقرة» مفتاح، وهذا المفتاح فتحت به خزائن وخزائن، ومنها خزائن للعلوم الكونية في هذه السورة وفي غيرها، فالعلوم العصرية تعين على علم الموهبة المذكور.

إذن ثبت أن كلام المتقدمين دخلت فيه هذه العلوم من حيث إنها معينة على تلك الموهبة التي ذكروها، فأما التفسير بالرأي والهوى فمثل تفسير الروافض: ﴿ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴾[الرحمن: ١٩] إنهما علي وفاطمة، ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴾[الرحمن: ٢٢] يعني الحسن والحسين، فأما نحن فالحمد لله قد راعينا هذه الشروط الخمسة عشر بفضل آبائنا العظماء، ثم وجدنا أن أمتنا الإسلامية قد نامت نوماً عميقاً وتركت علوماً وعلوماً، وألفينا هذا القرآن منسياً مجهولاً، مقروءاً لفظاً، متروكاً معنى، وكل طائفة من طوائف المسلمين نامت عند أقوال شيوخها، ثم تركت حبل الأمور على غاربها فلم نجد بداً من إيقاظها وبعث همم أبنائها، ونحن إذا قلنا إن هذه الحروف التي في أول السورة قد أشارت إلى هذه المعاني التي أسلفناها فقد قلناه ونحن مطمئنون لما نقول، ألا ترى رعاك الله أن هذه العلوم التي قلنا إن الحروف تشير لها كلها فروض كفايات، إذن استخراج المعاني على هذا المنوال لم يكن موجباً بدعة، ولا أمراً منافياً للدين، بل هو من واجباته، وفروض الكفايات نام عنها المسلمون قروناً وقروناً وناموا نوماً عميقاً.

فهذه الحروف في أوائل السور يقرؤها المسلمون ويكتفون بقولهم: الله أعلم بمراده، مع أن الله قال: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾[محمد: ٢٤]، فهذه من القرآن وقد تدبرها آباؤنا فقالوا ما فتح عليهم بحسب ما ينفع زمانهم، ونحن تدبرناها فألفيناها مفاتيح لهذه العلوم التي في زماننا ولغيرها، وإلا فلماذا نرى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ ﴾[النحل: ٤٨]، و﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾[البقرة: ٢٤٣] الخ، كلها تحث على علوم نحن أجهل الناس بها ولا يعرفها إلا الفرنجة، فما هذا التوبيخ في القرآن على الترك والتقريع.

نرى علماء أوروبا يدرسون الأجيال الغابرة والأجيال الحاضرة، ويستخرجون نتائجها لينتفعوا بها في حياتهم، أفليس هذا نفسه هو قوله تعالى فيما قدمنا: ﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّأُوْلِى ٱلنُّهَىٰ ﴾[طه: ١٢٨]، وهو نفس قوله تعالى أيضاً: ﴿ وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ﴾[إبراهيم: ٤٥]، أليس هذا حضاً على دراسة آثار قدماء المصريين والفرس والروم وسبأ وجميع الأمم التي سكنا بلادها كما ندرس جميع النجوم

والزروع، أوَليست هذه هي العلوم التي جهلها المسلمون جهلاً فاضحاً فصاروا هزءاً بين الأمم وأذلاء وأي ذل أشد من هذا الذل! نعيش ويدرسنا ويدرس آباءنا الفرنجة، ونحن نعيش ولا ندرس أنفسنا، ولا ندرس آباءنا إلا قليلاً، فضلاً عن الأمم التي سكنا ديارها، فلا نستخرج منها نتائج تنفعنا لنحترس مما وقعوا فيه. إن ما كتبته في هذا التفسير من معاني هذه الحروف لا أزال أزداد فيه يقيناً كلما طلعت شمس.

أيها الصديق، انظر إلى ما أقصه عليك من أنباء ملوك الإسلام السابقين، واعجب كيف انتفعوا برموز الحروف المذكورة. وهاك ما جاء في الجزء الثالث من كتاب «تاريخ التمدن الإسلامي» صفحة ١٢ وما بعدها، وهذا نصه:

على أنهم لفرط انشغالهم بحفظ القرآن وفهمه، لو ذكر الرجل حرفاً أو كلمة انتبه السامع للآية كلها، وكثيراً ما كانوا يرمزون بالكلمة الواحدة إلى آية يفهمها العارف بها ويعمل بها، وقد يخفى على كثير.

ومما يحكى من هذا القبيل أن السلطان محمود الغزنوي الشهير بعث إلى الخليفة يطلب أن يذكر اسمه في الخطبة ببغداد، وينقش اسمه في سكة الذهب والفضة، فامتنع الخليفة من ذلك، فبعث إليه كتاباً فيه تهديد ووعيد، قال في جملته: لو أردت نقل الحجارة في بغداد على ظهور الفيلة إلى غزنة لفعلت. فبعث إليه الخليفة كتاباً مختوماً، فلما فتحه لم يجد فيه بعد البسملة إلا ألفاً ممدودة، وفي وسطه لام، وفي آخره ميم، والصلاة، والحمد لله، فحار السلطان وأهل مجلسه من ذلك، حتى دخل عليهم أبو بكر القهستاني، ففكر في ذلك وقال: عندي شرحه. فقال: اذكر ولك ما تريد. فقال: بعث إليهم السلطان يهددهم بالفيلة، فبعثوا إليه هذا الكتاب وفيه «ألف» و«لام» و«ميم» إشارة إلى قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍۭ﴾[الفيل: ١-٥]. فارتاع السلطان محمود لذلك ووقع في قلبه الخوف والندم، وعاد إلى أحسن الأحوال من الرضا والأدب. اهـ.

فانظر كيف انتفع الخليفة العباسي برسم الفيل مع ذكر «ا ل م»، وكيف ارتاع السلطان محمود الغزنوي من هذا المعنى، وترتب على ذلك حقن الدماء، وحفظ البلاد، في أعظم بقاع الأرض من سفك دماء مئات الألوف من الجيوش، وتخريب الديار، وحلول الدمار، ولقد تقدم مختصر هذا في سورة «البقرة» في الطبعة الثانية.

فهذا كله تم بمعونة «ا ل م»، والسر في ذلك أن هذا الإنسان المخلوق في المادة لا سعادة له إلا بالسعي، ولذلك تجده لا يحب إلا ما منع عنه، والمبذول مبتذل، والعزيز مرغوب فيه، هذا دأب هذا الإنسان وهذا شأنه، ومعاني الرموز محيرة مشتبهة، فمتى وصل الإنسان إلى حلها سارع إلى العمل بها بفرح وسرور، لأن تحصيل معانيها جاء بنصب وتعب، وكل ما حصلناه بنصب وتعب أحببناه، وهذا سر حياتنا في الدنيا، هذه الحياة الدنيا جعلت لتدريبنا على تعقل الأشياء وعلى العمل فيها، وهذا هو الذي يعرفنا ما نزاوله فكراً وقولاً وعملاً، وليس قول القائل للسلطان محمود الغزنوي: إن الظلم

مرتعه وخيم كما حل بأصحاب الفيل، قول خليفة بغداد «ا ل م»، فهذه حيرت العقول، فلما اهتدى إلى المعنى عمل الناس به، وإذا كنا نرى هذه الحروف الثلاثة في الحديث السابق كان هذا نتائج معانيها، أفليس من أعاجيب القرآن أننا نرى المسلمين كانوا نائمين قروناً وقروناً وهم يقولون: الله أعلم بمراده، أو يلتمسون معاني جزئية علمية، حتى إذا جاء وعد ربك بالفتوح على الأمم الإسلامية برزت هذه المعاني بعد اللتيا والتي، فكتبناها لأنها تناسب زماننا، وقد ضرب الله مثلاً لأحوال المسلمين اليوم بما كان بين هذين الملكين وإن كان ذلك أمراً جزئياً وهاهنا أمر كلي، وليس ما دار بين الملكين إلا مجرد تنظير ومجرد تذكرة، فذلك أشبه بقطرة وما هنا أشبه ببحر، وكما تفطن القوم لمعنى الرمز في مخاطباتهم العادية، فهكذا يتفطن المسلمون في أمرهم العظيم وهو رقيهم وسعادتهم.

إن «ا ل م» في سورة «ق» مفتاح فتحت به خزائن الفلك والطبيعة والعلوم المبنية عليها، وهذا زمان الفتح لا غير، لأن هذا الزمان هو الزمان الذي ظهرت فيه هذه العلوم والمسلمون في حاجة إليها، كما أن المسلمين في بغداد في حاجة إلى هذا الرمز، ففسره علماء السلطان محمود الغزنوي بما انتفع به المسلمون، فحقنت الدماء، هكذا هنا تحفظ دول الإسلام بهذه المعاني المستخرجات في هذا الزمان بعد نصب العلماء فيها أجيالاً وأجيالاً، فزال الإشكال، وحل العقال، وارتقى الإسلام.

قلنا إن قول الله كفعله، وللفعل ثمرات تقدم وصفها، هكذا للقول زهرات وهذا شرحها، هي هذه الحروف في أوائل السور، وحروف أوائل السور متميزات منيرات، والزهرات رمز الثمرات، فهذه الحروف رمز لثمرات هي علوم ومعارف قد أظل أوانها، وأقبل إبانها، وحان حينها، وبعبارة أخرى: إن هذه الحروف دلالات على علوم هي سعادات أمم الإسلام في هذه الأيام وفي مستقبل الزمان. إن هذه العلوم والسعادات قد ظهر نموذجها في هذا التفسير، إن أمم الإسلام أخذت تخطو إلى العلا، إن أمماً وأمماً في زماننا وبعد مبارحتنا هذه الديار سيقرؤونه ويأتون بعلوم وحكم لم يحن حينها، وليس هذا الجيل بمستعد لها، ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ﴾[ص:٨٨]، فالحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

فلما سمع ذلك صاحبي قال: لقد شفيت نفسي. فقلت: الحمد لله رب العالمين. انتهى الكلام على اللطيفة الأولى في سر «ا ل م» في قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟﴾[ق:٦] الخ. ابتدأت في كتابة هذا المقال قبل فجر هذا اليوم، وهو آخر ديسمبر سنة ١٩٣١، وانتهيت من كتابته بعد صلاة الفجر الساعة السادسة إلا دقائق، فالحمد لله على التمام.

اللطيفة الثانية: في أسرار قوله تعالى:

﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦﴾

أي: في المبحث الأول من مبحثيها

وهو مبحث عجائب العين التي اختصت بنظر السماء

هذا ما انشرح له صدري قبيل الفجر ليلة الجمعة ١١ ديسمبر سنة ١٩٣١م، استيقظت قبل الفجر في ذلك التاريخ، ونظرت إلى السماء، ولحظت نفسي الكواكب التي كنت ألحظها في الأعوام السابقة في

مثل هذه الأيام، وهي الثريا والدبران والهقعة والهنعة وما يشابهها، وقد تقدم الكلام عليها في سورة «الصافات» في أولها. وقد تقدم أيضاً قبل ذلك في سورة أخرى، لكن الذي توجه له نظري في تلك الليلة غير ذلك، وهو أمران: كيف أنظر السماء؟ وما نوع الرحمات التي أنعم الله بها علي في عيني حتى نظرت هذه السماوات، أخذ مني العجب كل مأخذ، وأخذت أقول: يا ليت شعري سماء واسعة سعة لا ندري مداها؟ هاهم أولاً بنو آدم في الأرض يبحثون، فهاهم أولاء لم يجدوا للسماوات نهاية، وقد وصلت نجومها إلى ٢ على يمينها ٢٤ صفراً، وهذا عدد مدهش وعظيم. هذه جنات تجلت للمفكرين في الدنيا، وإنّما الذي زاد دهشتي أن لي عينين تنظران هذه السماء والعين صغيرة عبارة عن كرة قدر الجوزاء وهي مدمجة فيها صور وعجائب لا حد لها، وباجتماعها أمكنني النظر، عين صغيرة تجمع هذه العوالم كلها، كيف بنيت عيني؟ وما هي المناسبة بين عيني وبين الشمس والقمر والكواكب والأضواء في أرضنا؟ أنت عجيبة جداً أيتها العين، لنترك الكلام عن السماوات الآن، ولنشرع في معرفة عيوننا حتى نعرف بذلك بعض ما أعطينا من الرحمات في الأرض ونحن ذاهلون جاهلون ضعفاء أغبياء مبعدون عن الجمال والحكم والبدائع، كل ذلك لمعرفة الرحمة في أول هذه السورة التي جاء فيها الحض على النظر إلى هذه السماوات.

مسامرة بيني وبين صديقي العلامة الذي اعتاد محادثتي في هذا التفسير

بينما أنا أكتب هذا إذ حضر صديقي العالم وقرأ ما تقدم، فظهر عليه السرور والبهجة والنور، وأخذ يظهر الإعجاب بهذا الموضوع، ثم سكت قليلاً وقال: إنك الآن تريد البحث في العين، والبحث في السماوات، حتى نفهم كيف ننظر، وبعد ذلك تبحث في عالم السماوات. فقلت: نعم. فقال: أليس هذا مكرراً مع ما تقدم في أول سورة «آل عمران» ومع ما تقدم في سورة «المؤمنون» عند ذكر السمع والبصر هناك، ولقد شرحت العين في سورة «آل عمران» شرحاً بديعاً جميلاً لم أر له نظيراً، وهناك وضعت رسمها، وهكذا فعلت في سورة «المؤمنون»، ولكن الرسم في هذه كان أوضح من الرسم في الأولى التي أبديت فيها عجائب للعين بديعة تشرح الصدور وتسر الناظرين، فأما السماوات فإنك شرحتها في «البقرة» عند ذكر السماء في أول السورة وفي: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الآية: ١٦٤] فيها أيضاً، وفي أول «آل عمران» وفي سورة «الأنعام» في أولها، وفي آية إبراهيم: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ﴾ [الآية: ٧٤] الخ، وفي آية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ﴾ [الآية: ٩٥]، وفي سور أخرى مثل سورة «يونس» في أولها عند ذكر السماء، وفي آخرها عند قوله تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾ [الآية: ٩٢]، فهناك تبدت عجائب مثل صور البروج التي وجدت مرسومة على صندوق أحد الفراعنة، وهي صور واضحة عجيبة، وتبعها هناك صور الهرم وعجائبه المدهشة، وكيف كان الهرم نسبة عجيبة إلى الشمس وبعدها عنا ومدار الأرض حولها في السنة، وكيف كان بين مساحات الهرم وبين المكاييل والموازين المصرية ومساحاتها نسب عجيبة. كل هذا تقدم، وهكذا في آخر «الكهف» وسورة «الفرقان» و«يس» وأول «الصافات» وهكذا، فالكلام على العين وعلى السماوات قد استوفيته فيما تقدم، أفليس يكون الكلام هنا تكراراً. فقلت: أنا أحمد الله إذ وفقني أن

أرى أمثالك من الفضلاء أهل العلم وأنا لا أزال حياً يقرؤون هذا التفسير في أثناء تأليفه وطبعه ويتعقبونه ويذكرونني بما نسيت.

ومما يشجعني على السير في هذا الموضوع الآن أن أجدك قد استوعبت أكثر ما كتبته، وهو حاضر في ذهنك، ومن استوعب ما مضى قد استعد استعداداً تاماً لما ألقيه الآن، لأني سأذكر في العين ما لم أذكره قبل الآن، ومن فهم ما تقدم فهو جدير أن يفهم ما أكتبه الآن وهكذا ما سأكتبه في السماوات.

الله أكبر، إن حياتنا كلها جمال ولكن يظهر لي أننا أشبه بقوم حبسوا في قصر ملك عظيم كريم، وأمروا أن يغمضوا أعينهم، لأنهم لو نظروا جمال القصر لزال عنهم العناء، ولأحسوا بفرح كأهل الجنة في الجنة، إننا الآن في الأرض محبوسون، وهذا الحبس به قلت سعادتنا، ولكن الله عز وجل يريد لشدة رحمته بنا أن يفتح باب السجن شيئاً فشيئاً حتى نشاهد النور خارجه، ولا أعرف باباً لهذا السجن إلا الدرس والعلم والنظر في هذا الكون.

أيها الصديق، من نحن؟ وما هذه الحياة؟ وما هذه العناية العظيمة بنا؟ لو أن شاباً أحب فتاة وهو محبوس عنها، ولكنه يعلم أن لها به عناية وعطفاً لفرح بهذه العناية فرحاً لا حد له، ويصبح الحب غذاء له، وسعادة لا حد لها، ونحن الآن في الأرض عمي عن أجسامنا وعقولنا، لا نفكر في خلقها، والأعمار قصيرة، فكيف تمر هذه الأعمار ولا نفتح هذا الكتاب الذي نعيش فيه بين دفتيه؟ وهو هذه الدنيا؟ وأقرب شيء إلينا أجسامنا، ومن عجائب أجسامنا عيوننا التي تنظر هذه السماء، ومتى عرفنا العناية أحببنا من هذه أعماله، وصارت دار الدنيا سعادة.

إنني أيها الذكي ليلة الجمعة الماضية لما نظرت إلى السماء أخذ هذا الفكر بمجامع عقلي، وما كادت الشمس تطلع حتى فتحت كتاب «علوم للجميع» في الجزء الثالث منه، فرأيت فيه ما يأتي:

العين ومنفعتها

وقد كتب تحت هذا العنوان ما ترجمته: ما أسهل على الإنسان أن يستعمل آلة وهو يجهل تركيبها ولا يعلم أي شيء عن أجزائها مطلقاً، إن آلافاً من السياح في كل سنة يأخذون الصور في الجبل والسهل وهم لا يعلمون أي شيء عن عجائب تلك الآلة التي بها يأخذون تلك الصور، وبأي وسيلة تمكنت هذه الآلات العجيبة من إحضار الصور البعيدة عنهم فجعلتها أمامهم.

وكم آلاف آلاف الملايين من الناس يستعملون عيونهم في جميع الساعات التي هم فيها مستيقظون مدى حياتهم، وهم مع ذلك لا يعلمون شيئاً عن بناء تلك العين وهندستها ونظامها، وبدائع طبقاتها الباهرة النافعة للناظرين، ولكن إذا أخذ الإنسان يبحث في عجائب العين فما أسهل أن يفهمها، وأن يدرس دراسة كافية حتى يفهم:

(١) كيف ركبت طبقات العين؟.

(٢) وكيف كانت طبقاتها تعمل متحدة بهيئة موسيقية منظمة عجيبة.

(٣) وكيف أمكننا بهذه الآلة المنظمة أن نعرف الصور، والأحجام والمسافات وغيرها.

وهاهنا أخذ يضرب لذلك مثلاً، فقال: إذا أردنا أن نعرف الآلة المسماة بالتلسكوب فإننا لا بد أن نفك تلك الآلة ونجعل كل جزء منها على حدته، وندرس تلك الأجزاء، ومتى انتهينا من دراستها كلها عرفنا نفس التلسكوب، هكذا فلنفعل في العين، فكما فصلنا ونظرنا ودرسنا أجزاء التلسكوب هكذا يجب أن نفصل أجزاء العين واحداً واحداً، ومتى تابعنا البحث فيها بدقة ووالينا التجارب والموازنات فيها؛ فإننا لا جرم نصل تماماً إلى ما توجهت نفوسنا إلى فهمه وهو: كيف تركبت العين وما منفعتها؟.

ومن حسن الحظ لهذا الموضوع أن عين بقرة أو نعجة أو ذكريهما كافية لدراسة هذا الموضوع، فإذا أرسلنا إلى «القصاب» الجزار وطلبت منه زوجاً من العيون أرسل لك ذلك بسهولة كما اتفق لي، فمتى حصلت على العين فأولاً أزل ما عليها من اللحم المحيط بجوانبها، وإذن ترى بعينك أن العين كرة وفيها حبل أبيض خارج من خلفها، وهذا الحبل يمتد في داخل العين، وقد كان قبل أن يقطع قوياً متيناً موصلاً العين بالمخ، إننا نستطيع أن ندرس العين من غير قطعها بأن ننظر في المرآة بها وندرس أجزاءها الظاهرة دراسة سطحية بمجرد النظر إلى المرآة:

(١) فلننظر أولاً الجزء المقدم الشفاف الكروي البارز المقبب، ألا وهو «القرنية».

(٢) إن هذه القرنية متصلة بالطبقة البيضاء المسماة بالصلبة، وهي التي بها تحفظ كرة العين وتثبت فهي لها حفاظ يصونها.

(٣) وتحت هذه القرنية الشفافة يرى الإنسان حلقة ذات لون، وما هي هذه إذن؟ هي القزحية أو العنبية قد نسبت لقوس قزح من حيث ألوانه، وللعنبة من حيث لونها كذلك.

(٤) وفي وسط هذه القزحية ترى «البؤبؤ» وهو إنسان العين، وهي فتحة يدخل منها الضوء فيصل إلى البلورية ويتجه إلى الشبكية كما ستراه مفصلاً.

(٥) هاهنا نستطيع أن نصنع فتحة لنمتحن بها داخل العين، فلنأت إذن بآلة حادة ونجعل في عين البقرة مثلاً فتحة، ولا تكاد القرنية تفتح حتى يظهر لنا حالاً سائل مائي، يسمونه بالفرنجية «كويس هيومر»، وبالعربية يسمونه «الرطوبة البيضية»، وهو سائل أبيض.

(٦) فإذا اتسعت هذه الفتحة اتساعاً كافياً فاضغط على كرة العين بلطف، فإنك ترى عضواً هو أجل الأعضاء في العين، وما هو إذن؟ هو العدسة المسماة البلورية والجليدية، لأنها شفافة كالبلور وكالجليد، وهي خالية من الشوائب مثلهما، وهذه البلورية شفافة عند الصغار والشبان، أما الرجل المسن فإنها تكون أقرب إلى الصفرة، وهذه الصفرة تحدث خللاً في نظر الكبير لا حاجة لتفصيله الآن لئلا نخرج عن المقام.

(٧) ثم أخذ المؤلف يصف المادة الزجاجية التي تقع تحت البلورية التي تتصل بها من فوقها الرطوبة البيضية.

ووصف الشبكية ومن ورائها المشيمية التي تليها الصلبة التي تقدم الكلام عليها، وأنا لا أطيل الكلام في هذا المقام، لأني أعرف أيها الأخ أنك تعلم تفصيل هذه الأجزاء مما تقدم في هذا التفسير.

فلنجمل القول أولاً برسم هذه الصورة التي رسمها المؤلف المسمى « ويليم اكرويد »، وهي هذه (انظر شكل ١).

(١) ـ (أ) الصلبة.
(٢) ـ (ب) القرنية.
(٣) ـ (جـ) الملتحمة.
(٤) ـ (د) غطاء المشيمية.
(٥) ـ (هـ) عضلات هدبية شعرية.
(٦) ـ (و) ابتداء الأهداب الشعرية.
(٧) ـ (ز) القزحية المسماة أيضاً عنبية.
(٨) ـ (حـ) مبدأ العصب البصري.
(٩) ـ (ط) محيط الشبكية.
(١٠) ـ (ي) الجليدية وتسمى البلورية.
(١١) ـ (ك) المشيمية.
(١٢) ـ (ل) الشبكية.
(١٣) ـ (مـ) البقعة الصفراء في الشبكية.
(١٤) ـ (ن) الرطوبة البيضية.
(١٥) ـ (س) الرطوبة الزجاجية.

(شكل ١ ـ قطعة من العين الإنسانية)

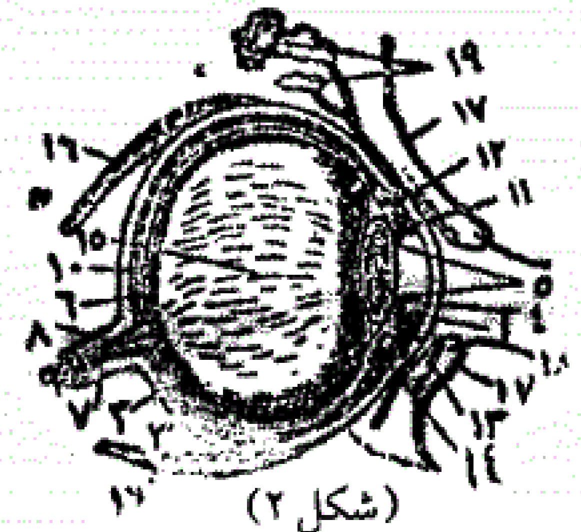
فلما سمع صاحبي ذلك وظن أني قد انتهيت من المقال ونظر هذه الصورة قال: هذا حسن ولكننا الآن:

أولاً: لم نصل للمقصود، وهو اتصال هذه العيون بالكواكب، وكيف تمت الصلة بينهما.

وثانياً: إذا رسمت صورة العين التي تقدمت في سورة « المؤمنون » هنا فإن القارئ بموازنة كل واحدة منهما بالأخرى يفهم الحقائق حق الفهم.

ثالثاً: إنك ذكرت أن المؤلف يقول: علينا أن ننظر عيون البقر أو الغنم، ولا جرم أن المشاهدة بالعين أقوى أثراً من قراءة الكتب، وقد جرت عادة الله ألا يجعل للقائلين قبولاً عند سامعيهم، ولا للمؤلفين عند قراء كتبهم، إلا إذا كانوا هم موقنين بما يقولون، وأي إيقان لكم أكثر من اطلاعكم أنفسكم، كما قال تعالى: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ﴾[النمل: ٩٣]، وهذه هي الشهادة بالحق التي ذكرها الله فقال: ﴿ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾[الزخرف: ٨٦]، وأي شهادة بالحق أكثر من الاطلاع على نفس العين وتشريحها، لا سيما أن المؤلف الذي ترجمت أن كلامه قد فتح الباب أمامك، وسهل الطريق فجعلها معبدة، فما أسهل السير فيها على السارين، وما أسهل عيون البقر والغنم للطالبين وللمؤلفين، فقلت: أيها الذكي أما قولك إننا لم نصل للمقصود فهو حق، وما ذكرته الآن إنما هو مقدمة، وهاك صورة العين المرسومة في سورة « المؤمنون » فيما تقدم في

الجزء الحادي عشر من التفسير. (انظر شكل ٢).

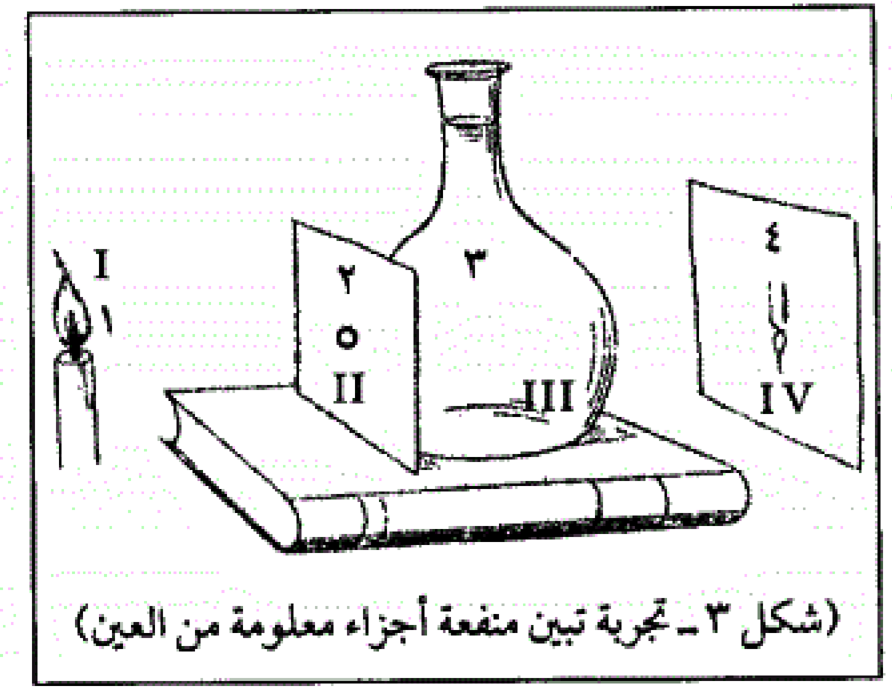


(شكل ٢)

وأما ما ذكرت من أنه يحسن بي أن أنظر بعيني هذا؛ فقد تم هذا اليوم صباحاً، وذلك أنني لما نظرت إلى السماء قبل فجر يوم الجمعة الفائتة، وتاقت نفسي للمعرفة المفصلة؛ قرأت ذلك الكتاب يوم السبت، وفي هذا اليوم يوم الأحد ١٣ سبتمبر سنة ١٩٣١ ميلادية؛ توجهت إلى «السلخانة الأميرية» وهي قريبة من منزلنا، وأخذت منها عيني بقرة، وتوجهت بهما إلى المستشفى الرمدي بالجيزة، وقابلني أحد الأطباء هناك، وطلبت منهم تشريح العين إذ هم أدرى بذلك، فشرحوها لي، ونظرت كل هذه الأجزاء المذكورة المتقدمة، وفوق ذلك أراني مدير المستشفى العين الصناعية وهي مكبرة جداً، وشاهدت البلورية وما فوقها من الأوردة والشرايين والقزحية والبلورية، وبقية الطبقات، ورجعت وقت الظهر، وهاأنا ذا الآن أكتب ما أيقنت به بعد المطالعة. فقال: الحمد لله إذ فعلت ذلك، وهاأنا الآن جالس معك وأقرر أن كثيراً من الشبان في هذا الزمان وفي المستقبل سيبحثون بأنفسهم في كل شيء كما بحثت أنت الآن، وستصير هذه ملكة راسخة في بلاد الإسلام، فيبحثون كل شيء كما بحثت أنت الآن، وتصير هذه أعظم اللذات للشيب وللشبان. فقلت: أنا بذلك من الموقنين.

جمال العين وبهجتها، وعجائب إتقانها
وما فيها من الآلات البصرية ومنافعها

ثم قلت: أيها الأخ الذكي، هانحن أولاء فرغنا من تعداد الآلات البصرية في العين، وقد عرفنا نظامها وتشريحها، وأشهرها هذه الخمسة: القرنية، الرطوبة البيضية، البلورية، الزجاجية، الشبكية، وهذه الآلات لا يستطيع العقلاء فهمها فهماً حقيقياً إلا بضرب أمثال مما يشاهدونه، إن العلم إن لم يتصل بما يعرفه الناس كل يوم فلا ثبات له، وهذه الآلات البصرية يمثلها ما يأتي. (انظر شكل ٣).



(شكل ٣ ـ تجربة تبين منفعة أجزاء معلومة من العين)

(١) المصباح. (٢) لوح أبيض مثقوب. (٣) زجاجة مملوءة ماء. (٤) لوح أبيض غير مثقوب لقبول الصورة الواردة من نمرة (١) المخترقة ثقب نمرة (٢) الواصلة إلى الزجاجة المائية نمرة (٣). ومن صفات هذه الزجاجة وأمثالها أن الضوء إذا اخترقها ولم يكن هناك نمرة (٢) قبلها ووصل إلى نمرة (٤) فإنه لا يكون واضح الصورة، وهي مقلوبة طبعاً، بل هي تكون أقرب إلى الزرقة، ولكن اللوحة المثقوبة نمرة (٢) لا بد منها لإصلاح تلك الصورة.

وإذا تأملت هذه الآلات ألفيت نمرة (٢) تمثل القزحية، ونمرة (٣) وهي الزجاجة المائية تمثل البلورية، واللوح نمرة (٤) القابل للصورة يمثل الشبكية، وعلى هذه ظهرت هنا قيمة القزحية، لأنها في علم البصر لها منفعة عظيمة في بعض الصور، إذ هي المساعدة لتمام الصورة على اللوحة.

وأنت من هذا أيها الأخ الذكي عرفت أن أهم الأدوات البصرية في أعيننا إنّما هي القزحية والبلورية والشبكية التي مثلتها (١) اللوحة البيضاء المثقوبة، (٢) والزجاجة المملوءة ماء، واللوحة البيضاء القابلة التي لا ثقب فيها، هذه أهم تلك الأدوات.

الكلام على المنشورات البلورية القائمة مقام الزجاجة المملوءة ماء

إنّما قدمنا المثال المذكور لسهولته، ولأنه في متناول الجميع، ذلك أن الزجاجة يعرفها العام والخاص، وهي تمثل لنا البلورية التي في أعيننا، والتي رأيتها أمس حين تشريح عين البقرة في مستشفى الجيزة، ولكن العلم يعوزه ما هو أرقى من تلك الزجاجة، ألا وهي أجسام زجاجية مضلعة يسمى كل منها بالمنشور. (انظر شكل ٤).

(أ) قطعة من بلورتين محدبتين.

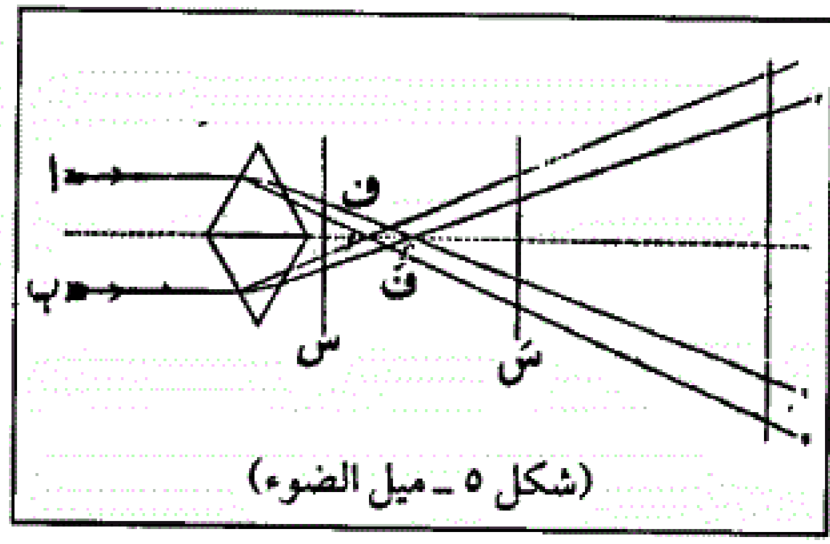
(ب) جزء من منشورين وضعت قاعدة أحدهما ملاصقة لقاعدة الآخر.

(ب) (أ) (شكل ٤)

لقد بسطنا الكلام على القزحية وما يشبهها، وأنها ذات نفع عظيم في إكمال الصورة التي مرت في الزجاجة المائية، فلنبحث الآن في منفعتها. إذا مر النور من منشور بلوري مثل (ب) التي رسمناها لنفهم بها (أ) وهي البلورية المحدبة، وبيانه أن البلورية في العين ثخينة من وسطها، رقيقة عند طرفيها، وهذه الصفة تجعلها مشبهة منشورين معاً، فلو أننا ضممنا بلورتين ثم قسمناهما قسمين لرأينا أحد القسمين المذكورين من مجموع البلورتين يشبه ما في صورة (أ) شكل ٤، وهذه الصورة ليست مخالفة لصورة (ب) التي فيها قد وضع المنشوران معاً قاعدة أحدهما ملتصقة بقاعدة الآخر، ولا جرم أن النور وهو مار بالمضلعات المنشورية تجتمع أصوله السبعة فتصير لوناً أبيض، وهكذا يفعل الضوء في صورة (أ) لأنها تماثل صورة (ب)، فهاهنا تشابهت البلورية والمنشور في توحيد أجزاء الضوء إذا مر منهما.

تحليل الضوء إلى ألوانه السبعة إذا مر في المنشور

إنك أيها الذكي تعرف من دراسة العلوم أو مما تقدم في كتابنا، أن هذا الضوء إذا مر في منشور فإنه يحلل إلى أصوله السبعة، وهي: الأحمر، والبرتقالي، والأصفر، والأخضر، والأزرق، والنيلي، والبنفسجي، ومن عادة الأزرق أن يميل ميلاً كثيراً، وللأحمر ميل أقل كثيراً. (انظر شكل ٥).



(شكل ٥ ـ ميل الضوء)

انظر إلى نقطتي (أ) و (ب) المضيئتين المشبهتين قلمي رصاص رقيقين في (شكل ٥)، وقد مر هذا الضوء في المنشورين المرسومين أمامك، وقاعد أحدهما ملتصقة بقاعدة الآخر، فتأمل في سير الضوء أيها الأخ فإنك ترى الأشعة الزرقاء أسرعت فاجتمعت عند حرف (ف)، فأما الأشعة الحمراء فإنها اجتمعت بعد ذلك عند الحرف (فَ). وإذا نحن وضعنا بلورتين معاً كما وصفنا فإننا نرى سير الضوء فيهما كسير الضوء في المنشورين الموضوعة قاعدة أحدهما ملاصقة لقاعدة الآخر.

حال الضوء في وسط الحقل الضوئي وفي أطرافه

وهاهنا نلاحظ أن الضوء الجاري في هذين المنشورين المتلاصقين منضمة أجزاؤه، متحدة في وسطه، فيكون لوناً أبيض، فأما في الجانبين فإن الأمر يخالف ذلك على خط مستقيم، وكيف لا ونحن نرى النور عند حرف (س) التي قبل البؤرة الضوئية التي اجتمع فيها الضوء يميل إلى الحمرة والبرتقالية ولكننا نراه بعد مفارقته البؤرة الضوئية يميل إلى الزرقة عند الحرف (س).

هذه صفة الضوء في المنشورين المذكورين اللذين ذكرناهما لنقرب بهما فهم البلورية التي في أعيننا، والتي وجدنا أنها أشبه بقطعة من بلورتين متحدتين كما تقدم، وهاتان البلورتان المتحدتان معاً تشبهان المنشورين المتصلين كما تقدم، ولقد وجد العلماء أن سير الضوء في البلورتين الموصوفتين بما ذكر يشبه تمام المشابهة سيره في المنشورين المذكورين.

فائدة القزحية

هاأنت ذا أيها الأخ الذكي عرفت أن الضوء في وسط الحقل الضوئي أبيض، وفي حافة هذا الحقل يكون أزرق أو أحمر برتقالياً، ولا جرم أن ذلك نقص يعوق النظر، ولقد احتال علماء الضوء فوضعوا ستارة حلقية في الآلة البصرية «التلسكوب» فمنعت هذا العائق، ولقد حقق كثير من العلماء في مباحثهم أن القزحية التي في أعيننا تعمل عمل هذه الستارة التي تشبه الحلقة، فلها الفضل في حفظ الصورة الضوئية من ميل بعض أجزاء الضوء الأبيض كالزرقة والحمرة فيما تقدم عند مروره بالبلورية المسماة بالجليدية أيضاً والعدسية.

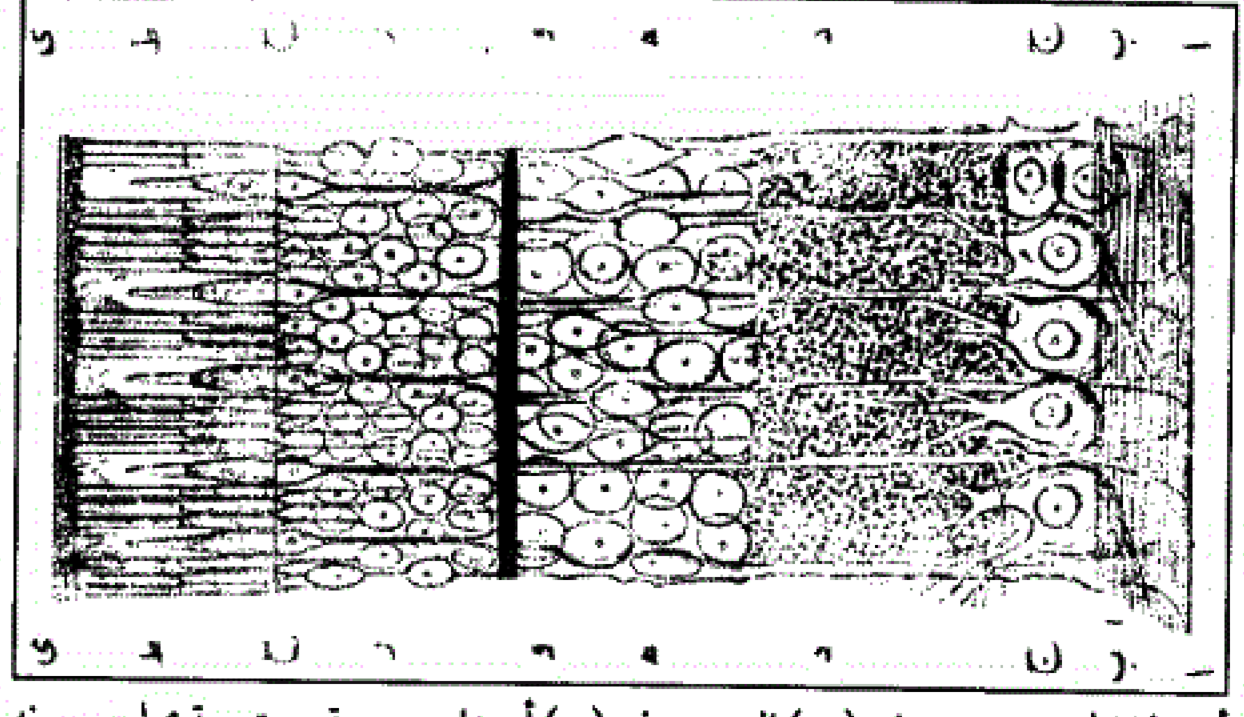
إذن ظهر أن للقزحية فائدتين: إحداهما أنها تفعل فعل اللوح المثقوب في أنها تجعل الصورة واضحة على اللوحة التي تقبل الصورة. وثانيتهما أنها إذا مر الضوء من منشورين أو بلورتين فإنها تحفظ هذا الضوء من ميل بعض عناصره إلى الجوانب.

وظائف القزحية والبلورية والشبكية

فهاهنا استبان أن وظيفة القزحية أن تحفظ الصورة واضحة لا خلل فيها، ووظيفة البلورية أنها ترسلها إلى ما وراءها فترسم على الشبكية، ووظيفة الشبكية أنها تصدر إلى الدماغ فيراها الإنسان والحيوان، ولقد فصلنا القول في القزحية والبلورية، فلنفض الكلام على الشبكية فنقول:

إن الشبكية عضو شفاف يختلف في ثخنه من جزء من ٨٠ إلى جزء من ١٦٠ من البوصة الواحدة، وهو مبطن للسطح الداخل من محيط كرة العين كما رأيته فيما تقدم وكما رأيته أنا في العين الحقيقية وفي صورتها المجسمة كما تقدم.

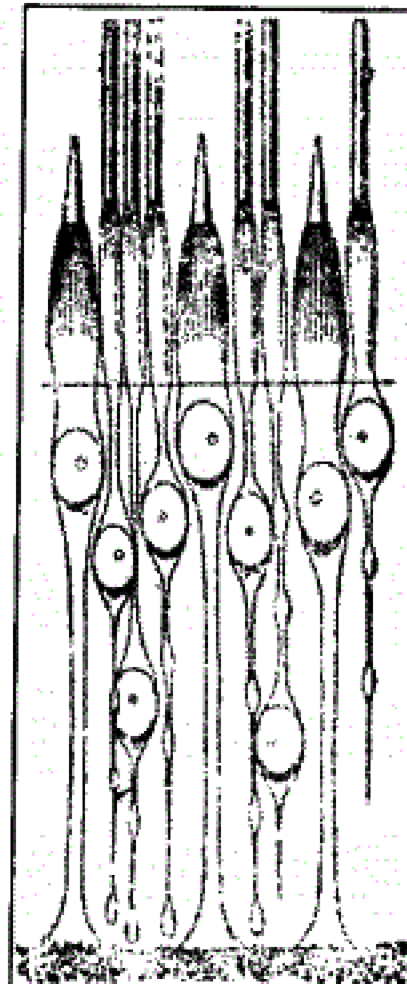
إن أي بقعة رقيقة من بقع الشبكية ما عدا مركزها الذي يسمى البقعة الصفراء، وكذلك مدخل العصب البصري، كلاهما إذا نظر بالميكروسكوب فإنه يبين لنا هذا الهيكل الذي تراه في هذه الصورة. (انظر شكل ٦).



(شكل ٦)
شبكية العين الإنسانية

فأنت ترى أن هذا الجسم من حرف (ب) إلى حرف (ح) أجزاء عصبية مجتمعة بما يسمونه «النسيج الحافظ»، وما وراء حرف (ح) المذكور هو بقية الشبكية المشتمل على الأغشية العصبية ذات الشكل الذي يشبه بعضه «العود» وبعضه يشبه «القصبة»، وهذا الأخير أشبه بورق قصب السكر. (انظر شكل ٧).

(أ) سطح الشبكية عند اتصاله بالمادة الزجاجية.
(ب) امتداد ألياف العصب البصري.
(جـ) ذرات ذات اجتماع بشكل دوائر ونحوها.
(د) طبقات ذرية وألياف عصبية.
(هـ) ذرات مجتمعة تشبه الحب والنوى.
(و) طبقات متداخلة وألياف عصبية حاملات ما يشبه الحب في الداخل.
(ز) هاهنا ما يشبه الحب في الطبقات الخارجية.
(ح) سطح جعل حداً لما تحته ومقاماً يحمل العيدان والقصبات وبه ينتهي النسيج المحكم تحته.
(ط) العيدان والقصبات.
(ي) سطح وضع حد للمشيمية فوقه.



(شكل ٧)
العيدان والقصب بهيئة مكبرة، فهاهنا ثلاث قصبات تتخلل ستة عيدان

إن العصب البصري وهو داخل في كرة العين تتفرع منه أغشية في جميع الجهات، به تتكون الطبقة الأمامية عند الحرف (ب) في (شكل ٥) المشتمل على الشبكية، وهي بلا ريب مرتبطة بالعصي والقصب من خلف، هذا ما عنّ لي أيها الصديق في هذا المقام، والحمد لله رب العالمين.

هنالك قال صديقي العالم: ما هذه العجائب والبدائع؟ أهذا كله لأجل أن نبصر الأشياء حولنا؟ فقلت: نعم. قال: عجب عجاب! إنك قد فتحت لي باب الكلام بهذه المباحث، فاسمح لي بذلك. فقلت: سل ما تشاء. فقال: هل الجزء الذي يقابل الضوء من الشبكية هو الذي يتأثر به فينقله إلى المخ؟ فقلت له: إن الكلام في هذا يحتاج إلى إيضاح، إن العصي والقصبات المرسومة فيما تقدم هن القائمات بأمر الإحساس، ولا جرم أنهن في آخر الشبكية من خلفها، فهناك يقوم بهن الإحساس بالضوء بعد أن مر في تلك الأوساط الشفافة الموضوعة قبل الشبكية في طريق النور. فقال: لقد ذكرت في هذا الموضوع ما كتبته أنت في سورة «آل عمران» إذ رسمت العين والأذن هناك وشرحتهما، وذكرت للعين نحو ٢٦ حكمة، وللأذن نحو ١٤ حكمة، ونقلت عن «اللورد أفبري» في كتابه «مسرات الحياة» ما يأتي:

إن في الجسم الإنساني أكثر من مائتي عظم، ولكل منها شكل مخصوص بها، ولولا حسن صنعها لعاقت حركاتنا التي نأتيها كل يوم، يقول مؤلف هذا التفسير: وسيرد عليك قريباً هندسة الأعضاء وقياسها العجيب منقولاً عن آبائنا حكماء الإسلام.

ثم قال: وفيه ٥٠٠ عضلة، كل منها تتغذى بمئات الأوردة والعروق تدبرها أعصاب كثيرة، والقلب هو بين هذه العضلات ينبض في السنة ثلاثين مليون مرة، فإذا توقف عن الخفقان قضي الأمر وانقطعت الحياة، ولو تأملنا في أدوات الحس كالعين مثلاً بما فيها من قرنية، وعدسية، وطبقات مائية، وزجاجية، تنتهي بالشبكية؛ لتولانا العجب، فإن هذه الشبكية التي لا تزيد عن ثخن الورقة تتألف من تسع طبقات مختلفة، أبعدها يتألف من نحو ثلاث ملايين مخروط، ونحو ثلاثين مليون أسطوانة، وأعجب من هذا كله الدماغ، فقد حسب أحد الفسيولوجيين أن المادة السنجابية التي في تلافيف الدماغ نحو ستمائة مليون خلية تتألف كل منها من ألوف من الدقائق الظاهرة، وكل دقيقة تتألف من ملايين الجواهر. وقد قال قبل ذلك: لقد نحيا السنين الطوال ولا نكاد نشعر أن لنا جسماً. انتهى.

فهل ثلاثة الملايين من نوع الأشكال المخروطة، والثلاثون مليوناً من الأسطوانات كلها من هذا القبيل؟ فقلت: نعم وربي، فالأشكال المخروطة يراد بها هنا القصبات، والأشكال الأسطوانية المعبر عنها هنا بالعصي. فقال: إذن هذه المخاريط وهذه الأسطوانات كلها لأجل إحساسنا. فقلت: نعم. فقال: ولماذا هذا كله؟ قلت: لأن النور من عالم الحس وأمره سهل، ولكن وصول صوره إلى نفوسنا التي ليست من المادة في شيء يعوزه آلات لها خواص فوق عقولنا، وهذه الآلات هي الأسطوانات والمخاريط اللاتي تعد بعشرات الملايين، نحن هنا في مقام الجمال والبهجة.

إن أكثر هذا النوع الإنساني يعيشون ويموتون وهم لا يذكرون، وكم من رجل يدرس علم الضوء وعلم التشريح وهو غافل عن هذه العجائب التي يقرؤها، ولا لذة لها في نفسه لأنه مجبور على الدرس، مقهور على التحصيل، والله عز وجل لم يرفع أمة بعد ضعتها إلا بأناس يختارهم هو، يخلقون في الأمم، وهم الذين يعشقون هذا الجمال الذي يتضاءل في جنبه كل جمال، فهؤلاء يؤثرون في أممهم، لأن القلوب تحس بالقلوب وإن طال المدى ومضت عصور ودهور، وأي أمة خلت من هؤلاء العشاق لهذا الجمال فهي لا محالة مريضة مرضاً لا يزيله إلا ظهور حكماء عشاق لهذا الجمال،

فهؤلاء إذا اطلعوا على هذه الحكم يدهشون من كوكب بيننا وبينه آلاف السنين وضوؤه يصل إلى عيوننا، وهذه العيون لما خلقت وضعت على مقتضى نواميس الضوء المرسل من أبعاد شاسعة، وهذا الضوء يمر في أوساط لكل وسط منزلة خاصة، فمنها ما يحفظ الصورة التي يحملها الضوء، ومنها ما يجمع الضوء، ومنها ما ترسم الصورة عليه ويوصلها إلى ما خلفها.

إن الإنسان إذا نظر إلى هذه الشبكية يدهشه أمرها، فما هذه الطبقات في تلك المسافة الضيقة؟ فهل سمك الحدقة يتخلله تلك الملايين ومئات الملايين؟ إن ذلك أمر عجب.

علم الله أن المسلمين سينامون نوماً عميقاً، وهم يجهلون رحمته الواسعة، لغفلة أكثرهم عن العلوم، فأنزل: ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ تقرأ في الصلوات، وفي الغدوات والروحات، وفي مبدأ الأكل والملبس، وكل أمر ذي بال، إذن ذكر الرحمة ملازم للمسلم في جميع أحواله، أليس هذا معناه: ادرسوا الرحمة أيها المسلمون، ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾[محمد: ٢٤]، وهذه آية من القرآن، فأين التدبر إذن؟.

إن العين وعجائبها وعجائب الضوء من الرحمة العامة التي غفل عنها أكثر الناس في الأرض، وكل من درسها وتعمق فيها فإنه في هذه الدنيا قد نال السعادة الحقيقية، وأي سعادة لهذا الإنسان أعظم من الاطلاع على الحقائق، إن الحقائق وفهمها هي السعادة الحقيقية لهذا النوع الإنساني، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ولا يستعدون.

ومن أعجب العجب أن الاطلاع على هذا الجمال بدراسة العلوم سعادة للنفس، فما نكتبه في هذا التفسير وغيره يرقي الناس في هذه الحياة الدنيا، إذن فهم الرحمة في هذه العجائب مسعد للنفس في الدنيا والآخرة ومرق للمدينة في هذه الحياة.

الله أكبر، أنا أقول: سيكون في بلاد الإسلام كثيرون من هؤلاء العشاق، لأن الله أذن بذلك اليوم وهؤلاء هم الذين يملؤون بلاد الله علماً، ويكونون رحمة لجميع الأمم بعد أن يرقوا أمم الإسلام، لهذا أنزل الله: ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾، وكررت في كل مقام في جميع الأحوال.

تأثير الضوء في النبات والحيوان والجماد

فقال صاحبي: أتذكر أن في سورة «يس» كلاماً حسناً على الضوء وتأثيره، وهناك الصور الشمسية للورق، وفي كل ورقة حجرات تعد بالآلاف؟ فقلت: نعم، إننا ذكرنا هناك أن مقادير غاز حمض الكربونيك في الجو قليلة، فهي بالنسبة إلى الهواء كنسبة واحد إلى ألف ألف، والفحم الصافي في الجو ١٣٨ ألف ألف ألف طن تقريباً، والنبات بتعرضه للهواء يمتص غاز حمض الكربونيك من الجو بمساعدة الأوراق، ولن يتم ذلك إلا بمساعدة الشمس، إذن الشمس لها أثر نهتدي به في أعمالنا وطرقنا، وفي النبات بإحداثها في معامل الأوراق تفاعلاً به يكمل النبات ويعيش الحيوان والإنسان، وهذا الموضوع قد تعرض له مؤلف كتاب «علوم للجميع»، وقد أوضحناه الآن إيضاحاً أتم، وذكر أن المستشفيات أماكنها المعرضات للشمس أكثر تكون أقرب إلى صحة المرضى من غيرها. فقال: الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات. وبهذا تم الكلام على تركيب العين ومعرفة أجزائها، ليعرف المسلمون

ما هو النظر المذكور في آية: ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴾[ق:٦]، وهو المبحث الأول من اللطيفة الثانية.

المبحث الثاني من اللطيفة الثانية
في عجائب السماء والكواكب

وإذ فرغنا من الكلام على العين فلنبحث الآن في نجوم السماء وشموسها ومجراتها وسدمها، فنقول ومن الله التوفيق:

الكلام على السماء

قلت لك أيها الأخ الذكي فيما تقدم: إن هذا العالم مملوء جمالاً، وهذا الجمال مخبوء عنا، وهو حاضر لدينا، هذه عيوننا كيف نرى تركيبها في غاية العجب، بل هو كالسحر، فما هذه الشبكية التي تبلغ عشر طبقات، وإذا كان غلظها لا يزيد على نحو جزء من ستة أجزاء من المليم فكيف تنقسم إلى عشر طبقات؟ وكيف يكون في الطبقة الواحدة (٣) ملايين مخروط و(٣٠) مليون عمود، والأعمدة والمخاريط تقدم تصويرها موضحة في صورة مرسومة آنفاً لإيضاح الأعمدة والأساطين، تجد ثلاثة مخاريط تتخلل ست أساطين موضحة باهرة جميلة.

فيا ليت شعري كيف تكون الطبقات الباقية من الشبكية فكم فيها من أشكال، وإذا ضربنا عشرة في (٣٣) مليون يكون عندنا (٣٣٠) مليوناً كلها في الشبكية، والشبكية طبقة واحدة يحيط بها نحو تسع طبقات، فتكون (٣٣٠) أخرى لطبقة واحدة من التسع، ويصير الطبقتان (٦٦٠) مليوناً، وليس هذا الحساب مدققاً بل هو تقريبي، وعلى هذه بقية الطبقات، والعين الثانية كذلك، فيكون عندنا ملايين تعد بالآلاف إذا فرض أنها مثلها في تعداد أشكالها، وإذا فكرنا فيما هو أعظم من ذلك وهو الدماغ؛ وأخذنا جزءاً صغيراً منه وهو المادة السنجابية؛ فإننا نراها (٦٠٠) مليون خلية، والمادة السنجابية بالنسبة للدماغ ضئيلة، فكيف يكون جميع الدماغ؟ وكيف يكون عدد خلاياه؟ إن هذه العجائب العلمية المتقدمة في النظر تلفت عقولنا للمنظورات السماوية والكواكب، ونحن إذا أردنا الكلام على السماوات فإننا لا ندري في أي باب نكتب، وهذا العلم له شعب كثيرة، وخير ما نختاره اليوم أن نذكر سعة السماوات وكثرة نجومها، حتى نوازن ما بين كثرة الكواكب وكثرة الأشكال العجيبة في أعين الحيوان والإنسان.

(١) فنحن لا نقف في هذا المقام على بعد القمر عن الأرض.

(٢) وإنه ٢٣٨٨١٧ ميلاً.

(٣) ولا على عطارد الذي يتم دورته المحورية في ٢٤ ساعة و ٨ دقائق.

(٤) ولا عن الزهرة التي لا يزيد يومها عن ٢٣ ساعة ونيف.

(٥) ولا على المريخ الذي ظهر للعلماء أن الثلج في قطبيه لا يذوب إلا ببطء، ويؤكد الأستاذ «بكرنج» أن ترع المريخ حقيقية لا خداع فيها، وله غيوم تسير حوله، ومن رأيه أيضاً أن النبات في المريخ مؤكد الآن، وكذلك بعض الحيوان، وقد كان الرأي السائد أولاً أن في المريخ سكاناً، ثم تغير

الرأي فقالوا لا سكان فيه، ثم رجعوا الآن وقالوا فيه سكان، وقاسوا طول بعض الغيوم فيه فوجدوه بلغ (١٢٠٠) ميل والعرض (٥٠٠) ميل ويسير بسرعة ١٤ ميلاً في الساعة، ولم يقتصر العلامة « بكرنج » على أن فيه نباتاً وبعض الحيوان، بل قال: إن فيه عقلاء وهم يريدون مخاطبتنا.

(٦) وهكذا المشتري وأقماره التسعة.

(٧) ولا نكتفي أيضاً بمعرفة زحل وحلقاته الثلاث المتقدمة في هذا التفسير وأقماره العشرة.

(٨) ولا بأورانوس وأقماره الأربعة.

(٩) ولا بنبتون الذي يدور حول محوره في سبع ساعات وخمسين دقيقة.

(١٠) ولا بالسيار الجديد الذي كشف سنة ١٩٣٠ في ١٣ مارس المسمى « بلوطو ».

(١١) وإذا بحثنا في نظام شمسنا الآن فإنا نجعله توطئة لما بعده، لأن ذلك شرحناه سابقاً في سور كثيرة.

إن الشمس نجم صغير جداً بين مئات الملايين من الشموس الكبيرة، وهي فوق سطح المجرة وتبعد عنه (٥٠ , ٠٠٠) خمسين ألف سنة نورية، وليست مقيدة بذلك بل هي سائرة مع شموس أخرى بسرعة مليون ميل في اليوم، وآخر كشف لبعدها عن الأرض أنه ٩٢ , ٨٣١ , ٠٠٠ ميلاً، وحرارتها على سطحها (٧٤٠٠) درجة بمقياس سنتغراد، وذلك سنة ١٩١٠م، وعلى سطح الشمس قد ترى كلف كثيرة كالتي رآها العلماء سنة ١٩٠٧م ومجموع مساحتها (٨٠٠) مليون ميل مربع، ثم ظهر مجموع آخر بعد ذلك مساحته ألفا مليون ميل مربع، وكلما ظهرت هذه الكلف نقصت الحرارة على الأرض، وهي من نتيجة ظهور كلف الشمس، إن الشفق القطبي الشمالي يظهر إذ ذاك ويبهر، ويقال: إن أحوال كلف الشمس الظاهرات على وجهها تشبه براكين ثائرة، فتدفع منها مواد مكهربة تنتشر في الفضاء، فيصل بعضها إلى الأرض ويسبب الشفق القطبي، ومنه الذي ظهر في أوروبا بشكل بديع حتى وصل إلى سوريا ورؤي رأي العين.

وإذ ذكرنا نبذة عن الشمس فلننتقل إلى عوالم أخرى ونجوم جديدة، إن أول نجم جديد عرفه الناس كان قبل الميلاد سنة ١٣٤ ق.م، ثم ظهر من ذلك الزمن إلى الآن ١٩ نجماً جديداً، أي إنها ظهرت أو خلقت بعد أن لم تكن.

ويقول الأستاذ « شابلي » في جامعة « هرفرد »: إن النجم الصغير الذي اسمه « دورادس » تابع لغيوم « مجلان »، بعده عنا (١٢٠) ألف سنة نورية، ويلمع فوق لمعان شمسنا (٦٠٠) ألف مرة، وظهر في غيوم « مجلان » نجوم يفوق لمعانها لمعان شمسنا من (١٥٠٠٠) إلى (٦٠) ألف شمس.

يقول الدكتور « ديزن » في خطبة تلاها في المعهد العلمي بلندن: إن من النجوم ما يبعد عنا (١٠٠) برسك، والبرسك ٢٠٠ , ٠٠٠ مائتا ألف ضعف بعد الشمس عنا، وإشراقها يختلف أيضاً فترى:

٢٤ نجماً إشراق كل منها مثل ١٠٠ شمس

٣٤٠ نجماً إشراق كل منها مثل ٥٠ شمساً

١٣٥٠ نجماً إشراق كل منها مثل ٢٥ شمساً

٤٨٤٠ نجماً إشراق كل منها مثل ١٠ شموس

١٣٢٠٠ نجماً إشراق كل منها مثل شمس واحدة

٩٣٣٠٠ نجماً إشراق كل منها مثل $\frac{١}{١٠}$ شمس

فنجم القطب من النوع الأول وبعده عنها أربعة ملايين بعد الشمس عن الأرض، أي ٣٧٢٠ مليون مليون ميل، وهناك نجوم أبعد من نجوم القطب وأشد إشراقاً منها، فترى هناك ٢٦٩ من النجوم الحمراء بعدها عنا (٢٠٠) مليون بعد الشمس عن الأرض، والنجوم الصفراء منها ما بعده عنا أقل من ٢٠ مليون بعد الشمس عن الأرض، ومنها ما بعده عنا أكثر من ١٠٠ مليون بعد الشمس عن الأرض.

شمس الشموس

لقد تقدم في الجزء الأول في هذا الكتاب في أوله أن جميع الشموس في مجرتنا تجري حول شمس عظيمة، وهذه الشمس تسمى «شمس الشموس» وهي العيوق ـ بتشديد الياء ـ التي تدور كواكب المجرة كلها حوله، ويقولون: إن جرمه أكبر من الشمس مليونين و٤٢٠ ألف مرة، وإشراقه أكبر منها ٤٩٧٠٠ مرة، وبعده عنا ٤٨٩ سنة نورية.

ويقولون: إن جميع الشموس ومنها شمسنا تدور حوله، وعدد هذه النجوم في مجرتنا ٣٠ ألف مليون نجم أو شمس، وقطر المجرة يقدر بنحو ٣٠٠ ألف سنة نورية، وقطر السديم الذي في المرآة المسلسلة يبلغ عشرين ألف سنة نورية، وأخفى السدم يبعد عنا ١٠ مليون سنة نورية.

ومن أعجب العجب أن تظهر اليوم سدم جديدة، فقد كشف «هنزل» أكثر من ألفي سديم في ٩٠ صورة فوتوغرافية، ووجد منها ٨٠٠ سديم ألمع من غيرها، ومن هذه ٣٠ حلزونية، وهناك سدم لولبية، ومنها سديم المثلث، وهذا السديم يبعد عنا ٨٠٠,٠٠٠ سنة نورية، فهو أبعد جداً من المجرة ومجرتنا المذكورة يظن بعض علماء الفلك أنها سديم لولبي أيضاً، ولا يراها هكذا إلا من كان بعيداً جداً، ويبعد سديم المرأة المسلسلة ٦٠٠,٠٠٠ سنة نورية، ويطول قطره ٢٠,٠٠٠ سنة نورية.

ويقول «هبر»: إن بعده ٩٥٠ ألف سنة نورية، وهو أبعد سديم عرف إلى الآن، إن السدم على اختلاف أنواعها عبارة عن عوالم كعالم مجرتنا التي تحوي ٣٠ ألف مليون شمس كما تقدم، ولقد قلنا إن سديم المرأة المسلسلة فيما تقدم أن بعده فوق ٩٠٠ ألف سنة نورية، وهناك في جهة كوكبة «شعر برنيقي» والسنبلة سدم بعدها عنا مليون سنة نورية، وسرعة بعضها ٣٠٠ كيلو متر في الثانية، وبعضها ٦٠٠ كليلو متر فيها، وقد ظهرت أبعاد مجموع من نجوم وسدم تبلغ ٢٨٢٢ للأستاذ شابلي، إذ أبعدها كلها مليون سنة نورية، فلو أن كوكباً منها فقد منذ ٩٠٠ ألف سنة فإن نوره لا يزال يجري إلى الأرض، ويبقى بعدنا مائة ألف سنة، وهذه عجائب فوق عقولنا، ما أوسع هذا الكون! إن النور يسير في الثانية ١٨٦ ألف ميل، وإذا دار حول الأرض لم يستغرق أكثر من سبع ثانية، وإذا دار حول هذا العالم احتاج إلى مائة مليون سنة نورية، وأرضنا لو صغرت كالجوهر الفرد كما قدمنا؛ وصغر العالم على مقتضاها؛ رأينا ألف مليون أرض منتشر حولها.

قدمنا أن في مجرتنا (٣٠) ألف مليون شمس، وكل شمس لها سياراتها وتوابعها كشمسنا، وفي الفضاء مليونان من السدم، وكل سديم أشبه بمجرتنا، وفي الكون فضاء يفوق الفضاء الذي يرى بالتلسكوب ألف مليون ضعف، ويقدر عدد السدم فيه إذ ذاك بما يبلغ ألفي مليون مليون سديم، فإذا كان في كل سديم منها ألف مليون نجم كان عدد النجوم في الفضاء المنظور وغير المنظور نحو ٢ على

يسارها ٢٤ صفراً، أو ٢ مليون مليون مليون كوكب، أو ٢ ألف ألف ألف ألف ألف ألف ألف كوكب. ولأقتصر على هذه الخلاصة الآن من علم السماء لتعرف أيها الأخ رحمة الله الواسعة، وإسعاده لنا، وإشراق نوره علينا.

الله أكبر، ما هي هذه السماء؟ وما هي عيني التي تنظر السماء؟ اللهم حار فكرنا في جمالك، ما هذه السماء؟ وأي عالم تسير فيه الكواكب؟.

الله أكبر، انظر أيها الأخ الذكي فيما كتبناه في سورة «الصافات» في أولها، واعجب من أن عالم الأثير الذي تجري فيه هذه الكواكب المذكورة عالم لا يحس ولا يرى، ولكنه وهو كالمعدوم أثقل من الحديد والرصاص والذهب أضعافاً مضاعفة، أي أنه لو كان جرماً لكان كذلك، فارجع إليه هناك وادرسه، فهذا الفضاء المملوء بالأثير الذي لا ندرك وجوده أثقل من أثقل المواد الأرضية، وهذا أمر عجيب غريب، وهو مع غرابته تسبح فيه عوالم تبلغ إذا عرفت كلها ملايين الملايين، وكل عالم منها يشابه مجرتنا التي تجمع ٣٠ ألف مليون شمس، وهذه الأعداد مدهشة.

هذا هو الفضاء فوقنا، وهذه عوالمه، ألست أيها الذكي وأنا أدرس العين معك قد رأينا هناك ملايين من الأشكال في طبقة واحدة من عشرات الطبقات من الشبكية، وهناك طبقات أخرى، والعين جزء صغير من أجسامنا فكيف تكون حال المخ؟ وكيف تكون حال بقية الجسم كله؟ أفلا ترى معي أيها الذكي أن عيوننا تحوي من العوالم نحو عدد ما تحويه مجرتنا من الشموس، وأن مخنا في عظمته يشبه شمس الشموس في عظمتها، وأن جسمنا كله يشبه المجرات كلها والسدم كلها في عدد كواكبها.

دهشنا يا الله من عجائب عيوننا، ومن عجائب أجسامنا، ومن عجائب عوالمك الكثيرة، وبهذا عرفنا بصيصاً من قولك: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾[ق:٦].

إن في هذه السورة: (١) الرحمة في البسملة. (٢) والنظر. (٣) والسماء في الآية. ولمعرفة هذه الثلاث كتبنا هذه المقالة، وسيدرس ذلك المسلمون بعدنا قروناً وقروناً، وستفتح لهم أبواب وأبواب في هذه الثلاث، ولكنهم بعد آلاف السنين يخاطبهم الله قائلاً: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾[الإسراء:٨٥].

أيها المسلمون، «ألسنة الخلق أقلام الحق»، قد اشتهر في كل مجلس ومقام ما يقوله العامة والعلماء على حد سواء، وهو: «القرآن لا تنتهي عجائبه، ولا تنقضي غرائبه»، وفي الحديث: «إن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه يعلو ولا يعلى عليه».

الله أكبر، هاهو ذا باب العجائب قد فتح الآن، فلجوه وادرسوا، فتح على مصراعيه فاستبشروا بالسعادات والهناء الكامل.

تطبيق أقوال الصلاة على عجائب البصر وعجائب السماوات

سيقرأ هذا المقال في تفسير الرحمة وتفسير: ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[يونس:١٠١] فيقولون: إننا في الرفع والاعتدال نقول: «ربنا لك الحمد ملء السماوات وملء الأرض وملء ما بينهما وملء ما شئت من شيء بعد»، ثم يقولون: إن الحمد ليس مادة تملأ بها السماوات، وإنّما الحمد ثناء

بالجميل على من له جميل اختياري، وهذا الثناء لفظي لا ينبعث إلا عن امتلاء القلب بجميل أفعال الممدوح، إذن الحمد لا يصح إلا بعد العلم بمزايا الممدوح، والله أبرز لنا هذه العوالم وكلها بديعة، فنحن نحمده عليها، وليس يصح حمدنا عليها إلا بعلمنا بها، والعلم إنما هو صدور صورة المعلوم في نفس العالم، وعلى قدر استكمال العلم في نفس الحمد يكون حبه للمحمود، وهذا الحب يحرك اللسان بالثناء، والجوارح بالأفعال، فالمصلي يكون حمده على مقدار إحاطته بالعوالم، فذكر المصلي للسماوات والأرض وما بينهما وما بعدهما يراد علمها سواء أكان قليلاً أم كثيراً، والحمد على مقتضاه، وكلما ازداد المصلي علماً بهذا ازداد من ربه قرباً.

هذا معنى ملء السماوات والأرض إلى آخره، لأن صفات الله ظهرت آثارها في هذه العجائب وعبر عن إحاطتها بالعلم بلفظ الملء، كأن المصلي العالم قد أدرك الأشياء، فكأن علمه أحاط بها وملأها، وكل امرئ يملأ العوالم، هذا في حال الرفع والاعتدال، فأما في حال السجود فإن المصلي يقول: «سجد وجهي للذي خلقه وصوره، وشق سمعه وبصره، تبارك الله أحسن الخالقين»، فهاهنا المصلي ذكر السمع والبصر، والله يقول: ﴿ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ﴾[العلق: ١٩]، فهاهنا الاقتراب، لأن الدقة في صنع السمع والبصر كما قدمناه أحرى بأن تقرب العبد من ربه، والنظر للسماء في حال الرفع أشبه بالمقدمة لذلك، فالمسلم في ذكر السماوات كالمبتدئ، وفي ذكره السمع والبصر في السجود كالمنتهي، وهذا هو الحق الصراح، ألا ترى رعاك الله أن موضوع البصر الذي شرحناه في هذا المقام يأخذ بلب العارف به ويرى في نفسه شوقاً وحباً وغراماً، ويكاد فؤاده يطير من الحب والبهجة والجمال، ولكن ذلك لا يكون إلا لقليل من الأذكياء في هذا النوع الإنساني، بهذا يقترب الإنسان من ربه اقتراباً علمياً مع الحب والبهجة.

هذا معنى قوله تعالى: ﴿ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ﴾[العلق: ١٩]، فهاهو ذا ذكر السجود والاقتراب بعد ذكر السمع والبصر، وتشريح السمع والبصر، والوقوف على عجائبهما، وهذا يذهل اللب فيكون الحب والقرب، أما النظر إلى السماء فليس فيه هذه البدائع، فليس المدار على عظمة الأجرام كأجرام الكواكب، ولكن المدار على مقدار إحكامها ودقتها كدقة العين التي تقدم شرحها.

الله أكبر، إن الآلات الدقيقة المعدنية الفلكية قد لا تساوي درهماً أو دراهم قبل صنعها، وهي بعد الصنع قد تساوي مئات الجنيهات، وهل هذا الثمن إلا لدقة صنعها؟ ولما كان المدار على دقة الصنع والإحكام، لا على عظم الأجرام، حشرنا الله في هذه الأرض وأمرنا أن لا نطير منها إلى عوالم أخرى يريد منا أن ندرس هذه الأرض وما حولها، وهو يعلم أننا لن ندرسها إلا إذا احتجنا إلى ما فيها، وهل هناك حاجة أكبر من حياتنا نحن وبقائها، فحكم علينا أن نتغذى منها هي، وأحوجنا إلى العمل لاستخراج كنوزها، وكل هذا نتيجة ارتقاء نفوسنا، كل هذا يفهم من أقوال المصلي في صلاته، إذ يشكر ربه على السمع والبصر بعد أن شكره على السماوات والأرض، ثم سمع الله يقول: ﴿ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ﴾[العلق: ١٩]، إذن السجود به يكون الاقتراب، لماذا؟ لأنه درس أدق الأعضاء، فأما دراسة العوالم كلها إجمالاً فإنما هو تشويق للمباحث الجزئية.

اللهم إنا نحمدك حمداً كثيراً على نعمك، ونشكرك على آلائك، نحمدك على العلم، ونشكرك على الفهم، ومن أجلّ النعم أن دين الإسلام ممتزج بمصالح الدنيا، بحيث إن أجلّ العبادات وأشرف الأعمال ما كانت وجهته المنفعة العامة للأمة، فهاهي ذه مسألة العين وطبقاتها وإبداعها وجمالها كيف كانت دراستها من أسباب حبك، والاستغراق في بهجة جمالك، والهيام بالحكمة، والازدياد من العلم وكيف كان المصلي في رفعه وفي سجوده في أقواله يجمع ما بين مبادئ العلوم في الأول ونهاياتها في الثاني، وكيف كانت أقواله في الرفع منطبقة على الدراسة العامة في المدارس الثانوية في جميع مدارس العالم، لأن تلك الدراسة يراد بها الإلمام بالعوالم المحيطة بنا بقدر الإمكان، ثم كيف كانت أقواله في السجود في حال اقترابه منك موافقة كل الموافقة للدراسة الخاصة التي بها يكون الإنسان مستحوذاً على علم خاص قد ملك ناصيته.

ومن أعجب العجب أن ما تقدم في دراسة العين وما فيها من دقة الوضع وحسن الإتقان بصائر للناس وهدى ورحمة.

تسبيح المخلوقات

فهذا يفهمنا بصيصاً من معنى قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤]، ألم تر يا رعاك الله إلى سواد القزحية، وضبطه للنور فيما تقدم، وحفظه للصورة التي حملها حتى تصل إلى المخ، فهذا السواد ينظر له كل امرئ على مقتضى إدراكه، فأما العاشق فلا يهمه إلا أنه جمال ظاهري، فيكون إذ ذاك سبباً للتناسل ودوام العيش في الحياة، وأما الطبيب فإنه ينظر إليه من حيث الصحة والمرض، وفي الحال الثانية يستعمل العقاقير، فأما الحكماء فإنهم أرقى منزلة، وأرفع قدراً، ألا ترى رعاك الله أنهم ينظرون نظراً عاماً فيقولون: إن هذا السود إنّما وضع هنا لحكم، فيه حفظ الصورة وضبط الضوء، وهذه تذكرنا بألوان الحيوان المذكورة في سورة «المؤمنون» وفي سورة «الروم»، وكيف نرى أن الجمل والأسد والنمر كانت ألوانها موافقات لبيئاتها، وللرمال والجبال حولها، وكيف كان سواد الفأر لكثرة أعدائه، فلو كان بلون غيره لأظهره النور فصار طعمة للمفترسات، ثم كيف نرى ذلك الطائر الأبيض في أمريكا يظهر بذيله الطويل ليلاً وهو غير خائف ولا وجل مما حوله من الفاتكات، ذلك لأن له رائحة خبيثة يطلقها على كل من اقترب منه وآذاه، كما يفعل الظربان من ذوات الأربع في القفار، ثم كيف نرى الزنبور ظاهراً برقشه ونفسه لا يخاف عدواً، ولا يبالي بصروف الأيام، ذلك لأن له حمة تفتك بالأعداء.

هذا كله مشروح شرحاً وافياً في سورة «المؤمنون» وفي سورة «الروم» مع الصور الشمسية، فارجع إليه.

أليس هذا كله تنزيهاً لله عن العبث في أفعاله، وأنه لا يضع لوناً ولا شكلاً ولا حجماً إلا لحكمة، ولم يلون العين ويجعل في قزحيتها السواد مثلاً، ولم يجعل لها قرنية ولا رطوبة بيضية ولا قزحية ولا إنسان عين وهي الفتحة في القزحية، ولا بلورية، ولا رطوبة زجاجية، ولا شبكية ولا مشيمية، ولا صلبة، إلا لحكمة خاصة ترجع للنظر.

فيا ليت شعري هل للتسبيح معنى إلا هذا؟ هذا تسبيح وهذا حمد، أما الحمد فعلى هذه النعمة وهي نعمة العين، وأما التسبيح والتنزيه فذلك أن هذه الأشكال وهذه الطبقات وهذه الألوان ظهر أنها كلها محكمة تفوق الوصف، بهذا يفهم المسلمون قوله تعالى: ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾[الإسراء: ٤٤].

أوليس من العجب أن التعبير بلفظ الفقه هو دقة الفهم يذكر بآية «الأنعام» إذ يقول: ﴿ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾ [الآية: ٩٦]. ثم قال: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴾[الأنعام: ٩٨]، فجعل العلم في جانب علم الفلك، والفقه في جانب الإنسان وعلم التشريح. إذن قوله تعالى: ﴿ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾[الإسراء: ٤٤] يشير إلى ما في الطبيعة من العجائب كطبقات العين وبدائعها المذكورة، وقوله: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾[الإسراء: ٤٤]، فأما حلمه فهو ظاهر، فإن الإنسان منا يحلم على الأطفال والجهال إذا أخطؤوا وجهلوا، ويرى الإنسان طفله لا يعقل نعمه ولا يفهم مقدارها، فيحلم الإنسان عليه لقلة إدراكه، وهذا هو السبب في قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴾[الإنسان: ٩]، فهكذا يعامل الله عباده، فهو يعلم أنهم سيجهلون جهلاً فاضحاً ما أعطاهم من النعم، فإنا لا نجد عالماً ولا جاهلاً في نوع الإنسان يدرك نعمة العين مثلاً، ولكنه يفهم مقدار الطعام عند من أكرمه به، ويفهم العطايا المعتادة ويصبح محباً لمن أعطاه، ولكنه قط لا يتذكر نعمة العين، بل هو يجهل تفصيلها، إذن الله يعامل عباده لجهلهم بنعمه معاملة أحدنا ولده، ومعاملة أشرافنا وأنبيائنا الفقراء والمساكين، لأنهم لا يعرفون نعم المحسنين لهم، فهذا معنى كون الله «حليماً» في هذا المقام. وأما الغفران فهو راجع لمن أعطاهم الله استعداداً للعلم والفهم فدرسوا هذه العلوم فعرفوا النعمة فأحبوا مسديها كما يحب الرجل العامي من أعطاه مالاً، أو كساه ثوباً، والغفران هنا كالغفران في أول سورة «الفتح» الذي جعل باباً للفتح بالعلم والمعرفة، فالله حليم على عبده لجهله، فإذا استعد للعلم وبه يعرف النعمة ويحب ربه يجعل الغفران لذلك الفتوح، والله هو الولي الحميد.

سر من أسرار حكم العين وسواد قزحيتها

سواد القزحية حفظ النور كما تحفظ الجسور ماء الأنهر، وكما تحفظ القوة الغضبية أشخاص الحيوان، فهاهنا نور حفظه سواد القزحية في العين، وهاهنا ماء حفظه الجسور، وهاهنا قوة شهوية في الحيوان أحاطت بها قوة غضبية لتحفظ بقاءها بمدافعة الفاتكات، وهاهنا أمم تحفظ جيوشها من هجوم الأعداء، إذن سواد العين، وجسر النهر، وغضب الحيوان، وجيوش الدول، كل هذه حافظات لما ينفع الإنسان من نور وماء وحياة فرد أو حياة أمة. انتهى الكلام على اللطيفة الثانية في آية: ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴾[ق: ٦]، أي: مبحثيها معاً، وهما: مبحث العين وطبقاتها، ومبحث السماء ونجومها، وكل هذا قد لوحظ في ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ والحمد لله رب العالمين.

اللطيفة الثالثة:في قوله تعالى:

﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَـٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ ﴾

في هذه اللطيفة مقالتان:

المقالة الأولى:في قوله تعالى:

﴿ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ ﴾

لما وصلت إلى هذا المقام حضر صاحبي العالم وقال: لقد تقدم في هذا التفسير مقالات كثيرة في النبات، ولكني أريد اليوم الوقوف على ملخص علم النبات بحيث يكون كأنه حاضر أمامي. فقلت: أيها الأخ الذكي، إن هذه الأرض والعوالم حولها كثيرة كثرة لا ضابط لها إلا العلم، ولا جرم أن النباتات على الأرض مبعثرة مشتتة ولن يضبطها إلا الوحدة. فقال: ما معنى الوحدة هنا؟ فقلت: إن عقول الناس في هذه الأرض مشغوفة بالوحدة، لأن الوحدة هي التي تطمئن بها القلوب، ألا ترى أنهم يجعلون لكل منزل رب أسرة، ولكل بلدة رئيساً، ولكل أمة ملكاً أو أميراً أو رئيس جمهورية، كل ذلك للوحدة، ونظير هذا في العلوم، فإنهم قسموها إلى مجموعة سموها علماً، ثم قالوا: هذه العلوم كلها تسمى واحداً، وهذا الواحد انقسم إلى علوم، وكما يرجعون جميع الأعداد إلى الواحد ويرجعون العالم كله إلى الوحدة، فيقولون: الله خلق العالم، أي: بعد البحث والتمحيص، فهناك تطمئن القلوب الحكيمة التي درست هذا الوجود كله دراسة حقيقية، أما العامة وصغار المتعلمين فهم من واد واحد يعيشون ويموتون وهم متحسرون على السعادة الحقيقية وهي الاطمئنان ووقوف النفس على الحقائق، لا سعادة لأهل هذه الأرض إلا في هذه المسألة، التي هي مسألة المسائل، فهكذا فيما نحن فيه وهو علم النبات، وما علم النبات إلا كجميع هذه العوالم، نراها مبعثرة مشتتة، نهر، بحر، أرض، جمل، جبل، جيش، أكواخ، سحب، كواكب، هواء، ذئب، أسد، حمل، حمار، غزال مسك، وهكذا أمور لا يدري الإنسان أولها ولا آخرها، فبالعلوم والحكمة تضبط هذه كلها، كذلك علم النبات فإنا نقول: أرز، نخل، حشائش، عبل، فجل، صنوبر، قمح، وهكذا لا ضابط ولا قانون فلا علم، وإنما هي أمور مبعثرات هنا وهناك، فإذا رجعناها للوحدة سعدنا وأحسسنا في أنفسنا بسعادة علمية جزئية، ومتى درسنا مجملات العلوم كلها ورجعناها لوحدتها سعدنا السعادة التي لا نهاية لها في نفس هذه الحياة سعادة معجلة محققة.

فقال صاحبي: والله لقد شوقتني إلى هذه الوحدة في النبات التي بها تكون سعادتي. فقلت: إن جميع الكائنات الحية نباتية كانت أو حيوانية مركبة من وحدة أو وحدات صغيرة تسمى كل منها خلية، وهذه صورتها. (انظر شكل ٨).

(شكل ٨)

وأشرحها لك فأقول: إذا تركب جسم النبات من خلية واحدة سمي « وحيد الخلية »، أما إذا تركب من جملة خلايا فيقال له « عديد الخلايا »، وتتركب مادته من جدار خارجي مادته كربوأيدراتية صلبة مرنة شفافة تسمى « السيليلوز »، وفي داخل الجدار مادة لزجة تسمى « البروتوبلازم »، وهو الجزء المهم في الخلية، لأنه هو المادة الحية، ولسنا نعرف بالضبط كنه الحياة، غير أن للمادة الحية المسماة « البروتوبلازم » صفات تميزها عن الأجسام الميتة منها:

أولاً: أن للبروتوبلازم القدرة على هضم وتمثيل الغذاء، أي: تحويله إلى مركبات بروتوبلازمية.

ثانياً: أنه يؤكسد الغذاء ويخرج الفضلات.

ثالثاً: أن له القدرة على النمو.

رابعاً: أن له القدرة على الحركة.

خامساً: أنه يتأثر بالضوء والحرارة والرطوبة.

سادساً: أن له قدرة على التكاثر والتوالد.

وبروتوبلازم الخلية يشمل جسماً براقاً أكثر كثافة منه يسمى « النواة »، والمادة البروتوبلازمية التي حول النواة تسمى « السيتوبلازم ».

النواة

تتركب النواة من شبكة مكونة من قضبان صغيرة تسبح في سائل يعرف بـ« السائل النووي »، ويحيط بالنواة من الخارج غشاء رقيق هو « الغشاء النووي ». (انظر شكل ٨)، وقد يوجد داخل النواة جسم كروي صغير يسمى « النوية »، وقد تحتوي النواة على نوية واحدة أو أكثر.

والنواة أهم جزء في الخلية، ويمكن الاستدلال على ذلك بقطع الخلية إلى قسمين: يشمل الأول منهما نصف البروتوبلازم بما فيه النواة كلها، ويكون الثاني خالياً من النواة، أما القسم الأول فينمو ويستعيد ما نقص منه، وأما الثاني فيموت بعد فترة من الزمن. اهـ.

فقال صاحبي: إذن هذه الخلية هي أصل كل حيوان وكل نبات؟ فقلت: نعم. فقال: يظهر لي أن هذه الخلية أشبه بمنزل فيه أسرة تسكنه لأنه محيطها، والسيليلوز يحفظ ما في داخلها وهو الجزء المهم، إذن هي كالجوزة، أو كرأس الإنسان لها عظام في داخلها المخ. قلت: نعم نطقت بالصدق، وأيضاً في الحيوان قوة يحافظ بها على نفسه تسمى غضبية، وقوة بها يعيش وهي الشهوية، فالأولى كالمسكن، والثانية كالسكان، إذن القاعدة واحدة في هذا النظام العالمي، وهذه الآراء هي مبدأ السعادة التي حدثتك عنها، فإذا أمكننا إرجاع كل نبات إلى تلك الوحدة وأخذنا نفرع عنها فروعاً تشمل كل النبات، كان ذلك سعادة جزئية خاصة بالنبات.

فقال: أريد التفصيل بعد هذا الإجمال.

فقلت: إن النبات على قسمين: دنيئة ومرتقية.

فالدنيئة يكون انقسام الخلية فيها انقساماً مباشراً.

والمرتقية يكون الانقسام فيها غير مباشر.

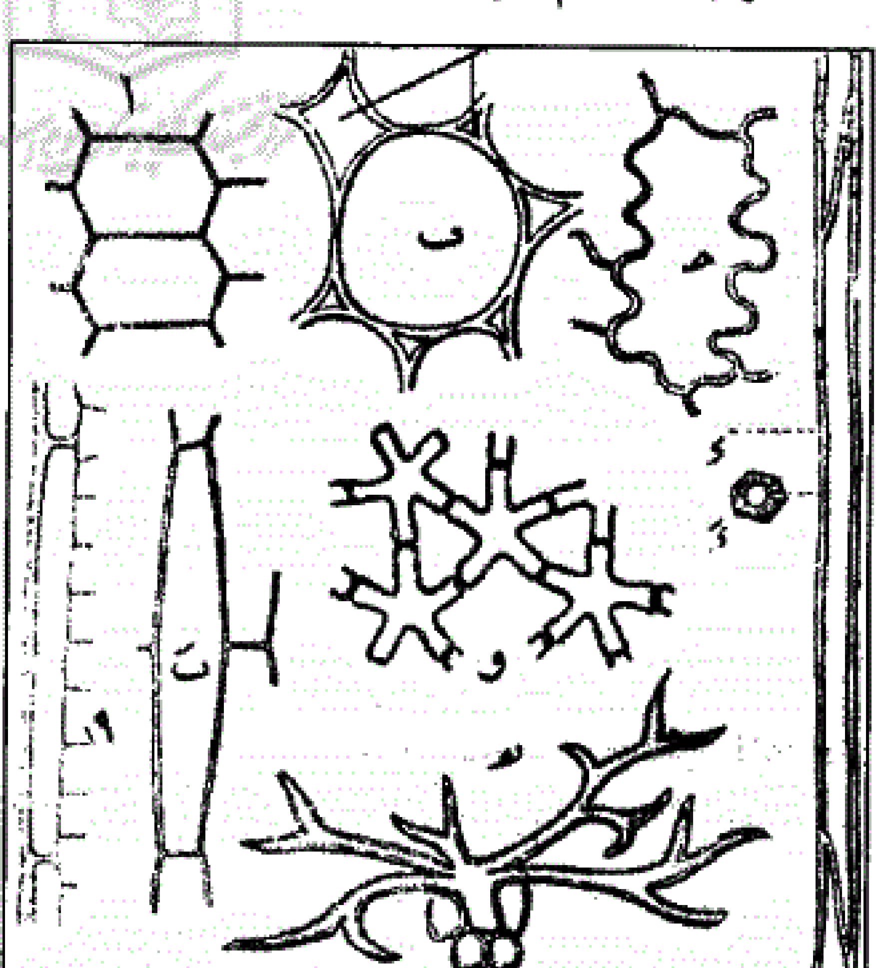
١ـ الانقسام المباشر: تكون طريقة الانقسام في خلايا بعض النباتات الدنيئة في الغالب بسيطة فيحصل حز في وسط النواة يمتد إلى باطنها شيئاً فشيئاً حتى تنقسم إلى قسمين، يتبع ذلك انقسام السيتوبلازم، ويسمى هذا النوع بالانقسام المباشر.

٢- الانقسام غير المباشر: انقسام النواة في الخلايا العادية للنباتات الراقية يكون أكثر تعقيداً منه في الحالة السالفة (شكل ٩)، فعندما تأخذ النواة في الانقسام تنفصل القضبان التي تتكون منها الشبكة النووية، ثم ينشطر كل منها طولياً إلى شطرين متساويين ومتشابهين من كل الوجوه، وينجذب كل من الشطرين إلى قطب الخلية، المقابل له، فتجمع أنصاف القضبان في قطب، والأنصاف الأخرى في القطب الآخر، ثم تتحد أفراد كل مجموعة مكونة بذلك شبكة نووية جديدة وينشأ بعد ذلك تكون غشاء في السيتوبلازم يفصل النواتين الجديدتين، وتنقسم الخلية بهذه الطريقة إلى خليتين تكون نواتاهما متشابهتين في صفاتهما وعدد قضبانهما، وتسمى هذه الطريق بالانقسام غير المباشر. اهـ.



(شكل ٩)
انقسام الخلية غير المباشر
١ ـ ٩ أدوار مختلفة في الانقسام

ثم قلت: انظر أيها الصديق إلى الخلية الواحدة، ألا تراها كمنزل تسكنه أسرة، ثم انظر كيف صار هذا المسكن مساكن بطريقة تخالف طرائقنا في بناء مدننا، فنحن نبني بيتاً بجانب الآخر، أما هذه الخلية فإنها تكبر وتنقسم بطريقتين مختلفتين. فقال: حسن ولكن أريد أن أعرف هل هذه الخلايا شكلها واحد أم هي أشكال مختلفات؟ فقلت: كما أن الناس اختلفت أشكالهم هكذا تختلف أشكال هذه الخلايا، بل إن هذا أمراً عجباً! ذلك أن هذه الخلايا تعمل عمل العقلاء من الناس، فإن العقلاء يجعلون الهواء يتخلل بيوتهم، هكذا هذه الخلايا فهي مختلفة في صورها كالناس محكمة نظام وضعها بحيث يتخللها الهواء. (انظر شكل ١٠).



(شكل ١٠ ـ «أ» خلايا مرستيمية. «ب بَ» خلايا برنشيمية.
«حـ حـَ» خلايا البشرة ويرى جدارها العلوي غليظاً.
«د دَ» خلايا ليفية. «هـ» خلية شعرية وبرية متفرعة.
«و» خلايا نجمية الشكل بينها مسافات بينية واسعة.

إن الخلايا البالغة متعددة الأنواع مختلفة التركيب، فما كان منها متساوي الأقطار كروياً أو مستطيلاً قليلاً رقيق الجدران، وبه فجوة وسطية سمي بالخلايا البرانشيمية، وعندما تنمو الخلايا البالغة تتفكك أركانها، ويتكون بينها وبين بعضها مسافات يتخللها الهواء تسمى بالمسافات البينية، (شكل ١٠ ـ ب)، وهي موزعة في النبات بحيث يتمكن الهواء من تخلل جميع أجزائه، وقد تستعمل المسافات البينية لتخزين بعض منتجات الخلايا كما في نبات الصنوبر.

ثم قلت: انظر للصنوبر والبرتقال والليمون مثلاً كيف فعلت ما نفعله نحن، فإننا نضع أمتعتنا في الخلاء الذي داخل مساكننا، وإلى الغاب كيف تحللت منه خلايا ليكون فيها هواء كما تفعل الحكومات إذ تهدم أبنية لتجعل فيها الشوارع.

فقال صاحبي: أما الآن فإني قد فهمت وحدة النبات فهماً حقيقياً، فأريد الآن أن أعرف أدنى النباتات وأعلاها. فقلت: أما أدنى النباتات فهي النباتات الدنيئة التي تتركب أجسامها من خلية واحدة تقوم هذه الخلية بجميع الوظائف اللازمة كالامتصاص والتنفس والنمو والحركة والتناسل، أما في النباتات الراقية فيتكون جسم النبات الواحد من عدد لا يحصى من الخلايا، ولكي يقوم النبات بوظائفه خير قيام تتخصص مجاميع من خلاياه بأعمال خاصة، وتسمى كل مجموعة بالنسيج، وعلى ذلك يكون النسيج عبارة عن مجموعة من الخلايا المتشابهة في الأصل، وغالباً في الشكل تقوم بعمل متماثل، وأنسجة النبات الحي تتعاون جميعاً في تأدية وظائفه الحيوية، ولا يمكن للنسيج الواحد منها أن يستقل بذاته، ولو فصل عن باقي الأنسجة لماتت خلاياه تدريجاً.

ثم قلت: انظر أليس تركيب النبات بقسميه كتركيب الجسم الإنساني العام. فقال: وكيف ذلك؟ فقلت: ألست ترى أن النباتات الدنيئة التي هي من خلية واحدة وهي التي لا نراها بأعيننا التي تشبه في صغرها أدنى وأصغر الحيوانات الذرية التي لا نراها أيضاً قد أشبهت رجال البادية، فإن البدوي في خيمته هو كل شيء، وهو الذي له السلطة على منزله، وهو المدافع عنه، وهو الحافظ له، ويعيش مستقلًا كأنه دولة واحدة، أما النباتات الراقية فهي حتماً أشبه بالأمة التي فيها جماعات، كل جماعة لها عمل، كرجال المالية والعسكرية والزراعة والتجارة والطب الخ، وكما أن كل فوج من هؤلاء في الجمعية الإنسانية لا قيمة له مستقلًا، هكذا كل فوج من جماعات الخلايا إذا استقل فإن خلاياه تموت.

وسترى في سورة «الواقعة» عند آية: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴾[الآية: ٤٥] الخ؛ أن الأمم كلما كانت أقرب إلى خط الاستواء كانت أكثر تعرضاً للأمراض، وكلما بعدت عنه كانت أبعد عن تلك الأمراض، وذلك أن الرطوبة والشمس بهما تنتشر الأمراض في الأول، وعلى ذلك إذا لم تقم كل جماعة بما يخصها في حفظ البلاد كدرس حال الجو وحال الحشرات وأسبابها والوقاية منها فإن الأمراض تكثر وتضعف الأمة، كما يهلك النبات الراقي بكسل جماعات منه وضعفها.

فلما سمع صاحبي ذلك قال: أريد أن تشرح لي أولاً النباتات ذات الخلية الواحدة، وبعد ذلك تشرح لي النبات المركب من خلايا كثيرة منه. فقلت: أذكرك بما مر في سورة «حم فصلت» في المجلد التاسع عشر عند آية: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَـٰشِعَةً ﴾[فصلت: ٣٩] فإنك ترى هناك البكتريا

وأنواعها مرسومة مختلفة الأشكال وبها الحياة وبها الموت، فلولاها لم يكن نبات مما ننتفع به، لأنها هي التي تفتت المواد الغذائية لتكون صالحة لأن يمتصها النبات، ومنها تكون الجراثيم القاتلة المهلكة لنوع الإنسان، ولكن منافع هذه الأنواع أكثر من ضرها، لذلك أبقاها الله في الأرض، ومن النبات الدقيق الفطري الذي هو خلية واحدة الخميرة ونحوها، هذا هو الذي تقدم.

فنحن إذن لا نعيده هنا فإنه موضح هناك أي إيضاح. فقال: نعم. فقلت: إذن نرجع إلى ما نحن فيه ونشرح تركيب ساق الشجرة، فإذا كان النبات المركب من خلية واحدة قد تقدم شرحه؛ فلنتمم الآن النبات المركب من خلايا، ونبدأ بشرح ساقه، سواء أكان النبات من ذوات الفلقتين أم من ذوات الفلقة الواحدة، فذوات الفلقتين مثل: الكرنب، والقنبيط، والفجل، واللفت، والشليك، والتفاح، والكمثرى والمشمش، والخوخ، والكريز، والبرقوق، والورد، والباذنجان، والطماطم، والتبغ، والبطاطس، والفلفل، والسنط، والقثاء، والبلخ، والمستحية، والتمر هندي، والخروب، والسنامكي، والفول البلدي والفول الرومي، والفاصوليا، والعدس، والحلبة، والحمص، والفول السوداني، واللوبيا، والبسلة، واللبلاب، والترمس، والبرسيم البلدي، والبرسيم الحجازي، والقطن، والبامية، والخبازي، واللوف، والحنظل. فهذه كلها من ذوات الفلقتين.

أما ذوات الفلقة الواحدة فذلك مثل: البصل، والثوم، والكراث البلدي، والكراث أبو شوشة، والهليون، والصبار، والنخل، والدوم، وجوز الهند، والقمح، والأرز، والذرة الشامية، والذرة العويجة الرفيعة، والشوفان، والشيلم، والدخن، والدنيبة، وقصب السكر، والغاب.

فقال: هذا حسن، قد عرفت ذوات الفلقة الواحدة وذوات الفلقتين، وكنت أود أن أعرف ذلك من قبل ولكن الحمد لله على نعمة العلم، فأريد الآن أن تشرع في شرح ساق كل منهما لأنك شوقتني إليه، فإنني أرى الفول والفاصوليا والعدس والحلبة والحمص مثلاً وآكلها، ولكن لا أعرف كيف يكون تركيب ساقها، ومن العار أن يكون الجمال حاضراً أمامنا ونحن عنه غافلون كالعميان أمام الغادات الحسان. فقلت: إن النبات ذا الفلقتين تكون أول طبقة منه يراها الإنسان:

(١) ما يسمى «كيوتين» وهي مادة شفافة مرنة، تمنع نفاذ الماء والهواء، وبذلك تقي النبات تأثير الجفاف من زيادة بخر مائه الداخلي، وقد يكون الكيوتين سميكاً في النباتات التي تعيش في المناطق الجافة ورقيقاً في النباتات التي تعيش في المناطق الرطبة، هذه هي الطبقة الأولى. ثم قلت:

(٢) الطبقة الثانية: البشرة المركبة من طبقة سمكها خلية واحدة، وهي خلايا متلاصقة حية، وليست بينها مسافات. (أ) وهذه البشرة قد يمتد منها شعر رفيع، وكل شعرة من خلية أو خلايا، وقد يفقد الشعر ما في داخله فيمتلئ بالضوء فيظهر كأنه أبيض، وتارة تكون فيه مادة لاذعة تحافظ على النبات مما يأكله، فهي له وقاية حقيقية. (ب) وفي هذه البشرة ثقوب، وتسمى ثغوراً، وظيفتها أن يدخل منها الهواء ويخرج.

(٣) الطبقة الثالثة: القشرة وخلاياها رقيقة جداً، بينها مسافات، وتارة تكون خلاياها سداسية الشكل تقريباً.

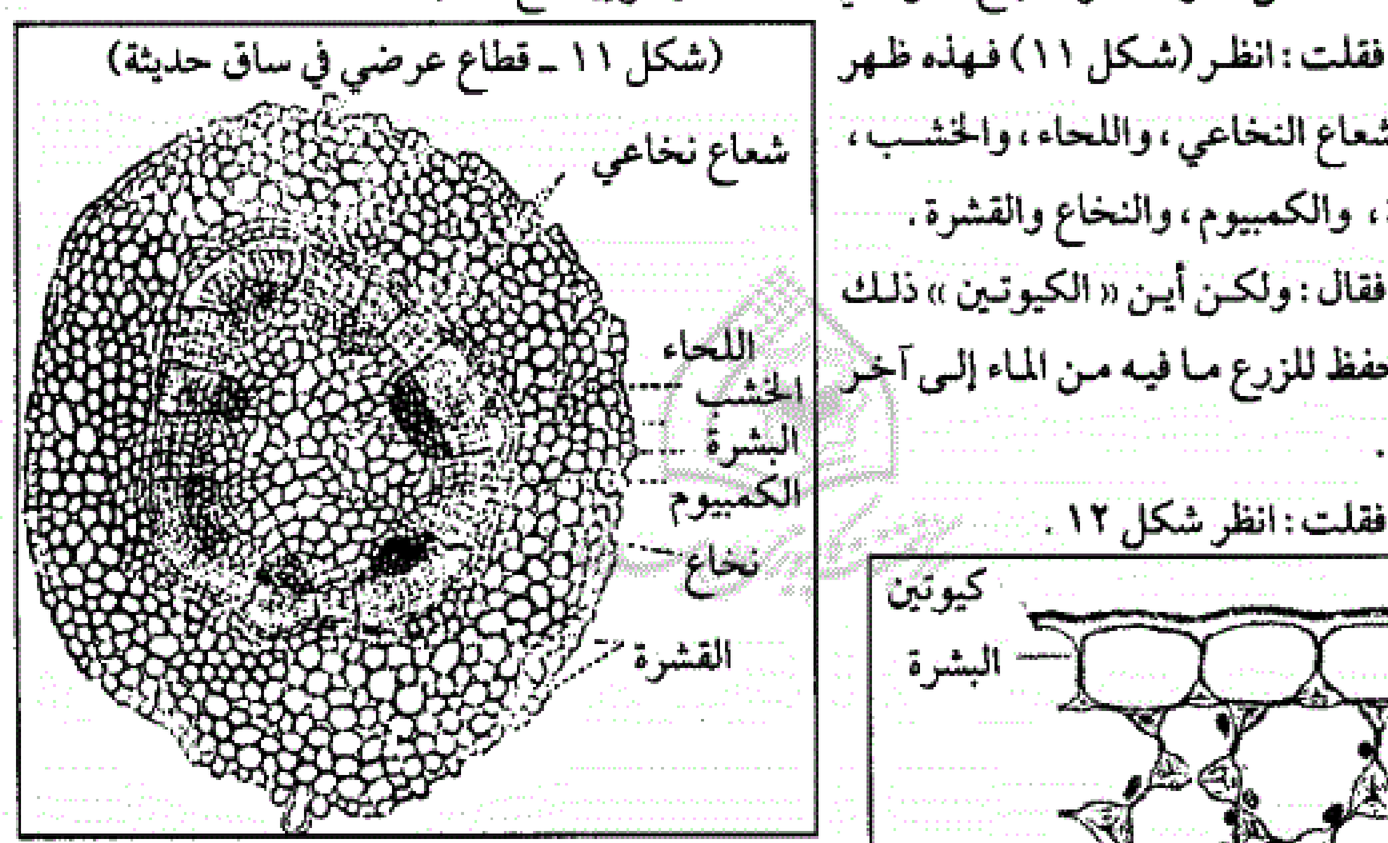
(٤) الأسطوانة الوعائية، ويليها كتل مثلثة الشكل، مرتبة على شكل دائرة، وهي قطاعات عرضية للحزم الوعائية.

(٥) الحزمة الوعائية: (أ) وفي أعلاها حواجز تشبه الغربال تسمى الحاجز الغربالي، وتسمى اللحاء. (ب) وفي أسفلها من جهة مركز الساق قسم يعرف بالخشب أو الزيلم. (جـ) ويفصل اللحاء عن الخشب قسم يسمى «الكمبيوم». (د) وخارج اللحاء قد تكون هناك ألياف، وهذه قد تكون منها أسطوانة كاملة حول الحزم الوعائية.

(٦) النخاع.

(٧) أشعة نخاعية وهي تصل القشرة بالنخاع بواسطة خلايا تمر بين الحزم الوعائية.

فقال صاحبي: هذا حسن، ولكني لم أفهم منه شيئاً، لأنها أقوال وتعريفات صامتة، وهذه سبعة أحوال وقد دخل أحوال أخرى تبلغ نحوها في العدد، فأرجو إيضاح هذا بالأشكال.

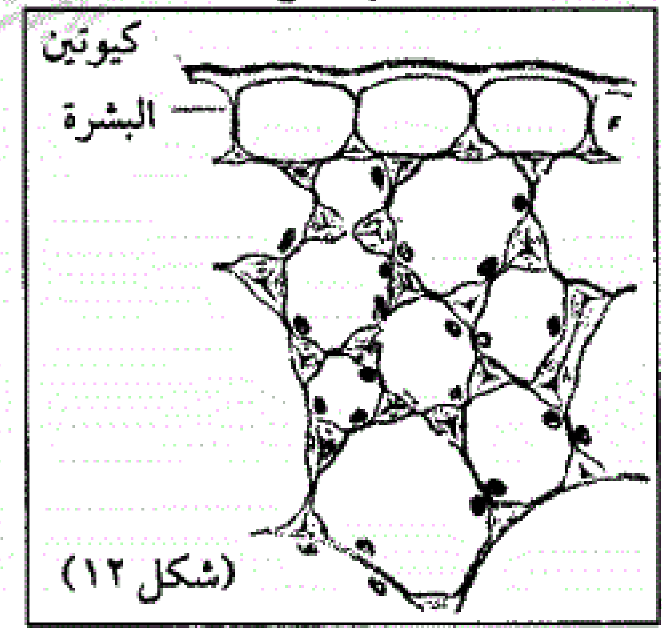


(شكل ١١ ـ قطاع عرضي في ساق حديثة)

فقلت: انظر (شكل ١١) فهذه ظهر فيها: الشعاع النخاعي، واللحاء، والخشب، والبشرة، والكمبيوم، والنخاع والقشرة.

فقال: ولكن أين «الكيوتين» ذلك الذي يحفظ للزرع ما فيه من الماء إلى آخر ما تقدم.

فقلت: انظر شكل ١٢.



(شكل ١٢)

فقال: أنا ما رأيت الحزم الوعائية.

فقلت: هاهي ذه. انظر (شكل ١٣).



(شكل ١٣) قطاع عرضي في حزمة وعائية صغيرة

فقال: وأين الحاجز الغربالي؟

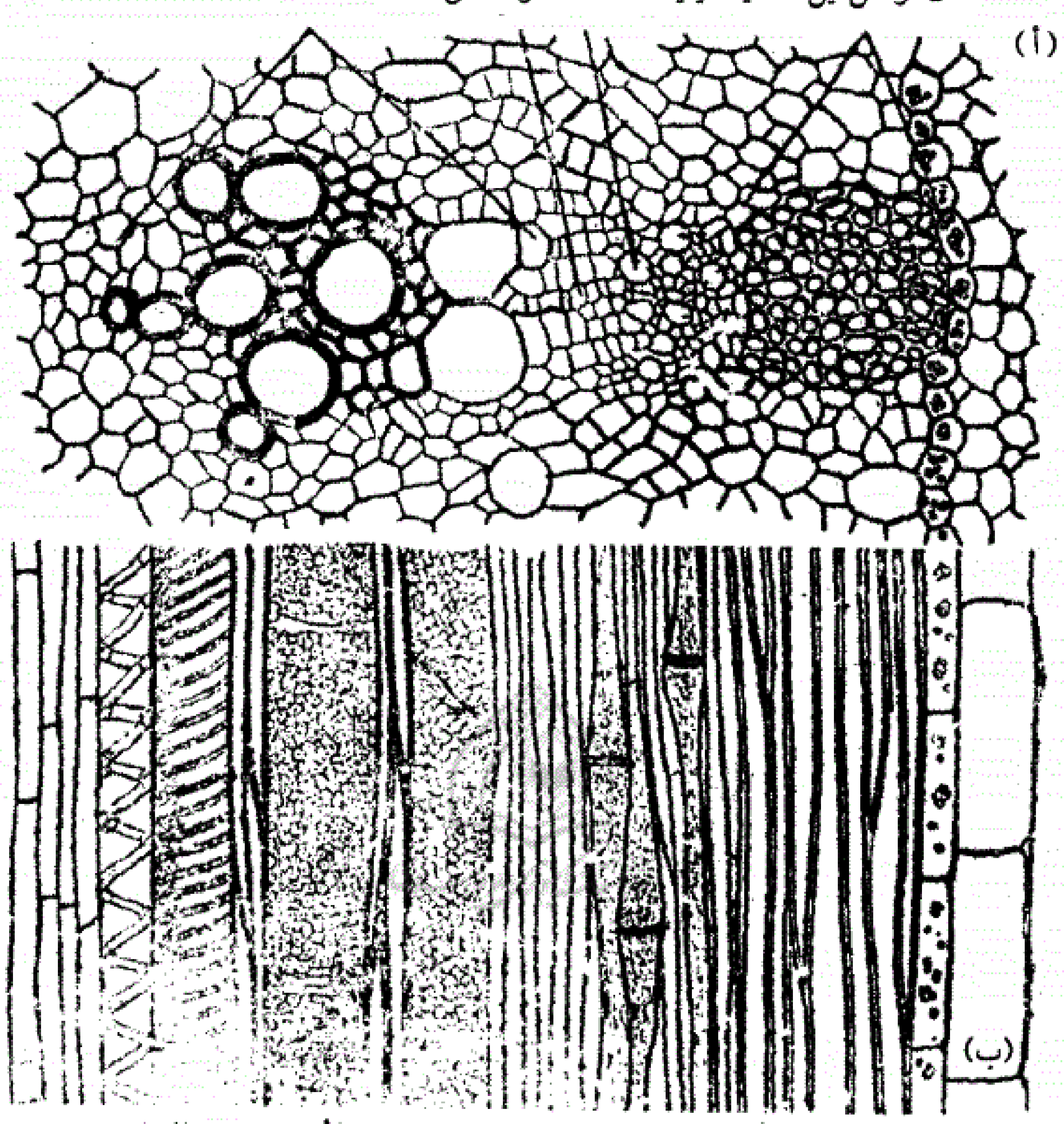
فقلت: هاهو ذا.

انظر (شكل ١٤).

(شكل ١٤)

(شكل ١٤ ـ حاجز غربالي)

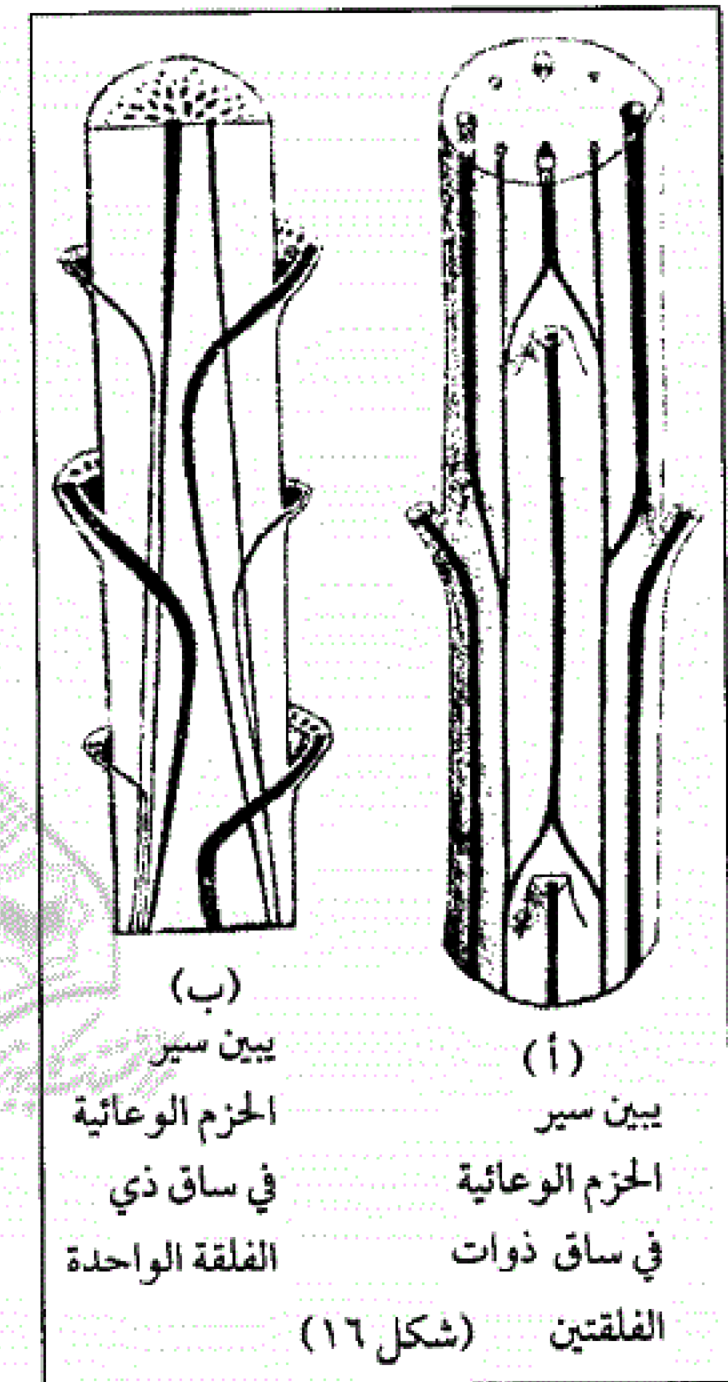
فقال: ولكن أين الخلايا الليفية؟ فقلت: انظر (شكل ١٥).



(أ) قطاع عرضي في حزمة وعائية، وترى الألياف بجوار اللحاء.
(شكل ١٥)
(ب) قطاع طولي في نفس الحزمة.

فقال: قد فهمت سوق النباتات ذات الفلقتين، ولكني أريد أن أمتحنها بنفسي في الخارج.
فقلت: من السهل الميسور مشاهدة الخيوط الليفية التي تمتد طولاً في ساق نبات رخو كالحلبة أو الملوخية بإزالة ما يحيط بها من الأنسجة الرخوة، ويعرف مجموع تلك الألياف في الساق بالأسطوانة الوعائية، والخيط الواحد بالحزمة الوعائية، وتقوم هذه الحزم الوعائية بتوزيع الأغذية المختلفة في النبات، ومن السهل أيضاً مشاهدة الأنسجة الرخوة التي تحيط بالأسطوانة الوعائية من الداخل والخارج، فالنسيج الذي في داخل الأسطوانة ويشغل الجزء المركزي من الساق يسمى «النخاع» والذي يحيط بالأسطوانة من الخارج يسمى «القشرة»، وتغلف الساق من الخارج بنسيج شفاف رقيق مكون من طبقة واحدة من الخلايا يعرف بالبشرة كما في شكل ١١ المتقدم قريباً.

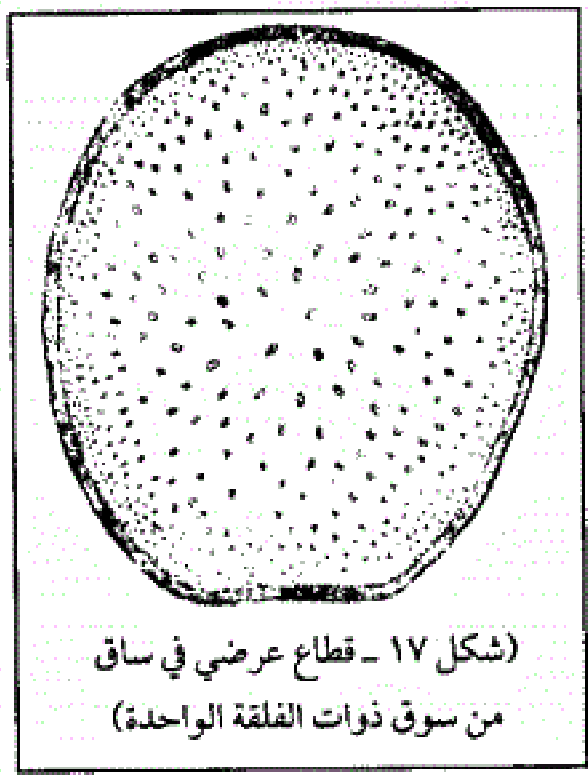
فقال: وكيف تكون هيئة النباتات ذات الفلقة الواحدة؟ فقلت: الحزم الوعائية في سوق ذوات الفلقتين مرتبة على شكل دائرة منتظمة، أما في سوق ذوات الفلقة الواحدة فإنها كثيرة العدد مبعثرة بغير نظام واضح. (انظر شكل ١٦، ١٧).



(أ) يبين سير الحزم الوعائية في ساق ذوات الفلقتين

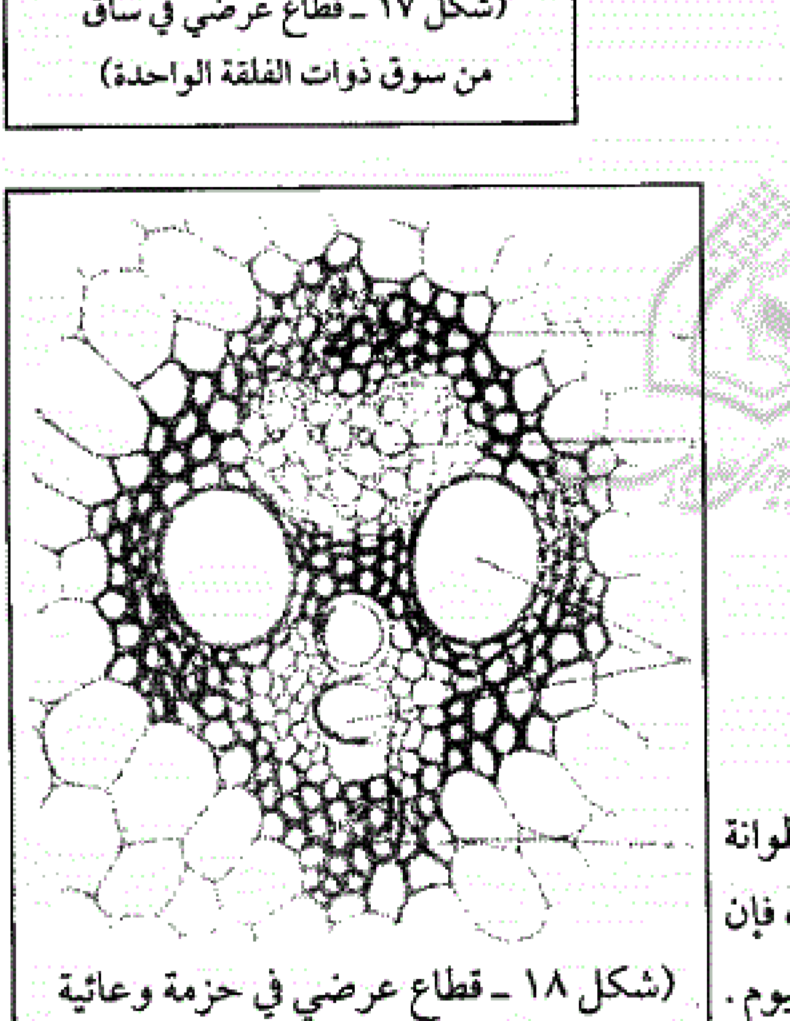
(ب) يبين سير الحزم الوعائية في ساق ذي الفلقة الواحدة

(شكل ١٦)



(شكل ١٧ ـ قطاع عرضي في ساق من سوق ذوات الفلقة الواحدة)

ولذلك لا يمكن تمييز مناطق القشرة والأسطوانة الوعائية والنخاع بوضوح فيها، وزيادة على ذلك فإن حزم سوق ذوات الفلقة الواحدة خالية من الكمبيوم. (انظر شكل ١٨).



(شكل ١٨ ـ قطاع عرضي في حزمة وعائية من ذوات الفلقة الواحدة)

فقال صاحبي: أريد أن أعرف بين نمو ساق النبات ذي الفلقة الواحدة وساق النبات ذي الفلقتين. فقلت: إن ساق النبات ذي الفلقتين يزداد في السمك عاماً بعد عام إلا في بعض أحوال شاذة (انظر شكل ١٩ في الصفحة التالية) مثلاً في شجر الجميز، أو اللبخ أو السنط، وكلها من ذوات الفلقتين يلاحظ أن أطراف الأفرع، أي: أحدث أجزاء الساق سناً، رفيعة، وأنها تأخذ في الغلظ كلما اقتربت من أسفل الساق، أي: جزء الساق الأكبر سناً، أما في النخل وهو من ذوات الفلقة الواحدة، فيلاحظ أن غلظ الساق متساو تقريباً على طول النبات، وذلك لعدم حصول ذلك في السمك.



(شكل ١٩ ـ قطاع عرضي في ساق عمرها ثلاث سنوات)

والزيادة في السمك ترجع إلى نشاط طبقة الكمبيوم التي في حزم الساق بين الخشب واللحاء فتنقسم خلايا الكمبيوم مكونة خشباً في الداخل، أي: في جهة النخاع، ولحاء من الخارج، أي: في جهة القشرة، وفي نفس الوقت تتحول خلايا الأشعة النخاعية التي توصل بين كمبيومي حزمتين متجاورتين إلى خلايا من ستيمية وتكون خشباً في الداخل ولحاء من الخارج، وتتصل بذلك حلقة الكمبيوم.

الحلقات السنوية

الخلايا الخشبية التي تتكون في الربيع تكون كبيرة الحجم، رقيقة الجذر، وذلك لأن النبات يحتاج في فصل الربيع، أي: في فصل النشاط الذي يلي فصل السكون، إلى مقدار وافر من العصارة لنمو أوراقه وأزهاره الخ. أما في فصل الخريف فتكون خلايا الخشب صغيرة الحجم ضيقة غليظة الجذر، وذلك لعدم احتياج النبات إلى مقدار كبير من العصارة في ذلك الوقت، بعد أن يكون قد أتم نموه السنوي وبدأ يستعد لطور السكون.



(شكل ٢٠)
شكل الخشب في أشجار مختلفة، لاحظ الحلقات السنوية، والقلف

وفي الربيع التالي تتكون الخلايا الخشبية الواسعة مرة أخرى، ولذلك يلاحظ في القطاع العرضي للساق المسنة حلقات ناشئة من وجود خلايا خشبية صغيرة مجاورة لخلايا خشبية كبيرة، (شكل ١٩)، وكل حلقة من هذه الحلقات تدل على مقدار نمو سنة كاملة، ولذلك تسمى بالحلقات السنوية، ويمكن تقدير عمر الساق إذا عمل فيها قطاع عرضي وعدت حلقاته السنوية. (شكل ١٩ ثم ٢٠).

وتشاهد الحلقات السنوية في سوق النباتات التي تتساقط أوراقها في أواخر الخريف، وخصوصاً في البلاد التي فيها فارق عظيم بين درجتي حرارتها في الصيف وفي الشتاء، أما في الأشجار المستديمة الاخضرار فمن الصعب تمييز هذه الحلقات. وذلك لأن النمو يستمر طول السنة تقريباً.

النخاع

الخشب

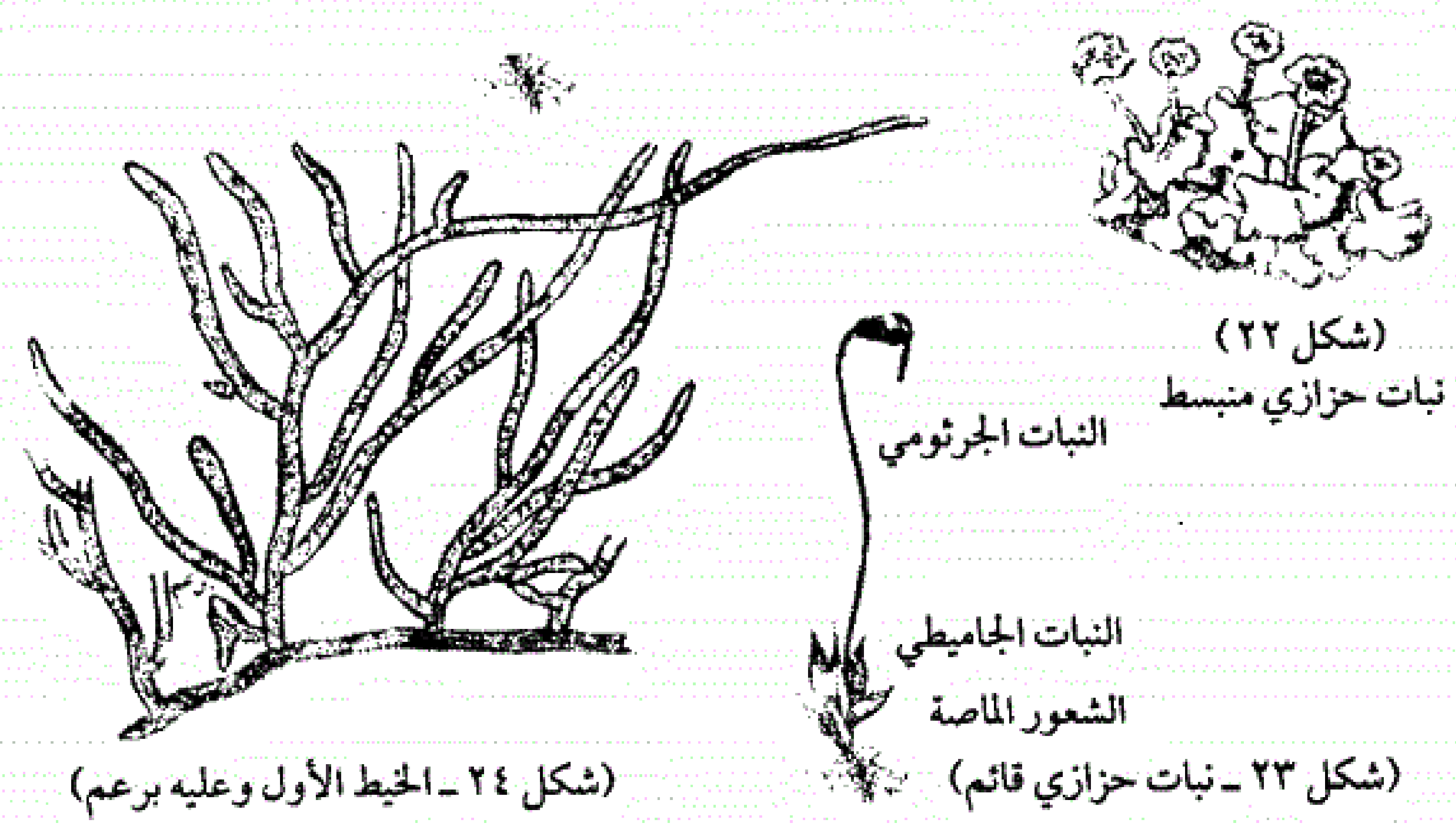
اللحاء

(شكل ٢١ ـ قطاع عرضي في الأسطوانة الوعائية لجذر)

فقال صاحبي: كفى ما تقدم في ذوات الفلقة وذوات الفلقتين إجمالاً، ولكني أريد أن أعرف شيئاً قليلاً عن تركيب الجذر. فقلت: إن الجذور يطول الكلام عليها، ولكن أذكر منه أمراً واحداً، وهي المنطقة الدائمة فيه. (انظر شكل ٢١).

فقال: أنا الآن اكتفيت بما تقدم في تشريح النبات، فأرجو أن أعرف أقسام المملكة النباتية. فقلت: هي أربعة تعرف كل منها بالمجموعة النباتية وهي: (١) مجموعة النباتات الثالوسية. (٢) مجموعة النباتات الحزازية. (٣) مجموعة النباتات السرخسية. (٤) مجموعة النباتات البذرية.

ثم قلت: أما النباتات الثالوسية فهي التي تقدمت في سورة «فصلت»، وقد عرفت آنفاً ملخص ما هناك فإن فيها البكتيريا والفطر ـ بضم الفاء والطاء ـ والطحالب، وهذه كلها واضحات هناك فارجع إليها، فإنك تعرف أكثر مما هو حاضر في ذهنك، وهناك صور جميلة توضح الموضوع. فقال: أريد معرفة النباتات الحزازية. فقلت: انظر (شكل ٢٢، ٢٣، ٢٤) وهاك صورها.

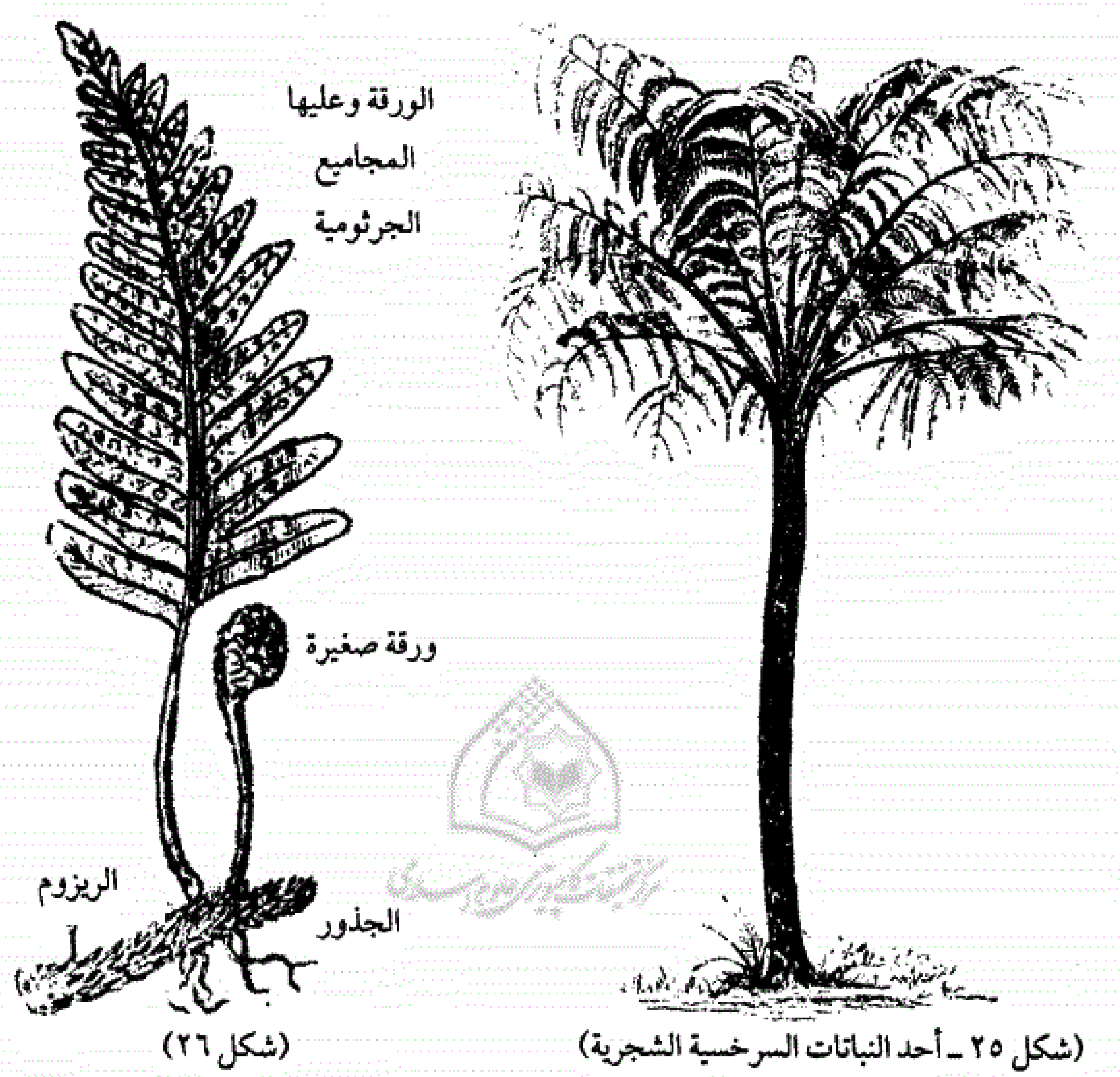


(شكل ٢٢)
نبات حزازي منبسط

(شكل ٢٣ ـ نبات حزازي قائم)

(شكل ٢٤ ـ الخيط الأول وعليه برعم)

فقال: وما مثال النباتات السرخسية؟ فقلت: انظر (شكلي ٢٥و٢٦).



(شكل ٢٥ ـ أحد النباتات السرخسية الشجرية)

(شكل ٢٦)

فقال: لم يبق إلا الكلام على النباتات البذرية. فقلت: الكلام عليها يطول ولكن نختصره هنا فنقول: تعتبر النباتات البذرية أرقى المجاميع النباتية، وتمتاز نباتاتها بتكوين البذور من البويضات التي تكون في أعضاء خاصة تعرف بالأزهار، وتنقسم النباتات البذرية إلى قسمين رئيسيين:

(١) النباتات المعراة البذور: وهي التي تكون بويضاتها معرضة للخارج، ولا تحاط بغلاف خاص «مبيض» كالصنوبر والسرو، ونباتات هذا القسم في الغالب خشبية، وكانت عظيمة الانتشار في العصور الجيولوجية الغابرة، غير أنها أخذت في النقص والاضمحلال بعد نشوء النباتات المغطاة البذور.

(٢) النباتات المغطاة البذور: وهي التي تحاط بويضاتها بغلاف خاص مقفل كالصندوق يسمى المبيض، وهذا القسم من النباتات البذرية له أهمية اقتصادية كبيرة، إذ أن معظم نباتات المحاصيل تابع له، وتنقسم النباتات المغطاة البذور إلى:

(١) النباتات ذوات الفلقة الواحدة.

(٢) النباتات ذوات الفلقتين.

وتختلف نباتات هذين القسمين من عدة وجوه، والجدول الآتي يبين أهم مواضع الاختلاف:

موازنة بين النباتات ذوات الفلقة الواحدة وذوات الفلقتين

ذوات الفلقتين	ذوات الفلقة الواحدة
(١) لأجنتها فلقتان.	لأجنتها فلقة واحدة.
(٢) الحزم الوعائية تحتوي على كمبيوم بين الخشب واللحاء، وهي مرتبة على شكل دائرة في الساق.	الحزم الوعائية على لا تحتوي كمبيوم بين الخشب واللحاء، وهي مبعثرة بدون نظام خاص في الساق.
(٣) تزداد سوقها في السمك عاماً بعد عام.	لا تزداد سوقها في السمك إلا في أحوال نادرة وبطريقة تختلف عما في ذوات الفلقتين.
(٤) عروق الأوراق متفرعة على شكل شبكة.	العروق عادة متوازية، وفي النادر شبكية.
(٥) أجزاء الزهرة ثنائية أو رباعية خماسية.	أجزاء الزهرة ثلاثية أو مكررات ثلاثة.

وإلى هنا تم الكلام على المقالة الأولى، والحمد لله رب العالمين.

المقالة الثانية

في قوله تعالى: ﴿تَبْصِرَةً﴾

اللهم إنا نحمدك على توفيقك، وإلهامك، وإسعادك، وإمدادك، هانحن أولاء يا رباه عرفنا إبداعك في نباتك:

(١) فإنك أبدعت في تركيبه بحيث جعلت في كل ساق مجموعات من النسيج الخلوي، ولكل مجموعة منها عمل خاص، فهي إذن أشبه بهيئة دولة لكل طائفة منها عمل، وليس في عملك معطل، ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾ [الدخان: ٣٨].

(٢) ونراك أبدعت البشرة، (انظر شكل ١١)، بحيث جعلت خلاياها متلاصقة تمام التلاصق، وجعلت ما يلي الهواء أغلظ مما سواه، لتقدر على تحمل ما يحيط بها.

(٣) وجعلت الكيوتين لمنع الماء من البخر.

(٤) وجعلته سميكاً في البلاد الحارة رقيقاً في غيرها.

(٥) وإذا كانت هذه البشرة قد أعدت لمنع دخول ما هو خارج عنها لحفظ النبات، والنبات لا يصبر عن الهواء الخارجي، فقد قضت الحكمة أن تكون فيها ثقوب ليدخل منها الهواء لحياة النبات.

(٦) ثم كيف كانت نفس هذه البشرة مزروعة بشعر يخرج منها فيحفظ بكثرته ما في باطن النبات من الماء، ويمنع تأثير الضوء الخارجي، فالشعر إذن ذو منفعتين داخلة وخارجة.

(٧) ولما كانت البشرة وشعرها لا تكفي لمنع الحيوان؛ قضت الحكمة أن يكون في الشعر مادة يكرهها الحيوان فيحفظ النبات.

(٨) يا ليت شعري، ما هذه الكتل المثلثة المرتبة على هيئة دائرة في الحزم الوعائية، (شكل ١١)، وما هذا التنظيم الجميل؟.

(٩) ثم ما هذا الخشب (شكل ١٥) الذي ينقل العصارة من الجذور إلى الأوراق وغيرها، إذن هو في النبات قائم مقام القطار في سكة الحديد، أو المراكب الشراعية لنقل الميرة.

(١٠) ثم ما هذه الغرابيل (شكل ١٤) التي تنقل ما تم نضجه في الأوراق كالمادة السكرية ونحوها إلى أجزاء النباتات الأخرى، فهذه الغرابيل أشبه بالخدم يقدمون الطعام إلى ساداتهم.

(١١) ثم ما هذه الألياف؟ وما هذا المسمى «الكمبيوم» الذي يتحول تارة إلى لحاء وتارة إلى خشب (شكل ١٥)، فيزداد الساق غلظاً، إذن هو أشبه بمقوم لما نرفع عليه بيوتنا، فهو مقو للساق، والساق يرتفع عليه البنيان.

(١٢) ثم ما هذه الحلقات السنوية، (شكل ١٩) و(شكل ٢٠).

(١٣) ثم ما هذه الخلايا التي جعلت مخازن لنحو السكر والنشاء والزيت.

(١٤) عناية جليلة وأمر بديع، وهنا نسائل أنفسنا: ما هذه الأعمال كلها، وما هذه البدائع؟ أعراس والله وأفراح، وزينة منصوبة، فجلّ الله الذي غشى على عقولنا فلم نعرف هذه الزينة البديعة، شمس تضيء ونورها يمتد على الأرض، وبه حياة النبات، ولكن النبات إذا أحس بشدة ضوئها ظهر له شعر كشعر الإنسان، وذلك الشعر يحميه من شدة ضوئها كما يساعد البشرة في حفظ الماء في داخل النبات من البخر.

هذه أعمال عجيبة وجميلة، لم كانت هذه كلها، إنّما كانت لأجل حياتنا نحن في الأرض، ربع مليون من أنواع النبات، وكلها ذات أفراح وأعراس وجمال وبهجة، وكلها لأجلنا نحن، ثم إننا نرى في أنفسنا من العجائب والبدائع أضعاف ما رأينا في النبات، وإلا فما هذه القرنية في العين، (انظر هذا المقام مفصلاً في سورة «آل عمران» وفيما تقدم في هذه السورة قريباً فهي أكثر تفصيلاً)، تلك القرنية الشفافة، ومن تحتها العنكبوتية والقزحية، وإنسان العين في وسطها، ثم ما هذه البلورية، وهي المسماة أيضاً عدسية وجليدية أيضاً، ثم ما هذه الرطوبة البيضية في أول العين، والرطوبة الزجاجية بعد العدسية ثم ما هذه الشبكية والمشيمية والصلبة، تلك الطبقات والرطوبات المنتظمات اللاتي أدهشن العلماء بنظامهن الدقيق، وإذا كنا نرى النبات قد حفظ الشعرات النابتات على البشرة ما فيه من ماء، وفتحت عنه ما يزيد من الضوء، وهكذا نرى في البشرة ثغوراً مدخلات في النبات الهواء، فهكذا رأينا أهداب العين حفظتها من دخول الغبار وإن أباحت دخول الضوء، وساعد على ذلك شعر الحواجب.

سبحانك اللهم وبحمدك، أنت القدوس، تقدست أن تفعل بلا حكمة، صنعت هذه النباتات كلها، وجعلتها خوادم لنا، وأودعت فينا حكماً لا حد لها كلها للمحافظة على حياتنا، إذن حياتنا أمر عظيم، وكيف لا يكون عظيماً، وهذه العين كما سبق قد كملت أوصاف وضعها، وقد رأيت بالرسم أن الشبكية مع أنها يزيد ثخنها عن الورقة مقسمة عشر طبقات، وفي آخرهن أسطوانات ومخروطات تعد بالملايين، كلهن جعلن لأجل أبصارنا، هذا كله لحياتنا نحن.

الله أكبر، حياتنا لا قيمة لها والله إلا بأن نعلم هذه العجائب، وهذه هي التبصرة المذكورة في الآية، فبدراسة هذه العجائب تقوى عقولنا وتكون لنا بصائر، وتتمرن على النظام والحكمة، وتتسع

وقوانا وتنفع أممنا، هذه هي التبصرة، ولهذا المعنى نجد هذه العلوم تدرس اليوم في أوروبا وأمريكا واليابان. لماذا؟ لتعظيمهم التبصرة فلذلك ارتقوا في الحياة، إن الإنسان عند مشاهدة هذه الحكم يكون مطلعاً على أعمال معلم النبيين والمدرسين في الأرض، بل الإنسان إذ ذاك يشهد الملكوت بنفسه.

رجال أوروبا وقواد شعوب أمريكا كلهم يدرسون أمثال هذا بهيئة أوسع، وهذا عين قوله تعالى: ﴿ تَبْصِرَةً ﴾[ق:٨]، والإنسان بدون تبصرة لا قيمة لحياته، ذلك أن هذه النباتات ونحوها الموزعات على الأرض لم تخلق لأجل الطعام واللباس والدواء فحسب، وإنّما هذه المذكورات مغريات بالدراسة، والدراسة توسع العقول، وهو المقصود، وهذا معنى التبصرة، فعلى المسلمين أن يدرسوا هذه العلوم جميعها في المدارس الثانوية كما تدرس في جميع الأمم حولنا، لنفهم قوله تعالى: ﴿ تَبْصِرَةً ﴾[ق:٨]، فأف لمن مات وهو بهذه العجائب جهول، وأف لأمم الإسلام بعدنا إذا هم أهملوا ما ذكرناه، وأقول وأنا واثق مما أقول: إن أمم الإسلام بعدنا خير أمّة أخرجت للناس، وسيكون رقي الإنسانية على يديهم، وهذا الكتاب من مقدمة نهضتهم، والله هو الولي الحميد.

المقالة الثالثة: في قوله تعالى:

﴿ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾

عرفنا إجمال علم النبات، وعرفنا كيف كان تبصرة، فلم يبق إلا أن نفهم معنى الذكرى، درسنا النبات وعرفنا عجائبه، وازدادت بصائرنا، فصارت عقولنا راجحة لأنها مرنت على ما رأته من الحكمة، فهي لا محالة تكون حكيمة في أقوالها وأفعالها، ولكن نفوسنا الشريفة العالية بعد هذا كله تقول: لكل مخلوق نتيجة وما نتيجتي أنا؟ والإجابة على ذلك أن نتائج أرواحنا أنها تتذكر، أي تتذكر عالمها الذي أخرجت منه، إن المادة جميعها أصلها نقط ضوئية أصلها كهارب، والكهارب نواتج من موجات في بحر الأثير، وهذه الأضواء صارت مواد نراها مختلفة الأشكال وهي غليظة، فهي جاءت من عوالم أرقى، فهذه الدروس تذكرها بعالمها، وهو عالم الجمال والحكمة.

إيضاح هذا المقام

اللهم إنك أنت الملهم المعلم، خلقتنا وخلقت فينا برحمتك آلاماً تسوقنا إلى الغذاء والكساء والدواء، ثم خلقت حولنا ٢٥٠ ألف نبات وأبدعتها، وقلت لنا: ﴿ هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ ﴾[الحاقة:١٩]، فقرأناه فوجدنا عجباً! وجدنا أننا نعمل لإزالة هذه الآلام، وفي أثناء ذلك نجد عندنا أمراً عجيباً! وهي لذات نحس بها في نفوسنا من الدراسة، وهذه اللذات نوع آخر شريف تحس به عقولنا كما تحس بالطعام معدتنا، ونرى الناس ماداموا أحياء لا يسعدون إلا بصور تدخل عقولهم فتفرحهم، وهكذا جميع المدارس والديانات والعلوم الرياضية والطبيعية والروايات والشعر والنثر ومحادثات الإخوان، وقراءة الجرائد والأخبار، ولن نرى أحد في الأرض يشبع من دخول الصور عقله كل لحظة، لأن التفكير لا يقف لحظة، ولا معنى للفكر إلا بصور ذهنية، وكما تنوع النبات فكان منه ما يمتد على الأرض، ومنه ما يوضع فوق عروش، ومنه شجر، ومنه نجم، أي لا ساق له وهو أنواع شتى، وكل منها له غرض في حياتنا، هكذا الصور الذهنية، فالسمع أعد لمدارس العالم كلها وللروايات والمحادثات، والبصر أعد

لصور العوالم كلها، وأمامه كل نبات، وكل حيوان، وبحر وبر، فهذه كلها ترسل صورها والبصر يتقبلها ويرسلها للنفس فتتغذى بها، النفس لا تفتأ تقبل كل صورة أرضية وسماوية من منظار العين، وكل صورة مصدرها منطق اللسان وحركات الهواء والأمواج والموسيقى، وتقبل الروائح من الأنف، وأنواع اللذات من حاسة اللمس والذوق.

إذن هنا صور لا حد لها غذاء لأرواحنا ونحن لا نعلم أنها غذاء لنا، أولاً لأنها كثيرة جداً فغفلنا عنها، كما غفلنا عن الهواء المحيط بنا ومنفعته، وثانياً لأنها لا تصحب غيبتها آلام كآلام الجوع والعطش بغيبة الطعام والشراب، بل يكون الشوق بدل الألم، ولا حياة للإنسان بدونها، بل هي ملازمة له مادام حياً، إذن الناس يظنون خطأ أن غذاءهم الوحيد إنّما هو الطعام، وفاتهم أن عقولهم تتوارد عليها الصور دائماً، فغذاؤها دائم لا مقطوع ولا ممنوع ما داموا في الحياة، وهو ألزم لهم من الطعام، وهذه الحال أشبه بضرب مثال للذات الناس في عالم الأرواح، لأن الروح لا غذاء لها أفضل من العلم والحكمة إذا كانت من الأشراف العظماء، غاية الأمر أن الصور هناك لا سخافة فيها كسخافة الصور العقلية لذوي النفوس الضعيفة في الأرض، فهم يشمتون بالأعداء فيظنون أنهم سعداء بهذه الشماتة وهم غافلون، فهذا غذاؤهم كما تتغذى الفيران والحشرات بالقاذورات.

أما الأرواح الشريفة العالية بعد الموت فإنها تتوارد عليها صور جميلة علمية، وهذا الذي نراه في عجائب العين نوع منها، فهذه كما أنها غذاء العقول الشريفة هنا هكذا تكون تغذيتها أعظم للروح إذا خلصت من الجسم، ويشير إليه ما ورد في الأخبار أنهم يلهمون التسبيح كما نلهم نحن النفس، وما هو التسبيح؟ هو التنزيه والله منزه عن النقص في أفعاله فتكون أفعاله كاملة، وهذا هو الكمال والحكمة وهذا الذي تقدم في النبات ونحوه نموذج لحكمة الله تعالى، وهذه الحكمة هي التي بها تنزه الله عن النقص في فعله، وهذه اللذة العلمية يحس بها الناس الآن في الدنيا، بل يرونها أعظم اللذات، فهي هي حقائق التسبيح.

فالتسبيح اللفظي عنوان عليه وإلا فلا معنى لحقيقة التسبيح إلا بأمثال ما ذكرناه، والله يقول: ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾[الحشر: ١] الخ، ويقول: ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾[الجمعة: ١] الخ.

التسبيح والتحميد والتكبير

جاء في الحديث: «إن الجنة طيبة التربة عذبة الماء وغراسها سبحان الله والحمد لله والله أكبر».

وجاء في القرآن: ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾[الإسراء: ٤٤]، والمسلم يسبح في كل ركوع وسجود، ووراء الصلوات، وقبل طلوع الشمس، وقبل غروبها، وقبل النوم يسبح ويحمد ويكبر ٣٣ مرة بعد الصلاة، فهذا التسبيح والتحميد والتكبير غراس الجنة، ونسمع علماءنا رحمهم الله يقولون: إن تسبيح المخلوقات باللفظ كما يسبح العقلاء ونحن لا نسمع. ويقول آخرون: كلا، بل هو تسبيح بلسان الحال.

واعلم أن الناس ما داموا على شاطئ بحر المعرفة فإنهم يختلفون كما يختلف الصيادون وهم على شاطئ نهر أو بركة في كثرة الأسماك وقلتها بحسب استعداد كل منهم والعلامات التي يراها، فاسمع الحقائق الواضحة ودع القشور، هذا التفسير فيه من كل فاكهة من فواكه العلم زوجان، فاعجب لما ذكرتك به آنفاً كيف نرى هدب العين وشعرات الورق تمنع شدة الضوء عن العين وعن النبات، وكيف تكون مادة «الكيوتين» حافظة للماء في داخل النبات، كما يحفظ لون القزحية الصور الداخلة في العين من التشويش، كما رأيته مبرهناً عليه في أول هذه السورة في تفسير البسملة مع آية: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾[ق:٦].

وهاهنا حكمة ومعها آلاف الحكم مرت وستمر في هذا الكتاب، ألست أيها الذكي تحس في نفسك متى طاب الوقت، وصفا الزمان، وخلوت من المشاغل الشاغلة لك، أنك أسعد من على الأرض، لأنك كأنك في حضرة الجمال والحكمة، ألست ترى في نفسك بهجة لم يحلم بها إلا أمثالك في ذلك الجمال والحكمة، وعلى ذلك تكون حياة الحكيم المعجب بهذا الجمال في الدنيا حياة فوق كل حياة، والناس في الأرض جميعاً تبع لهذه الطائفة الممتازة بصفاء البصيرة والحكمة، إن العين وطبقاتها والنبات وعجائبه، وكل نظام منظور ومسموع يحدثنا حديثاً حقاً ويقول: أنتم شهدتم الحكمة، وشهدتم النظام، وهذا الحديث الذي نشعر به هو سر التسبيح، لأن العقل حالاً يشهد شهادة العيان أن العالم في غاية النظام، وإذن منظمه حكيم، وهذا النظام المحكم نتج عن نعم لا حد لها، وهذا هو الحمد بعينه، فالتسبيح والتحميد متلازمان، وهذا هو السر في قوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾[طه: ١٣٠]، إذ لا معنى لتنزيه عن النقص إلا بالكمال، فالله منزه عن النقص في أفعاله، وذلك بالحكمة في النظام، والحكمة في النظام نجم عنها نعم كثيرة، وهي التي تستوجب الحمد، ومع هذا كله فهذه النعم وهذه الحكم كلها شيء يسير بالنسبة لصانع العالم، فإذن يقال: الله أكبر، هذا هو السر في طلب التسبيح والتحميد والتكبير في كل آن في الدين الإسلامي، إذن هذه بذور بذرت في بلاد الإسلام، كما أن الله عز وجل أودع في نباتات البرية وغيرها بذوراً، وأمر الرياح تحركها فجرت هنا وهناك، ونبتت في أماكن شتى لمنفعة كل حيوان، ولكل رجال الطب الذين يعرفون قيمة هذه الحشائش أندر من الكبريت الأحمر، ونظيرهم هنا في التسبيح والتحميد رجال الحكمة الدارسون العلوم الذين يكثرون بعد ظهور أمثال هذا التفسير، ولكنهم قوام هذه الأمة، وهم هم الذين عرفوا سر التسبيح والتحميد، وهم الذين يفهمون سر الحديث الشريف: «وأن الجنة غراسها سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر»، ويقولون: إن الجنة للجهلاء وصغار العلماء تكون قريبة من الجنات الحسية، وهؤلاء يكتفون بظواهر التسبيح، وهو العبادة بتكرار اللفظ في المناسبات المتقدمة، والعامة لهم درجات عند ربهم ونعمة وهم بها فرحون.

أما أكابر هذه الأمة فهم هم الذين شهدوا هذا النظام، وأصبحوا في نعمة لا حد لها، مبدؤها في الدنيا، وبعد الموت مباشرة يحسون بما لا حد له من النعيم، لأن أرواحهم تفرغت لما كانوا يعشقون في الدنيا، إذن التسبيح اللفظي في الحقيقة أشبه بمقدمة للتسبيح الحقيقي الذي يفقه الحكماء في الإسلام.

اعتراض على المؤلف وجوابه

فلما اطلع على هذا صديقي العالم الذي اعتاد محادثتي في هذا التفسير قال: ماذا تقول في الشيخ الدباغ؟ فقلت: نقلت عنه في التفسير كثيراً، وهو رجل مفتوح عليه. فقال: إنه يخالفك، فإنه يقول إنه كان في بداية أن فتح عليه يستحم في ماء فسمع أصواتاً لا حصر لها تسبح الله، فخرج يجري من فوره، وسمع أصوات الأحجار بلغات مختلفات، وسمع حجراً منها له أصوات مختلفات في التسبيح، ثم بحث عنه فعرف أنه معجون من أحجار كثيرة.

فهذا دليل على أن تسبيح المخلوقات لفظي. فقلت: أولاً نحن لا ندري هل هذا القول المنسوب له ورد عنه أم لا؛ وإن كان في نفس الكتاب. ثانياً أنه سمع ذلك وهو في أول أن فتح عليه، وما هذه الأصوات المختلفات بالتسبيح إلا كتسبيحنا نحن، وما تسبيحنا إلا ألفاظ تدل على معان، وامتلاء عقولنا بالمعاني المفضلة هو المطلوب كما أن تسبيح هذه العوالم يقصد منه ما وراءه، وهو أنها تعرف هذه المعاني على التسليم بأنها تعقل، وما تسبيح هذه المخلوقات أمام المفتوح عليهم إلا خوارق للعادات، وخوارق العادات غير مقصودة لحكماء الأمم الإسلامية وعقلائها، والقرآن صرح بأن لا مدار عليها، فرجع الأمر إلى أن المسبحين بعد أن كانوا عدداً معلوماً وهم بنو آدم أصبحوا أعداداً لا نهاية لها، وإذا كان تسبيح المسلمين العقلاء أنفسهم لا قيمة له إلا بمدلوله؛ ومدلوله هي هذه العلوم التي ندرس بعضها في هذا التفسير؛ فإذن التسبيح الحقيقي لكل عاقل من ملك وإنس وجن إنّما هو ما شرحنا بعضه في هذا الكتاب، إذن التسبيح اللفظي إنّما هو نموذج، والتسبيح الحقيقي هو المقصود، فإذا سمعنا الله يقول: ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾[الحشر: ١]، وإذا سمعناه يقول: ﴿ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[الحشر: ٢٤]، عرفنا أن هذا هو معناه، فأما عقلاء بني آدم فإن تسبيحهم اللفظي مقدمة لهذا التسبيح، فليسبح المسلمون في جميع الأوقات، فهذا عبادة في حد ذاته، وأكابرهم يصلون للحقائق وينفعون بها إخوانهم في الدنيا والدين، كما أن نبات الأرض غذاء لكل حيوان، وبنو آدم له زارعون، وعلماء النبات في نوع الإنسان كحكماء الإسلام في أمة الإسلام.

فقال صاحبي: هذا حسن، ولكن أليس الكلام على التسبيح والتحميد كان الأليق به آخر سورة «الطور» عند قوله تعالى: ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴾[الآية: ٤٨] الآية، أو أول سورة «الحديد»: ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ ﴾[الآية: ١] الخ. فقلت: نعم إن هذه المعاني كلها خطرت لي وأنا أشاهد المزارع خارج القاهرة وكانت مقرونة بها تين الآيتين اللتين ذكرتهما، ولكني بعد ذلك حين قدمت هذه السورة للمطبعة وجدت أن الآية في هذه السورة يعوزها الكلام على النبات، ووجدت المناسبة تامة فجعلتها في هذا المقام لهذه المناسبة.

فقال: وهنا سؤال آخر، وهو: هل آية: ﴿ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴾[ق: ٧] يعوزها هذا كله؟ قلت: نعم وأكثر منه. فقال: ولكن المتقدمون لم يطيلوا في مثل هذا كما أطلت أنت. فقلت: أطالوا أكثر مما أطلت أنا. فقال: وكيف ذلك؟ فقلت: إن آباءنا كانوا يحكمون الأمم فاحتاجوا إلى العلوم التي بها يضبطون تلك الأمم، فكان علم الفقه، إذ نبغ أمثال إمامنا الشافعي وأبي حنيفة ومالك

وابن حنبل وزيد وأئمة الشيعة رضي الله عنهم أجمعين، فعلموا ملوكهم، وأقاموا الدين بالقسط، ولم يدعوا العامة يتخبطون في ديجور الظلام، بل سهلوا لهم أحكام الأفراد من صلاة وصوم وغيرها، فهم رحمهم الله أفادوا وأجادوا فيما يحفظ كيان دولهم، ويحفظ العبادات، ونحن جئنا في زمان وجدنا الأمم الإسلامية كثيرة، والأحكام مدونة، والعلماء كثيرون والحمد لله، ووجدنا الأمم في الأرض قد ارتقت مداركها ودرست هذه العلوم، ووجدنا القرآن قد اهتم بها اهتماماً عظيماً، فرأيت بل أيقنت أنني يجب علي أن أؤلف لهذه الأمم الإسلامية أعظم علوم الإسلام لكي نترك لعلماء الإسلام بعدنا الطريق ممهدة، ليربوا هذا الشعب المسكين التربية التي لم تكن لتحدث في الزمان الماضي، لأن الأمم لم تكن مستعدة لها.

والقرآن جاءنا بأمرين اثنين: أولهما نظام الأمم وحكمها وتهذيبها، وثانيهما تربية العقول تربية راقية علمية حكمية. ولما كانت الفرس والروم أيام النبوة قد اختلت دولهم، وورث المسلمون أرضهم وديارهم، ونساءهم وأموالهم، ألهم علماءهم وأئمتهم أن يعينوا ملوكهم بتلك الأحكام، ويعينوا المحكومين بما يجب عليهم في أحوالهم الخاصة، فنفعوا عباد الله، ثم دالت دولهم، وأصبحنا اليوم نرى أمماً وأمماً وعلوماً وعلماً، فلنفعل نحن في هذه العلوم لتربية الأفراد والأمم ما فعله آباؤنا في تلك الأحكام.

وبعبارة أصرح: إذا رأينا آيات الطلاق المعدودات، وآيات الدين، وغيرها، تؤلف لها كتب تعد بالآلاف عند الطوائف المختلفة، وذلك كان واجباً في ذلك الزمان، فهكذا نحن في زماننا نفعل ما فعله آباؤنا في زمانهم بعد أن أتموا ما عليهم.

وإذا سمعنا الشافعي رضي الله عنه يستخرج من آية: ﴿فَٱعْتَبِرُوا۟ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ﴾[الحشر: ٢] نحو ربع الأحكام الشرعية وهو القياس، ويقول إنها توجب علينا القياس، وإذا رأينا آية الوضوء تستنفد جهد العلماء في التأليف وتشغلهم شغلاً عظيماً فأولى، ثم أولى، ثم أولى منها آية: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَـٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾[ق: ٧].

إن الوضوء شرط للصلاة، والصلاة للتسبيح والتحميد، والتسبيح والتحميد نتيجتهما هذه المعارف، والعلوم والمعارف هي المخبوءات في نحو هذه الآية، وأنا واثق جد واثق، بل كأني أشهد أمامي أمم الإسلام في أقرب زمن وفيما بعد إلى ما شاء الله، وهم يدرسون كل علم، ويرون ما نكتبه الآن إن هو إلا مذكرات لما يدرسون، ومقدمات لما يعلمون، ونور لما هم به مستبصرون، والله من ورائهم محيط. والله بكل شيء عليم، وفوق كل ذي علم عليم، والحمد لله رب العالمين. انتهى يوم الثلاثاء ٦ أكتوبر سنة ١٩٣١م.

جمال العلم وبهجة الحكمة

هانحن أولاء درسنا أعيننا وعجائبها، والسماء وسعتها وكواكبها، فإذا كانت أعيننا لا حد لعجائبها، وهي مركبة في أجسامنا المشتقة من أرضنا، فكيف تكون عجائب أرضنا! هي بالأولى لا حد لها، ونذكر منها قلًا من جل بعد ما كتبناه فيما سبق في هذا التفسير، مثل ما جاء في تفسير قوله تعالى:

﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ ﴾[الرعد: ٤] وغيرها، فنشرح وادي الموت وغور الشيطان والجليد الخ:

(١) أما وادي الموت فهو في الجنوب الشرقي من أمريكا، وما دخله أحد إلا ومات لشدة حرارته فلا يعيش فيه نبات ولا حيوان، ولكن فيه كنوز عجيبة، وما هي هذه الكنوز؟ هي «البورق» وقد كشفه رجل اسمه «هارون ونترس» كان يسكن بعيداً عن ذلك الوادي بمئات الأميال، فذكر له رجل أنه إذا مزج البورق بمادة كيماوية معلومة اشتعل بلهب أزرق، فتذكر راسباً أبيض في طرف ذلك الوادي فسار هو وزوجته ٢٠٠ ميل، وابتاعا بعض ذلك من الأمريكيين الحمر، وامتحن ذلك الراسب الأبيض فوجد لهبه أزرق، فطار فرحاً، وباع هذا الكشف بخمسة آلاف جنيه، ولقد وجدوا في ذلك الوادي مناجم كثيرة للبورق، ولكن الصعوبة في نقله، لأنه يميت من يدخله، وقد مدوا لوادي الموت سكة حديدية، وأنشئت قرية للعمال في نفس الوادي، وفيها بناء طوله ٨١٦ قدماً ولهم فيه ٢٠٠ غرفة للنوم فيه جميع ما يلزم للراحة، وغرفة للمائدة تسع ٢٠٠ نفس، والآجر الذي بني به ذلك البناء قليل التوصيل للحرارة، وإذا كانت درجة الحرارة في الظل هناك تبلغ ١٢٠ درجة فهي في غرف النوم لم تزداد عن ٨٩ درجة، لأنهم يبردون هواء البناء بجعله يمر في رشاش ماء، ويستخرجون من ذلك الوادي كل سنة ١٢٠ ألف طن من البورق، وهي تساوي نصف مليون جنيه، وإذا بيعت في بلاد الإنجليز فإنها تساوي ستة ملايين وستمائة ألف جنيه، هذا ما جاء في كتاب «العلم والعمران»، وهل لك أيها الأخ الذكي أن تتذكر ما تقدم في سورة «إبراهيم» إذ ذكرت لك هناك البحر الميت، وأن ثروته أكبر من ثروة جميع المسلمين الآن في الأرض، وقد جهلها المسلمون وعرفها الفرنجة وهم يستخرجونها، وهاهو ذا وادي الموت الذي لا يصلح للحياة ظهر أنه كنز عظيم، وهذا هو قوله تعالى: ﴿ وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ﴾[الذاريات: ٤٨]، وقوله تعالى هنا: ﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا ﴾[ق: ٧] الخ، نعم الله ممدوح على تمهيد هذه الأرض، فالمعادن الجميلة النافعة يجعل استخراجها صعباً، والمزارع يجعلها في غاية السهولة وما أشبه إدراك الحقائق التي يجهلها أكثر الناس إلا بالبحر الميت في فلسطين ووادي الموت في أمريكا، كلاهما يعرفه الناس في حال جهالتهم، ولكنهم ينظرون إليه بالسخرية والاستهزاء، فإذا جاء أهل العلم واستخرجوا ما يشاؤون من الكنوز، هكذا أعيننا وأجسامنا والكواكب حولنا، يراها العالم والجاهل على حد سواء، فالجاهل يحقر البحث في هذه العجائب، والعالم هو الذي يعرف قيمتها ويصرف نفيس عمره في المعرفة، كما تجشمت إنكلترا مشاق الحرب العظمى، وبلغت مآربها في البحر الميت، وكما صرفت الشركة الأمريكية آلاف آلاف الجنيهات في استخراج كنوز وادي الموت، وهو البورق الكثير هناك.

أيها الذكي اصرف عمرك كله في استخراج حقائق العوالم فأنت سعيد بذلك الاستخراج، وقوم بعدك سيقلدونك في ذلك. وآخرون يستخرجون منافع الأرض كالتي في وادي الموت والتي في البحر الميت، فهذه كنوز أقل من كنوز العلم، ونفس ما نكتبه الآن وأمثاله كما يحث الناس على الأعلى يحثهم على الأدنى، ولكل من الناس درجة في عمله، والله هو الولي الحميد.

(٢) غور الشيطان: أما غور الشيطان فهو غور في أرض صخرية بولاية «أريزونا» من ولايات أمريكا حيث الارتفاع (٦٠٠٠) قدم عن سطح البحر، وهو كبير مستدير، قطره نحو ١٣٠٠ متر، وعمقه ١٧٥ متراً، وهذا الغور إنّما حصل بسبب جرم سماوي مزق ما وقع عليه من الطبقات الصخرية وأحدث هذا العمق الواسع، وكانت سرعته تزيد عن سرعة رصاص البنادق ٥٠ ضعفاً، فكسر الصخور الصلبة وسحق الهشة، فانتشرت الكسر والسحيق حول الغور في أرض مساحتها ٧٥ ميلاً مربعاً، ولقد زحزح طبقات الصخور المجاورة فارتفعت من جهة وانخفضت من جهة أخرى، وحول هذا الغور حجارة نيزكية ومغناطيسية، وكلها فيها الحديد والنيكل والبلاتين والأريديوم ونحوها من المعادن الثمينة، ولقد تألفت شركة منذ عشرين سنة لحفر بئر يصل إلى الجسم النيزكي الذي أحدث هذا الغور، وقد صرفت الشركة أكثر من مائة ألف جنيه، وأوصلت البئر إلى ١٤٠٠ قدماً، وهناك أصابت جسماً أشد صلابة من الفولاذ، لا تفعل فيه القنابل، وترد عنه ارتداد الحصى عن الصخر، وهذا الجسم العجيب النيزكي الذي ترى هذه الشركة أنه كنز عظيم، يقدر قطره بنحو ٣٠٠ قدم، ويقدر ثقله بمليون طن، وبعضهم يجعل قطره أربعة أمثال ما ذكر، ولما أصاب الأرض وغار فيها أخرج منها ما ثقله أكثر من ٣٠٠ مليون طن وبعثر ما حوله.

(٣) الكلام على الجليد والفحم القطبي: إن العصر الجليدي الأخير الذي أصاب الجانب الشمالي الغربي من أوروبا، أعني أرلندا واسكتلندا وأسوج ونروج والبلطيك، كان قبل التاريخ بين ٣٠ ألف سنة، و ١٨ ألف سنة، ودام إلى ٦٠٠٠ سنة قبل الميلاد، إن القطب الجنوبي قد كشف فيه طبقات فحمية سمكها كلها ١٥٠٠ قدم على الأقل، ومن حيث العرض ٨٥ درجة على بعد ٥ درجات من القطب الجنوبي، وبعض هذه الطبقات رقيق جداً، ووجدت آثار الجذور في الطين الذي وجد مع الفحم الحجري، وذلك دليل قاطع على أن تلك الأصقاع كانت حارة، وكانت الأشجار تغطيها عصوراً متطاولة، وذلك على مقتضى انتقال القطبين. انتهى الكلام على اللطيفة الثالثة في آية: ﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَـٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ ﴾[ق:٧] الخ، والحمد لله رب العالمين.

هاهنا ثلاث جواهر:

الجوهرة الأولى: في بهجة العلم في قوله تعالى: ﴿ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴾[ق:٧].

الجوهرة الثانية: في قوله تعالى: ﴿ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾[ق:٨].

الجوهرة الثالثة: في قوله تعالى: ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾[ق:١٨].

الجوهرة الأولى: بهجة العلم في قوله تعالى:

﴿ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴾

سيأتي في سورة «الذاريات» الكلام على الذكور والإناث من النبات، وأن علماء النبات حاروا في تقسيمه، فإن قسموه بواسطة ما يرون من شجرات وشجيرات وأنجم، وهي الزروع المعروفة التي لا ساق لها؛ فإن ذلك التقسيم لا يفيد، وكيف يفيد إلا بتحديد الأقسام تحديداً تاماً، وإن قسموه بواسطة أنه نبات سنوي وغير سنوي كما سيأتي؛ فهذا غير كاف، لأن البرسيم وحده بعضه سنوي

وبعضه غير سنوي، فإذن قد التجؤوا أخيراً إلى دراسة الزهرة والحب والفاكهة، فانتظمت الأقسام حينئذ، ورأوا أيضاً أن من الأزهار ما يكون ذكرانها على شجرة وإناثها على شجرة أخرى كما سيأتي إيضاحه هناك، وذلك كشجر النخل، فإذا كان بين النخلة والأخرى مسافة بعيدة؛ فإن الهواء يحمل الطلع من الذكر إلى الأنثى، والإنسان لا علم له بهذا، ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾[المؤمنون: ١٤].

حكاية

جاء في كتاب «الآيات البينات في علم النبات» للأستاذ أحمد أفندي ندى ما نصه: إن التلقيح في النباتات ذات المسكنين يمكن حصوله من بعد عظيم، وهناك عدة أمثلة نافعة لبيان هذه الظاهرة، فكان منذ زمن طويل يستنبت شجرتان من الفستق الأنثى، وكانت كل شجرة منهما تحمل كل سنة أزهاراً ولا يتحصل منهما ثمار أصلاً، فتعجب المعلم «جوسيو» لما رأى أن هاتين الشجرتين قد انعقدت ثمارهما ونضجت على ما ينبغي في سنة من السنين، ومن ذلك الوقت خطر بباله أنه لا بد أن يكون بباريس أو في أكنافها شجرة فستق ذكر حاملة الأزهار، فشرع في البحث عن ذلك، فعرف أن شجرة فستق أزهرت أول مرة في جنينة تربية النباتات الكائنة بقرب «لوكسامبور»، فأتى الطلع المحمول بالهواء من فوق أبنية جزء من باريس ولقح نبات الإناث، وهناك نبات يسمى «السنيرياسبرالس» أي الحلزوني الذي هو نبات ذو مسكنين، من الفصيلة البشنينية، ينبت بمقدار عظيم في الترع وفي القنوات، ففي هذا النبات ظاهرة عجيبة جداً في زمن تلقيحه، وهي أن يكون النبات موضوعاً في قاع الماء، أي: قاطناً فيه تماماً، وذكوره وإناثه تنبت مختلطاً بعضها ببعض، فالأزهار الإناث المحمولة على ذنيبات زهرية طولها قدمان أو ثلاثة تقريباً، وملتفة على هيئة حلزون تأتي على سطح الماء لكي تبتسم، وأما الأزهار الذكور فكل جملة منها تكون موضوعة في لفافة غشائية وهي محمولة على ذنيب زهري قصير جداً، فإذا أتى زمن التلقيح تتفتح وتمزق اللفافة القرطاسية، وتنفصل من حاملها الزهري العام، وتأتي على سطح الماء فتبتسم وتلقح الأزهار الإناث، وبعد زمن يسير تنزل هذه الأزهار الإناث تحت الماء ثانياً بالتفاف الذنيبات الزهرية الحلزونية التي تحملها، وفيه تصل ثمارها إلى نضجها التام. انتهى.

أقول: وهذا من أعجب العجب! إن هاتين العجيبتين تفتح لنا أبواب علوم كثيرة، كيف لا وهذه شجرة الفستق كانت لا تثمر وهي أنثى، ولكن لما ظهرت شجرة فستق ذكر جاء لها الطلع منها فأثمرت. إن هذه الدنيا جميلة وبديعة، أليس هذا من أعجب الإبداع، يلقح النبات من نبات آخر والناس لا يعلمون.

وكيف يكون البشنين نابتاً في برك بلادنا ونحن ننظر إليه نظرة جاهلة لأنه ينبت في البرك، ولكنا نراه يضحك وهيئة أزهاره جميلة، وهل كان يدور بخلدنا ونحن نلهو ونلعب في حال طفولتنا أن هذه الزهرة الضاحكة المستبشرة هي الأنثى، وأن الذكران قد انتبذوا مكاناً قصياً في قاع البركة، وأنهم وقت الإلقاح هم بدورهم سيخرجون من أجداثهم سراعاً وهم فرحون مستبشرون فيجدون هؤلاء العانسات واقفات منتظرات قدومهم فيحصل الإلقاح في أمن وأمان، ولم يبق لهؤلاء الذكران من فائدة، أما الإناث فإنهن ينزلن إلى قاع البركة، وهناك يتم نمو الثمرات، ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾[المؤمنون: ١٤].

﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۝ وَفِي أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾[الذاريات: ٢٠-٢١]. ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[الذاريات: ٤٩]، فلنتذكر في أمر السياسة فنقول:

إن الله الذي خلق النبات هو نفسه الذي خلق الأمم، ولقد يخيل لي الآن أن في الشرق عقولاً، وتلك العقول كانت مغطاة في قاع بركة هذه الدنيا، كما أن ذكران البشنين كانت ملتفة بأغشية في قاع بركة الماء، وهاهو ذا اليوم أقبل الزمان الذي فيه تظهر تلك العقول من أغشيتها وتلقي على العالم دروساً كما ظهرت ذكور البشنين في وقت الإلقاح وفعلت ما خلقت له وتم الإلقاح.

إن للشرق صولة فوق صولة الغرب، ومن هذه العجائب نفهم قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾[الرعد: ٣٨]، وقوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَابٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾[الحج: ٧٠]، وقوله: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ﴾[الرعد: ٨].

وإذا كان لقاح البشنين بمقدار فهكذا لقاح عقول الشرقيين له زمان لا بد منه، وهل اللقاح غير التعليم. الله أكبر، إن من أنواع اللقاح في الشرق الكتب والجرائد المنتشرة اليوم ومنها هذا التفسير، إن لقاح العقول الشرقية اليوم حاصل، والشرق يغلي كما تغلي القدور، ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾[القصص: ٦٨]. انتهى يوم الأربعاء أول يونيو سنة ١٩٣٢م.

الجوهرة الثانية: في قوله تعالى:

﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾[ق: ٨]

رباه، جمل فعلك، وحسن قولك، كم نتفيأ ظلال الأشجار، ونجلس في الحقول، ونأكل من الفاكهة والحب ما لذ وطاب، نعيش ونموت ونحن غافلون عن الجمال، وعن الحكمة، وعن عجائب الإبداع، كم من ورق تحيط به أوبار ونحن ننظرها ولا ندري ما حكمتها، تشرق الشمس وتغرب، ويطلع القمر ويأفل ونحن نشاهد تلك الأوراق الكاسيات بتلك الأوبار، ولا ندري لماذا كانت هذه الأوبار أو الأشعار، نظرت في كتاب «جمال الطبيعة» للورد أفبري صفحة ١٠٩ فألفيته شرح هذا الموضوع شرحاً واضحاً، فاستبان به أن الوبر أعدته العناية الإلهية، إما ليقي النبات من شر هاجم من خارج النبات، وإما ليكون حافظاً لما في النبات من قوة حيوية بها بقاؤه ونظام حياته، فأما أول الأمرين فذلك:

(١) إن من النبات ما تعترضه الحيوانات فتقطع عليه حياته فيكون ذلك الوبر وقاية له.

(٢) ومنه ما تهاجمه الحشرات فيكون ذلك الوبر حصناً حصيناً.

(٣) ومنه ما تحيط به الرطوبة فتكاد تهلكه لولا ذلك الوبر الكاسي للأوراق.

(٤) ومنه ما تلح عليه حرارة الشمس فيكون ظل تلك الأوبار حافظاً للنبات من البوار كما يحفظ جسم الإنسان من الحر بالملابس، ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾[النحل: ٨١].

ولو علم المسلم أن نعمة الملابس ليست خاصة به، بل هناك ملابس تحفظ النبات من الهلاك ليكون نعمة له أيضاً ومتاعاً؛ لخر صعقاً ولدهش من تلك العناية التي تحير الألباب. هذا هو الأمر الأول.

أما الأمر الثاني فذلك أن من النبات ما ينبت في الصحراء فتلح عليه الشمس فيتطاير منه البخار، فما الذي يحفظ حياة النبات إذن إذا خرج بإلحاح الشمس بقية الرطوبة في ذلك النبات؟ أعد الله تلك الأنابيب الشعرية الوبرية، فهي المانعات من ذلك البخر فيعيش ذلك النبات، هذه نبذة من معنى قوله تعالى هنا: ﴿ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾[ق:٨].

أيها المسلمون: لا حياة إلا حياة العلماء، والجاهلون جميعاً موتى، فليكن الإنسان عالماً أو متعلماً أو مستمعاً أو محباً كما في الحديث، وليحذر أن يكون كارهاً للعلم فذلك من الأخسرين، والحمد لله رب العالمين. انتهى الكلام على الجوهرة الثانية.

الجوهرة الثالثة: في قوله تعالى:

﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾[ق:١٨]

لقد تقدم الكلام على هذه الآية في سورة «الحجرات»، وقد ذكرنا هناك عشراً من آفات اللسان من «إحياء علوم الدين» للغزالي رحمه الله، وكذلك بعض غوائل الأعمال القلبية من كتابنا «جوهر التقوى»، وأرجأنا بقية ما في «الإحياء» وما في كتاب «جوهر التقوى» إلى هذا المقام هنا في سورة «ق»، فلنبدأ بالكلام على ما في «الإحياء» فنقول:

الآفة الحادية عشر: السخرية والاستهزاء

وهذا محرم مهما كان مؤذياً، كما قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ﴾[الحجرات:١١]، ومعنى السخرية الاستهانة والتحقير والتنبيه على العيوب والنقائص على وجه يضحك منه، وقد يكون ذلك بالمحاكاة بالفعل والقول، وقد يكون بالإشارة والإيماء، وإذا كان بحضرة المستهزأ به لم يسم ذلك غيبة، وفيه معنى الغيبة، قالت عائشة رضي الله عنها: «حاكيت إنساناً فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أحب أني حاكيت إنساناً ولي كذا وكذا».

وقال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ﴾[الكهف:٤٩]: إن الصغيرة التبسم بالاستهزاء بالمؤمن، والكبيرة القهقهة بذلك، وهذه إشارة إلى أن الضحك على الناس من جملة الذنوب والكبائر. وعن عبد الله بن زمعة أنه قال: «سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يخطب فوعظهم من ضحكهم من الضرطة، فقال: علام يضحك أحدكم مما يفعل».

وقال صلى الله عليه وسلم: «إن المستهزئين بالناس يفتح لأحدهم باب من الجنة فيقال هلم هلم، فيجيء بكربه وغمه فإذا أتاه أغلق دونه، ثم يفتح له باب آخر فيقال هلم هلم، فيجيء بكربه وغمه فإذا أتاه أغلق دونه، فما يزال كذلك حتى إن الرجل ليفتح له باب فيقال له هلم هلم فلا يأتيه».

وقال معاذ بن جبل: قال النبي صلى الله عليه وسلم: «من عير أخاه بذنب قد تاب منه لم يمت حتى يعمله». وكل هذا يرجع إلى استحقار الغير والضحك عليه استهانة به واستصغاراً له، وعليه نبه قوله تعالى: ﴿ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ ﴾[الحجرات:١١] أي: لا تستحقره استصغاراً فلعله خير

منك، وهذا إنّما يحرم في حق من يتأذى به، فأما من جعل نفسه مسخرة وربما فرح من أن يسخر به كانت السخرية في حقه من جملة المزاح، وقد سبق ما يذم منه وما يمدح، وإنّما المحرم استصغار يتأذى به المستهزأ به لما فيه من التحقير والتهاون، وذلك تارة بأن يضحك على كلامه إذا تخبط فيه ولم ينتظم، أو على أفعاله إذا كانت مشوشة كالضحك على خطه وعلى صنعته أو على صورته وخلقته إذا كان قصيراً، أو ناقصاً لعيب من العيوب، فالضحك من جميع ذلك داخل في السخرية المنهي عنها. انتهى الكلام على الآفة الحادية عشرة، والحمد لله رب العالمين.

الآفة الثانية عشرة: إفشاء السر

وهو منهي عنه لما فيه من الإيذاء والتهاون بحق المعارف والأصدقاء، قال النبي صلى الله عليه وسلم: «إذا حدث الرجل حديث ثم التفت فهو أمانة». وقال مطلقاً «كذا»: «الحديث بينكم أمانة». وقال الحسن: إن من الخيانة أن تحدث بسر أخيك.

ويروى أن معاوية رضي الله عنه أسر إلى الوليد بن عتبة حديثاً، فقال لأبيه: يا أبت، إن أمير المؤمنين أسر لي حديثاً وما أراه يطوي عنك ما بسطه إلى غيرك، قال: فلا تحدثني به، فإن من كتم سره كان الخيار إليه، ومن أفشاه كان الخيار عليه، قال: فقلت: يا أبت، وإن هذا ليدخل بين الرجل وبين ابنه. فقال: لا والله يا بني، ولكن أحب أن لا تذلل لسانك بأحاديث السر، قال: فأتيت معاوية فأخبرته، فقال: يا وليد أعتقك أبوك من رق الخطأ فإفشاء السر خيانة، وهو حرام إذا كان فيه إضرار، ولؤم إن لم يكن فيه إضرار.

وقد ذكرنا ما يتعلق بكتمان السر في كتاب آداب الصحبة فأغنى عن الإعادة. انتهى الكلام على الآفة الثانية عشرة، والحمد لله رب العالمين.

الآفة الثالثة عشر: الوعد الكاذب

فإن اللسان سباق إلى الوعد، ثم النفس لا تسمح بالوفاء فيصير الوعد خلفاً، وذلك من أمارات النفاق، قال الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ﴾[المائدة: ١]، وقال صلى الله عليه وسلم: «العدة عطية»، وقال صلى الله عليه وسلم: «الوأي مثل الدين أو أفضل» والوأي: الوعد، وقد أثنى الله تعالى على نبيه إسماعيل عليه السلام في كتابه العزيز فقال: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ﴾[مريم: ٥٤]، قيل: إنه وعد إنساناً في موضع فلم يرجع إليه ذلك الإنسان بل نسي، فبقي إسماعيل في اثنين وعشرين يوماً في انتظاره.

ولما حضرت عبد الله بن عمر الوفاة قال إنه كان خطب إلى ابنتي رجل من قريش وقد كان مني إليه شبه الوعد، فوالله لا ألقى الله بثلث النفاق، أشهدكم أني زوجته ابنتي. وعن عبد الله بن أبي الخنساء قال: بايعت النبي صلى الله عليه وسلم قبل أن يبعث، وبقيت له بقية فوعدته أن آتيه بها في مكانه ذلك، فنسيت يومي والغد، فأتيته اليوم الثالث وهو في مكانه، فقال: يا فتى لقد شققت علي، أنا هاهنا منذ ثلاث أنتظرك. وقيل لإبراهيم: الرجل يواعد الرجل الميعاد فلا يجيء. قال: ينتظره إلى أن يدخل وقت الصلاة التي تجيء.

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا وعد وعداً قال: عسى. وكان ابن مسعود لا يعد وعداً إلا ويقول إن شاء الله وهو الأولى، ثم إذا فهم مع ذلك الجزم في الوعد فلا بد من الوفاء إلا أن يتعذر، فإن كان عند الوعد عازماً على أن لا يفي فهذا هو النفاق، وقال أبو هريرة: قال النبي صلى الله عليه وسلم: «ثلاث من كن فيه فهو منافق وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان».

وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أربع من كن فيه كان منافقاً، ومن كانت فيه خلة منهن كان فيه خلة من النفاق حتى يدعها: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر»، وهذا يتنزل على من وعد وهو على عزم الخلف أو ترك الوفاء من غير عذر، فأما من عزم على الوفاء فعن له عذر منعه من الوفاء لم يكن منافقاً وإن جرى عليه ما هو صورة النفاق، ولكن ينبغي أن يحترز من صورة النفاق أيضاً كما يحترز من حقيقته، ولا ينبغي أن يجعل نفسه معذوراً من غير ضرورة حاجزة.

فقد روي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان وعد أبا الهيثم بن التيهان خادماً، فأتى بثلاثة من السبي فأعطى اثنين وبقي واحدة، فأتت فاطمة رضي الله عنها تطلب منه خادماً وتقول: ألا ترى أثر الرحى بيدي، فذكر موعده لأبي الهيثم، فآثره به على فاطمة لما كان قد سبق بموعده له مع أنها كانت تدير الرحى بيدها الضعيفة.

ولقد كان صلى الله عليه وسلم جالساً يقسم غنائم هوازن بحنين فوقف عليه رجل من الناس فقال: إن لي عندك موعداً يا رسول الله. قال: صدقت فاحتكم ما شئت. قال: احتكم ثمانين ضائنة وراعيها. قال: هي لك. وقال: احتكمت يسيراً، ولصاحبة موسى التي دلته على عظام يوسف كانت أحزم منك وأجزل حكماً منك حين حكمها موسى عليه السلام، فقالت: حكمي أن تردني شابة أو أدخل معك الجنة، قيل: فكان الناس يضعفون ما احتكم به حتى جعل مثلاً فقيل: أشح من صاحب الثمانين والراعي.

وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ليس الخلف أن يعد الرجل الرجل وفي نيته أن يفي» وفي لفظ آخر: «إذا وعد الرجل أخاه وفي نيته أن يفي فلم يجد فلا إثم عليه». انتهى الكلام على الآفة الثالثة عشرة، والحمد لله رب العالمين.

الآفة الرابعة عشرة: الكذب في القول واليمين

وهو من قبائح الذنوب، وفواحش العيوب، قال إسماعيل بن واسط: سمعت أبا بكر الصديق رضي الله عنه يخطب بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: «قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم مقامي هذا عام أول، ثم بكى وقال: إياكم والكذب فإنه مع الفجور وهما في النار». وقال أبو أمامة: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الكذب باب من أبواب النفاق».

وقال الحسن: كان يقال: إن من النفاق اختلاف السر والعلانية، والقول والعمل، والمدخل والمخرج، وأن الأصل الذي بني عليه النفاق الكذب. وقال عليه السلام: «كبرت خيانة أن تحدث

أخاك حديثاً وهو لك به مصدق وأنت له به كاذب ». وقال ابن مسعود: قال النبي صلى الله عليه وسلم: « لا يزال العبد يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً ».

ومر رسول الله صلى الله عليه وسلم برجلين يتبايعان شاة ويتحالفان، يقول أحدهما: والله لا أنقصك من كذا وكذا، ويقول الآخر: والله لا أزيدك على كذا وكذا، فمر بالشاة وقد اشتراها أحدهما فقال: أوجب أحدهما بالإثم والكفارة ». وقال عليه الصلاة والسلام: « الكذب ينقص الرزق ».

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « إن التجار هم الفجار، فقيل: يا رسول الله أليس قد أحل الله البيع؟ قال: نعم ولكنهم يحلفون فيأثمون، ويحدثون فيكذبون ». وقال صلى الله عليه وسلم: « ثلاثة نفر لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم: المنان بعطيته، والمنفق سلعته بالحلف الفاجر، والمسبل إزاره ». وقال صلى الله عليه وسلم: « ما حلف حالف بالله فأدخل فيها مثل جناح بعوضة إلا كانت نكتة في قلبه إلى يوم القيامة ».

وقال أبو ذر الغفاري قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « ثلاثة يحبهم الله: رجل كان في فئة فنصب نحره حتى يقتل أو يفتح الله عليه وعلى أصحابه، ورجل كان له جار سوء يؤذيه فصبر على أذاه حتى يفرق بينهما موت أو ظعن، ورجل كان معه قوم في سفر أو سرية فأطالوا السري حتى أعجبهم أن يمسوا الأرض فنزلوا فتنحى يصلي حتى يوقظ أصحابه للرحيل، وثلاثة يشنؤهم الله: التاجر أو البياع الحلاف، والفقير المختال، والبخيل المنان ».

وقال صلى الله عليه وسلم: « ويل للذي يحدث فيكذب ليضحك به القوم ويل له ويل له ».

وقال صلى الله عليه وسلم: « رأيت كأن رجلا جاءني فقال لي: قم، فقمت معه، فإذا أنا برجلين أحدهما قائم والآخر جالس، بيد القائم كلوب من حديد يلقمه في شدق الجالس فيجذبه حتى يبلغ كاهله، ثم يجذبه فيلقمه الجانب الآخر فيمده فإذا مده رجع الآخر كما كان، فقلت للذي أقامني: ما هذا؟ فقال: هذا رجل كذاب يعذب في قبره إلى يوم القيامة.

وعن عبد الله بن جراد قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت: يا رسول الله، هل يزني المؤمن؟ قال: قد يكون ذلك. قلت: يا نبي الله هل يكذب المؤمن؟ قال: لا. ثم أتبعها صلى الله عليه وسلم بقول الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِي ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ﴾[النحل: ١٠٥].

وقال أبو سعيد الخدري: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو فيقول في دعائه: « اللهم طهر قلبي من النفاق، وفرجي من الزنا، ولساني من الكذب ». وقال صلى الله عليه وسلم: « ثلاثة لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم: شيخ زان، وملك كذاب، وعائل مستكبر ». وقال عبد الله بن عامر: جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم بيتنا وأنا صبي صغير، فذهبت لألعب، فقالت أمي: يا عبد الله تعال حتى أعطيك. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما أردت أن تعطيه؟ قالت: تمرا، فقال: أما إنك لو لم تفعلي لكتبت عليك كذبة. وقال صلى الله عليه وسلم: لو أفاء الله علي نعما عدد هذا الحصى لقسمتها بينكم ثم لا تجدوني بخيلا ولا كذابا ولا جبانا، وقال صلى الله عليه وسلم وكان متكئا: ألا أنبئكم بأكبر الكبائر: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، ثم قعد

وقال: ألا وقول الزور. وقال ابن عمر: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن العبد ليكذب الكذبة فيتباعد الملك عنه مسيرة ميل من نتن ما جاء به». وقال أنس: قال النبي صلى الله عليه وسلم: «تقبلوا إلي بست أتقبل لكم الجنة، فقالوا: وما هن؟ قال: إذا حدث أحدكم فلا يكذب، وإذا وعد فلا يخلف وإذا ائتمن فلا يخن، وغضوا أبصاركم، واحفظوا فروجكم، وكفوا أيديكم».

وقال صلى الله عليه وسلم: إن للشيطان كحلاً ولعوقاً ونشوقاً: أما لعوقه فالكذب، وأما نشوقه فالغضب، وأما كحله فالنوم. وخطب عمر رضي الله عنه يوماً فقال: قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم كقيامي هذا فيكم فقال: أحسنوا إلى أصحابي ثم الذين يلونهم، ثم يفشو الكذب حتى يحلف الرجل على اليمين ولم يستحلف ويشهد ولم يستشهد. وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «من حدث عني بحديث وهو يرى أنه كذب فهو أحد الكذابين». وقال صلى الله عليه وسلم: «من حلف على يمين بإثم ليقتطع بها مال امرئ مسلم بغير حق لقي الله عز وجل وهو عليه غضبان». وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه رد شهادة رجل في كذبة كذبها، وقال صلى الله عليه وسلم: «كل خصلة يطبع أو يطوى عليها المسلم إلا الخيانة والكذب».

وقالت عائشة رضي الله عنها: ما كان من خلق أشد على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكذب، ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يطلع على الرجل من أصحابه على الكذب فما ينجلي من صدره حتى يعلم أنه قد أحدث توبة لله عز وجل منها.

وقال موسى عليه السلام: يا رب أي عبادك خير لك عملاً؟ قال: من لا يكذب لسانه، ولا يفجر قلبه، ولا يزني فرجه. وقال لقمان لابنه: يا بني إياك والكذب، فإنه شهي كلحم العصفور عما قليل يقلاه صاحبه.

وقال عليه السلام في مدح الصدق: أربع إذا كن فيك فلا يضرنك ما فاتك من الدنيا: صدق الحديث، وحفظ الأمانة، وحسن الخلق، وعفة طعمة. وقال أبو بكر رضي الله عنه في خطبة بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم: قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل مقامي هذا عام أول، ثم بكى وقال: عليكم بالصدق فإنه مع البر وهما في الجنة. وقال معاذ: قال لي صلى الله عليه وسلم: أوصيك بتقوى الله، وصدق الحديث، وأداء الأمانة، والوفاء بالعهد، وبذل السلام، وخفض الجناح.

وأما الآثار: فقد قال علي رضي الله عنه: أعظم الخطايا عند اللسان الكذوب، وشر الندامة ندامة يوم القيامة. وقال عمر بن عبد العزيز رحمة الله عليه: ما كذبت كذبة منذ شددت على إزاري.

وقال عمر رضي الله عنه: أحبكم إلينا ما لم نركم أحسنكم اسماً، فإذا رأيناكم فأحبكم إلينا أحسنكم خلقاً، فإذا اختبرناكم فأحبكم إلينا أصدقكم حديثاً، وأعظمكم أمانة.

وعن ميمون بن أبي شبيب قال: جلست أكتب كتاباً فأتيت على حرف إن أنا كتبته زينت الكتاب، وكنت قد كذبت فعزمت على تركه، فسمعت من جانب البيت: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ﴾[إبراهيم: ٢٧]. وقال الشعبي: ما أدري أيهما أبعد غوراً في النار الكذاب، أو البخيل؟.

وقال ابن السماك: ما أراني أوجر على ترك الكذب لأني إنّما أدعه أنفة. وقيل لخالد بن صبيح: أيسمى الرجل كاذباً بكذبة واحدة؟ قال: نعم. وقال مالك بن دينار: قرأت في بعض الكتب: ما من خطيب إلا وتعرض خطبته على عمله، فإن كان صادقاً صدق، وإن كان كاذباً قرضت شفتاه بمقاريض من نار كلما قرضتا نبتتا. وقال مالك بن دينار: الصدق والكذب يعتركان في القلب حتى يخرج أحدهما صاحبه. وكلم عمر بن عبد العزيز الوليد بن عبد الملك في شيء، فقال له: كذبت، فقال عمر: والله ما كذبت منذ علمت أن الكذب يشين صاحبه.

بيان ما رخص فيه من الكذب

اعلم أن الكذب ليس حراماً لعينه بل لما فيه من الضرر على المخاطب أو على غيره، فإن أقل درجاته أن يعتقد المخبر الشيء على خلاف ما هو عليه فيكون جاهلاً، وقد يتعلق به ضرر غيره، ورب جهل فيه منفعة ومصلحة، فالكذب محصل لذلك الجاهل فيكون مأذوناً فيه، وربما كان واجباً.

قال ميمون بن مهران: الكذب في بعض المواطن خير من الصدق، أرأيت لو كان رجلاً سعى خلف إنسان بالسيف ليقتله فدخل داراً فانتهى إليك فقال: أرأيت فلاناً! ما كنت قائلاً؟ ألست تقول: لم أره وما تصدق به، وهذا الكذب واجب.

فنقول: الكلام وسيلة إلى المقاصد، فكل مقصود محمود يمكن التوصل إليه بالصدق والكذب جميعاً فالكذب فيه حرام، وإن أمكن التوصل إليه بالكذب دون الصدق فالكذب فيه مباح، إن كان تحصيل ذلك القصد مباحاً، وواجب إن كان المقصود واجباً، كما أن عصمة دم المسلم واجبة، فمهما كان في الصدق سفك دم امرئ مسلم قد اختفى من ظالم فالكذب فيه واجب، ومهما كان لا يتم مقصود الحرب أو إصلاح ذات البين أو استمالة قلب المجني عليه إلا بكذب فالكذب مباح، إلا أنه ينبغي أن يحترز منه ما أمكن، لأنه إذا فتح باب الكذب على نفسه فيخشى أن يتداعى إلى ما يستغنى عنه وإلى ما لا يقتصر على حد الضرورة، فيكون الكذب حراماً في الأصل إلا لضرورة.

والذي يدل على الاستثناء ما روي عن أم كلثوم: ما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يرخص في شيء من الكذب إلا في ثلاث: الرجل يقول القول يريد به الإصلاح، والرجل يقول القول في الحرب، والرجل يحدث امرأته، والمرأة تحدث زوجها.

وقال أيضاً: وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ليس بكذاب من أصلح بين اثنين فقال خيراً أو نمى خيراً». وقالت أسماء بنت يزيد: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «كل الكذب يكتب على ابن آدم إلا رجل كذب بين مسلمين ليصلح بينهما».

وروي عن أبي كاهل قال: وقع بين اثنين من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم كلام حتى تصارما، فلقيت أحدهما فقلت: ما لك ولفلان! فقد سمعته يحسن عليك الثناء، ثم لقيت الآخر فقلت له مثل ذلك حتى اصطلحا، ثم قلت: أهلكت نفسي وأصلحت بين هذين، فأخبرت النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: يا أبا كاهل أصلح بين الناس، أي: ولو بالكذب. وقال عطاء بن يسار: قال رجل للنبي صلى الله عليه وسلم: أكذب على أهلي! قال: لا خير في الكذب، قال: أعدها وأقول لها، قال:

لا جناح عليك. وروي أن ابن أبي عذرة الدؤلي وكان في خلافة عمر رضي الله عنه كان يخلع النساء اللاتي يتزوج بهن، فطارت له في الناس من ذلك أحدوثة يكرهها، فلما علم بذلك أخذ بيد عبد الله بن الأرقم حتى أتى به إلى منزله، ثم قال لامرأته: أنشدك بالله هل تبغضينني؟ قالت: لا تنشدني، قال: فإني أنشدك الله، قالت: نعم، فقال لابن الأرقم: أتسمع؟ ثم انطلقا حتى أتيا عمر رضي الله عنه، فقال: إنكم لتحدثون أني أظلم النساء وأخلعهن فسأل ابن الأرقم، فسأله فأخبره، فأرسل إلى امرأة ابن أبي عذرة فجاءت هي وعمتها، فقال: أنت التي تحدثين لزوجك أنك تبغضينه؟ فقالت: إني أول من تاب وراجع أمر الله تعالى، إنه ناشدني فتحرجت أن أكذب، أفأكذب يا أمير المؤمنين؟ قال: نعم فاكذبي، فإن كانت إحداكن لا تحب أحدنا فلا تحدثه بذلك، فإن أقل البيوت التي تبنى على الحب، ولكن الناس يتعاشرون بالإسلام والأحساب.

وعن النواس بن سمعان الكلابي قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما لي أراكم تتهافتون في الكذب تهافت الفراش في النار، كل الكذب يكتب على ابن آدم لا محالة إلا أن يكذب الرجل في الحرب فإن الحرب خدعة، أو يكون بين الرجلين شحناء فيصلح بينهما، أو يحدث امرأته يرضيها».

وقال ثوبان: الكذب كله إثم إلا ما نفع به مسلماً، أو دفع عنه ضرراً. وقال علي رضي الله عنه: إذا حدثتكم عن النبي صلى الله عليه وسلم فلأن أخِرَّ من السماء أحب إلي أن أكذب عليه، وإذا حدثتكم فيما بيني وبينكم فالحرب خدعة.

فهذه الثلاث ورد فيها صريح الاستثناء، وفي معناها ما عداها إذا ارتبط به مقصود صحيح له أو لغيره، أما ماله فمثل أن يأخذه ظالم ويسأله عن ماله فله أن ينكره، أو يأخذه سلطان فيسأله عن فاحشة بينه وبين الله تعالى ارتكبها فله أن ينكر ذلك، فيقول: ما زنيت وما سرقت، وقال صلى الله عليه وسلم: «من ارتكب شيئاً من هذه القاذورات فليستتر بستر الله»، وذلك أن إظهار الفاحشة فاحشة أخرى، فالرجل أن يحفظ دمه وماله الذي يؤخذ ظلماً، وعرضه بلسانه وإن كان كاذباً. وأما عرض غيره فبأن يسأل عن سر أخيه فله أن ينكره، وأن يصلح بين اثنين، وأن يصلح بين الضرات من نسائه بأن يظهر لكل واحدة أنها أحب إليه، وإن كانت امرأته لا تطاوعه إلا بوعد لا يقدر عليه فيعدها في الحال تطييباً لقلبها، أو يعتذر إلى إنسان وكان لا يطيب قلبه إلا بإنكار ذنب وزيادة تودد فلا بأس به، ولكن الحد فيه أن الكذب محذور، ولو صدق في هذه المواضع لتولد منه محذور فينبغي أن يقابل أحدهما بالآخر ويزن بالميزان القسط، فإذا علم أن المحذور الذي يحصل بالصدق أشد وقعاً في الشرع من الكذب فله الكذب، وإن كان ذلك المقصود أهون من مقصود الصدق فيجب الصدق، وقد يتقابل الأمران بحيث يتردد فيهما، وعند ذلك الميل إلى الصدق أولى، لأن الكذب يباح لضرورة أو حاجة مهمة، فإن شك في كون الحاجة مهمة فالأصل التحريم فيرجع إليه، ولأجل غموض إدراك مراتب المقاصد ينبغي أن يحترز الإنسان من الكذب ما أمكنه، وكذلك مهما كانت الحاجة له، فيستحب له أن يترك أغراضه ويهجر الكذب، فأما إذا تعلق بغرض غيره فلا تجوز المسامحة لحق الغير والإضرار به، وأكثر كذب

الناس إنما هو لحظوظ أنفسهم، ثم هو لزيادات المال والجاه، ولأمور ليس فواتها محذوراً، حتى إن المرأة لتحكي عن زوجها ما تفخر به، وتكذب لأجل مراغمة الضرات، وذلك حرام.

وقالت أسماء: سمعت امرأة سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت: إن لي ضرة، وإني أتكثر من زوجي بما لم يفعل أضارها بذلك، فهل علي شيء فيه؟ فقال صلى الله عليه وسلم: المتشبع بما لم يعط كلابس ثوبي زور. وقال صلى الله عليه وسلم: من تطعم بما لم يطعم، أو قال لي وليس له أو أعطيت ولم يعط فهو كلابس ثوبي زور يوم القيامة. ويدخل في هذا فتوى العالم بما لا يتحققه، وروايته الحديث الذي لا يتثبته، إذ غرضه أن يثبت فضل نفسه، فهو لذلك يستنكف من أن يقول لا أدري، وهذا حرام، ومما يلتحق بالنساء الصبيان، فإن الصبي إذا كان لا يرغب في المكتب إلا بوعد أو وعيد، أو تخويف كاذب كان ذلك مباحا، نعم روينا في الأخبار أن ذلك يكتب كذبا، ولكن الكذب المباح أيضاً قد يكتب ويحاسب عليه ويطالب بتصحيح قصده فيه، ثم يعفى عنه، لأنه إنما أبيح بقصد الإصلاح، ويتطرق إليه غرور كبير، فإنه قد يكون الباعث له حظه وغرضه الذي هو مستغن عنه، وإنما يتعلل ظاهرا بالإصلاح، فلهذا يكتب، وكل من أتى بكذبة فقد وقع في خطر الاجتهاد ليعلم أن المقصود الذي كذب لأجله هل هو أهم في الشرع من الصدق أم لا وذلك غامض جداً، والحزم تركه إلا أن يصير واجباً بحيث لا يجوز تركه، كما لو أدى إلى سفك دم، أو ارتكاب معصية كيف كان، وقد ظن الظانون أنه يجوز وضع الأحاديث في فضائل الأعمال، وفي التشديد في المعاصي، وزعموا أن القصد منه صحيح، وهو خطأ محض، إذ قال صلى الله عليه وسلم: «من كذب علي معتمداً فليتبوأ مقعده من النار»، وهذا لا يرتكب إلا لضرورة، ولا ضرورة إذ في الصدق مندوحة عن الكذب، ففيما ورد من الآيات والأخبار كفاية عن غيرها، وقول القائل: إن ذلك قد تكرر على الأسماع، وسقط وقعه، وما هو جديد فوقعه أعظم، فهذا هوس، إذ ليس من الأغراض التي تقاوم محذور الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى الله تعالى، ويؤدي فتح بابه إلى أمور تشوش الشريعة، فلا يقاوم خير هذا شره أصلاً، والكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكبائر التي لا يقاومها شيء، نسأل الله العفو عنا وعن جميع المسلمين.

بيان الحذر من الكذب بالمعاريض

قد نقل عن السلف أن في المعاريض مندوحة عن الكذب، قال عمر رضي الله عنه: أما في المعاريض ما يكفي الرجل عن الكذب، وروي ذلك عن ابن عباس وغيره، وإنما أرادوا بذلك إذا اضطر إنسان إلى الكذب، فإذا لم تكن حاجة وضرورة فلا يجوز التعريض ولا التصريح جميعاً، ولكن التعريض أهون، ومثال التعريض ما روي أن مطرفاً دخل على زياد فاستبطأه فتعلل بمرض، وقال: ما رفعت جنبي مذ فارقت الأمير إلا ما رفعني الله.

وقال إبراهيم: إذا بلغ الرجل عنك شيء فكرهت أن تكذب: فقل إن الله تعالى ليعلم ما قلت من ذلك من شيء، فيكون قوله «ما» حرف نفي عند المستمع وعنده للإبهام. وكان معاذ بن جبل عاملا لعمر رضي الله عنه فلما رجع قالت له امرأته: ما جئت به مما يأتي به العمال إلى أهلهم، وما كان

قد أتاها بشيء، فقال: كان عندي ضاغط، قالت: كنت أميناً عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وعند أبي بكر رضي الله عنه فبعث عمر معك ضاغطاً، وقامت بذلك بين نسائها واشتكت عمر، فلما بلغه ذلك دعا معاذ، وقال: بعثت معك ضاغطاً. قال: لم أجد ما أعتذر به إليها إلا ذلك، فضحك عمر رضي الله عنه وأعطاه شيئاً، فقال: أرضها به. ومعنى قوله: «ضاغطاً» يعني رقيباً، وأراد به الله تعالى.

وكان النخعي لا يقول لابنته أشتري لك سكراً بل يقول: أرأيت لو اشتريت لك سكراً، فإنه ربما لا يتفق له ذلك، وكان إبراهيم إذا طلبه من يكره أن يخرج إليه وهو في الدار؛ قال للجارية: قولي له اطلبه في المسجد، ولا تقولي ليس هاهنا كيلا يكون كذباً. وكان الشعبي إذا طلب في المنزل وهو يكرهه خط دائرة وقال للجارية: ضعي الإصبع فيها وقولي ليس هاهنا، وهذا كله في موضع الحاجة. فأما في غير موضع الحاجة فلا لأن هذا تفهيم للكذب، وإن لم يكن اللفظ كذباً فهو مكروه على الجملة كما روى عبد الله بن عتبة قال: دخلت مع أبي على عمر بن عبد العزيز رحمة الله عليه فخرجت وعلي ثوب، فجعل الناس يقولون: هذا كساكه أمير المؤمنين، فكنت أقول: جزى الله أمير المؤمنين خيراً. فقال لي أبي: اتق الكذب وما أشبهه، فنهاه عن ذلك لأن فيه تقريراً لهم على ظن كاذب لأجل غرض المفاخرة، وهذا عرض باطل لا فائدة فيه، نعم المعاريض تباح لغرض خفيف كتطييب قلب الغير بالمزاح، كقوله صلى الله عليه وسلم: «لا يدخل الجنة عجوز»، وقوله للأخرى: «الذي في عين زوجك بياض»، وللأخرى: «نحملك على ولد البعير» وما أشبهه.

وأما الكذب الصريح كما فعله نعيمان الأنصاري في قصة الضرير، إذ قال له إنه نعيمان، وكما يعتاده الناس من ملاعبة الحمقى بتغريرهم أن امرأة رغبت في تزويجك، فإن كان فيه ضرر يؤدي إلى إيذاء قلب فهو حرام، وإن لم يكن إلا لمطايبته فلا يوصف صاحبها بالفسق، ولكن ينقص ذلك من درجة إيمانه. قال صلى الله عليه وسلم: «لا يكمل للمرء الإيمان حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه، وحتى يجتنب الكذب في مزاحه». وأما قوله عليه السلام: «إن الرجل ليتكلم بالكلمة ليضحك بها الناس يهوي بها في النار أبعد من الثريا»؛ أراد به ما فيه غيبة مسلم أو إيذاء قلب دون محض المزاح.

ومن الكذب الذي لا يوجب الفسق ما جرت به العادة في المبالغة، كقوله: طلبتك كذا وكذا مرة، وقلت لك كذا مائة مرة، فإنه لا يريد به تفهيم المرات بعددها، بل تفهيم المبالغة، فإن لم يكن طلبه إلا مرة واحدة كان كذاباً، وإن كان طلبه مرات لا يعتاد مثله في الكثرة لا يأثم، وإن لم تبلغ مائة وبينهما درجات يتعرض مطلق اللسان بالمبالغة فيها لخطر الكذب، ومما يعتاد الكذب فيه ويتساهل به أن يقال: كل الطعام، فيقول: لا أشتهيه، وذلك منهي عنه وهو حرام، وإن لم يكن فيه غرض صحيح.

قال مجاهد: قالت أسماء بنت عميس: «كنت صاحبة عائشة في الليلة التي هيأتها وأدخلتها على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومعي نسوة. قالت: فوالله ما وجدنا عنده قرى إلا قدحاً من لبن، فشرب ثم ناوله عائشة، قالت: فاستحيت الجارية، فقلت: لا تردي يد رسول الله صلى الله عليه وسلم خذي منه. قالت: فأخذت منه على حياء فشربت منه، ثم قال: ناولي صواحبك، فقلن: لا نشتهيه، فقال: لا تجمعن جوعاً وكذباً. قالت: فقلت يا رسول الله: إن قالت إحدانا لشيء تشتهيه لا

أشتهيه أيعد ذلك كذباً؟ قال: إن الكذب ليكتب كذباً حتى تكتب الكذيبة كذيبة». وقد كان أهل الورع يحترزن على التسامح بمثل هذا الكذب.

قال الليث بن سعد: كانت عينا سعد بن المسيب ترمص حتى يبلغ الرمص خارج عينيه، فيقال له: لو مسحت عينيك، فيقول: وأين قول الطبيب: لا تمس عينيك. فأقول: لا أفعل، وهذه مراقبة أهل الورع، ومن تركه انسل لسانه في الكذب عن حد اختياره فيكذب ولا يشعر. وعن خوات التيمي قال: جاءت أخت الربيع بن خيثم عائدة لابن له فانكبت عليه، فقالت: كيف أنت يا بني؟ فجلس الربيع وقال: أرضعتيه؟ قالت: لا. قال: ما عليك لو قلت يا ابن أخي فصدقت، ومن العادة أن يقول يعلم الله فيما لا يعلمه.

قال عيسى عليه السلام: إن من أعظم الذنوب عند الله أن يقول العبد: إن الله يعلم، لما لا يعلم وربما يكذب في حكاية المنام، والإثم فيه أعظم. إذ قال عليه السلام: «إن من أعظم الفرية أن يدعى الرجل إلى غير أبيه أو يري عينيه في المنام ما لم ير أو يقول على ما لم أقل». وقال عليه الصلاة والسلام: «من كذب في حلم كلف يوم القيامة أن يعقد بين شعيرتين، وليس بعاقد بينهما أبداً».

الآفة الخامسة عشرة: الغيبة

والنظر فيها طويل

فلنذكر أولاً مذمة الغيبة وما ورد فيها من شواهد الشرع، وقد نص الله سبحانه على ذمها في كتابه وشبه صاحبها بآكل لحم الميتة، فقال تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ [الحجرات: ١٢]، وقال عليه الصلاة والسلام: «كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه»، والغيبة تتناول العرض، وقد جمع الله بينه وبين المال والدم. وقال أبو برزة: قال عليه الصلاة والسلام: «لا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تناجشوا ولا تدابروا ولا يغتب بعضكم بعضاً، وكونوا عباد الله إخواناً».

وعن جابر وأبي سعيد قالا: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إياكم والغيبة فإن الغيبة أشد من الزنا، فإن الرجل قد يزني ويتوب فيتوب الله سبحانه عليه، وإن صاحب الغيبة لا يغفر له حتى يغفر له صاحبه». وقال أنس: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مررت ليلة أسري بي على أقوام يخمشون وجوههم بأظافرهم، فقلت: يا جبريل من هؤلاء؟ قال: هؤلاء الذين يغتابون الناس ويقعون في أعراضهم».

وقال سليم بن جابر: «أتيت النبي عليه الصلاة والسلام، فقلت: علمني خيراً أنتفع به، فقال: لا تحقرن من المعروف شيئاً ولو أن تصب من دلوك في إناء المستقي، وأن تلقى أخاك ببشر حسن، وإن أدبر فلا تغتابنه».

وقال البراء: خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أسمع العواتق في بيوتهن، فقال: «يا معشر من آمن بلسانه ولم يؤمن بقلبه، لا تغتابوا المسلمين، ولا تتبعوا عوراتهم، فإنه من تتبع عورة أخيه تتبع الله عورته، ومن تتبع الله عورته يفضحه في جوف بيته».

وقيل: أوحى الله إلى موسى عليه السلام من مات تائباً من الغيبة فهو آخر من يدخل الجنة، ومن مات مصراً عليها فهو أول من يدخل النار.

وقال أنس: أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس بصوم يوم، فقال: «لا يفطرن أحد حتى آذن له»، فصام الناس حتى إذا أمسوا جعل الرجل يجيء فيقول: يا رسول الله ظللت صائماً فائذن لي لأفطر، فيأذن له، والرجل والرجل حتى جاء رجل فقال: يا رسول الله، فتاتان من أهلك ظلتا صائمتين وإنهما يستحيان أن يأتياك فائذن لهما أن يفطرا، فأعرض عنه صلى الله عليه وسلم، فأعرض عنه ثم عاوده، فقال: «إنهما لم يصوما، وكيف يصوم من ظل نهاره يأكل لحم الناس، اذهب فمرهما إن كانتا صائمتين أن تستقيئا»، فرجع إليهما فأخبرهما فاستقاءتا، فقاءت كل واحدة منهما علقة من دم، فرجع إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره، فقال: «والذي نفسي بيده لو بقيتا في بطونهما لأكلتهما النار».

وفي رواية أنه لما أعرض عنه جاء بعد ذلك وقال: يا رسول الله والله إنهما قد ماتتا أو كادتا أن تموتا، فقال صلى الله عليه وسلم: «ائتوني بهما»، فجاءتا فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بقدح فقال لإحداهما: «قيئي»، فقاءت من قيح ودم وصديد حتى ملأت القدح، وقال للأخرى: «قيئي»، فقاءت كذلك، فقال: «إن هاتين صامتا عما أحل الله لهما وأفطرتا على ما حرم الله عليهما، جلست إحداهما إلى الأخرى فجعلتا تأكلان لحوم الناس».

وقال أنس: خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر الربا وعظم شأنه. فقال: «إن الدرهم يصيبه الرجل من الربا أعظم عند الله في الخطيئة من ست وثلاثين زنية يزنيها الرجل، وأربى الربا عرض الرجل المسلم». وقال جابر: كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في مسير، فأتى على قبرين يعذب صاحباهما، فقال: «إنهما يعذبان وما يعذبان في كبير، أما أحدهما فكان يغتاب الناس، وأما الآخر فكان لا يستنزه من بوله»، فدعا بجريدة رطبة أو جريدتين فكسرهما، ثم أمر بكل كسرة فغرست على قبر، وقال: «أما إنه سيهون من عذابهما ما كانتا رطبتين أو ما لم ييبسا».

ولما رجم رسول الله صلى الله عليه وسلم ماعزاً في الزنا، قال رجل لصاحبه: هذا أقعص كما يقعص الكلب، فمر صلى الله عليه وسلم وهما معه بجيفة، فقال: انهشا منها. فقالا: يا رسول الله ننهش جيفة. فقال: ما أصبتما من أخيكما أنتن من هذه.

وكان الصحابة رضي الله عنهم يتلاقون بالبشر، ولا يغتابون عند الغيبة، ويرون ذلك أفضل الأعمال، ويرون خلافه عادة المنافقين، وقال أبو هريرة: «من أكل لحم أخيه في الدنيا قرب إليه لحمه في الآخرة، وقيل له: كل ميتاً كما أكلته حياً، فيأكله فينضج ويكلح». وروي مرفوعاً كذلك. وروي أن رجلين كانا قاعدين عند باب من أبواب المسجد، فمر بهما رجل كان مخنثاً فترك ذلك، فقالا: لقد بقي فيه منه شيء، وأقيمت الصلاة فدخلا فصليا مع الناس فحاك في أنفسهما ما قالا، فأتيا عطاء فسألاه، فأمرهما أن يعيدا الوضوء والصلاة، وأمرهما أن يقضيا الصيام إن كانا صائمين. وعن مجاهد أنه قال في: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾[الهمزة: ١] الهمزة: الطعان في الناس، واللمزة: الذي يأكل لحوم الناس. وقال قتادة: ذكر لنا أن عذاب القبر ثلاثة أثلاث: ثلث من الغيبة، وثلث من النميمة، وثلث من البول.

وقال الحسن: والله للغيبة أسرع في دين الرجل المؤمن من الأكلة في الجسد. وقال بعضهم: أدركنا السلف وهم لا يرون العبادة في الصوم ولا في الصلاة، ولكن في الكف عن أعراض الناس. وقال ابن عباس: إذا أردت أن تذكر عيوب صاحبك فاذكر عيوبك.

وقال أبو هريرة: يبصر أحدكم القذى في عين أخيه ولا يبصر الجذع في عين نفسه. وكان الحسن يقول: ابن آدم، إنك لن تصيب حقيقة الإيمان حتى لا تعيب الناس بعيب هو فيك، وحتى تبدأ بصلاح ذلك العيب فتصلحه من نفسك، فإذا فعلت ذلك كان شغلك في خاصة نفسك، وأحب العباد إلى الله من كان هكذا.

وقال مالك بن دينار: مر عيسى عليه السلام ومعه الحواريون بجيفة كلب، فقال الحواريون: ما أنتن ريح هذا الكلب، فقال عليه الصلاة والسلام: ما أشد بياض أسنانه، كأنه صلى الله عليه وسلم نهاهم عن غيبة الكلب، ونبههم على أنه لا يذكر من شيء من خلق إلا أحسنه. وسمع علي بن الحسين رضي الله عنهما رجلا يغتاب الآخر، فقال له: إياك والغيبة فإنها إدام كلاب الناس. وقال عمر رضي الله عنه: عليكم بذكر الله تعالى فإنه شفاء، وإياكم وذكر الناس فإنه داء. نسأل الله تعالى حسن التوفيق لطاعته.

بيان معنى الغيبة وحدودها

اعلم أن حد الغيبة: أن تذكر أخاك بما يكرهه لو بلغه، سواء ذكرته بنقص في بدنه أو نسبه أو في خلقه أو في فعله أو في قوله أو في دينه أو في دنياه أو في ثوبه وداره ودابته.

أما البدن فكذكرك العمش والحول والقرع والقصر والطول والسواد والصفرة، وجميع ما يتصور أن يوصف به مما يكرهه كيفما كان.

وأما النسب فبأن تقول أبوه قبطي أو هندي أو فاسق أو خسيس أو إسكاف أو زبال أو شيء مما يكرهه كيفما كان.

وأما الخلق فبأن تقول هو سيئ الخلق بخيل متكبر مراء شديد الغضب جبان عاجز ضعيف القلب متهور وما يجري مجراه.

وأما في أفعاله المتعلقة بالدين فكقولك: هو سارق أو كذاب أو شارب خمر أو خائن أو ظالم أو متهاون بالصلاة أو الزكاة أو لا يحسن الركوع أو السجود أو لا يحترز من النجاسات أو ليس بارا بوالديه أو لا يضع الزكاة موضعها أو لا يحسن قسمتها أو لا يحرس صومه عن الرفث والغيبة والتعرض لأعراض الناس.

وأما في فعله المتعلق في الدنيا فكقولك إنه قليل الأدب متهاون بالناس أو لا يرى لأحد على نفسه حقا أو يرى لنفسه الحق على الناس أو أنه كثير الكلام كثير الأكل نؤوم ينام في غير وقت النوم ويجلس في غير موضعه.

وأما في ثوبه فكقولك إنه واسع الكم طويل الذيل وسخ الثياب، وقال قوم: لا غيبة في الدين لأنه ذم ما ذمه الله تعالى، فذكره بالمعاصي وذمه بها يجوز بدليل ما روي أن رسول الله صلى الله عليه

وسلم ذكرت له امرأة وكثرة صلاحها وصومها ولكنها تؤذي جيرانها بلسانها، فقال: هي في النار. وذكرت عنده امرأة أخرى بأنها بخيلة، فقال: فما خيرها، إذن فهذا فاسد لأنهم كانوا يذكرون ذلك لحاجتهم إلى تعريف الأحكام بالسؤال، ولم يكن غرضهم التنقيص ولا يحتاج إليه في غير مجلس الرسول صلى الله عليه وسلم، والدليل عليه إجماع الأمة على أن من ذكر غيره بما يكرهه فهو مغتاب لأنه داخل فيما ذكره رسول الله صلى الله عليه وسلم في حد الغيبة، وكل هذا وإن كان صادقاً فيه فهو مغتاب عاص لربه وآكل لحم أخيه، بدليل ما روي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: هل تدرون ما الغيبة؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: ذكرك أخاك بما يكرهه. قيل: أرأيت إن كان في أخي ما أقوله؟ قال: إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه فقد بهته.

وقال معاذ بن جبل: ذكر رجل عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: ما أعجزه. فقال صلى الله عليه وسلم: اغتبتم أخاكم. قالوا: يا رسول الله قلنا ما فيه. قال: إن قلتم ما ليس فيه فقد بهتموه. وعن حذيفة عن عائشة رضي الله عنها أنها ذكرت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم امرأة فقالت: إنها قصيرة. فقال صلى الله عليه وسلم: اغتبتها. وقال الحسن: ذكر الغير ثلاثة: الغيبة، والبهتان، والإفك، وكل في كتاب الله عز وجل، فالغيبة أن تقول ما فيه، والبهتان أن تقول ما ليس فيه، والإفك أن تقول ما بلغك.

وذكر ابن سيرين رجلاً فقال: ذاك الرجل الأسود، ثم قال: أستغفر الله إني أراني قد اغتبته. وذكر ابن سيرين إبراهيم النخعي فوضع يده على عينه ولم يقل الأعور. وقالت عائشة: لا يغتابن أحدكم أحداً فإني قلت لامرأة مرة وأنا عند النبي صلى الله عليه وسلم: إن هذه لطويلة الذيل؛ فقال لي: الفظي الفظي، فلفظت مضغة دم.

بيان أن الغيبة لا تقتصر على اللسان

اعلم أن الذكر باللسان إنّما حرم لأنه فيه تفهيم الغير نقصان أخيك وتعريفه بما يكرهه، فالتعريض به كالتصريح، والفعل فيه كالقول والإشارة والإيماء والغمز والهمز والكتابة والحركة وكل ما يفهم المقصود فهو داخل في الغيبة وهو حرام، فمن ذلك: قول عائشة رضي الله عنها: دخلت علينا امرأة فلما ولت أومأت بيدي أنها قصيرة. فقال عليه الصلاة والسلام: اغتبتها.

ومن ذلك المحاكاة كأن يمشي متعارجاً أو كما يمشي، فهو غيبة، بل هو أشد من الغيبة لأنه أعظم في التصوير، ولما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم عائشة حاكت امرأة؛ قال: ما يسرني أني حاكيت إنساناً ولي كذا وكذا، وكذلك الغيبة بالكتابة، فإن القلم أحد اللسانين، وذكر المصنف شخصاً معيناً وتهجين كلامه في الكتاب غيبة إلا أن يقترن به شيء من الأعذار المحوجة إلى ذكره كما سيأتي بيانه. وأما قوله قال قوم كذا فليس ذلك غيبة، فالغيبة التعرض لشخص معين إما حي وإما ميت، ومن الغيبة أن تقول: بعض من مر بنا اليوم، أو بعض من رأيناه، إذا كان المخاطب يفهم منه شخصاً معيناً، لأن المحذور تفهيمه دون ما به التفهيم، فأما إذا لم يفهم عينه جاز، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا كره من إنسان شيئاً قال: ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا، فكان لا يعين، وقولك: بعض من

قدم من السفر، أو بعض من يدعي العلم، إن كان معه قرينة تفهم عين الشخص فهي غيبة، وأخبث أنواع الغيبة غيبة القراء المرائين، إنهم يفهمون المقصود على صيغة أهل الصلاح ليظهروا من أنفسهم التعفف عن الغيبة، ويفهمون المقصود ولا يدرون بجهلهم أنهم جمعوا بين فاحشتين: الغيبة والرياء، وذلك مثل أن يذكر عنده إنسان فيقول: الحمد لله الذي لم يبتلنا بالدخول على السلطان والتبذل في طلب الحطام، أو يقول: نعوذ بالله من قلة الحياء، نسأل الله أن يعصمنا منها، وإنّما قصده أن يفهم عيب الغير فيذكره بصيغة الدعاء، وكذلك قد يقدم مدح من يريد غيبته فيقول: ما أحسن أحوال فلان، ما كان يقصر في العبادات، ولكن قد اعتراه فتور وابتلي بما يبتلي به كلنا وهو قلة البصر، فيذكر نفسه، ومقصوده أن يزم غيره في ضمن ذلك، ويمدح نفسه بالتشبه بالصالحين بأن يذم نفسه فيكون مغتاباً ومرائياً ومزكياً نفسه، فيجمع بين ثلاث فواحش، وهو بجهله يظن أنه من الصالحين المتعففين عن الغيبة، ولذلك يلعب الشيطان بأهل الجهل إذا اشتغلوا بالعبادة من غير علم، فإنه يتبعهم ويحبط بمكايده عملهم، ويضحك عليهم، ويسخر منهم، ومن ذلك أن يذكر عيب إنسان فلا يتنبه له بعض الحاضرين، فيقول: سبحان الله ما أعجب هذا، حتى يصغي إليه ويعلم ما يقول، فيذكر الله تعالى ويستعمل اسمه آلة له في تحقيق خبثه، وهو يمتن على الله عز وجل بذكره جهلاً منه وغروراً، وكذلك يقول: ساءني ما جرى على صديقنا من الاستخفاف به، نسأل الله أن يروح نفسه، فيكون كاذباً في دعوى الاغتمام وفي إظهار الدعاء له، بل لو قصد الدعاء لأخفاه في خلوته عقيب صلاته، ولو كان يغتم به لاغتم أيضاً بإظهار ما يكرهه، وكذلك يقول ذلك المسكين قد بلي بآفة عظيمة تاب الله علينا وعليه، فهو في كل ذلك يظهر الدعاء، والله مطلع على خبث ضميره، وخفي قصده، وهو لجهله لا يدري أنه قد تعرض لمقت أعظم مما تعرض له الجهال إذا جاهروا، ومن ذلك الإصغاء إلى الغيبة على سبيل التعجب، فإنه إنّما يظهر التعجب ليزيد نشاط المغتاب في الغيبة فيندفع فيها، وكأنه يستخرج الغيبة منه بهذا الطريق، فيقول: عجب ما علمت أنه كذلك ما عرفته إلى الآن إلا بالخير، وكنت أحسب فيه غير هذا، عافانا الله من بلائه، فإن كل ذلك تصديق للمغتاب، والتصديق بالغيبة غيبة، بل الساكت شريك المغتاب، قال صلى الله عليه وسلم: «المستمع أحد المغتابين».

وقد روي عن أبي بكر وعمر رضي الله عنهما أن أحدهما قال لصاحبه: إن فلاناً لنؤوم، ثم إنهما طلبا أدماً من رسول الله صلى الله عليه وسلم ليأكلا به الخبز، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: قد ائتدمتما. فقالا: ما نعلمه، قال: بلى إنكما أكلتما من لحم أخيكما، فانظر كيف جمعهما، وكان القائل أحدهما والآخر مستمعاً. وقال للرجلين اللذين قال أحدهما: أقعص الرجل كما يقعص الكلب: انهشا من هذه الجيفة، فجمع بينهما، فالمستمع لا يخرج من إثم الغيبة إلا أن ينكر بلسانه أو بقلبه إن خاف، وإن قدر على القيام، أو قطع الكلام بكلام آخر فلم يفعل لزمه، وإن قال بلسانه: اسكت، وهو مشته لذلك بقلبه؛ فذلك نفاق ولا يخرجه من الإثم ما لم يكرهه بقلبه، ولا يكفي في ذلك أن يشير باليد، أي: اسكت، أو يشير بحاجبيه وجبينه، فإن ذلك استحقار للمذكور، بل ينبغي أن يعظم ذلك فيذب عنه صريحاً.

وقال صلى الله عليه وسلم: «من أذل عنده مؤمن فلم ينصره وهو يقدر على نصره أذله الله يوم القيامة على رؤوس الخلائق». وقال أبو الدرداء: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من رد عن عرض أخيه بالغيب كان حقاً على الله أن يرد عرضه يوم القيامة». وقال أيضاً: «من ذب عن عرض أخيه بالغيب كان حقاً على الله أن يعتقه من النار». وقد ورد في نصرة المسلم في الغيبة وفي فضل ذلك أخبار كثيرة أوردناها في كتاب «آداب الصحبة وحقوق المسلمين»، فلا نطيل بإعادتها.

بيان الأسباب الباعثة على الغيبة

اعلم أن البواعث على الغيبة كثيرة، ولكن يجمعها أحد عشر سبباً، ثمانية منها تطرد في حق العامة، وثلاثة تختص بأهل الدين والخاصة.

أما الثمانية فالأول: أن يشفي الغيظ، وذلك إذا جرى سبب غضب به عليه، فإنه إذا هاج غضبه يشتفي بذكر مساويه، فيسبق اللسان إليه بالطبع إن لم يكن ثم دين وازع، وقد يمتنع تشفي الغيظ عند الغضب فيحتقن الغضب في الباطن فيصير حقداً ثابتاً، فيكون سبباً دائماً لذكر المساوئ، فالحقد والغضب من البواعث العظيمة على الغيبة.

الثاني: موافقة الأقران، ومجاملة الرفقاء ومساعدتهم على الكلام، فإنهم إذا كانوا يتفكهون بذكر الأعراض فيرى أنه لو أنكر عليهم، أو قطع المجلس استثقلوه ونفروا عنه فيساعدهم ويرى ذلك من حسن المعاشرة، ويظن أنه مجاملة في الصحبة، وقد يغضب رفقاؤه فيحتاج إلى أن يغضب لغضبهم إظهاراً للمساهمة في السراء والضراء، فيخوض معهم في ذكر العيوب والمساوئ.

الثالث: أن يستشعر من إنسان أنه سيقصده ويطول لسانه عليه، أو يقبح حاله عند محتشم، أو يشهد عليه بشهادة فيبادره قبل أن يقبح هو حاله، ويطعن فيه ليسقط أثر شهادته، أو يبتدئ بذكر ما فيه صادقاً ليكذب عليه بعده، فيروج كذبه بالصدق الأول ويستشهد ويقول: ما من عادتي الكذب، فإني أخبرتكم بكذا وكذا من أحواله فكان كما قلت.

الرابع: أن ينسب إلى شيء فيريد أن يتبرأ منه، فيذكر الذي فعله وكان من حقه أن يبرئ نفسه ولا يذكر الذي فعل فلا ينسب غيره إليه، أو يذكر غيره بأنه كان مشاركاً له في الفعل ليمهد بذلك عذر نفسه في فعله.

الخامس: إرادة التصنع والمباهاة، وهو أن يرفع نفسه بتنقيص غيره، فيقول: فلان جاهل وفهمه ركيك وكلامه ضعيف، وغرضه أن يثبت في ضمن ذلك فضل نفسه، ويريهم أنه أعلم منه، أو يحذر أن يعظم مثل تعظيمه فيقدح فيه لذلك.

السادس: الحسد، وهو أنه ربما يحسد من يثني الناس عليه ويحبونه ويكرمونه، فيرد زوال تلك النعمة عنه فلا يجد سبيلاً إليه إلا بالقدح فيه، فيريد أن يسقط ماء وجهه عند الناس حتى يكفوا عن كرامته والثناء عليه، لأنه يثقل عليه أن يسمع كلام الناس وثناءهم عليه وإكرامهم له، وهذا هو عين الحسد، وهو غير الغضب والحقد، فإن ذلك يستدعي جناية من المغضوب عليه، والحسد قد يكون مع الصديق المحسن، والرفيق الموافق.

السابع: اللعب والهزل والمطايبة وتزجية الوقت بالضحك، فيذكر عيوب غيره مما يضحك الناس على سبيل المحاكاة، ومنشؤه التكبر والعجب. الثامن: السخرية والاستهزاء استحقاراً له، فإن ذلك قد يجري في الحضور، ويجري أيضاً في الغيبة، ومنشؤه التكبر واستصغار المستهزأ به.

وأما الأسباب الثلاثة التي هي في الخاصة فهي أغمضها وأدقها، لأنها شرور خبأها الشيطان في معرض الخيرات وفيها خير، ولكن شاب الشيطان بها الشر.

الأول: أن تنبعث من الدين داعية التعجب في إنكار المنكر والخطأ في الدين، فيقول: ما أعجب ما رأيت من فلان، فإنه قد يكون به صادقاً ويكون تعجبه من المنكر، ولكن كان حقه أن يتعجب ولا يذكر اسمه، فيسهل الشيطان عليه ذكر اسمه في إظهار تعجبه، فصار به مغتاباً وآثماً من حيث لا يدري. ومن ذلك قول الرجل: تعجبت من فلان كيف يحب جاريته وهي قبيحة! وكيف يجلس بين يدي فلان وهو جاهل.

الثاني: الرحمة، وهو أن يغتم بسبب ما يبتلى به، فيقول: مسكين فلان قد غمني أمره وما ابتلي به، فيكون صادقاً في دعوى الاغتمام، ويلهيه الغم عن الحذر من ذكر اسمه، فيذكره فيصير به مغتاباً، فيكون غمه ورحمته خيراً، وكذا تعجبه، ولكن ساقه الشيطان إلى شر من حيث لا يدري، والترحم والاغتمام ممكن دون ذكر اسمه فيهيجه الشيطان على ذكر اسمه ليبطل به ثواب اغتمامه وترحمه.

الثالث: الغضب لله تعالى، فإنه قد يغضب على منكر قارفه إنسان إذا رآه أو سمعه، فيظهر غضبه ويذكر اسمه، وكان الواجب أن يظهر غضبه عليه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولا يظهره لغيره، أو يستر اسمه ولا يذكره بالسوء. فهذه الثلاثة مما يغمض دركها على العلماء فضلاً عن العوام، فإنهم يظنون أن التعجب والرحمة والغضب إذا كان لله تعالى كان عذراً في ذكر الاسم وهو خطأ، بل المرخص في الغيبة حاجات مخصوصة لا مندوحة فيها عن ذكر الاسم كما سيأتي ذكره.

روي عن عامر بن واثلة أن رجلاً مر على قوم في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فسلم عليهم، فردوا عليه السلام، فلما جاوزهم قال رجل منهم: إني لأبغض هذا في الله تعالى، فقال أهل المجلس: لبئس ما قلت والله لننبئنه، ثم قالوا: يا فلان، لرجل منهم، قم فأدركه وأخبره بما قال، فأدركه رسولهم فأخبره، فأتى الرجل رسول الله صلى الله عليه وسلم وحكى له ما قال، وسأله أن يدعوه له، فدعاه وسأله، فقال: قد قلت ذلك، فقال صلى الله عليه وسلم: لم تبغضه؟ فقال: أنا جاره وأنا به خابر، والله ما رأيته يصلي صلاة قط إلا هذه المكتوبة، قال: فاسأله يا رسول الله: هل رآني أخرتها عن وقتها، أو أسأت الوضوء لها، أو الركوع أو السجود فيها، فسأله فقال: لا، فقال: والله ما رأيته يصوم شهراً قط إلا هذا الشهر الذي يصومه البر والفاجر، قال: فاسأله يا رسول الله: هل رآني قط أفطرت فيه، أو نقصت من حقه شيئاً؟ فسأله عنه فقال: لا، فقال: والله ما رأيته يعطي سائلاً ولا مسكيناً قط، ولا رأيته ينفق شيئاً من ماله في سبيل الله إلا هذه الزكاة التي يؤديها البر والفاجر، قال: فاسأله يا رسول الله هل رآني نقصت منها، أو ماكست فيها طالبها الذي يسألها، فسأله فقال: لا، فقال صلى الله عليه وسلم للرجل: قم فلعله خير منك.

بيان العلاج الذي به يمنع اللسان عن الغيبة

اعلم أن مساوئ الأخلاق كلها إنّما تعالج بمعجون العلم والعمل، وإنّما علاج كل علة بمضادة سببها، فلنفحص عن سببها، وعلاج كف اللسان عن الغيبة على وجهين: أحدهما على الجملة، والآخر على التفصيل، أما على الجملة فهو أن يعلم تعرضه لسخط الله تعالى بغيبته بهذه الأخبار التي رويناها وأن يعلم أنها محبطة لحسناته يوم القيامة، فإنها تنقل حسناته يوم القيامة إلى من اغتابه بدلاً عما استباحه من عرضه، فإن لم تكن له حسنات نقل إليه من سيئات خصمه، وهو مع ذلك متعرض لمقت الله عز وجل، ومشبه عنده بآكل الميتة، بل العبد يدخل النار بأن تترجح كفة سيئاته على كفة حسناته، وربما تنقل إليه سيئة واحدة ممن اغتابه فيحصل بها الرجحان ويدخل بها النار، وإنّما أقل الدرجات أن تنقص من ثواب أعماله، وذلك بعد المخاصمة والمطالبة وللسؤال والجواب والحساب.

قال صلى الله عليه وسلم: «ما النار في اليبس بأسرع من الغيبة في حسنات العبد». وروي أن رجلاً قال للحسن: بلغني أنك تغتابني؟ فقال: ما بلغ من قدرك عندي أني أحكمك في حسناتي، فمهما آمن العبد بما ورد من الأخبار في الغيبة لم يطلق لسانه بها خوفاً من ذلك. وينفعه أيضاً أن يتدبر في نفسه، فإن وجد فيها عيباً اشتغل بعيب نفسه، وذكر قوله صلى الله عليه وسلم: «طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس»، ومهما وجد عيباً فينبغي أن يستحيي من أن يترك ذم نفسه ويذم غيره، بل ينبغي أن يتحقق إن عجز غيره عن نفسه في التنزه عن ذلك العيب كعجزه، وهذا إن كان ذلك عيباً يتعلق بفعله واختياره، وإن كان أمراً خلقياً فالذم له ذم للخالق، فإن من ذم صنعة فقد ذم صانعها، قال رجل لحكيم: يا قبيح الوجه، قال: ما كان خلق وجهي إلي فأحسنه، وإذا لم يجد العبد عيباً في نفسه فليشكر الله تعالى ولا يلوثن نفسه بأعظم العيوب، فإن ثلب الناس وأكل لحم الميتة من أعظم العيوب، بل لو أنصف لعلم أن ظنه بنفسه أنه بريئ من كل عيب جهل بنفسه، وهو من أعظم العيوب، وينفعه أن يعلم أن تألم غيره بغيبته كتألمه بغيبة غيره له، فإذا كان لا يرضى لنفسه أن يغتاب فينبغي أن لا يرضى لغيره ما لا يرضاه لنفسه، فهذه معالجات جملية.

أما التفصيل فهو أن ينظر في السبب الباعث له على الغيبة، فإن علاج العلة بقطع سببها، وقد قدمنا الأسباب، أما الغضب فيعالجه بما سيأتي في كتاب «آفات الغضب» وهو أن يقول: إني إذا أمضيت غضبي عليه فلعل الله تعالى يمضي غضبه علي بسبب الغيبة، إذ نهاني عنها فاجترأت على نهيه، واستخففت بزجره، وقد قال صلى الله عليه وسلم: «إن لجنهم باباً لا يدخل منه إلا من شفى غيظه بمعصية الله تعالى». وقال صلى الله عليه وسلم: «من اتقى ربه كل لسانه ولم يشف غيظه». وقال صلى الله عليه وسلم: «من كظم غيظاً وهو يقدر على أن يمضيه دعاه الله تعالى يوم القيامة على رؤوس الخلائق حتى يخيره في أي الحور شاء». وفي بعض الكتب المنزلة على بعض النبيين: «يا ابن آدم اذكرني حين تغضب أذكرك حين أغضب فلا أمحقك فيمن أمحق».

وأما الموافقة فبأن تعلم أن الله تعالى يغضب عليك إذا طلبت سخطه في رضا المخلوقين، فكيف ترضى لنفسك أن توقر غيرك وتحقر مولاك، فتترك رضاه لرضاهم، إلا أن يكون غضبك لله تعالى،

وذلك لا يوجب أن تذكر المغضوب عليه بسوء، بل ينبغي أن تغضب لله أيضاً على رفقائك إذا ذكروه بالسوء، فإنهم عصوا ربك بأفحش الذنوب وهي الغيبة. وأما تنزيه النفس بنسبة الغير إلى الخيانة حيث يستغنى عن ذكر الغير، فتعالجه بأن تعرف أن التعرض لمقت الخالق أشد من التعرض لمقت المخلوقين، وأنت بالغيبة متعرض لسخط الله يقيناً، ولا تدري أنك تتخلص من سخط الناس أم لا، فتخلص نفسك في الدنيا بالتوهم وتهلك في الآخرة وتخسر حسناتك بالحقيقة، ويحصل لك ذم الله تعالى نقد، وتنتظر ذم الخلق نسيئة، وهذا غاية الجهل والخذلان. وأما عذرك كقولك: إن أكلت الحرام ففلان يأكله، وإن قبلت مال السلطان ففلان يقبله، فهذا جهل، لأنك تعتذر بالاقتداء بمن لا يجوز الاقتداء به، فإن خالف أمر الله تعالى لا يقتدى به كائناً من كان، ولو دخل غيرك النار وأنت تقدر على أن لا تدخلها لم توافقه، ولو وافقته لسفه عقلك، فيما ذكرته غيبة وزيادة معصية أضفتها إلى ما اعتذرت عنه، وسجلت مع الجمع بين المعصيتين على جهلك وغباوتك، وكنت كالشاة تنظر إلى المعزى تردي نفسها من قلة الجهل فهي أيضاً تردي نفسها، ولو كان لها لسان ناطق بالعذر وصرحت بالعذر. وقالت: العنز أكيس مني وقد أهلكت نفسها، فكذلك أنا أفعل، لكنت تضحك من جهلها، وحالك مثل حالها، ثم لا تعجب ولا تضحك من نفسك. وأما قصدك المباهاة وتزكية النفس بزيادة الفضل بأن تقدح في غيرك؛ فينبغي أن تعلم أنك بما ذكرته به أبطلت فضلك عند الله، وأنت من اعتقاد الناس فضلك على خطر، وربما نقص اعتقادهم فيك إذا عرفوك بثلث الناس، فتكون قد بعت ما عند الخالق بما عند المخلوقين، وهما ولو حصل لك من المخلوقين اعتقاد الفضل لكانوا لا يغنون عنك من الله شيء. وأما الغيبة لأجل الحسد فهو جمع بين عذابين لأنك حسدته على نعمة الدنيا، وكنت في الدنيا معذباً بالحسد، فما قنعت بذلك حتى أضفت إليه عذاب الآخرة، فكنت خاسراً نفسك في الدنيا، فصرت أيضاً خاسراً في الآخرة لتجمع بين النكالين، فقد قصدت محسودك فأصبت نفسك وأهديت إليه حسناتك، فإذن أنت صديقه وعدو نفسك إذ لا تضره غيبتك وتضرك وتنفعه إذ تنقل إليه حسناتك أو تنقل إليك سيئاته ولا تنفعك، وقد جمعت إلى خبث الحسد جهل الحماقة، وربما يكون حسدك وقدحك سبب انتشار فضل محسودك كما قيل:

وإذا أراد الله نشر فضيلة   طويت أتاح لها لسان حسود

وأما الاستهزاء فمقصودك منه إخزاء غيرك عند الناس بإخزاء نفسك عند الله تعالى، وعند الملائكة والنبيين عليهم الصلاة والسلام، فلو تفكرت في حسرتك وجنايتك وخجلتك وخزيك يوم القيامة يوم تحمل سيئات من استهزأت به وتساق إلى النار؛ لأدهشك ذلك عن إخزاء صاحبك، ولو عرفت حالك لكنت أولى أن تضحك منك، فإنك سخرت منه عند نفر قليل، وعرضت نفسك لأن يأخذ يوم القيامة بيدك على ملأ من الناس، ويسوقك تحت سيئاته كما يساق الحمار إلى النار مستهزئاً بك وفرحاً بخزيك ومسروراً بنصرة الله تعالى إياه عليك وتسلطه على الانتقام منك، وأما الرحمة له على إثمه فهو حسن، ولكن حسدك إبليس فأضلك واستنطقك بما ينقل من حسناتك إليه ما هو أكثر من رحمتك، فيكون جبراً لإثم المرحوم فيخرج عن كونه مرحوماً وتنقلب أنت مستحقاً لأن تكون

مرحوماً إذ حبط أجرك، ونقصت من حسناتك، وكذلك الغضب لله تعالى لا يوجب الغيبة، وإنّما الشيطان حبب إليك الغيبة لحبط أجر غضبك، وتصير معرضاً لمقت الله عز وجل بالغيبة، وأما التعجب إذا أخرجك إلى الغيبة فتعجب من نفسك أنت كيف أهلكت نفسك ودينك بدين غيرك أو بدنياه، وأنت مع ذلك لا تأمن عقوبة الدنيا، وهو أن يهتك الله سترك كما هتكت بالتعجب ستر أخيك. فإذن علاج جميع ذلك المعرفة فقط، والتحقق بهذه الأمور التي هي من أبواب الإيمان، فمن قوي إيمانه بجميع ذلك انكف لسانه عن الغيبة لا محالة.

بيان تحريم الغيبة بالقلب

اعلم أن سوء الظن حرام مثل سوء القول، فكما يحرم عليك أن تحدث غيرك بلسانك بمساوئ الغير فليس لك أن تحدث نفسك وتسيء الظن بأخيك، ولست أعني به إلا عقد القلب وحكمه على غيره بالسوء، فأما الخواطر وحديث النفس فهو معفو عنه، بل الشك أيضاً معفو عنه، ولكن المنهي عنه أن يظن، والظن عبارة عما تركن إليه النفس ويميل إليه القلب. فقد قال الله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ﴾ [الحجرات: ١٢]، وسبب تحريمه أن أسرار القلوب لا يعلمها إلا علام الغيوب، فليس لك أن تعتقد في غيرك سوءاً إلا إذا انكشف لك بعيان لا يقبل التأويل، فعند ذلك لا يمكنك إلا أن تعتقد ما علمته وشاهدته، وما لم تشاهده بعينك ولم تسمعه بأذنك، ثم وقع في قلبك، فإنّما الشيطان يلقيه إليك، فينبغي أن تكذبه فإنه أفسق الفساق، وقد قال الله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَـٰلَةٍ ﴾ [الحجرات: ٦]، فلا يجوز تصديق إبليس، وإن كان ثم مخيلة تدل على فساد واحتمل خلافه لم يجز أن تصدق به، لأن الفاسق يتصور أن يصدق في خبره، ولكن لا يجوز لك أن تصدق به حتى إن من استنكه فوجد منه رائحة الخمر لا يجوز أن يحد، إذ يقال: يمكن أن يكون قد تمضمض بالخمر ومجها، وما شربها أو حمل عليه قهراً، فكل ذلك لا محالة دلالة محتملة فلا يجوز تصديقها بالقلب وإساءة الظن بالمسلم بها، وقد قال صلى الله عليه وسلم: «إن الله حرم من المسلم دمه وماله، وأن يظن به ظن السوء»، فلا يستباح ظن السوء إلا بما يستباح به المال، وهو نفس مشاهدته أو بينة عادلة، فإذا لم يكن كذلك وخطر لك وسواس سوء الظن فينبغي أن تدفعه عن نفسك، وتقرر عليها أن حاله عندك مستور كما كان، وأن ما رأيته منه يحتمل الخير والشر، فإن قلت: فبماذا يعرف عقد الظن والشكوك تختلج والنفس تحدث فنقول: أمارة عقد سوء الظن أن يتغير القلب معه عما كان فينفر عنه نفوراً، ويستثقله ويفتر عن مراعاته وتفقده وإكرامه والاغتمام بسببه، فهذه أمارات عقد الظن وتحقيقه، وقد قال صلى الله عليه وسلم: «ثلاث في المؤمن، وله منهن مخرج»، فمخرجه من سوء الظن أن لا يحققه، أي: لا يحققه في نفسه بعقد ولا فعل لا في القلب ولا في الجوارح، أما في القلب فبتغيره إلى النفرة والكراهة، وأما في الجوارح فبالعمل بموجبه، والشيطان قد يقرر على القلب بأدنى مخيلة مساءة الناس، ويلقي إليه أن هذا من فطنتك وسرعة فهمك وذكائك، وأن المؤمن ينظر بنور الله تعالى، وهو على التحقيق ناظر بغرور الشيطان وظلمته، وأما إذا أخبرك به عدل فمال ظنك إلى تصديقه كنت معذوراً، لأنك لو كذبته لكنت

جانياً على هذا العدل، إذا ظننت به الكذب، وذلك أيضاً من سوء الظن، فلا ينبغي أن تحسن الظن بواحد، وتسيء بالآخر، نعم ينبغي أن تبحث هل بينهما عداوة ومحاسدة وتعنت، فتتطرق التهمة بسببه، فقد رد الشرع شهادة الأب العدل للولد للتهمة، ورد شهادة العدو، فلك عند ذلك أن تتوقف، وإن كان عدلاً فلا تصدقه ولا تكذبه، ولكن تقول في نفسك: المذكور حاله كان عندي في ستر الله تعالى، وكان أمره محجوباً عني، وقد بقي كما كان لم ينكشف لي شيء من أمره، وقد يكون الرجل ظاهره العدالة ولا محاسدة بينه وبين المذكور، ولكن قد يكون من عادته التعرض للناس وذكر مساويهم، فهذا قد يظن أنه عدل وليس بعدل. فإن المغتاب فاسق، وإن كان ذلك من عادته ردت شهادته، إلا أن الناس لكثرة الاعتياد تساهلوا في أمر الغيبة ولم يكترثوا بتناول أعراض الخلق، ومهما خطر لك خاطر بسوء على مسلم فينبغي أو تزيد في مراعاته وتدعو له بالخير، فإن ذلك يغيظ الشيطان ويدفعه عنك، فلا يبقى إليك الخاطر السوء خيفة من اشتغالك بالدعاء والمراعاة، ومهما عرفت هفوة مسلم بحجة فانصحه في السر ولا يخدعنك الشيطان فيدعو إلى اغتيابه، وإذا وعظته فلا تعظه وأنت مسرور باطلاعك على نقصه لينظر إليك بعين التعظيم، وتنظر إليه بعين الاستحقار، وتترفع عليه بإبداء الوعظ، وليكن قصدك تخليصه من الإثم وأنت حزين، كما تحزن على نفسك إذا دخل عليك نقصان في دينك، وينبغي أن يكون تركه لذلك من غير نصحك أحب إليك من تركه بالنصيحة، فإذا أنت فعلت ذلك كنت قد جمعت بين أجر الوعظ وأجر الغم بمعصيته، وأجر الإعانة له على دينه. ومن ثمرات سوء الظن التجسس، فإن القلب لا يقنع بالظن ويطلب التحقيق فيشتغل بالتجسس وهو أيضاً منهي عنه. قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَجَسَّسُوا ﴾[الحجرات: ١٢]، فالغيبة وسوء الظن والتجسس منهي عنه في آية واحدة، ومعنى التجسس أن لا يترك عباد الله تحت ستر الله فيتوصل إلى الاطلاع وهتك السر حتى ينكشف له ما لو كان مستوراً عنه كان أسلم لقلبه ودينه، وقد ذكرنا في كتاب الأمر بالمعروف حكم التجسس وحقيقته.

بيان الأعذار المرخصة في الغيبة

اعلم أن المرخص في ذكر مساوئ الغير هو غرض صحيح في الشرع لا يمكن التوصل إليه إلا به، فيدفع ذلك إثم الغيبة. وهي ستة أمور:

الأول: التظلم، فإن من ذكر قاضياً بالظلم والخيانة وأخذ الرشوة كان مغتاباً عاصياً إن لم يكن مظلوماً، أما المظلوم من جهة القاضي فله أن يتظلم إلى السلطان وينسبه إلى الظلم إذ لا يمكنه استيفاء حقه إلا به. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن لصاحب الحق مقالاً». وقال عليه الصلاة والسلام: «مطل الغني ظلم». وقال عليه الصلاة والسلام: «لي الواجد يحل عقوبته وعرضه».

الثاني: الاستعانة على تغيير المنكر ورد العاصي إلى منهج الصلاح، كما روي أن عمر رضي الله عنه مر على عثمان، وقيل على طلحة رضي الله عنه، فسلم عليه فلم يرد السلام، ذهب إلى أبي بكر رضي الله عنه فذكر له ذلك، فجاء أبو بكر إليه ليصلح ذلك ولم يكن ذلك غيبة عندهم. وكذلك لما بلغ عمر رضي الله عنه أن أبا جندل قد عاقر الخمر بالشام كتب إليه: ﴿ حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ

﴿ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ﴾[غافر: ١-٣] الآية، فتاب ولم ير ذلك عمر ممن أبلغه غيبة، إذ كان قصده أن ينكر عليه ذلك فينفعه نصحه ما لا ينفعه نصح غيره، وإنّما أباحه هذا بالقصد الصحيح، فإن لم يكن ذلك هو المقصود كان حراماً.

الثالث: الاستفتاء، كما يقول للمفتي: ظلمني أبي؛ أو زوجتي؛ أو أخي، فكيف طريقي في الخلاص؟ والأسلم التعريض بأن يقول: ما قولك في رجل ظلمه أبوه أو أخوه أو زوجته، ولكن التعيين مباح بهذا القدر، لما روي عن هند بنت عتبة أنها قالت للنبي صلى الله عليه وسلم: إن أبا سفيان رجل شحيح لا يعطيني ما يكفيني أنا وولدي، أفآخذ من غير علمه؟ فقال: خذي ما يكفيك وولدك بالمعروف. فذكرت الشح والظلم لها ولولدها، ولم يزجرها صلى الله عليه وسلم إذ كان قصدها الاستفتاء.

الرابع: تحذير المسلم من الشر، فإذا رأيت فقيهاً يتردد إلى مبتدع أو فاسق وخفت أن تتعدى إليه بدعته وفسقه فلك أن تكشف له بدعته وفسقه مهما كان الباعث لك الخوف من سراية البدعة والفسق لا غيره، وذلك موضع الغرور، إذ قد يكون الحسد هو الباعث، ويلبس الشيطان ذلك بإظهار الشفقة على الخلق، وكذلك من اشترى مملوكاً وقد عرفت المملوك بالسرقة أو بالفسق أو بعيب آخر؛ فلك أن تذكر ذلك، فإن في سكوتك ضرر المشتري، وفي ذكرك ضرر العبد، والمشتري أولى بمراعاة جانبه، وكذلك المزكي إذا سئل عن الشاهد فله الطعن فيه إن علم مطعناً، وكذلك المستشار في التزويج وإيداع الأمانة، له أن يذكر ما يعرفه على قصد النصح للمستشير لا على قصد الوقيعة، فإن علم أنه يترك التزويج بمجرد قوله: لا تصلح لك؛ فهو الواجب وفيه الكفاية، وإن علم أنه لا ينزجر إلا بالتصريح بعيبه فله أن يشرح به، إذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أترعون عن ذكر الفاجر اهتكوه حتى يعرفه الناس، اذكروه بما فيه حتى يحذره الناس». وكانوا يقولون: ثلاثة لا غيبة لهم: الإمام الجائر، والمبتدع، والمجاهر بفسقه.

الخامس: أن يكون الإنسان معروفاً بلقب يعرف بعيبه كالأعرج والأعمش، فلا إثم على من يقول: روى أبو الزناد عن الأعرج وسلمان عن الأعمش وما يجري مجراه، فقد فعل العلماء ذلك لضرورة التعريف، ولأن ذلك قد صار بحيث لا يكرهه صاحبه لو علمه بعد أن قد صار مشهوراً به، نعم إن وجد عنه معدلاً وأمكنه التعريف بعبارة أخرى فهو أولى، ولذلك يقال للأعمى: البصير؛ عدولاً عن اسم النقص.

السادس: أن يكون مجاهراً بالفسق: كالمخنث وصاحب الماخور والمجاهر بشرب الخمر ومصادرة الناس، وكان ممن يتظاهر به بحيث لا يستنكف من أن يذكر له ولا يكره أن يذكر به، فإذا ذكرت فيه ما يتظاهر به فلا إثم عليك، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من ألقى جلباب الحياء على وجهه فلا غيبة له»، وقال عمر رضي الله عنه: «ليس لفاجر حرمة»، وأراد به المجاهر بفسقه دون المستتر، إذ المستتر لا بد من مراعاة حرمته، وقال الصلت بن طريف: قلت للحسن: الرجل الفاسق المعلن بفجوره ذكرى له بما فيه غيبة له؟ قال: لا ولا كرامة، وقال الحسن: ثلاثة لا غيبة لهم: صاحب

الهوى، والفاسق المعلن بفسقه، والإمام الجائر. فهؤلاء الثلاثة يجمعهم أنهم يتظاهرون به، وربما يتفاخرون به، فكيف يكرهون ذلك وهم يقصدون إظهاره، نعم لو ذكره بغير ما يتظاهر به إثم. وقال عوف: دخلت على ابن سيرين فتناولت عنده الحجاج. فقال: إن الله حكم عدل ينتقم للحجاج ممن اغتابه كما ينتقم من الحجاج لمن ظلمه، وإنك إذا لقيت الله تعالى غداً كان أصغر ذنب أصبته أشد عليك من أعظم ذنب أصابه الحجاج.

بيان كفارة الغيبة

اعلم أن الواجب على المغتاب أن يندم ويتوب ويتأسف على ما فعله ليخرج به من حق الله سبحانه، ثم يستحل المغتاب ليحله فيخرج من مظلمته، وينبغي أن يستحله وهو حزين متأسف نادم على فعله، إذ المرائي قد يستحل ليظهر من نفسه الورع، وفي الباطن لا يكون نادماً، فيكون قد قارف معصية أخرى. وقال الحسن: يكفيه الاستغفار دون الاستحلال، وربما استدل في ذلك بما روى أنس بن مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «كفارة من اغتبته أن تستغفر له»، وقال مجاهد: كفارة أكلك لحم أخيك أن تثني عليه وتدعو له بخير، وسئل عطاء بن أبي رباح عن التوبة من الغيبة، قال: أن تمشي إلى صاحبك فتقول له: كذبت فيما قلت وظلمتك وأسأت، فإن شئت أخذت بحقك، وإن شئت عفوت، وهذا هو الأصح. وقول القائل: العرض لا عوض له، فلا يجب الاستحلال منه بخلاف المال، كلام ضعيف، إذ قد وجب في العرض حد القذف وتثبت المطالبة به، بل في الحديث الصحيح ما روي أنه صلى الله عليه وسلم قال: «من كانت لأخيه عنده مظلمة في عرض أو مال فليستحللها منه من قبل أن يأتي يوم ليس هناك دينار ولا درهم، إنّما يؤخذ من حسناته، فإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فزيدت على سيئاته»، وقالت عائشة رضي الله عنها لامرأة قالت لأخرى: إنها طويلة الذيل، قد اغتبتيها فاستحليها، فإذن لا بد من الاستحلال إن قدر عليه، فإن كان غائباً أو ميتاً فينبغي أن يكثر له الاستغفار والدعاء ويكثر من الحسنات.

فإن قلت: فالتحليل هل يجب؟ فأقول: لا لأنه تبرع والتبرع فضل، وليس بواجب، ولكنه مستحسن، وسبيل المعتذر أن يبالغ في الثناء عليه والتودد إليه، ويلازم ذلك حتى يطيب قلبه، فإن لم يطب قلبه كان اعتذاره وتودده حسنة محسوبة له يقابل بها سيئة الغيبة في القيامة، وكان بعض السلف لا يحلل. قال سعيد: لا أحلل من ظلمني، وقال ابن سيرين: إني لم أحرمها عليه فأحللها له، إن الله حرم الغيبة عليه، وما كنت لأحلل ما حرم الله أبداً. فإن قلت: فما معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم: ينبغي أن يستحلها؟ وتحليل ما حرمه الله تعالى غير ممكن؟ فنقول: المراد به العفو عن المظلمة لا أن ينقلب الحرام حلالاً، وما قاله ابن سيرين حسن في التحليل قبل الغيبة، فإنه لا يجوز له أن يحلل لغيره الغيبة. فإن قلت: فما معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم: «أيعجز أحدكم أن يكون كأبي ضمضم، كان إذا خرج من بيته قال: اللهم إني قد تصدقت بعرضي على الناس»، فكيف يتصدق بالعرض، ومن تصدق به فهل يباح تناوله، فإن كان لا تنفذ صدقته فما معنى الحث عليه. فنقول: معناه إني لا أطلب مظلمة في القيامة منه ولا أخاصمه، وإلا فلا تصير الغيبة حلالاً به ولا تسقط المظلمة

عنه، لأنه عفو قبل الوجوب، إلا أنه وعد وله العزم على الوفاء بأن لا يخاصم، فإن رجع وخاصم كان القياس كسائر الحقوق أن له ذلك، بل صرح الفقهاء أن من أباح القذف لم يسقط حقه من حد القاذف، ومظلمة الآخرة مثل مظلمة الدنيا، وعلى الجملة فالعفو أفضل، قال الحسن: إذا جثت الأمم بين يدي الله عز وجل يوم القيامة نودوا: ليقم من كان له أجر على الله، فلا يقوم إلا العافون عن الناس في الدنيا». وقد قال الله تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾[الأعراف: ١٩٩] فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «يا جبريل ما هذا العفو؟ فقال: إن الله يأمرك أن تعفو عمن ظلمك وتصل من قطعك وتعطي من حرمك». وروي عن الحسن أن رجلاً قال له: إن رجلاً قد اغتابك، فبعث إليه رطباً على طبق، وقال: قد بلغني أنك قد أهديت إلي من حسناتك فأردت أن أكافئك عليها فاعذرني فإني لا أقدر أن أكافئك على التمام.

الآفة السادسة عشر: النميمة

قال الله تعالى: ﴿هَمَّازٍ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ﴾[القلم: ١١]، ثم قال: ﴿عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾ [القلم: ١٣]. قال عبد الملك بن المبارك: الزنيم: ولد الزنا الذي لا يكتم الحديث، وأشار به إلى أن كل من يكتم الحديث ومشى بالنميمة دل على أنه ولد زنا، استنباطاً من قوله عز وجل: ﴿عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾[القلم: ١٣]، والزنيم: هو الدعي، وقال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾[الهمزة: ١]، قيل: الهمزة: النمام، وقال تعالى: ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ﴾[المسد: ٤]، قيل: إنها نمامة حمالة الحديث، وقال تعالى: ﴿فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾[التحريم: ١٠]، قيل: كانت امرأة لوط تخبر بالضيفان، وامرأة نوح تخبر أنه مجنون، وقد قال صلى الله عليه وسلم: «لا يدخل الجنة نمام»، وفي حديث آخر: «لا يدخل الجنة قتات»، والقتات: هو النمام.

وقال أبو هريرة: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أحبكم إلى الله أحاسنكم أخلاقاً الموطئون أكنافاً الذين يألفون ويؤلفون، وإن أبغضكم إلى الله المشاؤون بالنميمة، المفرقون بين الإخوان الملتمسون للبرآء العثرات»، وقال صلى الله عليه وسلم: «ألا أخبركم بشراركم. قالوا: بلى. قال: المشاؤون بالنميمة المفسدون بين الأحبة الباغون للبرآء العيب». وقال أبو ذر: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من أشاع على مسلم كلمة ليشينه بها بغير حق شانه الله بها في النار يوم القيامة». وقال أبو الدرداء: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أيما رجل أشاع على رجل كلمة وهو منها بريء ليشينه بها في الدنيا، كان حقاً على الله أن يذيبه بها يوم القيامة في النار». وقال أبو هريرة: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من شهد على مسلم بشهادة ليس لها بأهل فليتبوأ مقعده من النار». ويقال: إن ثلث عذاب القبر من النميمة، وعن أبي عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم: «إن الله لما خلق الجنة قال لها: تكلمي، فقالت: سعد من دخلني، فقال الجبار جل جلاله: وعزتي وجلالي لا يسكن فيك ثمانية نفر من الناس: لا يسكنك مدمن خمر، ولا مصر على الزنا، ولا قتات وهو النمام، ولا ديوث، ولا شرطي، ولا مخنث، ولا قاطع رحم، ولا الذي يقول: عليّ عهد الله إن لم أفعل كذا وكذا ثم لم يف به».

وروى كعب الأحبار أن بني إسرائيل أصابهم قحط، فاستسقى موسى عليه السلام مرات فما سقوا، فأوحى الله تعالى إليه إني لا أستجيب لك ولمن معك وفيكم نمام قد أصر على النميمة. فقال موسى: يا رب من هو دلني عليه حتى أخرجه من بيننا، قال: يا موسى أنهاكم عن النميمة وأكون نماماً؟ فتابوا جميعاً فسقوا.

ويقال: اتبع رجل حكيماً سبعمائة فرسخ في سبع كلمات، فلما قدم عليه قال: إني جئتك للذي آتاك الله تعالى من العلم، أخبرني عن السماء وما أثقل منها، وعن الأرض وما أوسع منها، وعن الصخر وما أقسى منه، وعن النار وما أحر منها، وعن الزمهرير وما أبرد منه، وعن البحر وما أغنى منه، وعن اليتيم وما أذل منه؟ فقال له الحكيم: البهتان على البريء أثقل من السماوات، والحق أوسع من الأرض، والقلب القانع أغنى من البحر، والحرص والحسد أحر من النار، والحاجة إلى القريب إذا لم تنجح أبرد من الزمهرير، وقلب الكافر أقسى من الحجر، والنمام إذ بان أمره أذل من اليتيم.

بيان حد النميمة وما يجب في ردها

اعلم أن اسم النميمة إنّما يطلق في الأكثر على من ينم قول الغير إلى المقول فيه، كما تقول: فلان كان يتكلم فيك بكذا وكذا، وليست النميمة مختصة به، بل حدها كشف ما يكره كشفه سواء كرهه المنقول عنه أو المنقول إليه أو كرهه ثالث، وسواء كان الكشف بالقول أو الكتابة أو بالرمز أو بالإيماء، وسواء كان المنقول من الأعمال أو من الأقوال، وسواء كان ذلك عيباً أو نقصاً في المنقول عنه أو لم يكن، بل حقيقة النميمة إفشاء السر وهتك الستر عما يكره كشفه، بل كل ما رآه الإنسان من أحوال الناس مما يكره فينبغي أن يسكت عنه إلا ما في حكايته فائدة لمسلم أو دفع لمعصية، كما إذا رأى من يتناول مال غيره فعليه أن يشهد به مراعاة لحق المشهود له، فأما إذا رآه يخفي مالاً لنفسه فذكره فهو نميمة وإفشاء للسر، فإن كان ينم به نقصاً وعيباً في المحكي عنه كان قد جمع بين الغيبة والنميمة، فالباعث على النميمة إما إرادة السوء للمحكي عنه، أو إظهار الحب للمحكي له أو التفريج بالحديث، والخوض في الفضول والباطل، وكل من حملت إليه النميمة وقيل له: إن فلاناً قال فيك كذا أو فعل فيك كذا، أو هو يدبر في إفساد أمرك أو في ممالأة عدوك أو تقبيح حالك أو ما يجري مجراه؛ فعليه ستة أمور:

الأول: أن لا يصدقه، لأن النمام فاسق وهو مردود الشهادة، قال الله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَٰلَةٖ ﴾[الحجرات: ٦].

الثاني: أن ينهاه عن ذلك وينصح له ويقبح عليه فعله، قال الله تعالى: ﴿ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾[لقمان: ١٧].

الثالث: أن يبغضه في الله تعالى فإن بغيض عند الله تعالى، ويجب بغض من يبغضه الله تعالى.

الرابع: أن لا تظن بأخيك الغائب السوء لقول الله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ﴾[الحجرات: ١٢].

الخامس: أن لا يحملك ما حكي لك على التجسس والبحث لتتحقق اتباعاً لقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَجَسَّسُواْ ﴾[الحجرات: ١٢].

السادس: أن لا ترضى لنفسك ما نهيت النمام عنه، ولا تحكي نميمة، فتقول: فلان قد حكى لي كذا وكذا، فتكون به نماماً ومغتاباً، وتكون قد أتيت ما عنه نهيت.

وقد روي عن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه أنه دخل عليه رجل فذكر له عن رجل شيئاً، فقال له عمر: إن شئت نظرنا في أمرك، فإن كنت كاذباً فأنت من أهل هذه الآية: ﴿إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ [الحجرات: ٦]، وإن كنت صادقاً فأنت من أهل هذه الآية: ﴿هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ﴾ [القلم: ١١]، وإن شئت عفونا عنك. فقال: العفو يا أمير المؤمنين لا أعود إليه أبداً. وذكر أن حكيماً من الحكماء زاره بعض إخوانه، فأخبره بخبر عن بعض أصدقائه، فقال له الحكيم: قد أبطأت في الزيارة وأتيت بثلاث جنايات: بغضت أخي إلي، وشغلت قلبي الفارغ، واتهمت نفسك الأمينة.

وروي أن سليمان بن عبد الملك كان جالساً وعنده الزهري فجاءه رجل، فقال له سليمان: بلغني أنك وقعت فِيّ وقلت كذا وكذا، فقال الرجل: ما فعلت ولا قلت، فقال سليمان: إن الذي أخبرني صادق، فقال له الزهري: لا يكون النمام صادقاً، فقال سليمان: صدقت، ثم قال للرجل: اذهب بسلام. وقال الحسن: من نم إليك نم عليك، وهذه إشارة إلى أن النمام ينبغي أن يبغض ولا يوثق بقوله ولا بصداقته، وكيف لا يبغض وهو لا ينفك عن الكذب، والغيبة، والغدر، والخيانة، والغل، والحسد، والنفاق، والإفساد بين الناس، والخديعة، وهو ممن يسعى في قطع ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض. وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [الشورى: ٤٢]، والنمام منهم.

وقال صلى الله عليه وسلم: «إن من شرار الناس من اتقاه الناس لشره»، والنمام منهم، وقال: «لا يدخل الجنة قاطع. قيل: وما القطع؟ قال: قاطع بين الناس، وهو النمام. وقيل: قاطع الرحم».

وروي عن علي رضي الله عنه أن رجلاً سعى إليه برجل، فقال: يا هذا نحن نسأل عما قلت، فإن كنت صادقاً مقتناك، وإن كنت كاذباً عاقبناك، وإن شئت نقيلك أقلناك. فقال: أقلني يا أمير المؤمنين. وقيل لمحمد بن كعب القرظي: أي خصال المؤمن أوضع له؟ فقال: كثرة الكلام، وإفشاء السر، وقبول قول كل أحد. وقال رجل لعبد الله بن عامر وكان أميراً: بلغني أن فلاناً أعلم الأمير أني ذكرته بسوء. قال: قد كان ذلك، قال: فأخبرني بما قال لك حتى أظهر كذبه عندك، قال: ما أحب أن أشتم نفسي بلساني وحسبي أني لم أصدقه فيما قال، ولا أقطع عنك الوصال. وذكرت السعاية عن بعض الصالحين، فقال: ما ظنكم بقوم يحمد الصدق من كل طائفة من الناس إلا منهم. وقال مصعب بن الزبير: نحن نرى أن قبول السعاية شر من السعاية، لأن السعاية دلالة، والقبول إجازة، وليس من دل على شيء فأخبر به كمن قبله وأجازه، فاتقوا الساعي فلو كان صادقاً في قوله لكان لئيماً في صدقه حيث لم يحفظ الحرمة، ولم يستر العورة، والسعاية هي النميمة إلا أنها إذا كانت إلى من يخاف جانبه سميت سعاية، وقد قال صلى الله عليه وسلم: «الساعي بالناس إلى الناس لغير رشدة» يعني ليس بولد حلال.

ودخل رجل على سليمان بن عبد الملك فاستأذنه في الكلام وقال: إني مكلمك يا أمير المؤمنين بكلام فاحتمله، فإن كرهته فإن وراءه ما تحب إن قبلته، فقال: قل، فقال: يا أمير المؤمنين إنه قد اكتنفك رجال

ابتاعوا دنياك بدينهم، ورضاك بسخط ربهم، خافوك في الله، ولم يخافوا الله فيك، فلا تأمنهم على ما ائتمنك الله عليه، ولا تصغ إليهم فيما استحفظك الله إياه، فإنهم لن يألوا في الأمة خسفاً، وفي الأمانة تضييعاً، والأعراض قطعاً وانتهاكاً أعلى قربهم البغي والنميمة، وأجل وسائلهم الغيبة والوقيعة، وأنت مسؤول عما أجرموا، وليسوا المسؤولين عما أجرمت، فلا تصلح دنياهم بفساد آخرتك، فإن أعظم الناس غبناً من باع آخرته بدنيا غيره. وسعى رجل بزيادة الأعجم إلى سليمان بن عبد الملك فجمع بينهما للموافقة فأقبل زياد على الرجل وقال:

فأنت امرؤ ما ائتمنك خالياً فخنت وأما قلت قولاً بلا علم

فأنت من الأمر الذي كان بيننا بمنزلة بين الخيانة والإثم

وقال رجل لعمرو بن عبيد أن الأسواري ما يزال يذكرك في قصصه بشر، فقال له عمرو: يا هذا ما رعيت حق مجالسة الرجل حيث نقلت إلينا حديثه، ولا أديت حقي حين أعلمتني عن أخي ما أكره ولكن أعلمه أن الموت يعمنا والقبر يضمنا والقيامة تجمعنا والله تعالى يحكم بيننا وهو خير الحاكمين. ورفع بعض السعاة إلى الصاحب ابن عباد رقعة نبه فيها على مال يتيم يحمله على أخذه لكثرته، فوقع على ظهرها: السعاية قبيحة وإن كانت صحيحة، فإن كنت أجريتها مجرى النصح فخسرانك فيها أفضل من الربح، ومعاذ الله أن تقبل مهتوكاً في مستور، ولولا أنك في خفارة شيبتك لقابلناك بما يقتضيه فعلك في مثلك، فتوقّ يا ملعون العيب فإن الله أعلم بالغيب، الميت رحمه الله، واليتيم جبره الله، والمال ثمره الله، والساعي لعنه الله. وقال لقمان لابنه: أوصيك بخلال إن تمسكت بهن لم تزل سيداً: أبسط خلقك للقريب والبعيد، وأمسك جهلك عن الكريم واللئيم، واحفظ إخوانك، وصل أقاربك، وآمنهم من قبول قول ساع أو سماع باغ يريد فسادك ويروم خداعك، وليكن إخوانك من إذا فارقتهم لم تعبهم ولم يعيبوك. وقال بعضهم: النميمة مبنية على الكذب، والحسد، والنفاق، وهي أثافي الذل. وقال بعضهم: لو صح ما نقله النمام إليك لكان هو المجترئ بالشتم عليك، والمنقول عنه أولى بحلمك لأنه لم يقابلك بشتمك. وعلى الجملة فشر النمام عظيم ينبغي أن يتوقى. قال حماد بن سلمة: باع رجل عبداً، وقال للمشتري: ما فيه عيب إلا النميمة، قال: قد رضيت، فاشتراه فمكث الغلام أياماً ثم قال لزوجة مولاه: إن سيدي لا يحبك، وهو يريد أن يتسرى عليك فخذي الموسى واحلقي من شعر قفاه عند نومه شعرات حتى أسحره عليها فيحبك، ثم قال للزوج: إن امرأتك اتخذت خليلاً وتريد أن تقتلك فتناوم لها حتى تعرف ذلك، فجاءت المرأة بالموسى فظن أنها تريد قتله، فقام إليها فقتلها فجاء أهل المرأة فقتلوا الزوج، ووقع القتال بين القبيلتين، فنسأل الله حسن التوفيق.

الآفة السابعة عشرة: كلام ذي اللسانين

الذي يتردد بين المتعادين ويكلم كل واحد منهما بكلام يوافقه، وقلما يخلو عنه من يشاهد متعادين وذلك عين النفاق. قال عمار بن ياسر: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من كان له وجهان في الدنيا كان له لسانان من نار يوم القيامة». وقال أبو هريرة: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «تجدون من شر عباد الله يوم القيامة ذا الوجهين الذي يأتي هؤلاء بحديث»، وفي لفظ آخر:

« الذي يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه ». وقال أبو هريرة : لا ينبغي لذي الوجهين أن يكون أميناً عند الله ، وقال مالك بن دينار : قرأت في التوراة بطلت الأمانة والرجل مع صاحبه بشفتين مختلفتين ، يهلك الله تعالى يوم القيامة كل شفتين مختلفتين . وقال صلى الله عليه وسلم : « أبغض خليقة الله إلى الله يوم القيامة الكذابون والمستكبرون ، والذين يكثرون البغضاء لإخوانهم في صدورهم ، فإذا لقوهم تملقوا لهم ، والذين إذا دعوا إلى الله ورسوله كانوا بطآء ، وإذا دعوا إلى الشيطان وأمره كانوا سراعاً » . وقال ابن مسعود : لا يكونن أحدكم إمعة ، قالوا : وما الإمعة ؟ قال : الذي يجري مع كل ريح . واتفقوا على أن ملاقاة الاثنين بوجهين نفاق ، وللنفاق علامات كثيرة وهذه من جملتها . وقد روي أن رجلاً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مات فلم يصل عليه حذيفة ، فقال له عمر : يموت رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم تصل عليه ، فقال : يا أمير المؤمنين إنه متهم ، فقال : نشدتك الله أنا متهم أم لا ، قال : اللهم لا ، ولا أؤمن منها أحداً بعدك . فإن قلت : بماذا يصير الرجل ذا لسانين وما حد ذلك ، فأقول : إذا دخل على متعاديين وجامل كل واحد منهما وكان صادقاً فيه ، لم يكن منافقاً ولا ذا لسانين ، فإن الواحد قد يصادق متعاديين ولكن صداقة ضعيفة لا تنتهي إلى حد الأخوة ، إذ لو تحققت الصداقة لاقتضت معاداة الأعداء كما ذكرنا في كتاب آداب الصحبة والأخوة ، نعم لو نقل كلام كل واحد منهما إلى الآخر فهو ذو لسانين ، وهو شر من النميمة ، إذ يصير نماماً بأن ينقل من أحد الجانبين فقط ، فإذا نقل من الجانبين فهو شر من النمام وإن لم ينقل كلاماً ، ولكن حسن لكل واحد منهما ما هو عليه من المعاداة مع صاحبه ، فهذا ذو لسانين ، وكذلك إذا وعد كل واحد منهما بأن ينصره ، وكذلك إذا أثنى على كل واحد منهما في معاداته ، وكذلك إذا أثنى على أحدهما وكان إذا خرج من عنده يذمه فهو ذو لسانين ، بل ينبغي أن يسكت أو يثني على المحق من المتعاديين ويثني عليه في غيبته وفي حضوره وبين يدي عدوه .

قيل لابن عمر رضي الله عنهما : إنا ندخل على امرأتنا فنقول القول فإذا خرجنا قلنا غيره ، فقال : كنا نعد هذا نفاقاً على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهذا نفاق مهما كان مستغنياً عن الدخول على الأمير وعن الثناء عليه ، فلو استغنى عن الدخول ، ولكن إذا دخل يخاف إن لم يثني فهو نفاق لأنه الذي أحوج نفسه إلى ذلك ، فإن كان مستغنياً عن الدخول لو قنع بالقليل وترك المال والجاه فدخل لضرورة الجاه والغنى وأثنى فهو منافق ، وهذا معنى قوله صلى الله عليه وسلم : « حب المال والجاه ينبتان النفاق في القلب كما ينبت الماء البقل » ، لأنه يحوج إلى الأمراء وإلى مراعاتهم ومراءاتهم فأما إذا ابتلي به لضرورة وخاف إن لم يثن فهو معذور ، فإن اتقاء الشر جائز . قال أبو الدرداء رضي الله عنه : إنا لنكشر في وجوه أقوام ، وإن قلوبنا لتلعنهم » .

وقالت عائشة رضي الله عنها : « استأذن رجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : ائذنوا له فبئس رجل العشيرة هو ، ثم لما دخل ألان له القول ، فلما خرج قلت : يا رسول الله قلت فيه ما قلت ثم ألنت له القول ، فقال : يا عائشة إن شر الناس الذي يكرم اتقاء شره » ، ولكن هذا ورد في الإقبال وفي الكشر والتبسم ، فأما الثناء فهو كذب صراح ، ولا يجوز إلا لضرورة أو إكراه يباح الكذب بمثله

كما ذكرناه في آفة الكذب، بل لا يجوز الثناء ولا التصديق ولا تحريك الرأس في معرض التقرير على كل كلام باطل، فإن فعل ذلك فهو منافق بل ينبغي أن ينكر، فإن لم يقدر فيسكت بلسانه وينكر بقلبه.

الآفة الثامنة عشرة: المدح

وهو منهي عنه في بعض المواضع، أما الذم فهو الغيبة والوقيعة وقد ذكرنا حكمها، والمدح يدخله ست آفات: أربع في المادح، واثنان في الممدوح. فأما المادح:

فالأولى: أنه قد يفرط فينتهي به إلى الكذب. قال خالد بن معدان: من مدح إماماً أو أحداً بما ليس فيه على رؤوس الأشهاد بعثه الله يوم القيامة يتعثر بلسانه.

الثانية: أنه قد يدخله الرياء فإنه بالمدح مظهر للحب، وقد لا يكون مضمراً له ولا معتقداً لجميع ما يقوله فيصير به مرائياً منافقاً.

الثالثة: أنه قد يقول ما لا يتحققه ولا سبيل له إلى الاطلاع عليه، روي أن رجلاً مدح رجلاً عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال له عليه الصلاة والسلام: «ويحك قطعت عنق صاحبك لو سمعها ما أفلح»، ثم قال: إن كان أحدكم لا بد مادحاً أخاه فليقل: أحسب فلاناً ولا أزكي على الله أحداً حسيبه الله إن كان يرى أنه كذلك. وهذه الآفة تتطرق إلى المدح بالأوصاف المطلقة التي تعرف بالأدلة، كقوله: إنه متق وورع وزاهد وخير وما يجري مجراه، فأما إذا قال: رأيته يصلي بالليل ويتصدق ويحج فهذه أمور مستيقنة، ومن ذلك قوله: إنه عدل رضا، فإن ذلك خفي، فلا ينبغي أن يجزم القول فيه إلا بعد خبرة باطنه. سمع عمر رضي الله عنه رجلاً يثني على رجل، فقال: أسافرت معه؟ قال: لا، قال: أخالطته في المبايعة والمعاملة؟ قال: لا، قال: أفأنت جاره صباحه ومساءه؟ قال: لا، فقال: والله الذي لا إله إلا هو لا أراك تعرفه.

الرابعة: أنه قد يفرح الممدوح وهو ظالم أو فاسق وذلك غير جائز، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الله تعالى يغضب إذا مدح الفاسق». وقال الحسن: من دعا لظالم بطول البقاء فقد أحب أن يعصي الله تعالى في أرضه، والظالم الفاسق ينبغي أن يذم ليغتم ولا يمدح ليفرح.

وأما الممدوح فيضره من وجهين:

أحدهما: أنه قد يحدث فيه كبراً وإعجاباً وهما مهلكان. قال الحسن رضي الله عنه: كان عمر رضي الله عنه جالساً ومعه الدرة والناس حوله إذا أقبل الجارود بن المنذر، فقال رجل: هذا سيد ربيعة فسمعها عمر ومن حوله وسمعها الجارود، فلما دنا منه خفقه بالدرة، فقال: ما لي ولك يا أمير المؤمنين قال: ما لي ولك أما لقد سمعتها، قال: سمعتها من فمه، قال: خشيت أن يخالط قلبك منها شيء، فأحببت أن أطأطئ منك.

الثاني: وهو أنه إذا أثنى عليه بالخير فرح به وفتر ورضي عن نفسه، ومن أعجب بنفسه قل تشمره، وإنّما يتشمر للعمل من يرى نفسه مقصراً، فأما إذا انطلقت الألسن بالثناء عليه ظن أنه قد أدرك، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: «قطعت عنق صاحبك لو سمعها ما أفلح». وقال صلى الله عليه وسلم: «إذا مدحت أخاك في وجهه فكأنّما أمررت على حلقه موسى وميضاء». وقال أيضاً لمن

مدح رجلاً: « عقرت الرجل عقرك الله ». وقال مطرف: ما سمعت قط ثناء ولا مدحة إلا تصاغرت إلى نفسي. وقال زياد بن أبي مسلم: ليس أحد يسمع ثناء عليه أو مدحة إلا تراءى له الشيطان، ولكن المؤمن يراجع، فقال ابن مبارك: لقد صدق كلاهما، أما ما ذكره زياد فذلك قلب العوام، وأما ما ذكره مطرف فذلك قلب الخواص. وقال صلى الله عليه وسلم: « لو مشى رجل إلى رجل بسكين مرهف كان خيراً له من أن يثني عليه في وجهه ».

وقال عمر رضي الله عنه: المدح هو الذبح، وذلك لأن المذبوح هو الذي يفتر عن العمل، والمدح يوجب الفتور، أو لأن المدح يورث العجب والكبر وهما مهلكان كالذبح فلذلك شبهه به، فإن سلم المدح من هذه الآفات في حق المادح والممدوح لم يكمن به بأس، بل ربما كان مندوباً إليه، ولذلك أثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم على الصحابة فقال: « لو وزن إيمان أبي بكر بإيمان العالم لرجح » وقال في عمر: « لو لم أبعث لبعثت يا عمر »، وأي ثناء يزيد على هذا! ولكنه صلى الله عليه وسلم قال عن صدق وبصيرة، وكانوا رضي الله عنهم أجلّ رتبة من أن يورثهم ذلك كبراً وعجباً وفتوراً، بل مدح الرجل لنفسه قبيح لما فيه من الكبر والتفاخر، إذ قال صلى الله عليه وسلم: « أنا سيد ولد آدم ولا فخر »، أي: لست أقول هذا تفاخراً كما يقصده الناس بالثناء على أنفسهم، وذلك لأن افتخاره صلى الله عليه وسلم كان بالله وبالقرب من الله لا بولد آدم وتقدمه عليهم، كما أن المقبول عند الملك قبولاً عظيماً إنّما يفتخر بقبوله إياه وبه يفرح لا بتقدمه على بعض رعاياه، وبتفصيل هذه الآفات تقدر على الجمع بين ذم المدح وبين الحث عليه. قال صلى الله عليه وسلم: « وجبت » لما أثنوا على بعض الموتى. وقال مجاهد: إن لبني آدم جلساء من الملائكة، فإذا ذكر الرجل المسلم أخاه المسلم بخير قالت الملائكة: ولك بمثله، وإذا ذكره بسوء قالت الملائكة: يا ابن آدم المستور عورتك أربع على نفسك واحمد الله الذي ستر عورتك. فهذه آفات المدح.

بيان ما على الممدوح

اعلم أن على الممدوح أن يكون شديد الاحتراز على آفة الكبر والعجب وآفة الفتور، ولا ينجو منه إلا بأن يعرف نفسه، ويتأمل ما في خطر الخاتمة، ودقائق الرياء، وآفات الأعمال، فإنه يعرف من نفسه ما لا يعرفه المادح، ولو انكشف له جميع أسراره وما يجري على خواطره لكف المادح عن مدحه، وعليه أن يظهر كراهة المدح بإذلال المادح، قال صلى الله عليه وسلم: « احثوا التراب في وجوه المادحين ». وقال سفيان بن عيينة: لا يضر المدح من عرف نفسه. وأثني على رجل من الصالحين فقال: اللهم إن هؤلاء لا يعرفوني وأنت تعرفني، وقال آخر لما أثني عليه: اللهم إن عبدك هذا تقرب إلي بمقتك، وأنا أشهدك على مقته.

وقال علي رضي الله عنه لما أثني عليه: اللهم اغفر لي ما لا يعلمون، ولا تؤاخذني بما يقولون واجعلني خيراً مما يظنون. وأثنى رجل على عمر رضي الله عنه فقال: أتهلكني وتهلك نفسك. وأثنى رجل على علي كرم الله وجهه في وجهه، وكان قد بلغه أنه يقع فيه، فقال: أنا دون ما قلت وفوق ما في نفسك.

الآفة التاسعة عشرة: في الغفلة عن دقائق الخطأ

الغفلة عن دقائق الخطأ في فحوى الكلام لا سيما فيما يتعلق بالله وصفاته ويرتبط بأمور الدين فلا يقدر على تقويم اللفظ في أمور الدين إلا العلماء الفصحاء، فمن قصر في علم أو فصاحة لم يخل كلامه من الزلل، لكن الله تعالى يعفو عنه لجهله، مثاله ما قاله حذيفة: قال النبي صلى الله عليه وسلم: « لا يقل أحدكم: ما شاء الله وشئت، ولكن ليقل: ما شاء الله ثم شئت »، وذلك لأن في العطف المطلق تشريكاً وتسوية، وهو على خلاف الاحترام. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يكلمه في بعض الأمر، فقال: ما شاء الله وشئت، فقال صلى الله عليه وسلم: أجعلتني لله عديلاً؟ بل ما شاء الله وحده. وخطب رجل عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: «من يطع الله ورسوله فقد رشد ومن يعصهما فقد غوى، فقال: قل من يعصي الله ورسوله فقد غوى» فكره رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله: ومن يعصهما، لأنه تسوية وجمع. وكان إبراهيم يكره أن يقول الرجل: أعوذ بالله وبك. ويجوز أن يقول: أعوذ بالله ثم بك، وأن يقول: لولا الله ثم فلان، ويقول: لولا الله وفلان.

وكره بعضهم أن يقال: اللهم أعتقنا من النار، وكان يقول: العتق يكون بعد الورود، وكانوا يستجيرون من النار ويتعوذون من النار. وقال رجل: اللهم اجعلني ممن تصبه شفاعة محمد صلى الله عليه وسلم، فقال حذيفة: إن الله يغني المؤمنين عن شفاعة محمد، وتكون شفاعته للمذنبين من المسلمين. وقال إبراهيم إذ قال الرجل للرجل: يا حمار يا خنزير، قيل له يوم القيامة: حماراً رأيتني خلقته، خنزيراً رأيتني خلقته.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: إن أحدكم ليشرك حتى يشرك بكلبه فيقول: لولاه لسرقنا الليلة. وقال عمر رضي الله عنه: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « إن الله تعالى ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم، من كان حالفاً ليحلف بالله أو ليصمت ». قال عمر رضي الله عنه: فوالله ما حلفت بها منذ سمعتها. وقال صلى الله عليه وسلم: « لا تسموا العنب كرماً إنّما الكرم الرجل المسلم ».

وقال أبو هريرة: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « لا يقولن أحدكم: عبدي ولا أمتي، كلكم عبيد الله وكل نسائكم إماء الله، وليقل: غلامي وجاريتي، وفتاي وفتاتي، ولا يقول المملوك: ربي ولا ربتي، وليقل: سيدي وسيدتي، فكلكم عبيد الله، والرب الله سبحانه وتعالى.

وقال صلى الله عليه وسلم: « لا تقولوا للفاسق: سيدنا، فإنه إن يكن سيدكم فقد أسخطكم ربكم ». وقال صلى الله عليه وسلم: « ومن قال: أنا بريء من الإسلام؛ فإن كان صادقاً فهو كما قال، وإن كان كاذباً فلن يرجع إلى الإسلام سالماً ».

فهذا وأمثاله مما يدخل في الكلام ولا يمكن حصره. ومن تأمل جميع ما أوردناه من آفات اللسان علم أنه إذا أطلق لسانه لم يسلم، وعند ذلك يعرف سر قوله صلى الله عليه وسلم: « من صمت نجا »، لأن هذه الآفات كلها مهالك ومعاطب، وهي على طريق المتكلم، فإن سكت سلم من الكل وإن نطق وتكلم خاطر بنفسه إلا أن يوافقه لسان فصيح وعلم غزير وورع حافظ، ومراقبة

لازمة، ويقلل من الكلام، فعساه يسلم عند ذلك، وهو مع جميع ذلك لا ينفك عن الخطر، فإن كنت لا تقدر على أن تكون ممن تكلم فغنم، فكن ممن سكت فسلم، فالسلامة إحدى الغنيمتين.

الآفة العشرون

سؤال العوام عن صفات الله تعالى، وعن كلامه، وعن الحروف، وأنها قديمة أو محدثة، ومن حقهم الاشتغال بالعمل بما في القرآن إلا أن ذلك ثقيل على النفوس، والفضول خفيف على القلب، والعامي يفرح بالخوض في العلم، إذ الشيطان يخيل إليه أنك من العلماء وأهل الفضل، ولا يزال يحبب إليه ذلك حتى يتكلم في العلم بما هو كفر وهو لا يدري، وكل كبيرة يرتكبها العامي هي أسلم له من أن يتكلم في العلم لا سيما فيما يتعلق بالله وصفاته، وإنّما شأن العوام الاشتغال بالعبادات، والإيمان بما ورد به القرآن، والتسليم لما جاء به الرسل من غير بحث، وسؤالهم من غير ما يتعلق بالعبادات سوء أدب منهم يستحقون به المقت من الله عز وجل، ويتعرضون لخطر الكفر وهو سؤال ساسة الدواب عن أسرار الملوك وهو موجب للعقوبة، وكل من سأل عن علم غامض ولم يبلغ فهمه تلك الدرجة فهو مذموم، فإنه بالإضافة إليه عامي، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم: «ذروني ما تركتكم، فإنّما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، ما نهيتكم عنه فاجتنبوه، وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم». وقال أنس: سأل الناس رسول الله صلى الله عليه وسلم فأكثروا عليه وأغضبوه، فصعد المنبر وقال: سلوني ولا تسألوني عن شيء إلا أنبأتكم به، فقام إليه رجل فقال: يا رسول الله من أبي؟ فقال: أبوك حذافة، فقام إليه شابان أخوان فقالا: من أبونا؟ فقال: أبوكما الذي تدعيان إليه، ثم قام إليه رجل آخر فقال: يا رسول الله أفي الجنة أنا أم في النار؟ فقال: لا بل في النار، فلما رأى الناس غضب رسول الله صلى الله عليه وسلم أمسكوا، فقام إليه عمر رضي الله عنه فقال: رضينا بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبياً، فقال: اجلس يا عمر رحمك الله، إنك ما علمت لموفق.

وفي الحديث: «نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن القيل والقال، وإضاعة المال، وكثرة السؤال». وقال صلى الله عليه وسلم: «يوشك الناس يتساءلون حتى يقولوا: قد خلق الله الخلق فمن خلق الله؟ فإذا قالوا ذلك فقولوا: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾[الإخلاص: ١-٢] حتى تختمون السورة، ثم ليتفل أحدكم عن يساره ثلاثاً، وليستعذ بالله من الشيطان الرجيم».

وقال جابر: ما نزلت آية المتلاعنين إلا لكثرة السؤال. وفي قصة موسى والخضر عليهما السلام تنبيه على المنع من السؤال قبل أوان استحقاقه، إذ قال: ﴿فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾[الكهف: ٧٠]، فلما سأل عن السفينة أنكر عليه حتى اعتذر، وقال: ﴿قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا﴾[الكهف: ٧٣]، فلما لم يصبر حتى سأل ثلاثاً، ﴿قَالَ هَـٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ﴾[الكهف: ٧٨] وفارقه. فسؤال العوام عن غوامض الدين من أعظم الآفات، وهو من المثيرات للفتن، فيجب دفعهم ومنعهم من ذلك، وخوضهم في حروف القرآن يضاهي حال من كتب الملك إليه كتاباً، ورسم له فيه أموراً فلم يشتغل بشيء منها، وضيع زمانه في أن قرطاس

الكتاب عتيق أم حديث فاستحق بذلك العقوبة لا محالة، فكذلك تضييع العامي حدود القرآن واشتغاله بحروفه أهي قديمة أم حديثة. وكذلك سائر صفات الله سبحانه وتعالى، والله تعالى أعلم. انتهى ما أردته من كتاب «إحياء علوم الدين» للإمام الغزالي، والحمد لله رب العالمين.

ولنشرع الآن في ذكر ما جاء في كتابي «جوهر التقوى»، فقد جاء فيه في صفحة ١٢٩ وما بعدها تحت العنوان الآتي ما نصه:

الحسد: هو كراهة النعمة وحب زوالها عن المنعم عليه، ومن تمنى مثل نعمة غيره فهو الغابط والمنافس، وهو ليس بحاسد.

أسبابه: (١) العداوة. (٢) التعزز. (٣) الكبر. (٤) العجب. (٥) الخوف من فوات المقاصد المحبوبة. (٦) حب الرئاسة. (٧) حب النفس وبخلها، فيثور الحسد في النفس على مقتضى الأسباب.

فمن كره امرأ ثقلت عليه نعمته، وسرته بليته، واستعذب شقاءه، ومرت عليه حلاوته، ومن لم تلن شرته دامت حسرته، وكم من امرئ كانت نعمته الموهوبة وسعادته المستحدثة وسيلة للاستعلاء فيثور الحسد في قلب قرينه، ويأبى إلا التعزز عليه، فلا يخضع لاستطالته، ولا يصغر لعظمته، ومن كانت الكبرياء صفة نفسه لم يستطع أن يرى المتكبر عليهم يساوونه، ولم يطق صبراً على نعمة لهم حدثت وسعادة أقبلت، ليبقى عليهم ظاهراً، وفوقهم قاهراً، ذلك بسبب الكبر الذي في نفسه وإن لم يتعاظموا عليه.

وكم من فتى أثار الحسد في قلبه، واشتعل نيرانه، وألهب سعيره، تعجبه من ترادف النعم، النعم على من يخالفونه، واستغرابه من تتابع المواهب، وتواصل المنح، وتوارد اللطائف، وقد يشفق من زوال محبوب يبتغيه، أو فوات مطلوب يرتجيه، إذ ذاق معارفه نعمة من بعد ضراء مستهم، فينافسونه على مطالبه ويزاحمونه في سلوك سبيله، كأرض يملكها أو عرس يبني بها، أو درجة يرقاها، أو نعمة يلقاها.

ومن الناس من يحسد حباً للرياسة، وما يخشاه من وهن سلطانه، وانقضاض بنيانه، وتفويت عزه واستقلاله، وآخرون خبثت نفوسهم، وضل سعيهم، إذ يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله بلا سبب إلا مرض نفوسهم وشحها، وسوء طويتهم، يودون أن لو منع الله الرحمة عن العباد لا يطلبون الانفراد بها، ولا السيادة على غيرهم، ولكن أنفسهم ضيقة العطن، عديمة الفطن، قليلة الخير، ميتة الأفئدة، أولئك هم الحاسدون الضالون.

وكلما تضافرت الأسباب بالاجتماع في المجالس، والتجاور في المنازل، والاشتراك في الحرمة، والاقتراب بالنسب أو المصاهرة كان اضطرام نار الحسد أشد، وامتداد لهيبها أسرع، وازداد سعيرها، وطغى شررها، وغلت مراجلها، فزاد إحراقها لمواد المحبات، وإبادتها لملذات المودات، وكانت الحياة حياة الأشرار، إذ ذاك شراً وبيلاً، وعذاباً أليماً، قال صلى الله عليه وسلم: «الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب». وقال عليه السلام: «لا تحاسدوا ولا تقاطعوا ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخواناً».

وقال أنس: كنا جلوس عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يطلع عليكم من هذا الفج رجل من أهل الجنة، فطلع رجل من الأنصار تنطف لحيته من وضوئه، قد علق نعليه في يده الشمال، فسلم، فلما كان الغد قال النبي صلى الله عليه وسلم مثل ذلك، فطلع ذلك الرجل، وقاله في اليوم الثالث، فطلع ذلك الرجل، فلما قام النبي صلى الله عليه وسلم تبعه عبد الله بن عمرو بن العاص ولزمه ثلاثة أيام في بيته، فلم يجده يصلي بالليل، فاحتقر عمل الرجل، فسأله: ما الذي بلغ بك؟ فقال: هو ما رأيت، غير أني لا أجد على أحد من المسلمين في نفسي غشاً ولا حسداً على خير أعطاه الله إياه، قال عبد الله: فقلت: هي التي بلغت بك وهي التي لا نطيق.

وقال صلى الله عليه وسلم: «ثلاثة لا ينجو منهن أحد: الظن، والطيرة، والحسد، وسأحدثكم بالمخرج من ذلك: إذا ظننت فلا تحقق، وإذا تطيرت فامض، وإذا حسدت فلا تبغ». وقال الشاعر:

يا أحمد اقنع بالذي أوتيته ... إن كنت لا ترضى لنفسك ذلها

واعلم بأن الله جل جلاله ... لم يخلق الدنيا لأجلك كلها

لا تسلط على قلبك نيران الحسد التي يثيرها أسبابها، وتفكر في مصائبه ورذائله، وما ينجم عنه من العذاب الأليم في الحياة الدنيا، ولعذاب الآخرة أشد وأبقى.

ومن ابتلي بالحسد والعياذ بالله كيف ما كانت أسبابه تقطعت به الأسباب وأذرى به الكمد، وتنغص عيشه. ألا ترى أن نعم الله مترادفة لا ينقطع مددها، ولا ينفد خيرها، ومن ذا أشقى ممن عدّ نعم الله شقاء عليه، وجنته نار عذابه، ودار شقائه، فهل يمسك الله المطر خشية عليه، أو يمسك الكواكب لئلا ينقطع فؤاده. فالشمس والقمر والنجوم والجبال والأرض والأنهار مسخرات للعباد وهنائهم وراحتهم وسعادتهم، فسبحانك اللهم أشقيت قلوباً بالرحمات، إذ نسوا أنفسهم فتاهوا في أودية الضلالات، فعدوا نعم الله على الناس نقماً، وحسبوها لهم شقاء دائماً، فما أكثر نعم الله! وما أدوم شقاءهم، وقلت:

وفي القلب نيران وفي القلب جنة ... وما أكثر الآلام إلا من الفكر

وكفى الحاسد عذاباً أنه معذب بنعيم غيره، ومعاقب على الحسد بنفس الحسد، فلذلك كان طول الحياة له شقاء، وموته راحة له، فكما يتمنى الحاسد زوال نعمة المحسودين يشفي غليل صدره محسوديه أن تطول حياته فيطول عذابه، كما قيل:

لا مات أعداؤك بل خلدوا ... حتى يروا فيك الذي يكمد

لا زلت محسوداً على نعمة ... فإنما الكامل من يحسد

الثبات والعزيمة: الثبات المداومة على العمل، والعزيمة من أحوال الإدارة، والثبات حال داعية لإدامة العمل إلى النهاية. كم في الناس من عامل، وقل أولو العزم، ولم ينل الرغائب، ويحظ بالمطالب، إلا من صح العزم، وشمر عن ساعد الجد، وامتطى العمل:

دارك المعالي في اقتحام المخاوف ... ونيل الأماني في ارتقاء التنائف

وما نال مجداً من أدار عروسه ... وباتت تعاطيه سلاف المراشف

وقد قلت:

إلى الذروة العلياء يا سائق الحرف فإن شممت اليوم منها شذا العرف

وما جمع امرؤ أمره، وجد في طلب ما يروم، إلا خضعت له الآمال، ودانت له المعالي، وفاز بالسعادة والكمال، وتأمل كيف مدح الله أولي العزم فقال: ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، وقص عليه أنباءهم، وكان قصارى أمرهم أنهم فازوا بالسعادة هم والتابعون، وخسر أولئك الجاهلون.

الصبر: الصبر ثبات الباعث للخير والفضيلة في مقابلة الباعث للشر والرذيلة، وذلك أن الإنسان يشارك الدواب في الشهوة والغضب، وليس للصبي ولا للمجنون ولا للبهائم من داع يدعو لقهر الشهوات، ولا من رادع يردع عن اللذات، ألا إنّما يظهر جهادهما، وبين التغاضي عنهما، والتخلي من غائلتهما لمن عقل واستصبر وادكر وتفكر، ورأى سبيل الرشد فاتخذه سبيلاً، وسبيل الغي فلم يتخذه سبيلاً.

وبذلك يمتاز العاقل من الإنسان عن المجنون والصبي والحيوان، فالحيوان أسير شهواته، والعاقل من الإنسان عليم بما يعقب الأسر من الإذلال، وما يجر من الوبال، وهنالك تبتدئ داعية المجاهدة، وتتولد في النفس حال تدعو للمقاومة والمناضلة، فهذه الحال هي المسماة بالصبر الناجمة من العلم والهداية الداعية لترك الضلال والغواية، ألا وإن العلم بمغبة الشهوات وغائلة اللذات، باعث لقيام حال النيات بالأنفس، وتلك الحال تثمر الأعمال، فالعلم شجرة، والأحوال أغصانها، والأعمال أثمارها.

أسماء الصبر: الصبر في الأخلاق كالحديد في الصناعات والملح في الطعام، فلا ترى طاعة، ولا خلقاً حسناً إلا والصبر مفتاحه وعماده وقوامه، ألا ترى كيف شمل الأعمال البدنية، والأحوال النفسية، فمن احتمل المرض والألم والجراح المصمية، وقام بالأعمال الشريفة في عبادة يقيمها، أو زراعة يتقنها، أو صناعة يحسنها، أو تجارة يديرها، أو إدارة ينظمها، فهو من الصابرين في النوعين: الاحتمال والأعمال.

العفة: من زكى نفسه بالتباعد عن مقتضى شهوتي البطن والفرج فهو العفيف حتى لا يطيع دواعي اللهو والزينة، ولا يتدانى من المحرمات، ومن تعالت نفسه عن الخضوع لنائبات الدهر سمي صابراً، وإلا فهو الجازع والهلوع، برفع الصوت، وضرب الخد، وشق الجيب.

ضبط النفس والبطر والمرح: وإذا لم تستفزه داعيات الغنى، فهو الضابط لنفسه، وإلا فهو البطر المرح.

الشجاع والجبان: وإن قاوم الأقران في ساحة الحرب والميدان، فهو الشجاع وإلا فهو الجبان، وإن كظم غيظه، ولزم السكينة عند اهتياج الغضب، فهو الحليم وإلا فهو الأحمق السفيه.

كتم السر وإفشاؤه: وإذا أخفى الكلام لاقتضاء المقام فهو الكتوم للسر، وإلا فهو المفشي للأسرار، فإن اطمأنت نفسه فلم تجزع على فضول العيش فهو الراضي، وإلا فهو الحريص.

القناعة والشره: ومن اكتفى بالقليل فهو القنوع، وضده الشره، فأنت من هذا ترى أن الصبر ما ترك باباً من الأخلاق إلا ولجه الصبر، ولا خصلة إلا قرعها، فهو جدير بقوله صلى الله عليه وسلم لمن سأله عن الإيمان: «هو الصبر».

ولما كانت أحوال الإنسان لا تخلو من مكروه يحتمله، أو محبوب يشكر عليه. روى ابن مسعود أنه صلى الله عليه وسلم قال: «الإيمان نصفان: نصف صبر، ونصف شكر». ولما كان المصبور عليه إما شهوة وإما غضباً، كان الصوم صبراً عن شهوتي البطن والفرج، لا الغضب، ولذا ظهر سر قوله صلى الله عليه وسلم: «الصوم نصف الصبر»، فيكون الصوم ربع الإيمان، وقد يراد بالإيمان ما يشمل العلم والعمل، ولا عمل إلا مع الصبر تركاً أو فعلاً، فيكون الإيمان راجعاً ليقين وعمل على مقتضاه، فلذلك قال صلى الله عليه وسلم: «من أقل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر، ومن أعطي حظه منهما لم يبال بما فاته من قيام الليل وصيام النهار، ولأن تصبروا على ما أنتم عليه أحب إلي من أن يأتيني كل امرئ منكم بمثل عمل جميعكم، ولكني أخاف عليكم أن تفتح الدنيا عليكم بعدي فينكر بعضكم بعضاً، وينكركم أهل السماء عند ذلك، فمن صبر واحتسب ظفر بثوابه، ثم قرأ قوله تعالى: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾[النحل: ٩٦]».

وروى جابر: أنه سئل صلى الله عليه وسلم عن الإيمان فقال: «الصبر والسماحة». وقال صلى الله عليه وسلم: «الصبر كنز من كنوز الجنة». وعن عطاء عن ابن عباس قال: «لما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: أمؤمنون أنتم؟ فسكتنا، فقال عمر: نعم يا رسول الله، قال: وما علامة إيمانكم؟ قالوا: نشكر على الرخاء، ونصبر على البلاء، ونرضى بالقضاء، فقال صلى الله عليه وسلم: مؤمنون ورب الكعبة». وقال تعالى: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ﴾[البقرة: ١٧٧] أي: المصيبة والفقر والحرب.

الصبر واحد، وإنّما اختلفت الأسماء لاختلاف المواطن، كضوء الشمس يسطع على الأشجار والأزهار والثمار، فاختلفت الألوان لتعدد الأشكال، واحذر أن تضل في الألفاظ، وارع المعاني، واحذر شبهات الاصطلاحات الواردة.

الشجاعة: الشجاعة هي الإقدام على الأهوال مع الروية والتدبير. ومن أقدم بلا روية أو أحجم وقد فاجأه العدو فليس بشجاع، وإنّما هو في الأولى متهور، وفي الثانية جبان ضعيف.

الشجاعة أحد الأركان الأربعة ومنزلتها منها منزلة الجنود من الممالك، والحصون من الأمصار ولكم تمدح شعراء الشرق والغرب بالشجاعة، وحضوا عليها أممهم، فالعظيم من لبس تاجها، والوضيع من حرم فضيلتها، وحيل بينه وبينها.

الرجل الضعيف القلب الجبان مهضوم الحق مقصوص الجناح، لا يقضون له حاجة، ولا يسمعون له قولاً، الجبان أشبه شيء بالدجاجة يؤكل لحمه وهو مهين، والشجاع كالأسد، يحترم ويحرم أكله، وهو مصون، وما من أمة فقدت شجاعتها، واستسلمت، ونامت على فراش الراحة؛ إلا ضرب الله عليهم الذلة والمسكنة، وباؤوا بغضب من الله، ذلك بأنهم قوم مستضعفون.

ألم تر إلى عمرو بن كلثوم، حين قالت هند أم عمرو ملك العرب لليلى بنت المهلهل بن ربيعة أخي كليب وائل أم عمرو بن كلثوم: يا ليلى ناوليني الطبق، كيف تحمس ابن كلثوم وقتله.

وقال في معلقته:

أبا هند فلا تعجل علينا وأنظرنا نخبرك اليقينا

بأنا نورد الرايات بيضاً ونصدرهن حمراً قد روينا

بأي مشيئة عمرو بن هند نكون لقيلكم فيها قطينا

ومنها:

لنا الدنيا ومن أمسى عليها ونبطش حين نبطش قادرينا

بغاة ظالمين وما ظلمنا ولكنا سنبدأ ظالمينا

أفرط وغلا هنا في القوة الغضبية، وتجاوز الحد كزهير وعنترة فيما سيأتي وهذا مذموم كالجبن.

الجبن مذموم، والتهور مذموم، والشجاعة الوسط.

وقال زهير:

ومن لا يذد عن حوضه بسلاحه يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم

انظر كيف قتل جساس البكري كليباً التغلبي بناقة سعد جارهم، وكيف طلب التغلبيون من البكريين قتل جساس قاتل سيدهم، فأخذت مرة أبا جساس العزة بالإثم وأبى تسليم القاتل، فكانت الحروب الشعواء والداهية الدهياء، وتفانى الحيان بكر وتغلب.

هذه صفة شجاعة العرب الجاهلية الأولى إذ كانوا يحمون الذمار، ويدفعون العار، ويوقدون النار، ويحفظون الجار، تلك فضيلة وأي فضيلة، ذلك شرف وأي شرف، فخر وأي فخر، ولكنه مصحوب بالجهل تابع لنزغات الشيطان، ناصر للزور والبهتان، فكانت الحاجة داعية إلى ما يقوم معوجها، ويصلح فاسدها، ولو تبصرت أحوال بلادنا اليوم لرأيت الحمية فيها جاهلية، والنصر تابعاً للعصبية، لا للعدل في القضية، فترى الناس سكارى في تشاجرهم وما هم بسكارى ولكن الجهل عظيم.

فنحن أحوج إلى عقل يقومنا، وتمسك بالدين يرجعنا إلى الحق والصواب، ألا تتعجب كيف جاء القرآن فوجه شجاعة العرب إلى الوجهة العامة والفضيلة الشريفة، فقال تعالى: ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾[الأنبياء: ٤٧]، وقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ ﴾[النساء: ١٣٥]، ولقد مدح الاعتدال في القوة إذ قال: ﴿ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾[الفتح: ٢٩]، ونفر من الظلم فقال: ﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ﴾[النمل: ٥٢].

بذلك ذهبت تلك الحمية، حمية الجاهلية الأولى، الحمية المكانية الوقتية، واستبدلت بأحسن منها وهي الشجاعة التي بها دوخوا المعمورة شرقاً وغرباً. وقد ذم الله رذيلة الجبن فقال: ﴿ وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا ﴾[التوبة: ٨١-٨٢].

ما أشأم الأمة الخائرة العزيمة الضعيفة القوى، الميتة الصبر، تضاحكها الأيام قليلاً، وهم على أرائك الراحة متكئون، وتبسم لها ثغور الزهر على أشجار الحنظل في ساحة العيش الهني، حتى إذا وقعت الواقعة، وقرعت القارعة، وحكمت القنا والقضب في أعناق الرجال، عبست الأيام بعد ابتسامها، وذاقوا مر الحنظل فقطع أمعاءهم بعد أن راقهم منظره الزاهر، وأظلهم ورقه الناضر، فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء، حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون، فقطع دابر القوم الذين رضوا بالظلم واستناموا للخسف فأصبحوا في ديارهم صاغرين.

ليست الشجاعة قاصرة على القتال والذب عن البلاد بالحرب، كلا، فليس يتم للناس عمل إلا بقوة القلب وتحمل المكروه في قول الحق، وما من عالم إلا ابتلي بمن يشنؤه.

لن ينقض بيان البدعة فتقام على أنقاضه قصور السنة إلا بقول الحق ولو كره الحاسدون، ولن تموت الرذيلة، وتحيا الفضيلة، إلا إذا قاوم المصلحون تلك العقول الجامدة، وهزموا صفوف تلك النفوس الخامدة.

ولعمرك إن الشجاعة في مقال الحق لأعلى مناراً، وأرفع شأناً، وأشرف منالاً من اقتحام الهيجاء، والحرب قائمة، والرماح مشرعة، والسيوف مصلتة، إلا أن العالم بقوله يصلح الألوف والألوف، ولذلك كان الصديقون أعلى من الشهداء مقاماً، وأقرب إلى الأنبياء مجلساً.

ألا أحدثكم أيها الأذكياء بحديث السلف الصالح رضي الله عنهم ورضوا عنه، إذ كانوا يصدعون بالحق وبه يعدلون، كأبي بكر الصديق وطاووس اليماني وسفيان الثوري وعطاء بن أبي رباح وأبي حازم وعمر بن عبد العزيز وغيرهم، أولئك الذين هدى الله فقالوا الحق وصدقوا في المقال ولم يخافوا لومة لائم ولم يخشوا إلا الله.

روي عن ضبة بن محصن العنزي قال: كان علينا أبو موسى الأشعري أميراً بالبصرة، فكان إذا خطبنا حمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم، وأنشأ يدعو لعمر رضي الله عنه، قال: فغاظني ذلك منه، فقمت إليه فقلت له: أين أنت من صاحبه تفضله عليه؟ فصنع ذلك جمعاً، ثم كتب إلى عمر يشكوني يقول: إن ضبة بن محصن العنزي يتعرض لي في خطبتي، فكتب إليه عمر أن أشخصه إلي، قال: فأشخصني إليه، فقدمت إليه، فضربت عليه الباب، فخرج إلي فقال: من أنت؟ فقلت: أنا ضبة، فقال لي: لا مرحباً ولا أهلاً، قلت: أما المرحب فمن الله، وأما الأهل فلا أهل لي ولا مال، فبما استحللت يا عمر إشخاصي من مصري بلا ذنب أذنبته، ولا شيء أتيته، فقال: ما الذي شجر بينك وبين عاملي، قال: قلت الآن أخبرك به، إنه كان إذا خطبنا حمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم، ثم أنشأ يدعو لك، فغاظني ذلك منه، فقمت إليه وقلت له: أين أنت من صاحبه تفضله علينا؟ فصنع ذلك جمعاً، ثم كتب إليك يشكوني، قال: فاندفع عمر رضي الله عنه باكياً وهو يقول: أنت والله أوفق منه وأرشد، فهل أنت غافر لي ذنبي يغفر الله لك. قال: قلت غفر الله لك يا أمير المؤمنين، قال: ثم اندفع باكياً وهو يقول: والله لليلة من أبي بكر ويوم خير من عمر وآل عمر فهل لك أن أحدثك بليلته ويومه؟ قلت: نعم. قال: أما الليلة فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما

أراد الخروج من مكة هارباً من المشركين خرج ليلاً فتبعه أبو بكر وجعل يمشي مرة أمامه ومرة خلفه، ومرة عن يمينه، ومرة عن يساره، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما هذا يا أبا بكر ما أعرف هذا من أفعالك! فقال: يا رسول الله أذكر الرصد فأكون أمامك، وأذكر الطلب فأكون خلفك، ومرة عن يمينك، ومرة عن يسارك، لا آمن عليك، قال: فمشى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة على أطراف أصابعه حتى حفيت، فلما رأى أبو بكر أنها قد حفيت حمله على عاتقه، وجعل يشتد به حتى أتى فم الغار فأنزله ثم قال: والذي بعثك بالحق لا تدخله حتى أدخله، فإن كان فيه شيء نزل بي قبلك، قال: فدخله فلم ير فيه شيئاً فحمله وأدخله، وكان في الغار خرق فيه حيات وأفاع، فألقمه أبو بكر قدمه مخافة أن يخرج منه شيء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيؤذيه، وجعلن يضربن أبا بكر في قدمه وجعلت دموعه تنحدر على خديه من ألم ما يجد، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول له: يا أبا بكر لا تحزن إن الله معنا، فأنزل الله السكينة عليه والطمأنينة لأبي بكر، فهذه ليلته.

وأما يومه فلما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم ارتدت العرب، فقال بعضهم: نصلي ولا نزكي، فأتيته لا آلو نصحاً، فقلت: يا خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم تألف الناس وارفق بهم، فقال لي: أجبار في الجاهلية خوار في الإسلام فبماذا أتألفهم؟ قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم فارتفع الوحي، فوالله لو منعوني عقالاً كانوا يعطونه لرسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم عليه، قال: فقاتلنا عليه فكان والله رشيد الأمر، فهذا يومه. فكتب إلى أبي موسى يلومه.

أما طاووس اليماني: فإنه كان من التابعين، وكان من حديثه مع هشام بن عبد الملك، إذ أتى المدينة أن قال له هشام: عظني، فقال: سمعت من أمير المؤمنين علي رضي الله عنه يقول: إن في جهنم حيات كالقلال، وعقارب كالبغال، تلدغ كل أمير لا يعدل في رعيته.

وأما سفيان الثوري: فقد كان من حديثه أنه لما دخل على أبي جعفر المنصور، قال له أبو جعفر: ارفع إلينا حاجتك، فقال: إنّما نزلت هذه المنزلة بسيوف المهاجرين والأنصار وأبناؤهم يموتون جوعاً، فاتق الله وأوصل لهم حقوقهم، فطأطأ المنصور رأسه.

وأما عطاء بن أبي رباح: فإنه لما دخل على عبد الملك بن مروان وهو جالس على سريره وأجلسه معه عليه قال: ما حاجتك؟ فقال: يا أمير المؤمنين اتق الله في حرم الله وحرم رسوله فتعهده بالعمارة، واتق الله في أولاد المهاجرين والأنصار، فإنك بهم جلست هذا المجلس، واتق الله في أهل الثغور فهم حصن هذا المسلمين، وتفقد أمور المسلمين فإنك وحدك المسؤول عنهم.

وأما أبو حازم: فلما سأله سليمان بن عبد الملك بقوله: أي الكلام أسمع؟ أجابه: قول الحق عند من تخاف وترجو، قال: فأي المسلمين أخسر؟ قال: رجل خطا في هوى أخيه وهو ظالم فباع آخرته بدنياه.

وأما عمر بن عبد العزيز: فإنه كان يوماً مع سليمان بن عبد الملك، فسمع سليمان صوت الرعد فجزع ووضع صدره في مقدمة الرحل، قال عمر: هذا صوت رحمته فكيف إذا سمعت صوت عذابه؟

قيل: إن عبد الملك بن مروان خطب يوماً في الكوفة فقام إليه رجل من آل سمعان، فقال: يا أمير المؤمنين اقض لصاحبي هذا بحقه ثم اخطب، فقال: وما ذاك؟ فقال: إن الناس قالوا له ما يخلص

ظلامتك من عبد الملك إلا فلان، فجئت به إليك لأنظر عدلك الذي كنت تعدنا به قبل أن تتولى هذه المظالم، فطال بينه وبينه الكلام، فقال له الرجل: يا أمير المؤمنين، إنكم تأمرون ولا تأتمرون، وتنهون ولا تنتهون، وتعظون ولا تتعظون، أفنقتدي بسيرتكم في أنفسكم أم نطيع أمركم بألسنتكم؟ فإن قلتم أطيعوا أمرنا واقبلوا نصحنا فكيف ينصح غيره من غش نفسه؟ وإن قلتم خذوا الحكمة حيث وجدتموها واقبلوا العظة ممن سمعتموها، فعلام قلدناكم أزمة أمورنا وحكمناكم في دمائنا وأموالنا، أوَما تعلمون أن منا من هو أعرف منكم بصنوف اللغات، وأبلغ في العظات، فإن كانت الأمانة قد عجزت عن إقامة العدل فيها فخلوا سبيلها وأطلقوا عقالها يبتدرها أهلها الذين قاتلتموهم في البلاد وشتتم شملهم في كل واد، أما والله لئن بقيت في يديكم إلى بلوغ الغاية واستيفاء المدة لتضمحلن حقوق الله وحقوق العباد. فقال له: كيف ذلك. فقال: لأن من كلمكم في حقه زجر، ومن سكت عن حقه قهر، فلا قوله مسموع، ولا ظلمه مرفوع، ولا من جار عليه مردوع، وبينك وبين رعيتك مقام تذوب فيه الجبال حيث ملكك هناك خامل، وعزك زائل، وناصرك خاذل، والحاكم عليك عادل، فأكب عبد الملك على وجهه يبكي، ثم قال له: فما حاجتك؟ فقال: عاملك بالسماوة ظلمني، وليله لهو، ونهاره لغو، ونظره زهو، فكتب إليه بإعطائه ظلامته ثم عزله.

قال الجاحظ في كتاب «البيان والتبيين»: حدثنا يزيد بن هارون، قال: أخبرنا هشام بن حسان عن الحسن أن زياد بعث الحكم بن عمرو على خراسان فأصاب مغنماً، فكتب إليه زياد: إن أمير المؤمنين معاوية كتب إلي يأمرني أن أصطفي له كل صفراء وبيضاء، فإذا أتاك كتابي هذا فانظر ما كان من ذهب وفضة فلا تقسمه واقسم ما سوى ذلك. فكتب إليه الحكم: إني وجدت كتاب الله قبل كتاب أمير المؤمنين، فوالله لو أن السماوات والأرض كانتا رتقاً على عبد فاتقى الله فجعل الله له منهما مخرجاً، والسلام. ثم أمر المنادي فنادى في الناس أن اغدوا على غنائمكم فقسمها بينهم.

وإنا نحمد من ضبة ومن بعده صدقهم، ولكن لا نشاد الناس مشادتهم. قل الحق وتلطف، لا تكن فظاً فلكل مقام مقال، وللكلام مواطن. ولقد جرب الناس قديماً القول فرأوا أنجعه في العقول ألطفه، وأنفعه في النفوس أجمله. قال تعالى لموسى وهارون عليهما السلام: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾[طه: ٤٤]، وقال الله تعالى على لسان نبيه عليه الصلاة والسلام: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[سبأ: ٢٤].

فإياك أن تقلد كل ما تسمع، بل اعرض كل شيء على كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وتذكر قول الله تعالى: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾[آل عمران: ١٥٩].

وإذا قرأت في تاريخ اليونان أوسولون الحكيم قابل أكرسيوس في مملكة ليديا وهو في أبهته وسلطانه وعظمته متجملاً بأفخر الثياب، متحلياً هو وأعوانه وأرباب دولته بأنواع الحلي الملكية، والجواهر الغالية الثمينة، فقال أكرسيوس لسولون: هل رأيت أحداً يلبس ملابسي؟ فقال: نعم الديوك الأهلية والبرية والطاووس، فغضب ثم قال: هل رأيت أحداً أسعد مني؟ فقال: الملك طيلوس من أهل

مدينة أثينا، مات سعيداً قرير العين بنصرة وطنه، ولقد حزن عليه سائر البلاد، فهذا أسعد منك، ويليه أخوان اسم أحدهما « كليوبيس » واسم الآخر « بيطون »، كانا فاضلين صالحين، أكرما أمهما الصالحة، حتى إنهما جرا عربتها إلى المعبد، فدعت لهما، وأثنى الناس عليهما فماتا صالحين، مرضياً عليهما من الله والناس، وعند ذلك غضب أكرسيوس وظن أن سولون مجنون، ثم عرف له فضله بعد حين إذ وضع على النار ليحرق، فصرخ بقوله: سولون، فزحزح عن النار، وسأله الملك عدوه فأخبره بما جرى له مع سولون فانخلع قلبه وأطلقه.

وإذا سمعت عن ذلك الحكيم الهندي « بيدبا » مؤلف كتاب « كليلة ودمنة » وقد دخل على ملك الهند وأغلظ له في القول، وقال: لقد ظلمت الرعية، وأضعت ملك آبائك، وخربت البلاد، وأضعت العباد، فحبسه ثم أطلقه، وولاه الملك بعد حين، فاعلم أن هؤلاء قالوا الحق، ووطنوا أنفسهم على المكاره، فخذ من النار ضوءها، واعتدل في قولك، وتابعهم في قول الحق، وإصلاح شأن الأمة، واعدل عن الشتم، فذلك خير وأحسن تأويلاً، واقرأ قوله تعالى: ﴿ وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُواْ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴾[الإسراء: ٥٣]، وقوله: ﴿ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾[البقرة: ٨٣]، وقوله: ﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾[فصلت: ٣٤-٣٥]، وقوله تعالى: ﴿ وَلْيَتَلَطَّفْ ﴾[الكهف: ١٩].

واعلم أن الأطباء إنما يصنعون الدواء المر في غلاف ليسهل تعاطيه، فلنكن أطباء صالحين، وإذا رأيت نفسك خائرة القوة، هيابة، تفر من الظلام، وتفزع من الأحلام، فسلط على الجبن ضده، وأيقظ النفس من خمولها وخمودها، وحركها إلى الأنفة والشمم والإباء، وعدم تحمل الضيم، وافعل ما حكاه ابن مسكويه عن بعض المتفلسفين أنه كان يتعمد مواطن الخوف فيقف فيها ويحمل نفسه على المخاطرات العظيمة بالتعرض لها، ويركب البحر عند اضطرابه وهياجه ليعود نفسه الثبات في المخاوف ويهيج منها القوة التي تسكن عند الحاجة إلى حركتها، ويخرجها عن رذيلة الكسل ولواحقه.

ولقد كنت أنا بالجامع الأزهر الشريف أقرأ هذا الكتاب، فأخذت أعلم نفسي علم الشجاعة كما في ابن مسكويه، وما أحسن مدارس التعليم! فليكن لفضيلة الشجاعة التعليم العسكري، وبعض الأمم المتحضرة تعلم أبناءها عموماً النظام العسكري كما في سويسرا، ألا فلتفعل مصر ذلك كما أوضحنا في كتابنا « نهضة الأمة وحياتها » الذي قصدت به نظام الأمة علماً وسياسة وعملاً.

فلعمرك إن الجبن سجن المترفين، قيدهم بأغلال وصفدهم في الأداهم، ولعلكم قرأتم كتاب « السبق والرمي » في علم الفقه والناس غافلون لا يعلمون لم وضع هذا الكتاب، وما أغفل المسلمين اليوم عن هذه الفضيلة، فإذا لم توقظ الحكومات الناس فليقم الأفراد بتربية أبنائهم ليدلوهم على فطرهم الإنسانية، فذلك أبقى للأمم وأحسن وأشجع للأفراد، فإذا ماتت الشجاعة حل محلها الجبن، واستولى الترف، وحاق بالناس الهلاك، ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴾[الإسراء: ١٦].

أسئلة :

(١) اذكر شجاعة العرب الجاهلية .

(٢) قارن ما بين حال المصريين اليوم وحال العرب الجاهلية في الشجاعة .

(٣) ماذا ترى في الشجاعة الوقتية المكانية أهي نافعة للأمم؟ .

(٤) وماذا يجب على مربي الأمة المصرية في شجاعتهم؟ .

(٥) قارن حال انتقال الأمة العربية من حمية الجاهلية بحال تربيتنا المصرية الآن .

(٦) ما قصة ضبة مع عمر بن الخطاب ، وما ترى في شجاعته الأدبية؟ .

(٧) أعط فكرة عامة على الشجاعة الأدبية في صدر الإسلام .

(٨) قارن ذلك بحالنا اليوم .

(٩) ما دواء الجبن؟ .

(١٠) هل تستنتج من الأبواب السابقة في الكتاب أسباب الشجاعة وعلاجاً آخر للجبن؟ .

(١١) إذا قسا المعلم على التلاميذ فماذا تكون شجاعتهم؟ .

(١٢) إذا قهرت الحكومة الأمة وقست عليها فماذا تكون حال الأمة؟ .

(١٣) ماذا يجب على المعلمين وعلى الحكام حتى لا يميتوا الشجاعة؟ .

الكرم والبخل

من أدى من ماله واجب الشرع ، وواجب المروءة اللائقة به فهو الكريم ، ومن قصر فيما وجب عليه فهو البخيل ، فمن شاح في المحقرات وضايق في الصغائر والهنات مع الخدم ، أو أطال في مشاحنة عياله وأهله أو قريبه على نفقة وسم بالبخيل ، لا قيد يحصر أقسام البخل وأوصاف البخلاء إلا العادة والعرف ، فلقد ينفق الرجل كثيراً ويشح بالقليل فيحسب بخيلاً ، فإنه قصر حيث ينبغي الإيفاء ، ومنع حيث يجدر الإعطاء ، لا كرم إلا حيث يكون البذل محبوباً ، والعطاء مرغوباً ، وإلا فتكرم وتكلف .
سبب البخل غلبة الشهوات وطول الأمل ، ورحمة الولد ، وخوف الفقر ، وقلة الثقة بمجيء الرزق ، وعشق المال لذاته .

من غلبت عليه شهواته فليعلم أنها نار تلظى مهما أمدها بالوقود احتدم وطيسها ، وغلت مراجلها ، وارتفع لهيبها ، وقالت هل من مزيد ، ومن طال أمله فليتذكر الإخوان والأقران الذين طمعوا كما طمع ، وجمعوا كما جمع ، ثم اختطفهم المنون ، وهم عن التذكرة معرضون ، ومن جمع المال للولد فليعلم أنه إن يكن من المؤدبين المتعلمين فقد عاش كما يحيا المجتهدون ، ولله في خلقه شؤون ، وإن كان ممن ارتطموا في أوحال الشهوات ، وباعوا أنفسهم للموبقات ، وعكفوا على اللذات ، فالمال طامة كبرى وآفة عظمى ، ومجلبة لشقائه ، وزيادة في بلائه .

ومن خالف الفقر وقلت ثقته بالله عز وجل فليكشف الغطاء عن عينه ، وليتفكر في الحشرات والطيور والبهائم ، ﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [العنكبوت : ٦٠] . ومن أصبح عاشقاً للمال مغرماً بجمعه كان كالشيخ الهرم الذي جمع مالاً وعدده ،

يحسب أن ماله أخلده، تحت أطباق الثرى حتى لا يرى، فلقد علم أنه لا ينفعه في حياته، ولا ينتفع به بعد مماته، ومن ابتلي بهذا الداء فقلما يرجى علاجه. وقد قلت:

وما هذه الدنيا سوى البرق لامعاً ... فهذا به يلهو وذا رائد القطر

وما هذه الدنيا سوى الروض يانعاً ... وأثمارها حسن الأحاديث والذكر

فمن كرمت نفسه، وأنفق ماله، انطلقت الألسنة بمدحه، وتناقلت الركبان ثناءه، وجنى ثمرات عمله كرتين في الدنيا والآخرة، ﴿كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ﴾ [البقرة: ٢٦٥]، فمن أنفق فلنفسه يرجع الثناء وله يكون الهناء، ومن قتر فهو المحروم، المبعد عن الله والناس، ﴿هَا أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ﴾[محمد: ٣٨]، وتذكر ما خاطب به حاتم ماوية بنت عفزر:

أماوي إن المال غاد ورائح ... ويبقى من المال الأحاديث والذكر

أماوي إني لا أقول لسائل ... إذا جاء يوماً حل في مالي النكر

أماوي إما مانع فمبين ... وإما عطاء لا ينهنهه الزجر

أماوي ما يغني الثراء عن الغنى ... إذا حشرجت يوماً وضاق لها الصدر

أماوي إن يصبح صداي بقفرة ... من الأرض لا ماء لدي ولا خمر

ترى ما أنفقت لم يك ضرني ... وأن يدي مما بخلت به صفر

لقد علم الأقوام لو أن حاتماً ... أراد ثراء المال كان له وفر

النفوس الكريمة تريد أن تكون شموساً مشرقة وآنية فياضة، فيجودون بالموجود من صدقة، ويألمون لقلة ذات اليد حرصاً على الكرم، قال الإمام الشافعي:

يا لهف قلبي على مال أفرقه ... على المقلين من أهل المروءات

إن اعتذاري إلى من جاء يسألني ... ما ليس عندي لمن إحدى المصيبات

ومما يسر عند السمر، ويحلو في البدو والحضر، وما يروى أن أبا تمام دخل على إبراهيم بن شكلة وامتدحه بأبيات، وكان عليلاً فتقبلها وأمر حاجبه أنت يبوئه مبوأ صدق، ويعدّ له نزلاً ومرحباً سهلاً حتى يبل من مرضه، فأوحشه طول المقام، فكتب إليه يقول:

إن حراماً قبول مدحتنا ... وترك ما يرتجى من الصفد

كما الدنانير والدراهم في الـ ... ـبيع حرام إلا يداً بيد

فلما وصل البيتان إلى إبراهيم قال لحاجبه: كم أقام بالباب؟ قال: شهرين، قال: أعطه ثلاثين ألفاً وجئني بدواة، فكتب إليه يقول:

أعجلتنا فأتاك عاجل برنا ... قلًّا ولو أمهلتنا لم نقلل

فخذ القليل وكن كأنك لم تقل ... ونكون نحن كأننا لم نفعل

أذلك خير أمن صار مثلاً في الآخرين، ونكالاً في الغابرين، كمثل أعرابي أقبل يطلب رجلاً وبين يديه تين فغطى التين بكسائه، فجلس الأعرابي، فقال له الرجل: هل تحسن شيئاً من القرآن، قال: نعم

فقرأ: ﴿ وَٱلزَّيْتُونِ ۝ وَطُورِ سِينِينَ ﴾[التين: ١-٢]. فقال: وأين التين. قال: هو تحت كسائك. انتهى ما أردته من كتابي «جوهر التقوى»، وبهذا تم الكلام على اللطيفة الرابعة في قوله تعالى: ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾[ق: ١٨]، والحمد لله رب العالمين.

اللطيفة الخامسة: في قوله تعالى:

﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴾[ق: ٣٠]

اللهم إني أحمدك على نعمة العلم التي لا نعمة تفضلها، وأشكرك على جزيل مواهبك، وجميل آلائك، فلقد فتحت باب العلم فتحاً مبيناً، وشرحت صدري لهذا التفسير، وأصبح ما في كتابك من المعاني الغائبة عن الناس أشبه بالملموس باليد، المنظور بالعين، المسموع بالأذن، فأنت يا رب المعلم الملهم، وأنت رب العالمين. من ذا الذي كان يختلج في صدره أن معاني هذه الآيات التي ذكرت في أحوال الآخرة أصبحت كالشاهد المحسوس الذي تدل أوائله المشاهدة على أواخره الغائبة، إن هذه الآية قد ضمت في فحواها جميع ما ينتاب الناس في الحياة الدنيا من الإذلال والآلام وهم لا يشعرون:

(١) إن أول ما أيقظني لمعناها ما اتفق لي وأنا شاب، وقد جلست مع الفلاحين في قريتنا، وسمعتهم يذكرون رجلاً انتابه مرض خاص لا أتذكره، وكلما وضعوا البطيخ في فمه فأكله اعترته حال شديدة فعطش فأعطوه غيره، فخطرت لي هذه الآية حالاً، وقلت في نفسي: هذه جهنم قد ظهرت في معدات الإنسان، وفي حرصه وطمعه، وجميع أحواله، وهذا الذي سمعته الليلة وما هو إلا إعلام من الله لي بتفسير هذه الآية، إن إلحاح الشهوات والعطش المستمر على هذا المريض هو عينه ما يحس به الفقراء والأغنياء والعلماء والجهلاء والملوك والسوقة من الرغبات التي لا حد لها في جميع أطوار الحياة، إذن هذه الدنيا مبادئ جهنمية غاية الأمر أنها خفية لم يتفطن لها الناس.

(٢) ولما دخلت مدرسة دار العلوم وكنت مرة في زمن العطلة الصيفية، وقد توجهت إلى القاهرة فزرت حديقة الحيوانات بالجيزة يوماً ثم رجعت؛ قابلني وأنا راجع عند الكوبري رجل جمعتني وإياه المصادفات في المدة التي فتح فيها الكوبري لمرور المراكب، فقص علي قصصاً، قال: أنا كنت متعلماً في مدرسة الألسن التي أنشأها محمد علي باشا، ثم صرت موظفاً، وهناك أحوال خاصة الزمتني المنزل فأصبحت لا عمل لي، فلزمت بنت الحان، وصرت مدمناً، ولي أصدقاء مدمنون مثلي، ولكني وقتاً فوقتاً كنت أتذكر ما كنت أسمعه من الأساتذة: إن شاربي الخمر يصابون بأمراض تفتك بهم، وهاهنا تقوم حرب شعواء بين هذه الشهوة التي ملكت قيادتي وبين العلم الذي لا أشك بصدقه القاطع بضرر الخمر، وهاهنا العذاب الواصب الذي ما له من دافع، فأنا دائماً بين نارين: نار الخوف الدائم من حلول الأوصاب والأمراض، ونار الشهوة المحرقة المطلعة على فؤادي، وطالما ذهبت إلى سيدنا الحسين، وصليت في مسجده، وطلبت من الله أن يريحني من هذا المصاب، فأتوب يومين، فيرجع لي إخوان السوء، فيلحون علي، فأرجع كرة أخرى، ولكن هذه المرة قد تركت تعاطي الخمر (١٤) يوماً، فأنا فرح بهذه النعمة، وعسى الله أن يتوب علي إنه هو التواب الرحيم، وهنالك أقفل الكوبري فمررنا عليه وسلم علي وانصرف. اهـ.

ولا جرم أن هذه حال هذا الإنسان كله فيما يحيط به، غاية الأمر أن السكارى هم أوضح مثال لما علق بالناس من العادات، وأحوالهم صورة ظاهرة واضحة لآيات كثيرة في وصف أهل جهنم كقوله تعالى: ﴿ يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾[المائدة: ٣٧]، وقوله: ﴿ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ﴾[إبراهيم: ١٧] الآية، وقوله: ﴿ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾[السجدة: ٢٠]، وقوله: ﴿ فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴾[طه: ٧٤]، وقوله: ﴿ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾[الأنعام: ٢٧-٢٨] وقوله: ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ﴾[النساء: ٥٦].

ومن أعجب العجب أن يذكر في الأهرام حديث يشبه الحديث المتقدم يوم السبت ٩ أغسطس سنة ١٩٣٠، وبين هذا الحديث والحديث الذي سقته لك الآن ٤٠ سنة، والحديثان متشابهان، غاية الأمر أن الحديث في هذه السنة ١٣٥٠ هجرية وهي سنة طبع هذه الأجزاء؛ يدل دلالة واضحة على تقدم الفحشاء والمنكر في بلادنا المصرية تقدماً محسوساً، فإن الفتى الذي قابلني عند الكوبري كان يبكي ويحزن لأجل الإدمان على شرب الخمر، وأقوى عامل أورث شيوع الخمر في بلادنا إضلال الاستعماريين من أهل أوروبا لشبابنا، وبهم استأصل داء الجهالة والغواية، والفقر والدين، واستحكم وأفسد الطباع، ونجح الأوروبيون نجاحاً عظيماً في إفساد أبنائنا بسبب الامتيازات الأجنبية، وأهل الرأي في البلاد عاجزون عن تربية هذا الشعب، وأكثر العقول منصرفة عن حقائق العلوم، عاكفة على ظواهرها وعلى حفظ اللغات، وذلك كله بفتنة الاستعمار التي لم تجد لها مرتعاً خصيباً إلا في بلادنا، و﴿ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ﴾[الروم: ٤].

واعلم أن هذا الشاب الذي قابلني عند الكوبري هو وأمثاله ساقه الله لتفسير هذه الآية، وهذا المثل ليس خاصاً بهذا الفتى، بل الناس كلهم تحكمهم عادات وأخلاق لا يجدون عنها محيصاً كما قدمت ذلك من قبل، فهانحن أولاء نشاهد أنفسنا قد اعتدنا على ملابس ومآكل ومشارب وأحوالاً اجتماعية لا نجد منها مخرجاً، ونقول نفس ما يقوله هذا الفتى سواء بسواء، نحن نأكل الأطعمة الضارة بالصحة ثم نذم هذه العادة التي ملكتنا، وهانحن أولاء نسمع حديث الفيتامين المتقدم المذكور في سورة « ص » عند قوله: ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾[الآية: ٨٢]، فنريد أن نحافظ على صحة أجسامنا، وجمال عقولنا، فنأكل الفواكه والخضر والحبوب ونحو ذلك، فنجد العادات التي ورثناها لنا بالمرصاد، ونسمع علماء الطب يقولون لنا: إن مقابلة الأجسام للشمس والهواء أو أكثرها تورث صحة وعافية، وإن كثرة الملابس تحجب الأجسام عن الشمس والهواء، وهما النعمة العظمى للصحة. فنجد العادات تقول لنا: لتبقوا محجوبين عن الشمس، ولتكونوا ضعافاً خوفاً من الفضيحة والعار، ونرى المحرم في الحج قد لبس الملابس الخفيفة تعبداً، فنقول: هذا ديننا قد فتح لنا باب الصحة، فما لنا لا نلبس كما يلبس العرب في البادية والمحرم بالحج، فتقف عاداتنا سداً حصيناً بيننا وبين الصحة والعافية، ونرى الأمم الأوروبية قد أخذت علوم آبائنا وانتفعت بها والقرآن يحض عليها، والطيارات أحاطت بنا من

كل جانب، ونحن أبناء العرب ممزقون متفرقون، فالمصريون أمة، وأهل تونس أمة، وأهل الجزائر أمة، وأهل مراكش أمة، وفي سورية أمم بفعل أهل أوروبا تفريقاً لنا، وفي العراق أمة، وفي نجد، وفي الحجاز أمة، وفي اليمن أمة، وكل هؤلاء متباعدون متفرقون، ومتى أراد عقلاؤهم الخروج من هذا التفرق قابلتهم عاداتهم وأهواؤهم، وما ورثوه من آبائهم من القرون المتأخرة، فاستمر التفريق ودخول الدخلاء بينهم مما لم تتصف به أمة غيرهم في زماننا من الفرس والألمان والإنجليز والأسبان وغيرهم، ولكن هذا التفسير وأمثاله سيكون من أسباب التغلب على العادات الموروثة إن شاء الله تعالى، وستزول الآلام الشخصية والاجتماعية، ﴿ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾[يوسف: ٦٤]، والحمد لله رب العالمين.

جوهرة في إعجاز القرآن من حيث بلاغته

حديث عجيب في بلاغة آية:

﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴾[ق: ٣٠]

في يوم ١٣ يونيو سنة ١٩٣٢ قابلني الأديب المصري الأستاذ كامل كيلاني فحدثني حديثاً عجيباً كان أشار إليه قبيل ذلك بمدة قبيل تقديم هذه السورة إلى الطبع، وهذا الحديث راجع إلى البلاغة التي ظهرت في آية: ﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴾[ق: ٣٠]، فهاك حديثه:

قال: كنت مع الأستاذ «فنكل» وهو من أفاضل المستشرقين الأمريكيين، وكانت بيني وبينه صلات أدبية وثيقة، وكان يأخذ برأيي في ذكر المشاكل التي تقابله في الأدب لما يعتقده فِيّ من الصراحة ففي ذات يوم همس في أذني متهيباً، فقال: خبرني عن رأيك بصراحتك المعروفة أممن يعتقدون بإعجاز القرآن أنت أم لعلك تجاري جمهور المسلمين الذين يتلقون ذلك كابراً عن كابر، وابتسم ابتسامة كل معانيها لا تخفى على أحد، وهو يحسب أنه قد ألقى سهماً لا سبيل إلى دفعه، فابتسمت له كما ابتسم لي وقلت: لكي نحكم على بلاغة أسلوب بعينه يجب أن نحاول أن نكتب مثله أو نقلده، فلنحاول ليظهر لنا أنحن قادرون أم عاجزون عن محاكاته وتقليده، فلنجرب أن نعبر عن سعة جهنم، فماذا نحن قائلون؟ فأمسك بالقلم وأمسكت به، فكتبنا نحو عشرين جملة متخيرة الأسلوب نعبر بها عن هذا المعنى أذكر منها:

(١) إن جهنم واسعة جداً.

(٢) إن جهنم لأوسع مما تظنون.

(٣) إن سعة جهنم لا يتصورها عقل إنسان.

(٤) إن جهنم لتسع الدنيا كلها.

(٥) إن الجن والإنس إذا دخلوا جهنم لتسعهم ولا تضيق بهم.

(٦) كل وصف في سعة جهنم لا يصل إلى تقريب شيء من حقيقتها.

(٧) إن سعة جهنم لتصغر أمامها سعة السماوات والأرض.

(٨) كل ما خطر ببالك في سعة جهنم فإنها لأرحب منه وأوسع.

(٩) سترون من سعة جهنم ما لم تكونوا لتحلموا به أو تتصوروه.

(١٠) مهما حاولت أن تتخيل سعة جهنم فأنت مقصر ولن تصل إلى شيء من حقيقتها.

(١١) إن البلاغة المعجزة لتقصر وتعجز أشد العجز عن وصف سعة جهنم.

(١٢) إن سعة جهنم قد تخطت أحلام الحالمين وتصور المتصورين.

(١٣) متى أمسكت بالقلم وتصديت لوصف سعة جهنم أحسست بقصورك وعجزك.

(١٤) إن سعة جهنم لا يصفها وصف، ولا يتخيلها وهم، ولا تدور بحسبان.

(١٥) كل وصف لسعة جهنم إنّما هو فضول وهذيان.

إلى آخر هذه الجمل التي لا أذكر منها إلا ما ذكرت لتقادم العهد وطول الزمان، فقلت له مبتسماً ابتسامة الظافر الواثق: الآن تتجلى لك بلاغة القرآن وإعجازه بعد أن حاولنا جهدنا أن نحاكيه في هذا المعنى، فقال: هل أدى القرآن هذا المعنى بأبلغ مما أديناه، فقلت: لقد كنا أطفالاً في تأديته، فقال مدهوشاً: وماذا قال؟ قلت له: قال ﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴾[ق: ٣٠]، فصفق أو كاد، وفتح فاه كالأبله أمام هذه البلاغة المعجزة، وقال لي: صدقت نعم صدقت، وأنا أقرر لك ذلك مغتبطاً من كل قلبي، هذا لفظه. فقلت له: ليس عجيباً أن تذعن للحق وأنت أديب خبير بقيمة الأساليب، وهذا المستشرق يجيد الإنجليزية، لأنها لغة بلاده في أمريكا، والألمانية لأنها اللغة التي درس بها الأدب، والعبرية لأنها لغة الأمومة، والعربية لأنها اللغة التي وقف حياته على درس أدبها، فهو رجل متخصص للأدب، وقد جعل حياته وقفاً عليه. انتهى الحديث.

هذا حديث الأستاذ «كامل كيلاني» ذلك الشاب الذي ظهر ببلادنا المصرية في هذه السنين، وله كتب منشورة نهج فيها منهجاً حديثاً.

موازنة بين الأدب في هذا العصر أي سنة ١٩٣٢ وفي المدة الأولى أيام شبابي في نحو سنة ١٨٨٧م

ذلك أن مصر في ذلك العهد كان فيها بعض الأدباء والشعراء، وأنا كنت أتعلم إذ ذاك في الجامع الأزهر، ومن العجب أن السؤال الذي وجه إلى هذا الشاب الأديب وجهته إلى أستاذي العلامة الشيخ محمد النجدي، وقد كنت أتلقى عليه الأدب بالطريقة القديمة، إذ كنا نقرأ كتاب السعد للتفتازاني في الأدب، وكذلك الأشموني في النحو والصرف، ونصرف زمن الشباب في ذلك الأدب، ونحن لا نذوق منه شيئاً، ذلك أني سألته خارج الدرس قائلاً: يا سيدي أنت أعلم العلماء فيما أعلم بفن الأدب، وأنا أعلم أنك مؤمن بأن القرآن حق وبأنه معجز في فن البلاغة، ولكن هل ذقت أنت نفس هذه البلاغة، وأحسست من غير أن تتأثر بما تلقيته عن الأشياخ؟ فأجابني قائلاً: كلا. يا شيخ طنطاوي، ألا ترى أننا نضيع حصة كاملة في إعراب بيت في كتاب الأشموني أو إجراء استعارة تصريحية أو مكنية أو نحو ذلك، وهل خرجنا من هذا السجن إلى جو البلاغة المضيء البهيج البديع؟ انتهى.

عجباً يا رباه! أمم الإسلام التي خلقت فيها هاهي ذه لما كنت أدرس الأدب وأنا شاب لم يكن ذلك الأدب إلا آثاراً، أمم تذهب وأمم تجيء والأدب يقرأ والغاية منه مجهولة والطريق وعرة.

اللهم لك الحمد والمنة، هاأنا ذا أرى الأحوال قد تغيرت، والوجهة انتظمت، والعقول استنارت هاهو ذا الأديب المصري مع الأديب الأمريكي يرجعان بالأدب إلى حقيقته، ويوازنان بين القرآن وكلام الناس وكانت النتيجة أن القرآن بليغ.

أيها المسلمون، قد استبان من هذا الحديث أن التعاليم القديمة في الأدب أخذت تنمحي، وهاهي ذه الأجيال يظهر لي كما قلت مراراً في هذا التفسير مقبلون على أيام علم وحكمة وأدب وسعادة وارتقاء.

أوَليس من العجب أن يكون سؤالي لأستاذي رحمه الله تعالى معاداً عينه في مشيبي، ثم تكون الآخرة خيراً من الأولى، أوَليس من المدهش هذا الانقلاب في أمة الإسلام، إذن ما كنت أتوقعه لأمة الإسلام وذكرته كثيراً في هذا التفسير آت لا ريب فيه، والحمد لله رب العالمين.

تذكرة في سورة «الفاتحة»، موازنة بين بلاغة سورة «الفاتحة» وفواتح السور وبين فواتح المعلقات، فارجع إليها إن شئت.

وإلى هنا تم الكلام على سورة «ق»، والحمد لله رب العالمين.



تفسير سورة الذاريات
هي مكية
آياتها ٦٠، نزلت بعد « الأحقاف »

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا ﴿١﴾ فَٱلْحَٰمِلَٰتِ وِقْرًا ﴿٢﴾ فَٱلْجَٰرِيَٰتِ يُسْرًا ﴿٣﴾ فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا ﴿٤﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴿٥﴾ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ ﴿٦﴾ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ ﴿٧﴾ إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴿٨﴾ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴿٩﴾ قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾ يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٢﴾ يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾ ۞ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾ وَفِى مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾

وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾ وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا۟ مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٤٦﴾ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْي۟دٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْا۟ بِهِۦ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾

هذه السورة ثلاثة أقسام

القسم الأول: في تفسير البسملة.

القسم الثاني: في دلائل البعث من العلوم الطبيعية، والعجائب النفسية، وفي ذكر جزاء المتقين، وأخبار الأمم المروية، من أول السورة إلى: ﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾.

القسم الثالث: في تسلية النبي صلى الله عليه وسلم، وفي الفرار إلى الله من هذه الدنيا المزدوجة المقاصد، المحفوفة بالمخاطر، من قوله تعالى: ﴿فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾﴾ إلى آخر السورة.

القسم الأول: في تفسير البسملة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

رباه، لك الحمد على نعمة العلم وبهجة الحكمة وسعادة الكشف والإيضاح، رحمتك طلسم الوجود ولغز الحياة، وأحجية الدنيا والدين، حرنا يا ربنا في رحمتك، رأيناها حاصلة بالضدين: الخير والشر، والضر والنفع. أوليس من العجب أن نرى الجهال من نوع الإنسان وأكثرهم جاهلون، والدواب جميعهم تسوقهم للعمل الشهوات، وما هي الشهوات؟ إن هي إلا مهاميز وسياط ونيران تلظى في هذه الحياة الدنيا، تسوق الناس إلى أعمالهم، ينشط العامل لعمله، والتاجر لتجارته، والسياسي لنظام دولته، بم نشط هؤلاء؟ لم يكن ذلك إلا لما يحسون في أنفسهم من ألم الجوع وبوار التجارة وضياع المجد والخزي والعار أمام الأعداء والأهل والأصحاب.

سبحانك اللهم وبحمدك، سبحانك ربنا، إذن حسراتنا وأحزاننا وآمالنا ومسراتنا الوقتية وعداواتنا إن هي إلا محركات لهممنا، سائقات لعزائمنا، جعلتها يا رب أسواطاً بها تسوقنا كما نسوق نحن بهائمنا وأنعامنا بما لدينا من سياط وعصي وأدوات.

يركب أحدنا الحصان والحمار والفيل والجمل، ويسوقه بما معه من سياط، وإنّما نفعل ذلك لما نعلمه من أن هذه الدواب لا تسير سيراً على مقتضى رغائبنا غالباً إلا إذا نظمنا سيرها بإيقاظها بضرب السياط وإعمال المهاميز، نفعل ذلك ونحن نجهل أنك أنت تفعل معنا ما نفعله نحن مع دوابنا.

الله أكبر. نحن في عالم المادة، والمادة هذا شأنها، عالمنا مادي فالمادة كلها آلاته، لذلك قضيت علينا وحكمت حكماً عدلاً أن يكون جوع وشبع، خير وشر، ضر ونفع، حبيب وعدو. فإن كان خيراً فرح الحبيب فأفرحنا، وإن كان شراً شمت العدو فحركنا للعمل كما نسر بتعاطي الطعام، وبمسرات اجتماع الزوجين الذكر والأنثى، والصحة والجمال، ونحزن للفقر والمرض والذل والخضوع للأعداء. فنجدّ للعمل حتى نسترد ما كنا به في بهجة وحبور، هما ضدان اتخذتهما برحمتك سوطين يسوقاننا لأعمال الحياة. أفليس من عجب أن تكون شماتة الأعداء أكبر مقوم لنا ومرق في الحياة من رضا الحبيب وغفلته أو تغافله عن عيوبنا. إذن الضدان لا بد منهما لرحمتنا حتى نحيا سعداء سعادة ما. يشير لذلك قوله تعالى في هذه السورة: ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ﴾[الذاريات: ٤٩-٥٠].

اللهم إن أكثر نوع الإنسان مسوقون بهذين السائقين وهم في رحمتك بهما، وهذا قوله في سورة أخرى: ﴿ قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴾[عبس: ١٧]وقوله: ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[الأعراف: ١٨٧] وهناك صنف من الناس ارتقى عن هذه الطوائف فكان عمله للخير المحض والسعادة المطلقة، وهذه هي النفوس العالية التي تشرق على هذا النوع الإنساني آناً فآناً.

الله أكبر، هو الرحمن الرحيم، الله أكبر، هو الذي خلق الشمس والقمر والنجوم، والجبال والشجر، والدواب خلقها برحمته هو إبداعاً، وصقل الدنيا كلها بصقال الجمال، وجعل في العقول الإنسانية من يكونون في الأرض أشبه بتلك النجوم والشموس والأقمار، يضيئون على الناس كما تضيء الكواكب والشمس والقمر على الأرض.

الله أكبر، ما أكثر غفلة نوع الإنسان، هذه الطائفة هم الذين قال الله فيهم: ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴾[سبأ: ١٣]، ألا ترى أن شكر النعمة أن يوجه الإنسان جميع مواهبه إلى وجهتها، وبعبارة أخرى: يكون مع الناس ومع ربه أشبه بالشمس والكواكب في عموم النفع بلا طلب مكافأة ولا مجازاة وكما أن الشمس منقادة تسير على النظام المجيد الذي رسمه لها المبدع، وتطيعه طاعة أشبه بطاعة المحب لمحبوبه طلباً لرضاه، وسعياً لامتثال أوامره، هكذا هذه الطائفة في هذا النوع الإنساني نزلوا إلى الأرض لهذه الفضيلة، شأنهم مع الناس شأن الأمهات مع أولادها، وشأن الأستاذ الصادق مع تلاميذه النجباء والبلداء، وشأن الشمس مع الأرض الطيبة والقفراء، وهؤلاء الشاكرون من نوع الإنسان هم الأنبياء والحكماء الذين يخلقون في الأمم جيلاً فجيلاً، هم في الأرض مع الله أشبه بالكواكب في إطاعة النظام

وبعبارة أخرى: هم يرقون الأمم بما يحسون في نفوسهم من حب لها، وغرام برقيها وإسعادها، لا يرقبون جزاءً ولا شكوراً، ولن يتم لهم ذلك إلا بحب وهيام وغرام بمبدع الشموس والأقمار، فهم عن الله يأخذون، ولعباده يعطون، والله يلهم النفوس العالية وهم الملائكة أن تمدهم من الأنوار التي استمدتها منه تعالى، فهؤلاء العلماء في الأرض والنفوس الشريفة في العالم الأعلى هم الذين يشهدون نظام السماوات والأرض المذكور في نظرات الخليل عليه السلام، وإذن يشهدون الحكمة والجمال والبهجة في العوالم، هم المعطوفون على الملائكة في آية: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِ﴾[آل عمران:١٨].

وستكثر هذه الطائفة في ديار الإسلام بعد نشر هذا التفسير في زماننا. وفي الملائكة المذكورين يقول الله في هذه السورة: ﴿فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا﴾[الآية:٤]، وفي تربية الناس، ليستخرج منهم من هو مستعد للتلقي عن تلك النفوس العالية وإن كانوا قليلاً يقول فيها أيضاً: ﴿كَانُواْ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾[الآيات:١٧-١٩]. هذه أوصاف العابدين، ومن هؤلاء العابدين من تسمو نفوسهم إلى هذه الطائفة بما ركب فيهم من الاستعداد والقوى النفسية، وهم المفكرون فأسمعهم ما بعد ذلك فقال: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾[الآيات:٢٠-٢٣].

فلتنظر أيها الذكي في نفسك، فإن كان عملها للناس لغرض المكاسب كما هو دأب أكثر هذا النوع الإنساني أو للشهوة أو اللذة، أو العلو على الناس، فأنت لا تزال في الدرجات الدنيا من العبادة، وإن كان عملها بسائق الحب كما تفعل الأم لولدها فأنت في الذروة العليا، ثم انظر في آخر هذه السورة: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[الآية:٥٦]، فإن كانت هذه العبادة لأجل الجنة وما فيها فهي المرتبة الدنيا، وإن كانت الأعمال والعبادات صادرة بحب خالص فإن السعادة والبهجة تعجل لصاحب هذا العمل في نفس الحياة الدنيا، وهذه الطائفة من الآن سعداء، دنياهم كآخرتهم، يعبدون الله كأنهم يرونه، ومن عبد الله كأنه يراه فهذا لا ينتظر جزاء بعد ذلك فقد نال مقصوده، فكن أيها الحبيب ذلك العبد إن شاء الله.

هذا ما فتح الله به صباح يوم الثلاثاء ٢٩ شوال سنة ١٣٥٠هجرية الموافق ٨ مارس سنة ١٩٣٢م وكتبته وقت الضحى. وبهذا تم الكلام على القسم الأول في تفسير البسملة، والحمد لله رب العالمين.

القسم الثاني من السورة: في دلائل البعث من العلوم الطبيعية، والعجائب النفسية، وفي ذكر جزاء المتقين، وأخبار الأمم المروية، من أول السورة إلى قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[الذاريات:٤٩]

القسم الثاني: التفسير اللفظي

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا﴾ الرياح تذرو التراب وغيره ﴿فَٱلْحَٰمِلَٰتِ وِقْرًا﴾ أي: الرياح الحاملات للسحاب ﴿فَٱلْجَٰرِيَٰتِ يُسْرًا﴾ أي: الرياح الجارية في مهابها بسهولة ﴿فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا﴾ هي الرياح

التي تقسم الأمطار بتصريف السحاب، فالفاء هنا لترتيب الأفعال، والذات واحدة، وهي الرياح، وجواب القسم قوله: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ﴾ فإن هبوب الرياح وذروها التراب، وحملها السحاب، وجريها في الهواء بسهولة، وتقسيمها للأمطار، كل ذلك مخالف لناموس الجاذبية، إن كل ما على الأرض منجذب لها واقع عليها، ولكن هنا تصرفت الرياح تصرفاً عجيباً، وهذا التصرف تابع لسير الكواكب، لأنها بجريها وبجري الشمس تؤثر جميعها في أرضنا وفي هوائها فيتم ما ذكر، وهذه الكواكب والشمس تجري بنظام مقدر محكم يدل على تدبير عقلي ونظام حكمي، فإذن يكون ذرو التراب، وحمل السحاب، وجريه وتفريقه تابع لنظام سير الكواكب التابع لتدبير النفوس والعقول العالية، وهم الملائكة المدبرون للعالم الأرضي، فما ذرت الرياح التراب، ولا حملت السحاب، ولا قسمت المطر على البقاع، إلا بالحركات الفلكية المنظمة بالعقول الملكية، وهذا يجمع لك كلام المفسرين رحمهم الله، فإذا سمعت بعضهم يقول: الذاريات الكواكب، وبعضهم يقول: الملائكة، فاعلم أنهم جميعاً لا خلاف بينهم لأن الأسباب والمسببات مرتبطات محكمات، أعلاها سبب في أدناها، وليس من الحكمة أن يكون هذا النظام محكماً من الأعلى إلى الأسفل، كما قال الله تعالى: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ﴾[السجدة: ٥]، ثم تكون نتيجة ذلك الفناء المطلق الذي يدل على أن لا حكمة في خلق هذا الإنسان، لذلك جعل الله تلك المذكورات مقسماً بها. وبعبارة أخرى: براهين على البعث، إذ لولا البعث لكان هذا كله عبثاً، فالمدبرات لهذه العوالم لم تدبره ليفنى، لذلك قال: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ۝ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ﴾ أي: وإن الجزاء لحاصل نفياً لفعل البعث من هذه النظم المحكمة. ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ﴾ ذات الطرائق، جمع حبيكة كطريقة، وطرائق السماء قسمان: محسوسة وهي مسير الكواكب، ومعقولة وهي مسير العقول في التفكير فيها للتوصل إلى العلوم والمعارف، أو ذات النجوم، والنجوم تزين السماء كما تزين طرائق الوشي الثوب، وتحسن شكله ومنظره، يقال في هذا أيضاً: حبيكة وحبك وحباك وحبك، ككتاب وكتب، يقسم الله بالسماء ذات طرائق النجوم وطرائق العقول بالتفكير، أو طرائق الوشي والزينة بنفس النجوم، ومعلوم أن طرق النجوم ونفس النجوم كلها مرتبطات متعاضدات متحدات المقاصد والأغراض، ﴿إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ﴾ في الرسول وفي القرآن، وفي القيامة، وفي أمر الدين، كأن يقولوا: إن الرسول شاعر، أو ساحر، أو مجنون الخ، ولقد كانوا يتلقون الرجل فيقولون له: إياك وأن تسمع محمداً إنه ساحر أو كاهن الخ، فيصرفونه، أي: عن الإيمان به، ولذلك قال الله تعالى: ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾ أي: يصرف عن القول المختلف، أي بسببه من صرف عن الإيمان، وهذه الجملة صفة بعد صفة للقول ﴿قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ﴾ الكذابون من أصحاب القول المختلف، وهذا دعاء بالقتل ولكنه جرى مجرى اللعن ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ﴾ في جهل يغمرهم ﴿سَاهُونَ﴾ غافلون عما أمروا به ﴿يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ﴾ أي: فيقولون متى يوم الجزاء، أي: وقوعه، وجواب هذا السؤال أنه يقع ذلك ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ أي: يحرقون حال كونهم مقولاً لهم تبكيتاً: ﴿ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ﴾ أي: تقول لهم خزنة النار: ذوقوا عذابكم وإحراقكم في النار ﴿هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ أي: هذا العذاب هو الذي كنتم به

تستعجلون. ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾ قابلين لكل ما أعطاهم من الثواب راضين به وآخذين ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ﴾ قبل دخول الجنة في الدنيا ﴿مُحْسِنِينَ﴾ قد أحسنوا أعمالهم. وذكر منها ما يأتي: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ ينامون، و«ما» زائدة، أي: كانوا يهجعون في طائفة قليلة من الليل، أو هجوعاً قليلاً، ﴿وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ فهؤلاء يحيون الليل متهجدين، فإذا أسحروا أخذوا في الاستغفار كأنهم أسلفوا في ليلهم الجرائم. والسحر: السدس الأخير من الليل. ويقال: إنهم مع قلة هجوعهم وكثرة تهجدهم إذا أسحروا أخذوا في الاستغفار. وقال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ كانوا قلّ ليلة تمر بهم إلا صلوا فيها شيئاً إما من أولها أو من وسطها. وقال أنس بن مالك: كانوا يصلون بين المغرب والعشاء، أخرجه أبو داود. ﴿وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ﴾ نصيب يستوجبونه على أنفسهم تقرباً إلى الله وإشفاقاً على الناس ﴿لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾ للمستجدي والمتعفف الذي يظن غنياً فيحرم الصدقة. ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾ أي: فيها دلائل من أنواع المعادن والحيوان والنبات والعجائب ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾ آيات ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ تنظرون نظر من يعتبر. وصف الله المحسنين بأنهم مجدّون في العبادة البدنية وإخراج المال لمستحقه، وفيهما إشارة إلى الزكاة والصيام والحج، لأن الأول معلوم من الآية، والثاني من نوع العبادة البدنية، والثالث مركب من المال والبدن، ولم يبق إلا الإيمان والعلم، فلذلك أتى بهذه الجمل وهي النظر في الآفاق وفي الأنفس بأسلوب آخر، كأنه كلام مستقل، مع أن هذا من قبيل العلم، والأول من قبيل العمل، وكل متمم للآخر، وإنّما فصل هذا لأنه مختص بطائفة راقية العقل تنبغ فيه، فالأولون صالحون، والآخرون هم الصديقون، قال تعالى تتميماً لمسائل العلم: ﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ﴾ أي: أسباب رزقكم، أو تقديره، ﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾ من الثواب ذلك لأن الجنة فوق العوالم السماوية، أو يقال: إن الأعمال وثواب الأعمال مقدرات في العالم الأعلى، ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ﴾ أي: ما توعدون ﴿لَحَقٌّ﴾ حقاً ﴿مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ أي: مثل نطقكم، فكما أنه لا شك في أنكم تنطقون ينبغي ألا تشكوا في تحقق ذلك. ويمكن أن يقال: إنه، أي: الرزق، وعليه ما يأتي:

حكى الأصمعي قال: أقبلت من جامع البصرة فطلع أعرابي على قعود، فقال: من الرجل؟ فقلت: من بني أصمع. فقال: من أين أقبلت؟ قلت: من موضع يتلى فيه كلام الله تعالى، قال: اتل علي، فتلوت: ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا﴾، فلما بلغت: ﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾، قال: حسبك، فقام إلى ناقته فنحرها ووزعها على من أقبل وأدبر، وعمد إلى سيفه وقوسه فكسرهما وولى. فلما حججت مع الرشيد، وطفقت أطوف فإذا أنا بمن يهتف بي بصوت رقيق، فالتفت فإذا بالأعرابي قد نحل واصفر، فسلم علي واستقرأ السورة، فلما بلغت الآية صاح وقال: قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً. قال: وهل غير هذا، فقرأت: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾، فصاح وقال: يا سبحان الله، من ذا الذي أغضب الجليل حتى حلف، لم يصدقوه بقوله حتى حلف، قالها ثلاثاً، وخرجت معها نفسه.

واعلم أن مثل هذه الحكاية لا تؤخذ بظاهرها، وكم للأصمعي من حكايات من عنده، واعلم أن الله عز وجل هو الذي تكفل بالرزق وحده، فأما زرع الأرض مثلاً فليس إلا عملاً قليلاً جداً، فما هو إلا وضع حب وإنزال ماء وخدمة، ولكن النمو والخلق وجميع الرزق حاصل بأسباب سماوية من حرارة تارة وبرودة أخرى وعمل عظيم في الخلق والتصوير والتقدير والعجب العجاب، فأي دخل للناس في هذا؟ هذا معناه إذا أرجع الضمير للرزق، فافهم.

ولما فرغ من الدلائل العقلية، والعبادات البدنية، وما تقدمها، شرع يقص القصص، وابتدأ بقصة ضيف إبراهيم التي جاء في آخرها: ﴿ وَتَرَكۡنَا فِيهَآ ءَايَةً ﴾[الذاريات: ٣٧] للمناسبة بينها وبين: ﴿ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ ﴾[الذاريات: ٢٠]، قال تعالى: ﴿ هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ﴾ وفي هذه الجملة تفخيم للحديث، والضيف في الأصل مصدر يطلق على الواحد والمتعدد، وقوله: ﴿ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ﴾ أي: المكرمين عند الله تعالى وعند إبراهيم، إذ خدمهم بنفسه وزوجته وكانوا اثني عشر ملكا في صورة الضيف حين أضافهم إبراهيم ﴿ إِذۡ دَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَقَالُواْ سَلَٰمٗاۖ ﴾ أي: نسلم عليك سلاما ﴿قَالَ سَلَٰمٞ﴾ أي: عليكم السلام، وابتدأ جملة فعلية، والرد جملة اسمية تفيد الثبات، والأولى للحدوث، فالرد أوكد، فهذه تحية أحسن من الابتداء، ثم قال: أنتم ﴿ قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ ﴾ فعرفوني من أنتم ﴿ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ ﴾ فذهب إليهم في خفية من ضيفانه، وذلك لأن من أدب الضيافة أن يبادر رب الدار بالقرى خفية أن يمنعه الضيف أو يطول انتظاره، ﴿ فَجَآءَ بِعِجۡلٖ سَمِينٖ ﴾ لأنه كان عامة ماله البقر ﴿ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيۡهِمۡ ﴾ بأن وضعه بين أيديهم ﴿ قَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ ﴾ منه، وذلك حث منه لهم على الأكل من العجل المشوي لأنه لا يؤكل منه إلا بعد ذلك، فلم يأكلوا من الطعام ﴿ فَأَوۡجَسَ ﴾ فأضمر ﴿ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۖ ﴾ خوفا، فإن من لم يأكل طعامك لا يحفظ ذمامك، وكان في زمانه إذا أكل الرجل من طعام صاحبه أمنه، كما هو حاصل اليوم عند طوائف من العرب، فلما علموا خوف إبراهيم ﴿ قَالُواْ لَا تَخَفۡۖ﴾ منا يا إبراهيم إنا رسل ربك ﴿ وَبَشَّرُوهُ ﴾ من الله ﴿ بِغُلَٰمٍ ﴾ بولد ﴿ عَلِيمٖ ﴾ يبلغ ويعلم، أو نبي وهو إسحاق ﴿ فَأَقۡبَلَتِ ٱمۡرَأَتُهُۥ ﴾ سارة ﴿ فِي صَرَّةٖ ﴾ أي: حال كونها في صيحة، وهي من الصرير ﴿ فَصَكَّتۡ وَجۡهَهَا ﴾ فلطمت بأطراف الأصابع جبهتها كما يفعل المتعجب ﴿ وَقَالَتۡ ﴾ أنا ﴿ عَجُوزٌ عَقِيمٞ ﴾ فكيف ألد ﴿ قَالُواْ كَذَٰلِكِ ﴾ مثل ذلك الذي قلنا وأخبرنا به ﴿ قَالَ رَبُّكِۖ ﴾ فنحن نخبرك عن الله، والله قادر على ما تستبعدينه ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ في فعله ﴿ٱلۡعَلِيمُ﴾ فلا يخفى عليه شيء. فلما علم أنهم ملائكة ﴿ قَالَ فَمَا خَطۡبُكُمۡ ﴾ أي: فما شأنكم، وما طلباتكم، وفيم أرسلتم؟ ﴿ أَيُّهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴾ أي: إلى البشارة وحدها أرسلتم أم هناك أمر آخر؟ ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمٖ مُّجۡرِمِينَ ﴾ أي: قوم لوط ﴿ لِنُرۡسِلَ عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن طِينٖ ﴾ أي: طين مطبوخ كما يطبخ الآجر حتى يصير في الصلابة كالحجارة ﴿ مُّسَوَّمَةً ﴾ معلمة، من: السوم، وهو العلامة، وعلامتها تدل على أنها ليست من أحجار الدنيا ﴿ عِندَ رَبِّكَ لِلۡمُسۡرِفِينَ ﴾ أي: المجاوزين الحد في الفجور ﴿ فَأَخۡرَجۡنَا مَن كَانَ فِيهَا ﴾ في قرى قوم لوط ﴿ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ ممن آمن بلوط ﴿ فَمَا وَجَدۡنَا فِيهَا غَيۡرَ بَيۡتٖ مِّنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴾ أي: غير أهل بيت من المسلمين، وهم لوط وابنتاه، وهم موصوفون بالإسلام والإيمان

﴿ وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً ﴾ علامة ﴿ لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾ فإنهم المعتبرون بها وهي تلك الأحجار. ثم قال تعالى: ﴿ وَفِى مُوسَىٰٓ ﴾ وهو معطوف على ﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ ﴾[الآية: ٢٠] ﴿ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴾ هي معجزاته كاليد والعصا ﴿ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ ﴾ أي: فتولى بما كان يتقوى به من جنوده، والركن: اسم لما يركن إليه الشيء ويتقوى به ﴿ وَقَالَ سَٰحِرٌ ﴾ أي: هو ساحر ﴿ أَوْ مَجْنُونٌ ﴾ فكان ما ظهر من الخوارق على يديه منسوب إلى الجن ﴿ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ﴾ فأغرقناهم في البحر ﴿ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾ آت بما يلام عليه. ﴿ وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴾ وإنّما كانت عقيماً لأنها أهلكتهم وقطعت دابرهم ﴿ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ ﴾ مرت عليه ﴿ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴾ كالرماد، من: الرم، وهو البلى والتفتت. ﴿ وَفِى ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ وفي آية أخرى: ﴿ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ﴾[هود: ٦٥]، فهذا هو الحين هنا، ﴿ فَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ ﴾ فاستكبروا عن امتثاله ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ ﴾ أي: العذاب بعد الثلاث ﴿ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴾ إليها فإنها جاءتهم معاينة بالنهار ﴿ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مِن قِيَامٍ ﴾ وهو قوله في آية أخرى: ﴿ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾[هود: ٦٧]، ﴿ وَمَا كَانُوا۟ مُنتَصِرِينَ ﴾ ممتنعين منه. ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ ﴾ أي: وأهلكنا قوم نوح ﴿ مِّن قَبْلُ ﴾ من قبل هؤلاء المذكورين ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴾ خارجين عن الاستقامة بالكفر والعصيان. ثم رجع إلى ذكر آيات الآفاق المذكورة من الأرض والسماء سابقاً فقال: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيدٍ ﴾ بقوة، والأيد: القوة ﴿ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ أي: لموسعون ما بين السماء والأرض، أو: وإنا لقادرون، من: الوسع، وهو الطاقة، والموسع: القوي على الإنفاق ﴿ وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا ﴾ بسطناها ومهدناها ﴿ فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ﴾ نحن. ﴿ وَمِن كُلِّ شَىْءٍ ﴾ من الحيوان والنبات ﴿ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ ﴾ ذكر وأنثى ﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ فعلنا ذلك كله من بناء السماء وفرش الأرض وخلق الأزواج لتتذكروا فتعرفوا الخالق وتعبدوه. انتهى التفسير اللفظي للقسم الثاني من السورة.

القسم الثالث من السورة: في تسلية النبي صلى الله عليه وسلم وفي الفرار إلى الله من هذه الدنيا المزدوجة المقاصد، المحفوفة بالمخاطر

قال تعالى: ﴿ فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ من الشرك، ومن طاعة الشيطان، ومن كل ما سواه ﴿ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝ وَلَا تَجْعَلُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ مبين ما يجب أن يحذر منه ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ أي: كما كذبك قومك، وقالوا: ساحر أو مجنون، كذلك ﴿ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم ﴾ أي: من قبل كفار مكة في الأمم الخالية ﴿ مِّن رَّسُولٍ ﴾ يدعوهم إلى الإيمان والطاعة ﴿ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴾. قال الله تعالى: ﴿ أَتَوَاصَوْا۟ بِهِۦ ﴾ أي: كأن الأولين والآخرين منهم أوصى بعضهم بعضاً بهذا القول حتى قالوا جميعاً: ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾ جمعهم على هذا القول طغيانهم ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ﴾ أي: أعرض عنهم ﴿ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴾ أي: لا لوم عليك فقد أديت الرسالة وما قصرت، فلما نزلت هذه الآية حزن النبي صلى الله عليه وسلم وظن أن الوحي انقطع وأن العذاب نازل، فنزل: ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾، فلما نزلت هذه الآية طابت نفوسهم، والمعنى: عظ بالقرآن، فإن الذكرى تنفع من علم الله من استعداده أنه يؤمن منهم ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا

لِيَعْبُدُونِ ﴾ إلا أن آمرهم وأكلفهم، أي: ما خلقت الجن والإنس إلا أمرتهم أن يوحدوني ويعبدوني، وهذا تفسير سيدنا علي كرم الله وجهه، وقراءة ابن عباس: «وما خلقت الجن والإنس من المؤمنين إلا ليعبدون»، ويصح أن يراد الجميع من حيث إنهم مستعدون بفطرهم للتوحيد، وإنّما منعهم عن ذلك الاستعداد ما حصل من الأبوين، فإنهم يهودان المولود وينصرانه ويمجسانه، فالمقصود على هذا الرأي أنهم خلقوا على الفطرة فلا ينفي أن العوارض أزاحتهم عن فطرهم، أي: إلا ليكونوا مستعدين بفطرهم، وجعل ذلك غاية للمبالغة في ذلك ﴿ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴾ ما أريد أن أصرفكم في تحصيل رزقي، فاشتغلوا فيما أنتم كالمخلوقين له والمأمورين به، فلست معكم كالسيد مع عبيده من الآدميين يعملون ليطعمون، إن الأمر هنا بالعكس فإني أنا أرزقكم ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ﴾ الذي يرزق عباده لا أنهم هم يسعون لرزقه ﴿ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾ شديد القوة، وإذا كان شديد القوة فإنه قادر أن يعذب الذين ظلموا ﴿ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذَنُوبًا ﴾ أي: فإن للذين ظلموك من أهل مكة نصيباً من العذاب ﴿ مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ ﴾ مثل نصيب نظائرهم من الأمم السالفة، وقد كان السقاة يقتسمون الماء بالدلاء، والذنوب هو الدلو على شرط الامتلاء بالماء. وقال الزجاج: الذنوب في اللغة: النصيب، ﴿ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴾ بقولهم: ﴿ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾[يونس: ٤٨]، ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴾ من يوم القيامة، أو يوم بدر وأمثاله في الدنيا. انتهى التفسير اللفظي للقسم الثالث من السورة، والحمد لله رب العالمين.

لطائف هذه السورة:

اللطيفة الأولى في قوله تعالى: ﴿ وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا ۝١ فَٱلْحَٰمِلَٰتِ وِقْرًا ۝٢ فَٱلْجَٰرِيَٰتِ يُسْرًا ۝٣ فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا ۝٤ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ۝٥ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ ۝٦ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ ۝٧ ﴾.

اللطيفة الثانية في قوله: ﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۝٢٠ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝٢١ وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ۝٢٢ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ۝٢٣ ﴾.

اللطيفة الثالثة في قوله تعالى: ﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٥٠ ﴾.

اللطيفة الأولى والثانية

في هاتين اللطيفتين مبحثان:

المبحث الأول: علمي، والمبحث الثاني: أدبي

المبحث العلمي

لقد سبق لك في سورة «ق» و«الحجرات» أنهما قد جمعتا بين الأخلاق النفسية في «الحجرات» والعلوم الطبيعية والفلكية في سورة «ق»، وإن لفظ «ق» قد جيء به في وسط العلمين كالتذكرة لهما وقد بينا أن الأمم الإسلامية اليوم أحوج ما يكون إلى علوم الأنفس والآفاق، وأن ما في السورتين المذكورتين نموذج لهما، وأن رقيهم لا يكون إلا بها، وأن أوروبا المحيطة بنا من كل جانب نبغت فيهما،

وأن الله لم يذر وسيلة من وسائل الإرشاد للفتنا إلى ذلك إلا جعلها في هذا القرآن، لعلمه أننا بعد القرون الطويلة سننام على علم الفقه ونظن أنه كاف في إسعادنا في الدنيا والآخرة. كل هذا قد تقدم في السورتين.

أفلا تنظر معي الآن كيف جعل هذه السورة كالمؤكدة لما تقدم فإنه ابتدأها بذكر الرياح التي تذرو التراب وغيره، وتحمل السحاب، وتجري بسهولة، وتفرق المطر على الأقطار، وبأن السماء ذات الحبائك وأنواع الوشي والزينة من كل نجم مشرق اللون باهر الجمال يزين السماء بزينة باهرة، وقرئ: «كالبرق والنعم والجبل والسلك والإبل والقفل» كل هذا بنحو ذلك المعنى، كأنه عز وجل يقول: هاأنا ذا يا عبادي قد أمرتكم أن تنظروا السماء، وتعتبروا في الأرض في سورة «ق» فماذا بعد توبيخكم على التقاعد عن النظر وحثكم بقولي: ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴾[ق:٦]، فماذا بعد ذلك إلا أن أجعل العجائب الأرضية، والطرق السماوية، وأنواع الزينة الكوكبية، قسماً أقسم به، وهل بعد إعظام هذه العجائب مقال لقائل؟ وهل بعد أن يحلف بها خالقكم من محيص عن النظر فيها والتفكر؟.

أقول: يا عجباً لأمة الإسلام، يظنون أن ما يخاطب به الكافر قد نجوا منه، ويظنون أن الإيمان الموروث عن الآباء كاف، وأن توبيخ الكافرين على التقصير في العلم لا يوجب توبيخ المسلمين فيه، وكأن المسلم يفهم أن الجهل مغتفر منه حتى نطق بالشهادتين، فقد قال الله تعالى في حق الكافرين: ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا ﴾[الأحقاف: ٢٠]. ولقد تقدم في حديث عبد الله بن زياد مع عمر أنه رضي الله عنه خاف من هذه الآية وقال: لو شئت لملأت هذه الرحاب سبائك ورقاقاً وصناباً، ولكني رأيت الله نعى على قوم فقال: ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا ﴾ [الأحقاف: ٢٠]. فهاهو ذا عمر خاف من هذه الآية مع أنها عملية وقد قيلت في حق الكفار، فما بالك بهذه الآيات التي في هذه السورة المؤكدة لما قبلها، قد ذكر الله العجائب الأرضية والعجائب السماوية على طريق القسم وأعاد ذكرهما فقال: ﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴾[الذاريات: ٢٠] إلى آخر السورة، ثم ثلث ذكرهما فقال: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾[الذاريات: ٤٧] الخ.

هاهو ذا الله يذكر السماوات والأرض ثلاث مرات متفرقات في هذه السورة عناية بنا ولفت نظر، وذكر النفس كما ذكر أخلاقها وتطهيرها في سورة «الحجرات» من أدناس الغيبة والسخرية وما أشبه ذلك. وفي النفس آيات ثلاث أصليات لها فروع كثيرات، إن النفس تعقل وتغضب وتشتهي، فالشهوة بها حياة الأجسام، والغضب به حفظ النظام، وبالعقل التدبير والعلم والأحكام، وكأنما النفس نهر له ثلاثة جداول أو قبيلة لها ثلاث بطون، أو شجرة لها ثلاثة فروع، أو رجل، فهو من جهة حداد، ومن جهة نجار، ومن جهة كاتب، فله أسماء باعتبار صفاته كما نرى التفاحة حمراء ذات رائحة طيبة حلوة، فهذه ثلاث صفات لشيء واحد، فالنفس واحدة ولها الحواس الخمس تجلب لها أنواع الألوان والأشكال وأمثالها بالعين، وأنواع الأصوات بالأذن، وأنواع المشمومات بالأنف، وأنواع الطعوم من حلو وحامض، ومر ومز، وحار وملح وما أشبه ذلك بالذوق، وأنواع الملموسات من ثقل

وخفة وحرارة وبرودة ورطوبة ويبوسة وما أشبه ذلك بحاسة اللمس، فهذه المعلومات التي عدها علماء المقولات ستاً وثلاثين نوعاً تستخرج من المحسوسات وتجتمع عند الحس المشترك، وهناك تحفظ في القوة المخيلة كما يجفف الناس الطين بالحرارة فتقلب اللبن وتجعله آجراً، فكما أن الناس يوقدون على اللبن فيصير آجراً هكذا في نفوسنا قوة تحفظ صور المحسوسات وتخزنها بها يقال لها المخيلة، فالحس المشترك يأخذ الصور من الحواس ويسلمها لتلك القوة، فيتصرف فيها في اليقظة وفي المنام وفي حال السكر والجنون، فتفعل أفعالاً غريبة في الصور وتبرزها بأحوال مختلفات وتراكيب عجيبة يعرفها جميع الناس في أنفسهم وعلماء البلاغة والشعراء ومؤلفو الروايات، ثم إن الناس كما يتخذون الآجر في البناء هكذا النفس لها قوة تقوم مقام البناء تسمى المفكرة، وهي تتصرف في المعاني المأخوذة من الصور تصرف البناء في البناء بالإجادة ويضدها. ثم إن هناك قوة تدرك المعاني الجزئية تسمى الواهمة، وهناك قوة أخرى تحفظ تلك المعاني تسمى الحافظة، فعندنا صور أتت بها الحواس، والحس المشترك قبلها، والمخيلة خزنتها وتصرفت فيها، والمفكرة استخلصت المعاني وخزنتها في العوالم العلوية الروحية، والمعاني الجزئية تدركها الواهمة كعداوة الذئب للشاة، وخزانتها تسمى الحافظة.

هذه هي القوى التي في نفوسنا، وقد أبدع علماء العصر الحاضر في أمر النفس وجعلوا أن الدماغ مقسم أقساماً كل قسم له جزء مخصوص من العلوم، بحيث يكون الدماغ أشبه بمناطق الأرض لكل منطقة مزارع خاصة بها. فكما لا ينبت النخل في البلاد الباردة، ولا البندق في البلاد الحارة، هكذا لا تكون العلوم الرياضية في مواضع العلوم الطبيعية في الدماغ، ولا تكون مخازن العلوم في الدماغ مستعدة لقبول علوم اللغات. هذا جزء يسير من عجائب النفس التي ذكرها الله إذ قال: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِي أَنفُسِكُمْ﴾[الذاريات: ٢٠-٢١] أي: آيات، فهذه بعض آيات الأنفس.

والمتأمل لهذه الآيات يجد فيها عجباً عجاباً! يقول الله: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ﴿٧﴾ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ ﴿٨﴾ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾[الذاريات: ٧-٩] كأنه يقول: أي عبادي، هاأنا ذا زينت السماء بالنجوم وبطرقها، وجعلتها حبائك ترونها مزينة لها وأنتم ترون زينتها وحبكها، وكلما كانت الزينة أكثر عدداً وأبدع نظاماً كان السرور بها أكثر، وكانت الحكمة فيها أعظم، وقد قلت لكم: إن في هذه السماء ذات الزينة رزقكم وما توعدون، فلم لا توجهون نظركم إليها ولا تعولوا في بحثكم عليها وعلى الأرض وآفاقها، وكيف تكون أنواع الزينة والأنوار في السماء التي هي قبلة الأنظار، وأنتم تستمدون منها جميع ما تعيشون به، ثم تكون سيركم مخالفة لنظامها، فإن طرقكم ظلمانية، وأعمالكم شيطانية، أفلا تنظرون السماء مشرقة وأنتم مظلمون، طرقها هداية وطرقكم ذات ضلال، أحاطت بكم السماء المزينة المرصعة التي فيها رزقكم وفيها الجنة، فوعزتي وجلالي لا تسكنون هناك إلا إذا كانت أعمالكم مشاكلة لزينة السماء، فكيف تكون السماء ذات حبك وأعمالكم ذات ظلمات، فهل يستوي الأعمى والبصير، ألم أقل في القرآن: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ﴾[الأعراف: ٤٠]، فأبواب السماء والجنة محال مشرقة بهجة لا يدخلها إلا من تربوا تربية تناسب ذلك الجمال، فكيف تكون السماء ذات حبك وزينة وجمال

ونظام، وأعمالكم ذات ظلمات واختلاف واختلال، وعزتي وجلالي لأحرمن السماء والجنة على كل من لا يكونون على نسق ذلك الجمال. وقد تقدم في سورة «آل عمران» إيضاح الكلام في أن الجنة في السماء، المناسب لقوله تعالى هنا: ﴿ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾[الذاريات: ٢٢].

يا عجباً! كيف أصبح المسلمون أبعد عن عالم الجمال، وقد تولوا عن النظر في السماوات والأرض، اللهم إني أشهدك وأشهد العالم الإسلامي أن أحوال المسلمين اليوم ذات نقص محزنة، وكيف لا تكون نقصاً ونحن الآن نجعل كل همنا نقل أقوال الأئمة رضوان الله عليهم، ونكثر نقل الخلاف في علم واحد وأصوله وهو الفقه، وقد أعرضنا عن الذاريات ذرواً الخ، وعن السماء ذات الحبك، وشغلنا أنفسنا بطرق وعلوم تغشي على عقولنا، فلا ننظر الطرق السماوية، والعلوم الحكمية، والبهجة الربانية، إن للمسلمين طرفاً من هذه الآية، إن بعضهم عن السماء محجوبون، محجوبون بالتقاليد وبدراسة علم الفقه، ويقول الشيوخ بأنها تكفي للارتقاء يوم القيامة كأنهم ما قرؤوا: ﴿ وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا ﴾[الذاريات: ١]، ولا قرؤوا: ﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ ﴾[الذاريات: ٧]، ولا قرؤوا: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ ﴾[الذاريات: ٤٧].

فلينظر المسلمون في العلوم، وليعلموا أن أوان ما أقوله قد أقبل، وتدهور الإسلام قد أدبر، وسيظهر في الإسلام جيل يكون نبراس الأمم في العلم والحكمة، ولله هو الولي الحمد. انتهى المبحث العلمي في هاتين اللطيفتين.

وإن أردت سر قوله تعالى: ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ ﴾[الذاريات: ٤٩] فانظره في أوائل سورة «الأنعام» و«الشعراء»، وهكذا تنظر عجائب النبات في سور كثيرة أقربها سورة «ق».

المبحث الأدبي

هاهنا أخذ الله يقسم بعجائب المخلوقات ويقول: ﴿ وَٱلطُّورِ ۝ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ﴾[الطور: ١-٢] الخ، و﴿ وَٱلنَّجْمِ ﴾[النجم: ١]، وقوله: ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴾[الواقعة: ٧٥] في سورة «الواقعة» وهكذا، كل هذه ذكرها الله تعالى إعظاماً لأمر الأنفس والآفاق، وتذكيراً للمسلمين أن يتعلموها، ثم إن العرب لم تكن تعرف القسم بهذا الأسلوب، وسنوازن في هذا المقال بين أسلوب العرب وأسلوب القرآن نقلاً من كتابي «مذكرات آداب اللغة العربية» الذي ألفته لتلاميذ المدرسة الخديوية، فهناك ما جاء فيه تحت العنوان الآتي، وهذا نصه:

أقسام العرب وأقسام القرآن

جرت عادة العرب أن يقسموا بلفظ «أقسم» كقوله:

فأقسم أن لو التقينا وأنتم ... لكان لكم يوم من الشر مظلم

وبلفظ «يمين» كقوله:

فقلت يمين الله أبرح قاعداً ... ولو قطعوا رأسي لديك وأوصالي

وبلفظ «العمر» كقوله:

لعمرك ما أدري وإني لأوجل ... على أينا تعدو المنية أول

ويلفظ «يميناً»، قال زهير:

يميناً لنعم السيدان وجدتما على كل حال من سحيل ومبرم

ومن عجب ما نرى من أقسام القرآن، فنراه يقسم بما لم يقله عربي قط، قال: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ ۝١٦ وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ۝١٧ وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ۝١٨ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾[الانشقاق: ١٦-١٩] يقول: أحلف بما ترون من ذلك النور المتوسط فلا هو غاية في الإضاءة، ولا هو حالك الظلام، أرسلته الشمس بعد مغيبها، وعكسته على السحب العاكفة في جهات المغارب المسماة بالشفق، وبالليل وما جمع من كل مخلوق نائم ومتحرك وساكن، وبالقمر إذا تم ضوؤه وتكامل نوره، وبالجملة يقول: أقسم بأحوال الليل من أنواع الأنوار المختلفة، وما أجن الليل من مخلوق في الأرض. إنكم معشر الإنس ستنقلون من حال إلى حال من هذه الحياة بالرقي في المدنية. أو أن تخلف دولة دولة، وبالانتقال من الحياة إلى البرزخ إلى جنة أو إلى نار كما يقول الليل بألوانه الثلاثة على الأجسام، وكأن القسم جاء تمهيداً للقضية المقسم بها وتشبيهاً لها وتنظيراً، أو كشبه العلة لشبه المعلول، فحركات الأفلاك تحدث الأنوار والظلمات وتحيط بالمخلوقات، ومنها الإنسان الذي قضي عليه بالتنقل في الدنيا من حال إلى حال تبعاً لحركات الأجرام السماوية بتقدير العزيز العليم الذي دبر الخريف، والربيع، والشتاء، والصيف، والدهور والعصور، فاختلفت الدول والممالك باختلاف الأحوال العلوية، والحركات الفلكية. ثم يأتي بعد ذلك يوم الدين، وحشر العالمين، فإما في جنة وإما في جحيم.

وقال: أقسم بالليل إذ يغطي كل شيء، وبالنهار إذا ظهر، وبخلق الله الذكر والأنثى من إنسان وحيوان ونبات بالتزاوج والإلقاح. إن أعمالكم مختلفات، فأما من جاد بالمال واتقى عذاب ربه وصدق بالحسنى فله اليسر يوم القيامة، وأما من بخل بالمال وأعرض عن الله وكذب بالدين فسيكون في عسر.

أقسم باختلاف الليل والنهار والذكور والإناث، وجعله كالدليل على اختلاف مساعينا في حياتنا وثمراتها بعد موتنا، قال: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ۝٣ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ۝٤ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾[الليل: ١-١٠]، وقال: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ۝٣٨ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ۝٣٩ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾[الحاقة: ٣٨-٤٠]، ﴿ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ﴾[التكوير: ٢٠] في هذا أقسام بكل ما ذرأ الله مما يحس بالحواس من الجواهر والعناصر والمعادن والنبات والحيوان والأفلاك والأنوار، وكل ما لا يبصر من القوى والعقول والنفوس والأرواح وما فوق ذلك من ملائكته.

والمقسم به أن القرآن كلام نزل به رسول كريم على قلب سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، والرسول هو جبريل عليه السلام، يقول في القسم: إن المخلوقات قسمان: محسوسات، ومعقولات، وجبريل من آخر القسمين أفلا تؤمنون، وليس من قول شاعر ولا كاهن مما ترون، ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ۝٤١ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٤٢ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[الحاقة: ٤١-٤٣].

وقال: ﴿ وَٱلْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ۝٣ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ۝٤ هَلْ فِى ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ ﴾[الفجر: ١-٥]، أقسم بالفجر، وبالليالي العشر، الأولى من الشهور العربية لازدواج ظلامها بضيائها، كما أن الفجر نوره مزدوج بظلامه، وأقسم بالأعداد كلها أزواجها وأفرادها وما حوت من أسرار الأرثماطيقي، والخواص المدهشة العجيبة، بالليل إذا يسر مقبلاً ودبراً، إن هذا القسم عجيب لم يسمعه العرب. ثم قال: ﴿ هَلْ فِى ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ ﴾[الفجر: ٥]، ثم أتبعه بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴾[الفجر: ٦-٧] الخ، كأن المقسم به محذوف تقديره: إن الكفرين لا محالة هالكون، لأننا أبنا لهم فجر الحكمة، ومبادئ العلم كأنها أوائل الشهر، فإن هلال الحكمة يبتدئ ضئيلاً، ثم يتسق ويمتلئ، وحسبنا أعمالهم شفعاً ووتراً، ولم يؤمنوا، فسنعذبهم مرتين: في الدنيا بالخزي، وفي الآخرة بالنار كما فعلنا بعاد وثمود وفرعون: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ۝٨ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ۝٩ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ۝١٠ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ۝١١ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ۝١٢ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝١٣ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴾[الفجر: ٦-١٤].

إنذار من الله للأمم التي أضاء لها نور العلم فأشرقت على وجوههم الحكمة، إن هم لم يقتبسوها ولم ينتفعوا بها أهلكهم كما أهلك الأمم البائدة، كما حصل لأهل أمريكا الحمر الأصليين، وكما فعل بمسلمي الأندلس إذ أراهم اتحاد الأسبان، والاتحاد نور من الله فلم يتحدوا ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴾[الفجر: ١٣]، وهكذا كل أمة ودولة أنذرها علماؤها، وعلمها حكماؤها، فتجاهلت الأنذار، وتغاضت عن الحكمة، ساء مصيرها وقطع دابرهم، كدولة الرومان إذ عصوا حكماءهم في أواخر عهدهم، وإدبار سعدهم، فأخذتهم صاعقة العذاب الهون، وتكأكأت عليهم الأمور المتوحشة، فورثوا أرضهم وديارهم، وأموالهم، وعلومهم وقوانينهم، إن في الفجر وليالي الشهر الأولى أضواء ضئيلة ستؤول للكمال بإشراق الشمس وبتمام البدر، فمن عطل إتمام نور فجر الحرية، والحكمة، وهلال العلم، والمعرفة، باء بظلام حالك، وأضحى من الهالكين، وهذا بطريق الإشارة والمفهوم بشارة إلى الأمم التي ظهرت فيها مبادئ الحكمة وأوائل الحرية أنها ستنال قسطها من الحكمة، وحظها من الحرية، إذا هي سعت لإتمام الأنوار، ولم تقف في سبيل العلم، كما يصير الفجر نهاراً، والهلال بدراً كاملاً. انتهى ما أردته من كتابي «مذكرات آداب اللغة العربية».

اللطيفة الثالثة: في قوله تعالى:

﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ۝٦٠ ﴾

آخر هذه السورة مناسب لأولها، وأولها مناسب لآخر السورة قبلها، وآخر هذه السورة يناسب أول سورة «الطور» الآتية بعد هذه، لأنه أقسم أن عذاب ربك واقع، وهو مذكور هنا في قوله: ﴿ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴾[الذاريات: ٥٩]. اهـ.

اللطائف العامة في هذه السورة:

اللطيفة الأولى: في قوله تعالى: ﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۝٢٠ ﴾.

اللطيفة الثانية : في قوله تعالى : ﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ وما بعدها من الآيات .

وهاتان اللطيفتان في الآيات التي أولها : ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ .

اللطيفة الثالثة : في قوله تعالى : ﴿ وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ .

اللطيفة الأولى: في قوله تعالى:

﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾

هذه آيات ثلاث متلاصقات ، متتابعات ، متصلات ، معطوفات ، وآخرها ذكر فيها الرزق ، هاهنا علاقة بين عجائب الأرض وطبائع نفوسنا ورزقنا الذي مصدره السماء في هذه الدنيا ، والجنة التي وعدنا بها وهي في السماء ، أيضاً نبات الأرض وحيوانها وجمادها ونفوسنا وأضواء الكواكب والشمس وأرزاقنا ثم الجنة التي وعدنا بها ، كل هذه بينها اتصال .

محاورات بيني وبين صديقي العالم الذي اعتاد محادثتي في هذا التفسير

العلاقة بين هذه العوالم معقولة ، ولكن ما لرزقنا والجنة؟ فقلت : سأوضح هذا المقام هنا حق الإيضاح بعد ما أوضحته في مواضع كثيرة بطرق مختلفة . إن للأغذية المستخرجة من الأرض تأثيراً على نفوسنا في أخلاقنا وعاداتنا وأحوالنا وصحتنا ومرضنا ، ثم إن أحوال نفوسنا وأخلاقها يتبعها نتيجتها وهو ارتقاء النفوس وصفاؤها فتكون الجنة في الآخرة ، أو انخفاضها وانحطاطها وسوء فعلها فتكون جهنم ، فإن زعم الناس أن علم الأخلاق يكفي وحده لتهذيب النفوس ، أو العلوم الدينية ؛ فقد جهلوا جهلاً بيناً ، فالصحة من أهم عوامل السعادة في الدنيا والآخرة ، وهناك يمكن التحلي بمكارم الأخلاق بواسطة الدين ، أو بواسطة التهذيب والتربية والنصائح الدينية ونحو ذلك ، وأيضاً العلوم والمعارف التي تورث اليقين المذكور في هذه الآية لن تكون إلا لصحيح الجسم ، فإذا انحرف الجسم انحرف العقل فلا علم ولا يقين ، ﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴾ [الذاريات : ٢٠] ، لا يتم للإنسان ذلك إلا بالصحة ، والصحة تتوقف على جودة الغذاء ، أي موافقته للبنية ، والنبات متوقف على الأضواء ، والأضواء آتية من السماء كما أن نفوسنا كذلك ، هذه هي المناسبات .

فقال : الآن أرجو أن تذكر لي كلاماً عاماً في هذه الأنفس الإنسانية ينحو نحو الصحة والمرض ، فإن ازدواج هذه الآيات وتتابعها يدعو إلى ذلك . فقلت : لقد تم الكلام على ذلك في سورة « الفتح » ، فإني ذكرت نظام الجسم الإنساني هناك من حيث إنه أشبه بمدينة حصينة والأعداء يحيطون بها من كل جانب ، لمناسبة قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ ﴾ [الفتح : ٤] ، فهاأنا ذا ألخصه هنا لك ، ثم أتبعه بما يناسب المقام هنا من حيث علاقة أجسامنا بما حولنا من عوالم الأرض والسماء ، وقصرت الكلام على أجسامنا لأنه المناسب لهذا المقام ، ولم أرد الخوض في علم النفس . فهاهنا فصلان :

الفصل الأول : في ملخص ما تقدم في سورة « الفتح » عند آية : ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[الآية : ٤] .

الفصل الثاني : في علاقة أجسامنا بعوالم السماوات والأرض ، وما يتبع ذلك من طول العمر وقصره ، والصحة والمرض ، ليكون المسلمون بعدنا أصح أجساماً ، وأصفى عقولاً ، وأجمل نفوساً ، وأرقى اجتماعاً ، وأصح مدنية ، لأنهم سيفهمون ما نكتبه ، وسيعملون به ، ويرونه من أسرار القرآن المخبوءة التي ظهرت في زماننا ، ويعلمون أن الله هو الذي علمهم ذلك بواسطة عباده في الشرق والغرب وأن هذا التعليم مصداق لقوله تعالى : ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾[فصلت : ٥٣] ولقوله : ﴿سَأُو۟رِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾[الأنبياء : ٣٧] ، وإنما قال : ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ لأن لكل عمل وقتاً يكون فيه ، والأمم قبلنا لم تكن مستعدة لهذه العلوم ، فأما في زماننا فالأمم مستعدة للفهم ومنها أمة الإسلام ، فأما كاتب هذه الأسطر الآن فأحس في نفسي مسرة ، لأنه وقر فيها أن هذا كائن لا محالة وحاصل في زماننا هذا أثناء قراءة هذا الكتاب ، وبعد انتقالي من هذه الدار ، وأنا مغتبط منشرح الصدر بما أعلم من سعادة أممنا الإسلامية وصحة أبدانها ، وعزتها القومية ، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم .

الفصل الأول:في ملخص ما تقدم في سورة«الفتح»
المناسب لآية:﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾

ذلك أن الجسم الإنساني إن هو إلا مدينة محصنة منيعة الجوانب ، وفي داخلها أمم وأمم ، وهل حصنها إلا الجلد ، وحول هذا الحصن آلاف آلاف من الأعداء التي تتربص دخول هذه المدينة العظيمة وليس لهؤلاء من مقصد إلا أن يعشن من الأقوات المدخرة فيه التي خزنها الإنسان في أنحاء جسمه ، فهي دائماً تحاول دخوله ، ولكن الجلد يمنعها ويصدها ، وهل هؤلاء الأعداء اللاتي تعد بالملايين إلا الميكروبات ، ولا تجد لها طريقاً إلا من الفم فتدخل مع الطعام والشراب ، فإذا وصلت إلى المعدة وجدت هناك حصناً منيعاً وقوة دافعة وهي السوائل المطهرة القاتلة لتلك الميكروبات ، فإذا كانت المعدة سريعة هضم الطعام بحيث ينزلق بسهولة إلى الأمعاء ؛ هنالك لا تموت تلك الميكروبات ، ولكنها تموت في نفس الأمعاء ، لأن الأمعاء خالية من الأكسوجين ، والأكسوجين ضروري لحياة تلك الميكروبات المهلكة ، فتموت ويساعد على موتها ما أنعم الله به على الإنسان في الأمعاء من الميكروبات الصالحة النافعة التي تعيش هناك عيشة هادئة نافعة ، فإنها تساعد على هضم الطعام .

الله أكبر ، هاهنا حصن الجلد وحصن عصير المعدة ، والحصن الأخير هو حصن الأمعاء ، هذا إذا دخلت الأعداء من باب المدينة وهو الفم ولم تتعد ما ذكرناه ، ولكن الضر كل الضر والأذى كل الأذى أن يدخل الأعداء من نفس السور وهو الجلد أو يتكاثرون على أي وجه كان ، فهنالك تعم البلوى ويعظم الخطب ، ولكن العناية الإلهية قد أعدت لحياة الإنسان كل وقاية ونعمة ، وذلك أن أولئك الأعداء متى تكاثروا في الداخل أسرعت الجنود ــ وهي الكرات البيضاء ــ فأخذت تصطف صفوفاً وراءها صفوف حتى تبني حول أولئك الأعداء حصناً منيعاً ، وهناك تكون المجزرة ويحمى وطيس

الحرب، ويشتد الكرب، ويعظم الخطب، وتشمر الحرب عن ساقها، وتجندل الأبطال في ساحات الوغى، وكل يقول: يا رب سلم سلم، حتى إذا وقعت الواقعة، وسقط من الجنود في ساحات القتال ألوف وألوف ومن الميكروبات كذلك، وأخذت الجنود المدافعة تذيب تلك الخلايا التي هجمت عليها الأعداء، فهنالك يكون الدمل أو الخراج أو نحوهما.

سبحانك يا رب، ما أبدع صنعك، كنا نحسب الدماميل ونحوها أمراضاً مؤلمة، وما هي بأمراض، إن هي إلا أودية هي ساحات القتال التي اشتعلت فيها الحرب بين جنود وجنود.

الله أكبر، حاصرت جنودنا الداخلة في أجسامنا جنود الأعداء الداخلة فيها، لتقصيرنا وجهلنا ولرداءة أغذيتنا، ولإسرافنا في طعامنا وشرابنا، فإذا حاصرت جيوشنا المحاربة جيوش الأعداء ارتفعت الحرارة لكثرة القتلى من الجانبين فيكون الدمل. الله أكبر، الدمل ساحة للحرب وقلعة للقتال، والقتال لبقاء حياتنا.

الله أكبر، صدق الله: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾[الطارق: ٤]، ﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾[سبأ: ٢١]، ﴿قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ﴾[عبس: ١٧].

إن جهلنا بالأغذية وبالنظافة وبالرياضة هو الذي ساق لنا هذه الجيوش الجرارة التي تتغلب عليها جيوشنا وهي الكرات البيضاء، فتجعلها في داخل هذه القلعة الحصينة ثم تهلكها ويكون ما تقدم من القيح، وهذا القيح يخرج من الجلد الذي ترققه جنود الجسم بأكلها إياه ليفتح، فتخرج رمم الأموات وهو الصديد. وبعبارة أخرى: تقذف رميم الأعداء خارج الجسم، ولكن المسألة إذا وقفت عند الأورام والبثور والدماميل كان ذلك خيراً، وإنما الأمر فوق ذلك، فإن هذه الجيوش قد تتغلغل في الجسم وتدخل فيه أفواجاً وهم من كل حدب ينسلون، ولكن العناية الإلهية قد أعدت لهذا الحادث عدته، فأمدت الجسم بالغدد اللمفاوية التي تقدم شرحها في هذا التفسير ورسمها بالتصوير الشمسي، وهذه القلعة الثالثة بعد الجلد وبعد قلاع الدماميل ونحوها، ومعلوم مما تقدم في التفسير أيضاً أن الغدد اللمفاوية تربى فيها مخلوقات حية تتوارد بكثرة وتتجه إلى محل الحوادث الناشئة من تكاثر العدو الخارجي.

اللهم إنك أنت الحكيم وأنت المعلم، هل كان يدور بخلد أحد في الأرض قبل الآن أن الإنسان إذا جرح في أصبعه ودخل من ذلك الجرح ميكروبات لا عدد لها، وهنالك نرى ورماً تحت الإبط.

أقول: هل كان يدور بخلد أحد أن ذلك الورم الذي تحت الإبط إن هو إلا ثكنات لجنود الدفاع ورباط عسكري ومقام تقوم فيه الجيوش لتسرع إلى محل الجرح لتحارب الجيوش الجرارة المنظمة.

سبحانك اللهم وبحمدك، جلّ وجهك، وعزّ جاهك، ولا إله إلا أنت، ولقد قلنا في بعض أجزاء هذا التفسير إن «اللمفا» يساعد على نموها أكل الزيت، فالزيت إذاً غذاء الجنود المخلوقين في «اللمفا»، والجنود تطرد الميكروب، ولها ثكنات تخلق عند الحاجة نسميها ورماً، وأخرى نسميها خراجاً أو دملاً، وتارة يشتد المرض، ويعظم الخطب، فتحصل الحمى.

اللهم أنت الحكيم أحكمت صنعك، فما هي الحمى؟ هي من هذا القبيل، هي نافعة، هي مصلحة، هي نعمة، فإن الجسم إذا لم يكن متزناً في نفسه فإن الاستحمام بالماء الدافئ مع التدليك

يصلحه، وكذلك المعالجة بالكهرباء، أو بالهواء الساخن، أو بالبخار الساخن، أو بالحرارة المشعة، كل ذلك علاج له يرجع له التوازن، لأن ذلك كله يرفع درجة حرارته درجة من الدرجات المئوية، أو أكثر من درجة، فيحترق الدم، وهذا الاحتراق يوجب ذلك الاتزان، فإذا قصر الإنسان في ذلك أو جهله فلم يصنعه فإن الحمى هي التي تفعل ذلك، فإن ارتفاع الحرارة بها يوجب احتراق الدم الذي يكون به ذلك الاتزان، فاحتراق الدم في الحمى وغيرها يكون بتلك المواد المخزونة في الجسم والأخلاط المتراكمة، إن الاستحمام بالشمس ومباشرتها للجسم يفعل ذلك فيجب المبادرة إلى ذلك والإكثار منه، ومثل ذلك كثرة التمرينات العضلية، أو المشي، أو كلاهما.

فقال صاحبي: عجيب والله! إذن الحمى والدماميل والأورام والقروح ليست أمراضاً؟ قلت: كلا. فقال: هاهنا ظهر الحق، أنا أريد أن أقول لك الحق، أنا كنت فيما مضى أسمعك تقول: إن المصائب إن هي إلا نعم، واقرأ كثيراً مما تقدم، ومع ذلك كنت غير موقن بها، نعم عندي تصديق ولكن البراهين في هذا المقال واضحة، إن العلم اليوم وضح وظهر، إنه اليوم يقين. يقول الله: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾[القمر: ٤٩]، ويقول المسلم في صيغة إسلامه ما نصه أمام رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يعاهده على الإسلام: «وأن تؤمن بالقدر خيره وشره من الله».

هذه الجملة يقولها المسلمون كلهم وهي في القرآن، يقول الله: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾[النساء: ٧٨] وإذا كان الأمر كذلك فالله من عنده الخير والشر، واللغة العربية لا تقول: إن الحمد يكون على الشر، بل يقولون: إن الحمد هو الوصف بالجميل على الجميل الاختياري على جهة التعظيم، إذن الشرور لا حمد عليها لأنها ليست جميلاً، بل هي قبيحة، والنبوة تحثنا على الحمد على الخير والشر، والله يقول: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾[الأنبياء: ٣٥] ويقول المسلم في صلاته: «فلك الحمد على ما قضيت» والقضاء جاء بالشر والخير، فأحد شقي القضاء لا يحمد عليه، وهذه عقدة العقد ولغز الوجود، فهاهنا أخذت هذه العقد تنحل، وألفينا الدمامل والخراج والأورام والحمى كلها منقذات لا مهلكات، وإذا كانت هذه من نوع الشرور فيما يظهر لنا وقد ظهر أنها خيرات فالحمد عليها حتم، إذن صدق الله وصدق رسوله فلك الحمد على ما قضيت، لأنك إذا قضيت بما يؤلمنا فقد جعلته لمسرتنا وسعادتنا، فهكذا موتنا وويلاتنا في الحياة الدنيا كلها نعم لا نقم، هنالك قلت له: الحمد لله الذي ألهمنا الحكمة وعلمنا الصواب.

وبهذا انتهى الفصل الأول في تلخيص ما تقدم في سورة «الفتح» مع زيادة عليه من نفس الكاتب السنوي الثاني للمجمع المصري للثقافة العلمية.

الفصل الثاني: في علاقة أجسامنا بعوالم السماوات والأرض وما يتبع ذلك من طول العمر وقصره، والصحة والمرض

ولأذكر لك ملخصاً مما ألقاه مواطننا الدكتور محمد شاهين باشا وكيل الداخلية للشؤون الصحية عند طبع هذا الكتاب في سنة ١٩٣١ في المجمع المصري للثقافة العلمية في سنته الثانية، وهذه من نعم الله عز وجل علينا في هذا الزمان الذي ظهرت فيه بعض الحقائق، وظهر لنا أن هذه النفوس

الإنسانية قد ظلمها الناس فذلت بسبب الجهل بمقدار ما تتناوله من أرزاق السماوات والأرض التي أنعم الله علينا بها، إن محاضرته ألقاها في ثمانية فصول:

(١) في التعمير وأسبابه.

(٢) وفي هضبة الحياة والعوامل التي تعمل فيها، والمراد بهضبة الحياة زمن الشباب وبعض ما بعده.

(٣) وفي منحدر الحياة، أي: في آخر الكهولة وزمن الشيخوخة.

(٤) وفي أسباب الشيخوخة والموت.

(٥) ومنذرات الموت.

(٦) ثم الغدد التناسلية.

(٧) وتجديد الشباب.

(٨) ووسائل التجديد وإطالة العمر الخ.

وهذه الفصول الثمانية ليست تهكمنا كلها لأننا في تفسير هذه الآيات، فليكن كلامنا حول محورها، لأن الفصول الأولى فيها مباحث خاصة في أمر الغذاء والشمس، وهذه هي آيات السماوات والأرض المحيطة بالجسم، فنستفيد فائدتين: الأولى: التفكر في هذه العجائب النافعة لأجسامنا. الثانية: نفس الانتفاع بها في حياتنا الدنيا، فيكون قوله تعالى: ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾[الذاريات: ٢١] راجع للعلم والعمل معاً، لأننا إذا بصرنا آيات الله بعقولنا فذلك لا يتم إلا إذا كانت أجسامنا سليمة معافاة، وهذان الأمران في هذا المقام.

أولاً: قد جاء في هذه الخطبة أن الأطباء في العالم الإنساني شرحوا جثث الشيوخ الذين ماتوا، فاتضح أن النادر منهم مات بسبب الشيخوخة، وجمهورهم هم الذين ماتوا بأمراض كانت هي السبب المباشر لموتهم، فعرفوا من ذلك أن النوع الإنساني جاهل بالغذاء جد جاهل، والحيوان أقرب منه إلى حفظ صحته بتعاطي ما ينفعه وترك ما يضره.

ثانياً: إن الجسم البشري يتم نموه في سن (١٨)، والسبب في ذلك أن الجهاز العصبي معقد كل التعقيد فيطول زمان نموه فيعوق الجسم حتى يبلغ (١٨) وهناك يتم النمو، هذا قوله: وقد تقدم أن نمو الإنسان لا يتم إلا في (٢٥) سنة، فهذان رأيان، وإنّما نقلت لك الرأي الثاني لأنه تقدم في هذا التفسير، فربما تظن أن هذا خطأ في النقل، ولكن لا خطأ هما رأيان، والرأي الذي يقول إنه (١٨) سنة لم أعرفه إلا في هذا المقام، يقول: ولولا تعقد الجهاز العصبي لكان الإنسان يتم نموه في ٤ سنين، ثم يموت في سن (٢٠). هذا قوله.

وأقول: وقد قرأنا في الجرائد قريباً أن صبياً بلغ (٤) سنين في تركيا فطلب أن يتزوج، فهذا هو الذي عاش بجهاز عصبي أشبه بجهاز البهائم فتم نموه في ٤ سنين.

ثم قال: إن الإنسان يجب أن يكون سن الكهولة له من (٧٠) إلى (٨٠) سنة، وهنالك تبتدئ الشيخوخة وتنتهي في سن (١٢٠). يقول: وهذه السن أي سن (١٢٠) لا يصل لها من الناس في زماننا إلا القليل، وأبان أن الناس في زماننا تبتدئ أجسامهم في الضعف من سن (٥٠)، وأخذ يذكر السبب في

ذلك فقال في صفحة ٥٠ وما بعدها من كتاب «المجمع المصري» للثقافة العلمية ما نصه: يتنازع الإنسان في سياحته الأرضية قوتان: القوة الحيوانية، والقوة النفسانية، وللقوة الأولى أكبر غلبة عليه في الشطر الأول من عمره. وهو شطر القوة والشباب وبدء دور الكهولة، ثم يأخذ في التغلب عليها تدريجياً كلما تقدم في السن حتى يفوز عليها عند بلوغه الستين من عمره، فإذا ما وصل الإنسان إلى هذا الدور، دور الرزانة والاتزان، وتغلب بما كسبه من صروف الدهر وتجاريه على ما كان يتنازعه من متزاحم الأماني والأحلام، نضج عقله وأخذ يتفرغ إلى الاشتغال بالأعمال الجدية بحسب ما وهب من ملكة واستعداد، ولكن المشاهد أن الإنسان عندما يبلغ الستين تفتر همته، وتخمد جذوة نشاطه، مع أن هذه السن هي سن النضج والإنتاج العقلي، وسبب ذلك الإفراط في مختلف الشهوات في الأدوار الأولى من الحياة، والإهمال في اتباع شتى القواعد الصحية، ولذلك قل من يحتفظ بشيء من قوة جسمه في سن الستين، والغالبية العظمى تعمل على هدم بنيانها، وتدفع بنفسها إلى الشيخوخة العاجلة، وتسعى إلى تقصير الأجل، وتقريب يوم الرحيل من هذه الدنيا التي يرى الإنسان على الدوام جد حريص على إطالة بقائه فيها بكل الوسائل الممكنة، فيختلف عن هذا التفريط الكثير من الأمراض التي يقع فريستها، ويمتنع عليه الشفاء منها، مع أنه بمجهود قليل يبذله الإنسان في سبيل الاحتفاظ بصحته والاحتفاظ بجسمه يحيا معافى سليماً، وهذا المجهود ليس شيئاً مذكوراً في جانب الجهود الكبيرة التي يضطر لبذلها في التماس الشفاء من هذه الأمراض، وهذه قد يشفى بعضها، وقد يستعصي البعض الآخر على العلاج، مع أن النجاة من هذه الأمراض لا يكلفه سوى العناية باتباع أوليات علم الصحة في معيشته. ولقد كان الإنسان منذ القدم شديد الحرص على الاستدفاء والاكتنان، واجتناب البرد والهواء، وفي سبيل حصوله على أوفر قسط من الدفء كان يغلق منافذ مسكنه، ويكثر من التدثر والغطاء هرباً مما رسخ في اعتقاده من مضار الهواء، وقد درج على ذلك أجيالاً عديدة، ولم يتمكن علماء الصحة من زحزحته عن هذا الظن الخاطئ إلا من عهد قريب، إذ نجحوا في إقناعه بمضار الاكتنان في المساكن المغلقة، وبفوائد المعيشة في الهواء الطلق الخالص من الفساد والأدران، كما يعيش الحيوان الذي ألهمته غريزته بأن الهواء من ضروريات الحياة. ويشتغل علماء الصحة الآن بمحاربة عادة ذميمة أخرى في الإنسان هي أشد ضرراً بصحته من الاحتباس في المساكن المغلقة، وهي عادة الإفراط في الغذاء، لأن الإنسان قد تعود ـ بحكم تغلب الحيوانية عليه ـ أن يرخي لنفسه العنان في التلذذ بما تصل إليه يده من شهي الأطعمة والمأكولات فيتناول منها دائماً أكثر من القدر الذي يستطيع جهاز الهضم أن يمثله ويستخلصه منها لتجديد قوى جسمه. مما يؤسف له أن جهل الإنسان بأصول التغذية الصحيحة فاش بين جميع الناس على اختلاف طبقاتهم، والإفراط في الغذاء هو منشأ كثير من أمراض الجهاز الهضمي التي تكون غالباً مستعصية الشفاء وتودي بحياة الإنسان قبل الأوان، وقد جاء في الأحاديث الشريفة: «المعدة بيت الداء، والحمية رأس الدواء».

ويبدأ في عصرنا هذا أن يدب الوهن إلى جسم الإنسان بعد بلوغه سن الثلاثين، ومتى وصل إلى سن الخمسين تبدأ حالة جسمه في التردد بين القوة والضعف، ويمكن الاستدلال بكل سهولة على

شذوذ حالته بما يشاهد من ضخامة بطنه ، وقد اعتاد الناس أن ينظروا إلى السمن بعد سن الأربعين كأنه أمر طبيعي ، ولا يهتم الواحد منهم بأن يزيد وزن جسمه في هذه السن خمسة كيلو جرامات أو سبعة ، وهو لا يعلم أن زيادة وزن الجسم في هذه السن من الأمور الضارة بـه ، وأن حصـول الجسم على هـذه الزيادة إنّما هو دليل على أن أجهزته قد كلفت ما هو فوق طاقتها وخصوصـاً الجهاز الهضمي ، لذلك فلا يستغرب إذا ضعفت هذه الأجهزة قبل الأوان ، ومع أن المادة الشحمية التي يزدردها الجسم فوق حاجته تختزن في الأنسجة التي تحت الجلد ، إلا أن الثابت أن بعضها يتسرب إلى بعض الأعضاء الرئيسية والأعضاء المجاورة لها فيزداد وزنها ، وبعد ذلك تقل صلاحيتها لتأدية وظائفها . ويمكن أن نقرب للأذهان إدراك مقدار ما يحدثه السمن من ضرر للجسم بذكر ما ينشأ من ضرر لأحد خيول السباق إذا زيد ثقل رطلين مثلاً ، فماذا عسى أن يكون تأثير زيادة سبعة كيلو جرامات في أنسجة جسم إنسان في سن الخمسين ، فإن هذه الزيادة قد تحول دون وصول هـذا الإنسان إلى ما بعد السبعين ، ولا شك في أنه من أخص الأسباب التي تعجل وفاة الإنسان أخطاء التغذية الشائعة بين الناس ، لاعتقادهم بأن الإكثار من الغذاء ينمي الجسم ويقويه ، والنتيجة المحتمة للإفراط في الغذاء هي إنهاك قوى الجسم وإضعافه والتعجيل بوفاة الإنسان قبل الأوان .

ولا يفوتنا أن نذكر أن الذين تبرز بطونهم بسبب الإفراط في الغـذاء ، وتتشحم أحشاؤهم وأفخاذهم يصابون بداء الملوك ، أو بارتفاع الضغط الدموي ، أو البول السكري .

وبالاختصار فإن المفرطين في الأكل يحملون أجسامهم أعباء ثقيلة ويسوقونها نحو التلف والدمار ، ويتبين من ذلك بأجلى وضوح أن الاعتدال في الغذاء هو الطريق الأكيد المؤدي إلى التعمير الطويل ، وقد يتساءل البعض عن مدى هذا الاعتدال ، والجواب عن ذلك هو أنـه يجب على الإنسان أن يوازن بين مقدار ما يكسبه جسمه بواسطة الغذاء ، ومقدار ما يفقده بالحركة والعمل ، ويشمل هذا الواجب عناية الإنسان بنوع ما يتناوله من الغذاء ومقداره ، ولو أننا وازنا بين تغذي الإنسان وتغذي الحيوان لاتضح لنا أن الطريقة التي يسير عليها الإنسان في غذائه إنّما هي طريقة خاطئة ، وبما أن الإنسان لا يختلف تركيب جسمه في شيء عن الحيوان ، والحيوان لا يتغذى إلا بالمواد الطازجة ؛ فكذلك الإنسان في حاجة قصوى إلى هذا النوع من الغذاء .

انظر إلى اللحم ، فمع أنه أهم غذاء يحصل منه الإنسان على المواد البروتينية ، وعلى الفيتامين لدرجة ما ، إلا أنه يفقد ما به من الفيتامين بالطبخ ، وكذلك الخضر ، ونذكر بهذه المناسبة ذلك الخطأ الشائع بين معظم الناس ، وهو أنهم يخصون الحيوان بقصد أن يزيدوا من مقدار لحمه وشحمه ، وهذا خطأ فاحش ، لأن هذا الحيوان وإن ازداد سمنه بالخصي فإن اللحم تقل قيمته الغذائية ، ويصير أقل تغذية من لحوم الأسماك والطيور . والسكر هو من الأغذية التي تؤذي الإنسان إذا أفرط فيها ، لأن الخمائر التي تؤثر في السكر وتمثله في الجسم محدودة المقدار ، فإذا تناول مقداراً من السكر أكثر من مقدار الخمائر التي تؤثر في تمثيله كانت نتيجة هذا الإكثار أن يصاب الإنسان بعسر الهضم ، وإذا أخذ في قوام سوائل مركزة فإنه يسبب تهيجاً في المعدة ويجعلها تكثر من إفراز المواد المخاطية ، وقد ينشأ عنه

نوع من البول السكري الذي ربما انقلب إلى بول سكري مستديم، وهذا من أسباب قصر العمر بلا نزاع، فمن ذلك يرى أنه يجب على الإنسان أن يعود على الغذاء الطبيعي وهو المركب من المواد غير المطبوخة.

ولا بد لنا هنا من التكلم عن الأملاح التي هي من مقومات الجسم، وإذا كان دم الإنسان لا يختلف في تركيبه عن تركيب ماء البحر، ويشتمل على الكريات والمواد العضوية السابحة فيه، فمن المحتم تجديد أملاح الجسم من وقت لآخر، لأن سائلها يغمر جميع الأنسجة، فأملاح الجير واليود والمغنيسيوم والصوديوم والبوتاسيوم والحديد ليست ضرورية فقط لحفظ الصحة بل هي ضرورية أيضاً لحفظ الحياة، وهي لا توجد بمقدار واف في غذائنا المطبوخ، واليود مثلاً نحصل عليه من المحيطات بما نأكله من أسماكها، ونحصل عليه في ملح الطعام، ولكن مما يدعو للأسف أن الإنسان بجهله ينزع اليوم من ملح الطعام بتكريره وتقديمه للطعام باسم ملح المائدة، ونحصل على الكالسيوم من اللبن والخضر وبعض الفواكه، وعلى الفوسفور من اللبن والبيض وبعض الحبوب، كما نحصل على اليود أيضاً من الخضر وزيت كبد الحوت، ونحصل على القلويات من الخضر والفواكه، وكل خضر تكثر فيها الأملاح يكون الفيتامين موجوداً فيها بكمية وافرة، ويمكننا أن نعتبر أن المواد الغذائية المستوفية للطبخ هي نوع من أنواع السموم، وما دام الإنسان مستمراً على التغذي بها فلا شك أنه سيبقى فريسة هذه السموم التي تهدم كيانه وتحول بينه وبين البقاء في هذه الحياة المدة التي كان من حقه أن يقضيها فيها.

ووجوب تخلص الجسم من فضلات الغذاء لا يقل أهمية عن اختيار أحسن أنواع الأغذية وأنسب مقادير منها، والخطر الناشئ عن كسل الأمعاء في طرد فضلات الطعام لا يقل عن الخطر الناجم عن التغيير الذي يطرأ على الدم، لأن هذا التغيير غالباً ما يكون سبب مرض الشرايين، فتصلبها مثلاً ينشأ عن التهيج المزمن الذي يحصل بادئ ذي بدء في النسيج المبطن لها، وذلك نتيجة احتكاكها بالدم غير النقي في أثناء مروره فيها، ويمكننا أن نجزم أيضاً بأن الكسل الذي يصيب الأمعاء ينجم غالباً عن السموم التي تحملها المواد التي توجد في هذه القناة، إذ معلوم أنه توجد بعض مواد مهيجة للقناة المعوية، كما توجد بعض مواد أخرى مسكنة لها، وكذلك توجد بعض الأغذية أو فضلاتها أحد للفعلين وإذا كان الغذاء الذي نتناوله غير صالح ومنزوعاً منه المواد الضرورية للجسم؛ فيحق لنا القول بأن غذاء كهذا لا يمكن أن ينبه عضلات الأمعاء، بل ربما كانت مواده معطلة لها، أو مسببة لشلل في حركتها، ومن هذا نرى أن الأطعمة الخالية من الفيتامين، أو المركزة التي اعتاد الإنسان أن يتناولها، لا شك أن لها دخلاً كبيراً فيما تصاب الأمعاء به من كسل، وكلنا نعلم أن الأطعمة التي لا تترك فضلات كافية يتولد عنها إمساك، وغني عن الذكر أن الأغذية المطهية أو المركزة الشائعة الاستعمال الآن تنقصها هذه المواد الضرورية وهي الفضلات، وهذه الأطعمة المطبوخة تكون خالية أيضاً من مواد ضرورتها للإنسان كضرورة الفيتامين، وهذه المواد لا توجد إلا في الأطعمة التي بحالتها الطبيعية، وهذه المواد وإن كانت تصعب الآن معرفتها إلا أن فعلها قد أصبح معروفاً، وهي مواد مجرد وجودها يوقظ النشاط في بعض التفاعلات الكيميائية التي تحصل في الجسم، ولولا وجودها لما نشطت تلك

التفاعلات. خذ مثلاً ثاني أوكسيد الهيدروجين فإنه ينحل مع وجود مادة غير قابلة للذوبان كفلز الفضة بينما الفضة لا يحصل بها أي تغيير، وكذلك خمائر الأمعاء تنشط في عملية تحليل الغذاء مع وجود مواد كهذه في الأطعمة بحالتها الطبيعية، وقد تكون هي أهم عامل في عملية الهضم، ويستخلص من ذلك أن الإنسان مع كونه أرقى مخلوق هو الحيوان الوحيد الذي لا يعرف كيف ينتقي غذاءه، وكأنه قد فقد من هذه الناحية غريزة الإبقاء على النوع، وأكبر شاهد على ذلك استسلامه للتسمم المزمن الذي يصيبه من التغذية الخاطئة وهو قانع راض عن ذلك، بينما هو في الواقع يعرض جسمه وعقله للتلف والهلاك بسبب شرهه وجهله، وتكون النتيجة التي لابد منها؛ أنه لا يعيش بأي حال من الأحوال في هذه الدنيا المدة التي هي حق من حقوقه كما عاش آباؤه الأولون.

ومما يجلب التلف للصحة ما يتناوله الإنسان من سموم مختلفة كإدمان شرب الكحول وغيره من السموم، مع أنه لو توفر العناية بنفسه، وهو أكمل مثال لأقصى ما وصل إليه الارتقاء في أنواع الحياة لعاش متمتعاً بالصحة الجيدة إلى أقصى مدة ممكنة، ولاستقبل الموت بعدها ضاحكاً مستبشراً، لأن هذه سنة الله في خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلاً، بل هذه هي النتيجة الفسيولوجية للحياة بحسب ما وصلت إليه معلوماتنا، وإن كان البحاث قد تمكنوا من استنبات الخلايا على مختلف أنواعها ولكنها الخلايا السليمة من العطب، وكل هذا يزيد ما ذهبنا إليه من الاستهانة بآلة الجسم المحكمة الصنع التي هيئت للقيام بكل عمل من عظائم الأعمال يؤدي بها إلى الدمار، والعناية بها تمكن كل إنسان من حياة طويلة مقرونة بالعافية والرفاهية مع التفوق فيما يباشره الإنسان من الأعمال.

هذا ما أردت نقله من كلامه بنصه، وأزيد عليه ملخص ما ذكره بعد ذلك، فهو يقول في صفحة ٦٥ من الكتاب المذكور ما نصه:

(١) إن «ميتشنكوف» يقول: إن التعمير ممكن بتدابير تتخذ لتطهير الأمعاء. وقال: إن هذه النظرية لا تزال بعيد لم يعترف بها العلماء. وقال: يجب اجتناب جميع الأطعمة الدسمة من كل نوع، وخصوصاً اللحم، وعدم تناول الخمر. ثم قال: ويقول «ميتشنكوف» أيضاً بأنه إذا وصل الإنسان صحيحاً إلى متوسط طول العمر الطبيعي ولم يصبه الانحلال الشيخوخي فإنه يكتسب غريزة جديدة وهي غريزة الاستخفاف بالموت، فيصبح الموت والحياة عنده سيان، ويستقبل الموت كما يستقبل النوم العادي. وقد اتفق الكثيرون من البحاث على أن لكل نوع من الكائنات طولاً طبيعياً للعمر، لأن العمليات الفسيولوجية التي تجري في أجسامها تعين عدد السنوات التي يصل إليها كل نوع من أنواع الكائنات.

(٢) ثم أخذ يشرح في صفحة ٦٩ وما بعدها هذا المقام فقال: أولاً إن الناس لا يكادون يبلغون سن الخمسين حتى ينحدروا إلى الضعف فالموت، ذلك لأنهم لا يملكون زمام أنفسهم، بل يتركونها فريسة للشهوات، فلذات الشباب مقربات للمشيب والهلاك والردى والموت، فالإنسان يصل إلى قمة الحياة في سن الثلاثين، ثم بعد ١٥ سنة أو نحوها ينحدر إلى أدنى ثانياً بخطئه وجهله، وإذا وصل إلى ما بين ٥٠ و٦٠ سنة تظهر على أسارير وجهه علامات الضعف وإنهاك القوى من فعله هو وجهله

ولذاته، وكثرة أغذيته الخاطئة، ويضعف سمعه وشمه، وتيبس مفاصله، ويزداد وزنه من خمسة كيلو جرامات إلى ١٠ ويشكو الإمساك، ويشكو تمدد الأوردة في ساقه فيضعف.

(٣) ثم أخذ في الصفحة (٧٠) يذكر ما يجب أن يكون عليه الغذاء. قال ما نصه بالحرف في الكتاب الثاني للمجمع المصري للثقافة العامة: لا أحاول هنا أن أشرح وسائل التغذية في كل أدوار الحياة، وإنّما أمر عليها لماماً، لأنه ليس من شك في أنها لها دخلاً كبيراً في حفظ الصحة، وبالتالي في التعمير، وأعيد هنا أنه يجب على الإنسان أن يتناول مواد الأطعمة بحالتها الطبيعية، لأن الإنسان في مبدأ خلقه لم يجد لحفظ حياته إلا الجذور والفواكه والأعشاب ومنتجات اللبن، وإذا أراد لحماً كان يجده في الجراد، ومن الراجح أنه كان يأكله نيئاً، فلكي نتجنب أذى السموم التي تؤذي الأمعاء الغلاظ، وبالتالي تسمم الغدد الصماء، يجب أن نتعلم هذا الدرس البسيط من الإنسان الأول، ألا وهو وجوب استعمال المواد الطبيعية غير المطبوخة في غذائنا، وهي الخضر والفواكه ومنتجات اللبن، وليس معنى هذا الاقتصار في الغذاء على ما ذكر، بل نقصد بهذا أن يشمل غذاؤنا كمية وافرة من هذه المواد مع غيرها، ولا شك أن الطعام المتوافرة فيه هذه المواد الطازجة يؤدي إلى عدم تعرض الشيوخ إلى أمراض عديدة كالتهاب المفاصل وعسر الهضم وارتفاع ضغط الدم والأكزيما. ولا يخلو من الفائدة أن أذكر هنا بعض ملاحظات عما يجب تناوله من الأطعمة في الأوقات المختلفة من اليوم، فطعام الإفطار يجب ألا يكون مثقلاً بالأطعمة المتنوعة، إذ من الواجب على الشخص أن يبدأ نهاره بغذاء خفيف، لأن الصباح هو وقت إخراج مفرزات الجسم، فلو أرهقنا أعضاء الهضم بالعمل في ذلك الوقت فإن جزءاً عظيماً من نشاط الأعضاء ـ طاقتها ـ يقل، وفي هذا ضرر بلا شك، لأن الأنسجة تغمر بالسائل اللمفاوي أثناء النوم في العمل وتلقي إليه بفضلاتها، وهذه الفضلات يتخلص منها بالساعات الأولى التي تعقب النوم، لذلك فإن قاعدة تناول وجبة طعام خفيفة في الصباح تركز على أساس فسيولوجي، ولهذا السبب كان الأرق مجلباً للنحافة، وحبذا لو كان طعام إفطارنا مماثلاً لما كان يتناوله آباؤنا الأولون، وهو لم يكن إلا فاكهة طازجة أو خضراً. وأما الوجبة الثانية فيلاحظ فيها أن تكون خفيفة أيضاً، لأنه ليس من الحكمة في شيء أن تثقل أعضاء الهضم بالعمل بعد فترة راحة، فضلاً عن أنه يعقب أكلة نصف النهار عادة بعض العمل سواء كان عقلياً أو جسمانياً، وذلك عند معظم الناس، وإلا اضطر الإنسان إذا أكل أكلة ثقيلة إلى غفوة بعدها، وحبذا لو انتفع الناس بأكل الخضر باعتبارها من السلطة بدل طهيها، وبذلك لا تفقد معظم مزاياها، ومن المستحسن جداً أن يستعاض بالفاكهة الطازجة عن الحلوى المطبوخة بتاتاً، ولو اتبع المبدأ الذي أشرت إليه في وجبة الظهر لأمكن كل إنسان أن يقوم بعمله بعد هذه الأكلة بغير ملل أو فتور أو شعور بثقل في الدماغ، أو ميل للنوم، وقبل أن أتكلم عن طعام العشاء أشير إلى عادة استحدثت في بلادنا وهي عادة تناول أكلة خفيفة في وقت العصر، وهي المعروفة بأكلة الشاي، وهذه الأكلة ضارة من الوجهة الفسيولوجية، ولا حاجة لها البتة، لأن المعدة تحتاج إلى أربع أو خمس ساعات لهضم أكلة الظهر، فإذا فرضنا أن أكلة الظهر تنتهي عند غير الموظفين حوالي الساعة الثانية، وعند الموظفين حوالي الساعة الثالثة، فلا شك أن الجهاز

الهضمي يكون مشغولاً في الهضم حتى الساعة السابعة أو الثامنة ، فكيف يكون حال هذا الجهاز عندما يتناول أكلة أخرى حوالي الساعة الخامسة أو السادسة ، لا شك أنه يصبح في حالة سيئة ، ولا يمكن أن يسمح بهذه الأكلة مهما قيل عن الشاي أو القهوة من أنهما منبهان لذيذا الطعم . ولا يغيب عن البال ما يؤخذ معهما من كعك وزيد وغيرهما ، وأما أكلة العشاء فلا بأس من احتوائها على نوع من اللحوم مع تناول مقدار قليل منه ، وعلى شيء من الخضر المطهي ، ويجب أن تحتوي كذلك على جانب من الفاكهة ، ونلاحظ أنه أحياناً ما ينشأ عسر الهضم أو الأرق عند تناول فنجان القهوة الذي يؤخذ عادة بعد العشاء ، ولأنبه هنا إلى أن الأرق الذي يكون منشؤه مرضاً معروفاً أو مشاغل ذهنية لا شك في أن سببه عسر الهضم ، وعلاجه لا يكون بتعاطي المنومات ، أو المخدرات ، بل بفحص حالة الجهاز الهضمي وتنظيمها مع تناول دواء بسيط للمعدة . ويلاحظ أني لم أذكر شيئاً عن أنواع الفيتامين وفوائدها ، ولقد تعمدت ذلك لأني وجدت أن لا ضرورة لذكر شيء عنها ، ما دمت أحض على تناول المواد الغذائية بحالتها الطبيعية ، وهي المصدر الوحيد للفيتامين . ومن الأضرار البليغة التي تنجم عند متوسطي العمر أو الشيوخ من الإفراط في التغذية عجز الكبد عن القيام بتنقية الدم الذي يمر فيها ، فينشأ عن ذلك التسمم العام الذي تشاهد أعراضه عند المصابين بعسر الهضم بسبب الإفراط في التغذية ، فضلاً عن التأثير السيئ الذي يحدث للكبد وللجسم عموماً من تعفن وتخمر الغذاء الزائد عن الحاجة في الجهاز الهضمي ، هذا علاوة على الاضطراب الذي يحدث في الغدد الصماء ، ويظهر أثر ذلك جلياً ، وخصوصاً عند المرأة ، ولا سيما في سن اليأس ، لأنها تكون قد فقدت الإفراز الداخلي للمبيضين ، والمسألة لا تتعلق بما تطيقه المعدة وما تقدر عليه من عمل ، بل إنها أيضاً مسألة ما يتيسر للأجهزة المخرجة قذفه من الجسم ، فلو فقد الجسم التوازن في إجراء كل هذه العمليات لما أمكنه أن يقضي مدة طويلة في الحياة وهو سليم ، ولتأثرت جميع الأجهزة الهامة كالدورة الدموية والجهاز البولي ، ولا ينجو أي جهاز آخر حتى الجلد نفسه من الاختلال ، وقد عرف العلم حديثاً بعض الخاصيات الطبيعية المهمة بعد أن درست بعناية ، ومنها تأثر الجلد بضوء الشمس ، وقد أصبح فناً خاصاً يعرف بالمعالجة بالشمس ، وصار المعتقد الآن أن لضوء الشمس علاوة على وظيفة تنقية سوائل الجسم من المواد السامة ؛ خاصية تنبيه عملية الاستحالة الغذائية ، أو الميتابولزم بدرجة أنه يعيد نشاط الأنسجة المريضة إلى العمل الصحيح . وغني عن البيان أن ضوء الشمس هو المطهر الطبيعي الذي يقتل الميكروبات بغير شك ، وهذه الخاصية تمتاز بها الأشعة التي فوق البنفسجية المنبعثة من طيف ضوء الشمس ، ولهذه الأشعة مزايا أخرى ، منها أنها تعين على تمثيل المواد الجيرية بمقادير وافرة في الجسم ، كما أنه يستعاض بها عن عدم اتزان الغذاء نتيجة نقص الفيتامين فيه ، فيتضح من ذلك أن فعل هذه الأشعة متساو مع إفرازات الغدد الصماء ومع الفيتامين ، هذا ولا شك في أن ما تحدثه من صبغ الجلد إنّما هو ذو علاقة أكيدة بالغدد الصماء ، وخصوصاً الغدد التي فوق الكلى والغدد النخامية . وقبل أن ننتقل من موضوع الغذاء أجدني في غير حاجة إلى أن أتكلم عن الخمر وعن أثرها في منع التعمير ، لأن هذه الأضرار أشهر من أن تذكر ، وجدير بي أن أشير بكلمة عجلى إلى باقي أجهزة الجسم ، وخير الطرق للمحافظة على

سلامتها، إذ لا يحتمل المقام الإطالة، فأبدأ بالرئتين، ولا نزاع في أن خير ما يجدد قوتهما هو الهواء النقي، وهو لهما بمثابة الحمام للإنسان، لأنه بلا جدال العامل الأقوى في تجديد شباب كل عضو من أعضاء الجسم من المخ حتى الجلد. ومما يؤسف له أن كثيراً من مواطنينا الأعزاء لا يقدرون هذه الأداة الفعالة حق قدرها، ويهملون الانتفاع بها، مع أنها في متناول الجميع هبة من الله تعالى بلا عوض.

وأما الجهاز العصبي وجوهره المخ؛ فهو للإنسان بمثابة الطبقة الحاكمة من الشعب تدبر أموره، فتدر عليه المنافع، وتدرأ عنه الغوائل، وأكبر أعداء هذا الجهاز اثنان، وهما: القلق والمشاغل الفكرية، إذا تمكنتا منه كانت نتيجة ذلك الحتمية قصر العمر. أما الترياق الفسيولوجي لهذه الحالة فهو إجراء التمارين العضلية الشديدة لتجديد نشاط الأعصاب، ومنع طاقتها من الفقدان، دون الاستعاضة عما يفقد منها بقدر جديد من الطاقة، ومادام جهازنا العصبي سليماً نستطيع أن نتغلب على جميع الأمراض الجسمية والنفسية بقوة الإرادة. اهـ.

(٤) ثم أخذ يشرح في صفحة ٨٠ وما بعدها منحدر الحياة، فقال: مهما عني الإنسان بصحته ومهما كان قوياً متيناً البنية فلا شك أنه يأتي عليه يوم يشعر فيه يهوي في منحدر الحياة جثمانياً، لأنه ليس من الضروري أن تتناقص القوى العقلية كلما تقدم الإنسان في السن، ويمكن تعليل بقاء القوى العقلية سليمة حتى سن متقدمة أو حتى نهاية الشيخوخة بأن المخ يستمر نشطاً على حساب العضلات والمفاصل وباقي الأنسجة التي كلما تقدمت السن قل عملها، وما يتبقى من نشاط في جهاز الدورة الدموية تنصرف طاقته إلى العضو الأكثر احتياجاً إليه، وهو العضو الذي يستمر نشطاً حتى آخر الحياة، ألا وهو المخ، وهناك تعليل آخر، وهو أنه بما أن المخ آخر ما يتم نموه في الجسم فطبعاً يكون آخر ما يتأثر بالشيخوخة، ولذلك نجد أن الأوعية الدموية التي تكون تامة النمو عند الولادة هي ضمن أجزاء الجسم التي تبدأ في التأثر بالشيخوخة، ولكن مع ذلك فالمخ يصله نصيبه من الدم كاملاً، بينما يكون قد قل نصيب أجزاء أخرى من الجسم، وكلما استبقي مجرى الدم في حالة معقولة من النقاوة كلما كانت قوى المخ لا تتأثر، وعندئذ يأتي دور استحالة الأوعية المخية عادة متأخراً، وهذه الاستحالة تنشأ عن تأثير السموم إما على جدر الأوعية أو على الدم كما سبقت الإشارة إلى ذلك. وليس معنى ذلك أن النشاط المخي لا يتأثر بدور الهبوط الجثماني بل بالعكس، فإن هذا النشاط تتغير طبيعته، ولو أن هذا التغير يتناول نوعه أكثر من مقداره « طاقته » فالإنسان بمجرد ما يجد نفسه في المنحدر يلقي الخيالات ظاهرياً، ولو أنه يستبقي ما اعتبره المثل الأعلى من أفكاره، وتفقد الشهوات والعوطف حدتها، حتى إن بهرج مظاهرها كالغزل وروايات الحب لا توقظ شعوره كثيراً، وكذلك لا تستهويه تلك الجاذبية العجيبة التي انفرد بها الجنس اللطيف، ورغم ذلك يستبقي نشاطه الذهني، فأما هذه الاعتبارات، وتلقاء هذه الميزة التي اختص بها المخ من احتكار جزء من الدم له في مؤخر الحياة، أصبح على الإنسان لزاماً أن يستفيد من هذه الميزة، فلا يترك قواه العقلية يعلوها الصدأ، وعليه أن يستمر عاملاً في هذه الحياة، لأن التجارب أثبتت أن الرجل الذي ينسحب من ميدان العمل مبكراً يموت مبكراً، وهذا بعكس النظرية التي كانت سائدة بأن الاستعمال التام لأي عضو ينهكه، ويسبب الإسراع

في استحالته، ولكن قد لوحظ أن أغلبية سعاة البريد يندر أن تصيبهم أمراض في أطرافهم السفلى، كما يندر أن يصاب الذين يشتغلون أشغالاً عقلية بالتهاب سحائي، ولكن هذا لا يمنع من أن الذين أسرفوا في استعمال بعض أعضائهم يكونون عرضة لأن يجنوا عواقب سيئة نتيجة إسرافهم، أما المخ فالغالب أنه لا يمكن أن يحل به الإجهاد لدرجة تسبب انحطاطه قبل الأوان، وهذا بطبيعة الحال لا يصدق على العواطف ولكن يقصد به النشاط العادي، لأن الإنسان قد يدفع نفسه إلى التفكير لمدة طويلة، ولكن يأتي وقت لا يتيسر له فيه أن يستمر في التفكير، فبينما يستمر المخ في حاجته إلى نصيبه كاملاً من الدم تكون حاجة معظم باقي أعضاء الجسم للدم قد قلت، وهذا واضح فيما يتعلق بالعضلات والعظام والمفاصل، ولكنه يحتاج إلى شيء من الإيضاح فيما يتعلق بأعضاء الهضم، وتعليله هو أنه بضمور العضلات تقل كفايتها للتصرف في منتجات الهضم، ولذلك وجب أن تخفض كمية المواد الغذائية التي تدخل الجهاز الهضمي، وهذا يقلب معتقد أسلافنا رأساً على عقب من جهة تغذية الشيوخ، لأنهم كانوا يعتقدون وجوب تغذية الشيوخ بسخاء، وكانوا يظنون أن مثل ذلك كمثل الدعائم التي تقام لتوطيد الجسم الشائخ الهش الهيكل، ولا شك أن هذا المبدأ أضر ما يكون بالشيوخ، لأن الاعتدال في الغذاء ليس لازما للشيوخ فحسب، بل للناس في كل الأعمار. ومما يشاهد أثناء الهبوط في منحدر الحياة تساقط الأسنان، وهذا أمر غير طبيعي، وحدوث ذلك نتيجة طبيعية للإفراط في أكل اللحوم والمواد السكرية وعدم العناية بالأسنان بعد هذا الإفراط، وهاهو السير إسحاق نيوتن لم يفقد إلا سناً واحدة في سن الخامسة والثمانين، وكذلك ضعف الإبصار، وهو معظم الأحيان ينشأ عن تيبس العدسية، ويبدأ ما بين سن ٤٥ و٥٠ سنة، وضعف العضلة الهدبية، وقد يصحب تأثر جهاز الإبصار في هذه الفترة من الحياة ظاهرة فقد حدة السمع، حتى إنه يندر وجود شخص يتمتع ببصر وسمع سليمين بعد سن الستين. وضعف السمع ينشأ عادة بسبب ضمور العصب السمعي وإن كان يحصل أحياناً بأسباب أخرى كتثبيت عظم الركاب أو إصابة صماخ الأذن الظاهرة بالأكزيما النقرسية، أو تجمع الصملاخ به، كما قد يصابون بطنين الأذن أو بسماع أصوات داخلية متعددة، وهذا يسبب لهم مضايقة كبيرة، وكذلك قد يشعرون في هذا الدور بدوخة قد تكون بسبب مرض في الأذن، أو ورم في المخيخ، أو غير ذلك من الأمراض المخية، أو أمراض العيون، وقد أشرنا إلى الدوخة الوقتية التي يصاب بها الشيخ عند قيامه من الفراش، وقلنا: إن سببها ناشئ عن ضغط الدم الذي قد يرتفع بسبب انقباض الأوعية الدموية من تصلب الشرايين، وكلما انحدر الإنسان نحو نهاية العمر كلما ظهرت علامات ذلك على الجلد وملحقاته، حيث يجف الجلد ويرق ويصير أملس وتظهر فيه تجعدات، فيتغضن الوجه بسبب اختفاء النسيج المرن والنسيج العضلي، وهذا يدل أيضاً على أن الأوعية الشعرية تقل في الحجم والعدد حيث تضمر بسبب عدم الاستعمال، فتتأثر تغذية الجلد، ويعقب ذلك اصفرار وشحوب اللون، وإن كان يشاهد عند بعض الشيوخ نوع من التلون في جلودهم، ويظن البعض أن هذا إنذار بمرض خبيث، كما أن هذا التلون ربما يكون وسيلة للوقاية من بعض الأشعة التي في طيف الشمس، حتى إنه إذا ظهر هذا التلون يكون ذلك دليلاً على نقص فسيولوجي في الإنسان، وهذا النقص خطر في

بلاد المنطقة الحارة، وقد يفسر هذا النقص بعدم كفاية الغدد التي فوق الكلى، أو الغدد النخامية، وقد يكون النمش محاولة مبكرة لدبغ الجلد فيحل محل التلوين، ويسبب هذا التلوين أيضاً التعرض للشمس، وقد يستعاض عن عدم التلوين بنمو الشعر غير الطبيعي، لأن اللون في جلد الإنسان يقوم مقام الشعر في القردة من حيث الوقاية، ولذلك يتأثر الجلد كثيراً خصوصاً في زمن الشيخوخة، في الذين ليس عندهم استعداد لحدوث التلون في جلودهم، أو لنمو الشعر فيها بغزارة غير طبيعية.

(٥) ثم أخذ في الصفحة ١٢٢ وما بعدها يشرح وسائل تجديد الشباب وإطالة العمر، فعول كثيراً على نظام الغذاء، وقال: قد ألمعنا في كلماتنا السابقة إلى وسائل تجديد الشباب وإطالة العمر، وأتينا على بعضها، وتحقيقاً للغرض الذي حدا بي للعناية بهذا الموضوع؛ أفرد هذا الفصل لجمع شتات هذه الوسائل. تنقسم الوسائل التي نحن بصددها إلى ثلاثة أقسام: القسم الأول: يتعلق بالمحافظة على الصحة الشخصية منذ يوم أن يتنسم الإنسان أول نسمة في الحياة حتى سن الكهولة. والقسم الثاني: موضوعه طرق العناية بالكهولة في أطوارها المتأخرة وبالشيخوخة ومنذراتها. ويبحث القسم الثالث في وسائل مداركة مضاعفات الشيخوخة، وستتوج هذه المواضيع ببسط أثر المحافظة على الصحة العامة في تجديد الشباب والتعمير:

(أ) فأما وسائل المحافظة على الصحة الشخصية حتى سن الكهولة فهي عديدة، وقد قتلت بحثاً ووضع فيها المختصر والمطول من المؤلفات، وبح صوت رجال الصحة والاجتماع في تلقين مبادئها للناس كافة في قطرنا المحبوب أو في غيره من الأقطار، وقد أخذ الكثيرون من أفراد المجتمع في اقتطاف ثمار هذا المجهود العظيم، حتى أصبح كل بيت لا يخلو من مبشر للصحة.

ومما أذكره بالإعجاب أنه يغلب في بلادنا أن يكون هذا المبشر من أبنائنا الشباب فتياناً وفتيات، ولذلك سأذكر بعض المخالفات البارزة لسنن الطبيعة، وألحقها بطرائق معالجتها فأقول:

(١) يشمل هذا النوع من الوسائل، وهو الذي له الفضل الأكبر في إطالة العمر العناية بالصحة الشخصية من كل ناحية من نواحيها، كالانتفاع بالهواء النقي، وقضاء معظم الوقت في الهواء الطلق، والعناية بالثياب من حيث تناسبها مع الفصول، والاهتمام بأمر الطعام والتغذية من حيث النوع والكمية، والامتناع عن إعطاء الفرصة لأي سم كان من التسرب إلى الجسم سواء كان من الداخل أو الخارج، ومعنى ذلك العناية التامة بالنظافة الشخصية، فما أحكم الحديث الشريف القائل: «النظافة من الإيمان»، لأنه جمع فأوعى، ومن الوسائل الهامة والموصلة إلى إطالة العمر بلا نزاع الوقاية من الأمراض السرية، وكذلك العناية بالأسنان واللثة التي تتسرب عن طريقها سموم جمة، بسبب العفونة التي تنشأ عن فضلات الطعام الراسبة عليها، أو المتخللة لها، ولا يفوتنا أن ننبه إلى فائدة الحركة سواء بالاستعانة بأي نوع من أنواع التمرينات الرياضية، أو الصلاة، أو الألعاب، وكذلك نوجه الأنظار إلى مزية الرياضة العقلية إما بالقراءة الصحية، وهذه تتنافى كلية مع القصص المحشوة بسافل المعنى وبذيء العبارة، أو بوسائل أخرى، إذ من الرياضة العقلية أيضاً بعض الألعاب التي تحتاج لفكر أو روية، وهذا بطبيعة الحال بغير إفراط أو إجهاد. ومن الأمور البديهية حاجة الجسم والعقل إلى الراحة، وأهم وسيلة

لذلك هي النوم الهادئ، والأهم من ذلك كله أن يكون للإنسان عمل يقوم به يعود نفعه عليه وعلى بني جنسه، لأن البطالة من موارد التهلكة للجسم والعقل.

(٢) ومما يساعد كل المساعدة على إطالة العمر الإقلال من تناول الأطعمة المركزة أو المطهية التي تعمل على هدم كيان الجسم، وأن يعود الإنسان إلى الأغذية الطبيعية التي هي أنسب الأغذية له، ولذلك أرى أنه جدير بي أن أذكر ـ بعد أن أجملت فيما سبق لي قوله ـ موضوع العناية بالغذاء والتغذية بشيء من التفصيل الذي يسعه المقام، لأن إهمال هذا الأمر الحيوي عام بين كل الطبقات وعند جميع الأمم. إن فائدة مواد الغذاء التي تؤكل بحالتها الطبيعية تظهر بجلاء في تأثير باشيلس القولون العادي عليها، لأن فعل هذا الباشيلس يتوقف على طبيعة المزرعة التي يتناول غذاءه منها، فإذا زرع على بروتين حيواني ـ كما يحصل في حالة أمعاء الإنسان ـ فإنه يحدث تعفناً ويصبح من ألد خصوم الإنسان، ولا يقتصر تأثيره على الأمعاء الغلاظ وحدها، بل يؤثر أيضاً تأثيراً شديداً في الأحشاء المجاورة، ويسبب لها أمراضاً عدة مع أنه زرع هذا الباشيلس القولوني العادي في مزرعة تحتوي على مواد نشوية أو خضرية فإنه لا يحدث تعفناً ويتحول إلى جرثومة تخمرية، أي: ينقلب من خصم لدود إلى صديق نافع، فمتى عرفنا هذا أمكننا أن نحل معضلة كيفية توصيل المواد النشوية والخضرية من الفم حتى الأمعاء الغلاظ بدون أن تتأثر أقل تأثيراً بالعصارات المختلفة التي في القناة الهضمية، وأظن أن الجواب على ذلك قد أصبح جلياً، وهو أن تؤكل هذه المواد الغذائية بحالتها الطبيعية مغلفة بغلافها السليولوزي الذي لا تنفذه عصارات الهضم، والذي يمكن هذه المواد من الوصول إلى مقر باشيلس القولون العادي، ومعنى هذا أن الذين يعيشون على الأغذية الطبيعية لا يشكون البتة من كسل الأمعاء وكما أدركنا حكمة ذلك في الحيوان يجب أن ندرك حكمة الصوم الذي تصومه الحيوانات الدنيا، فهو يحفظ التوازن بين دخل الجسم وخرجه، وعندما يصاب الإنسان بالبول السكري يكون دخل جسمه أكثر من خرجه، والصوم يعادل بين ذلك، ولكن هناك أمراً مهماً يجب الالتفات إليه عند ممارسة الصوم، وهو التأكد قبل ذلك من عدم وجود فضلات في الجزء الأسفل من الأمعاء الغلاظ حتى لا تمتص الأمعاء المذكورة هذه المواد أثناء الصوم، ولذلك يجب أن يسبق الصوم بمسهل، وهناك أمر آخر لا يقل أهمية عن الأول وهو أن يكون الصوم صوماً مطلقاً بحيث لا يتعدى الشفتين إلا الماء، لأن الإنسان إذا تناول شيئاً من الطعام كان ذلك محرضاً له على طلب المزيد، أما إذا اقتصر على الماء دون غيره، فإن شهوة الأكل تنعدم عنده، ولا سيما إذا كان الصائم دائم الاشتغال أثناء الصوم عقلاً وجسماً، لأن شهوة الطعام تقل بسرعة في اليوم الثاني، وفي اليوم الثالث تنعدم بتاتاً. وقد قيل: إنه يحسن بالصائم أن يلازم فراشه أثناء الصوم، ولكن إذا كانت صحته جيدة فالأنسب أن يمارس عملاً أثناءه أولى من ملازمة الفراش كالمرضى والضعاف العاجزين، والأمر الثالث الواجب على الصائم الالتفات إليه أن يكتفي عند الإفطار بوجبة صغيرة في اليوم الثالث، وبوجبتين أقل من هذه في اليوم الرابع، والمتفق عليه أن صوم ثلاثة أيام كاف لإعادة التوازن. هذا والصوم يمارسه الحيوان غريزياً عند مرضه. وقديماً قيل: جوعوا تصحوا.

ومن ذلك يمكننا أن ندرك أهمية الصوم في تصحيح الأبدان، لأن غريزة كهذه ما كانت لتوجد في الحيوان إلا ولها أساس فسيولوجي متين، ونحن أولى بالانتفاع بها، وقد دلت التجارب على أن فوائد الصوم لا تقتصر على تخليص الجسم من بعض أنواع التسمم المهددة لكيان الإنسان، بل هي توقظ فيه روح الهمة والنشاط، وبما أن الصوم قد يحدث أحياناً نوعاً من التسمم الحمضي، فينصح عادة للصائمين بتناول كمية وافرة من سائل قلوي أثناء الصوم كماء فيشي.

(٣) وتوجد وسيلة أخرى لحفظ التوازن بين دخل الجسم وخرجه، وهي الاستحمام بالماء الدافئ ويكون مصحوباً بالتدليك، أو بالمعالجة بالكهرباء، لأن هذا الاستحمام سواء كان بالماء الساخن أو بالهواء الساخن، أو بالبخار الساخن، أو بالحرارة المشعة، يكون من نتيجته رفع حرارة الجسم نحو درجة مئوية أو أكثر، فينشأ عنها احتراق في الدم لا يمكن الحصول عليه إلا بإصابة حمية أو برياضة عضلية، ولذلك كثيراً ما يقال، ولعله قول حق: إن الإنسان تتحسن صحته من إصابته بحمى هما كانت عليه قبلها، ولا شك أن سبب ذلك هو الاحتراق الذي أحدثته الحمى في المواد التي كانت مختزنة وغير محترقة في الجسم، ولذلك يجب الحث على الاستحمام بالشمس الذي يباشر الآن كثيراً وأظن أنه لم يحن الوقت بعد للحكم على قيمة الاستحمام بالأشعة فوق البنفسجية، ولكن مما لا شك فيه أن الفوائد التي تجنى من التعرض لهذه الأشعة تنشأ عن ازدياد الاحتراق وتنبيه الاستحالة الغذائية «ميتابولزم».

(٤) ولكن الوسيلة التي تفضل كل هذه الوسائل الصناعية هي الوسيلة الطبيعية، وهي تنبيه الاستحالة الغذائية، وحبذا لو أمكن الحصول على هذه الاستحالة بمقادير كافية بواسطة الرياضة العضلية التي لا تفضلها أية واسطة أخرى، لأن فائدة هذه الرياضة بما تحدثه من التأثير الحسن على الجهازين العصبي والهضمي لا تعادلها فائدة أخرى من حفظ الصحة، إذ ليس من شك في أن الإفراط في الغذاء الغير صالح، وعدم قيام الأشخاص الذين تضطرهم أعمالهم للجلوس بالقسط الكافي من الرياضة البدنية هما من أخص العوامل التي تجلب الأمراض المزمنة لهؤلاء الأشخاص، وهي الأمراض التي تهدد حياتهم بالخطر.

ويمكن لسكان المدن أن يمارسوا الرياضة البدنية في منازلهم باستعمال الآلات الخاصة بها، غير أن ممارسة هذه الرياضة في الهواء الطلق أفضل بكثير، وأحسن أنواع هذه الرياضة هي المشي، ويمكن لكل إنسان أن يمشي يومياً من أربع إلى خمسة كيلو مترات، وأخص من يجب عليهم مباشرة هذه الرياضة هم الأشخاص الذين لا تتاح لهم الفرصة لعمل تمرينات رياضية منتظمة، والعائق الوحيد الذي يمنع بعض الناس من ممارسة هذا التمرين الطبيعي هو أنهم لا يعرفون كيف يمارسونه، فالمشي الصحي ليس الغرض منه مجرد جر الأرجل بل الغرض منه أن يمشي الإنسان وقوامه منتصب وصدره مرفوع إلى الأمام كما يفعل الجندي في مشيه حتى تنقبض عضلات جدر بطنه، وإلا ضاعت الفائدة المرجوة من المشي، ويجب دائماً على الإنسان أن يمارس بعض التمارين التي تقوي عضلات البطن، لأنها إذا استرخت نشأ عنها هبوط الأحشاء، وهو من الأسباب الرئيسية لكسل الأمعاء ولأمراض

أخرى، وهذه التمارين يجب أن تمارس بانتظام كل صباح، ومثلها في ذلك مثل حمام الصباح وتسويك الأسنان.

(٥) ويحسن بنا أن نشير أيضاً إلى المشروبات الروحية التي لا نرى أي ضرورة لتعاطيها حتى ولو كان ذلك لإيقاظ شهوة الطعام، لأن تأثيرها في هذه الحالة هو إحداث تهيج في المعدة ينشأ عنه ميل كاذب لتناول الطعام، وهذا يؤدي إلى عسر الهضم وأمراض أخرى.

(ب) وأما وسائل العناية بالكهولة في أطوارها المتأخرة، وبالشيخوخة ومنذراتها، فقد أشرنا أيضاً إلى الكثير منها فيما تقدم. انتهى ما أردنا ذكره من كلامه.

وهنا أخذ يذكر الإمساك وقصور الكلى عن القيام بوظيفتها. وأخذ يذكر الجلد ووظيفته إلى أن قال: وقد أشرنا في فصل سابق إلى المعالجة بأشعة الشمس الطبيعية، وأشعتها الصناعية، وأكتفي بأن أذكر هنا بعض أخطار المعالجة بالشمس والطرق للوقاية منها، وهذه الأخطار هي ضربة الشمس «الرعن» والصهر والحرق، ويحدث الأول بسبب الرفع الموضعي لدرجة حرارة المخ والجسم جميعه، بينما ضربة الحرارة تحدث بسبب رفع حرارة الجسم فقط، وإذا ارتفعت حرارة المخ لدرجة عالية نشأت عن ذلك الوفاة، ولهذا السبب وجب وقاية الرأس والعمود الفقري من حرارة الشمس، ويسبق ضربة الحرارة عادة خلل في عملية إفراز العرق التي يتوقف عليها تنظيم حرارة الجسم ولا سيما في البلاد الحارة، ويساعد على حدوث الرعن الإصابة بمرض آخر، وتعالج هذه الحالة بالتعريق الصناعي، وتحصل ضربة الحرارة في الجو الجاف الذي لا ريح فيه، وكذلك في الأماكن المرتفعة الحرارة، وقد يتولد عن الإصابة بالحرق استعداد للحالتين السابقتين بما يحدث عند الإنسان من ضعف المقاومة بسبب امتصاص متخلفات الأنسجة المحروقة، أما معالجة الحروق الناشئة عن حرارة الشمس فلا تختلف عن الحروق الناشئة عن أسباب أخر، وبعض الأشخاص لا يطيقون المعالجة بالشمس كالصغار والمسنين والمصابين بأمراض عضوية مزمنة، وأولئك الذين يطيقون المعالجة الشمسية يتمتعون بمناعة ممتازة من البرد والتهابات الجهاز التنفسي، ولهذا السبب حبذا لو انتفع كل مواطنينا بالشمس الجميلة التي أنعم الله بها على بلادنا، والتي لا يوجد شك في أنها لو استعملت بحذق لكانت من الأسباب العظيمة لتقوية بناء الجسم ولإطالة العمر.

أما أهمية ضوء الشمس فهي لحيازته لخاصية قتل الجرائيم، وهو ما تقوم به الأشعة التي فوق البنفسجية الموجودة في الطيف الشمسي، هذا عدا عن فعلها في تنشيط ميتابولزم الكالسيوم، ولهذه الأشعة علاقة متينة بالفيتامين ومفرزات الغدد الصماء، كما تكسب الدم خاصية إهلاك الجراثيم، كما كشف عن ذلك الأستاذ «ليوناردهل».

(٦) ثم أخذ يشرح عن حمام الرئة، فقال في الصفحة ١٣٣ ما يأتي: إن الرئة لا تقوم بوظيفة إخراج حمض الكربونيك فحسب، بل هي عند الضرورة تخرج سواه، ولذلك تشم رائحة الكحول في زفير المخمور، والطريقة الوحيدة لتطهير الرئة هي التنفس العميق، أو التنفس أثناء المرانة البدنية في الهواء الطلق، بهذه الطريقة يجدد شباب كل عضو من الأعضاء من المخ حتى الجلد.

(٧) وهنا شرح أمراضاً كثيرة لا داعي لذكرها، ولنقتصر على ما يفيدنا. قال في صفحة ١٥٣ وما بعدها ما يأتي: فالمحور الذي تدور حوله كل جهود رجال الصحة هو سعادة الإنسان، أو بالتالي إطالة عمره في صحة وعافية لأنها والسعادة توءمان، وبديهي أن السعادة ليست في وفرة المال فحسب، بل هي السلام وهدوء البال، وأهم أركانها التمتع بالصحة، ونعمة الصحة تدعم حياة الإنسان إذا توافر له الغذاء الجيد النوع الكافي المقدار، وما يقيه من الملبس والمسكن ونحو ذلك، ومتى رزق النسل الصحيح البنية.

وهذه هي المسائل الأربع الهامة التي تبذل المصالح الصحية المختلفة في أنحاء العالم كل جهود لتوفيرها لبني الإنسان، ولذلك كان من رأيي أن العناية بالصحة العامة هي الوسيلة الأولى لإطالة العمر، لأنه لا توجد عقبة في سبيل طول حياة الإنسان إذا توفرت لديه كل هذه الوسائل. وكم كان يعيش الناس سعداء آمنين مطمئنين لو أتيح لكل منهم أن يحصل على نصيبه من الوسائل الآنفة الذكر وكيف كانت تكون حال الدنيا من الهناء إذا طالت أعمار بنيها إلى الحد الأقصى في صحة ورخاء، لا شك أنهم كانوا يستهينون بالموت، بل وينتظرونه كحادث طبيعي لا بد من حلوله في أوانه، وحقاً إننا إذا أدركنا هذه العناية بلغنا منتهى ما يتمنى الإنسان في الحياة، ولا يخفى أن طول الحياة في هذه الحالة سيكون خير واسطة لتقدم الإنسان، وذلك لإمكان زيادة الإنتاج العلمي والأدبي والمادي، ولا سيما في سن التعقل والرزانة، والله المستعان لما فيه خير الأمة والإنسانية جمعاء.

أصبح التعمير وإطالة العمر من الأمور العلمية، بعد أن كان من الأماني والأحلام التي لا يرجى أن تحققها الأيام، ولقد وضعت له أسس وقواعد أملاها العلم وأيدها الاختبار، وخصوصاً علم الصحة العامة الذي تقدم تقدماً كبيراً في السنين الأخيرة، لأن التعمير من أهم ما يعنى به رجال الصحة في كافة البلاد، حتى إنه بفضل جهودهم أصبح متوسط عمر الإنسان في العصر الحديث أطول منه في العصور الغابرة، فلقد زاد متوسط ما يعيشه الإنسان في الخمسين سنة الأخيرة نحو اثني عشرة سنة. انتهى ما أردته شرحاً وتلخيصاً ونقلاً من كلام طبيبنا ومواطننا «شاهين باشا» ولقد أجاد وأفاد، وبان أن كلامه كله يرجع أهمه إلى الأغذية والأهوية والمشي والتمرينات العضلية.

ولا سيما أن الأغذية هي ما حولنا من المخلوقات، وقد قال: إن الشمس نافعة للصحة. فباجتماع التمرين العضلي مع ضوء الشمس على الجسم مع الأغذية الطازجة التي لا إفراط فيها يعيش الإنسان عيشاً أهنأ وهو سعيد في نفس هذه الحياة.

واعلم أن الاستحمام بالشمس تقدم في سورة «يونس» عند آية: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً﴾[الآية: ٥] الخ، وقد تقدم الكلام على الأغذية ونحوها في سور كثيرة، في سورة «البقرة» عند آية: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ﴾[الآية: ٦١]، وفي سورة «الأعراف» عند آية: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟﴾[الآية: ٣١]، وفي أول «الحجر» عند الإشارة إلى آدم، وفي سورة «طه» عند ذكر آدم أيضاً، وفي سورة «الشعراء» عند آية: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الآية: ٨٠]، وفي سورة «ص» عند آية آدم في آخرها وعند ما قبلها في قصة داود، وفي سور أخرى.

اللهم إني أحمدك حمداً كثيراً، لأنك علمتنا ما لم نكن نعلم، وهديتنا الصراط المستقيم، وأزلت عنا الحجب المانعات من سعادتنا وهنائنا في نفس هذه الحياة الدنيا، وأريتنا تفسير قولك في كتابك العزيز: ﴿ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ (٢٠) وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٢١) وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾[الذاريات: ٢٠-٢٢]، فوجدنا هناك تآلفاً واتحاداً بين الخضر والفاكهة مما في الأرض مع ضوء الشمس على صحة أجسامنا. وإلى هنا تم الكلام على اللطيفة الأولى في قوله تعالى: ﴿ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ ﴾[الذاريات: ٢٠]، وما بعدها. والحمد لله رب العالمين. كتب يوم الخميس ٢٢ أكتوبر سنة ١٩٣١.

اللطيفة الثانية: في قوله تعالى: ﴿ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٢١) ﴾ وما بعدها

كتب قبيل الفجر ليلة السبت ١٦ إبريل سنة ١٩٣٢م

تفسير: ﴿ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٢١) ﴾[الذاريات: ٢١] الداخلة في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٥) آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ (١٦) كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (١٧) وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (١٨) وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (١٩) وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ (٢٠) وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٢١) وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ (٢٢) فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ (٢٣) ﴾

كتبت هذا العنوان بحضور صديقي العالم الذي اعتاد أن يناقشني في هذا التفسير، فقال: ماذا تريد من أمر النفس اليوم والتفسير مشحون بعجائبها؟ فقلت: إن العجائب التي سأذكرها هنا لم يسبق لها نظير. فقال: وكيف ذلك؟ فقلت: إن في النفس لحدائق وبساتين، وجنات وعيوناً، وبهجة غفل عنها الناس. فقال: الناس أجمعون؟ فقلت: نعم أجمعون. فقال: إني أخاف من إطلاق هذا القول، إن علم النفس اليوم ارتقى ارتقاء مدهشاً ودخل في تربية المدارس في هذا القرن بهيئة عجيبة. فقلت: أنا سأبرهن لك في هذا المقام على ما أقول، وسأريك أولاً حدائق النفس وبساتينها وأشجارها بهيئة تسر الناظرين، ثم أقفي بتبيان أن هذه الحدائق انتفع الناس بظلها الظليل، فتفيؤوا ظلالها، وعاشوا في مناكبها، وذلك في علوم الفلك والطبيعة والنبات والحيوان والمعادن وجميع الصناعات، وأبين ذلك بالأمثلة الواضحة، ثم أثلث بأن الأمم كلها وإن استظلت بظل تلك البساتين في العلوم والصناعات لم تجن الثمرات ولم تتناول القطوف الدانية من الغصون الوارفة في تلك الأشجار الباسقة، بل هم لا يزالون مفتونين بالظواهر، مشغولين عن نفوسهم ودراستها، ولو أنهم كما درسوا نظام هذه الدنيا درسوا نفوسهم أيضاً من حيث نظامهم لبنوا سياستهم في الحياة الدنيا على نظام أقل ما فيه أنه يشبه نظام النحل أو النمل أو الأرضة، ولكنهم إلى الآن جهال مبعدون عن السعادة في أرضنا هذه وهم غافلون. فقال: والله إن هذا الكلام عليه مسحة الحق، لقد شاقني هذا البيان أن أسمع منك. فقلت: إنها فصول ثلاثة: الأول منها في الجذر والتربيع والمتوالية العددية والهندسية والكسر الدائر ونحوها. ثم قلت: انظر هذه الحديقة.

الجذر والتربيع

قواعد	ارتفاعات	أوتار	أعداد	رواسم
٣	٤	٥	١	و٢
٥	١٢	١٣	٢	و٣
٧	٢٤	٢٥	٣	و٤
٩	٤٠	٤١	٤	و٥
١	٦٠	٦١	٥	و٦
١٣	٨٤	٨٥	٦	و٧

هذه فروق متساوية في الارتفاعات

٤ من ١٢	١٢ من ٢٤	٢٤ من ٤٠	٤٠ من ٦٠	٦٠ من ٨٤
٨	١٢	١٦	٢٠	٢٤
٤	٤	٤	٤	٤

فروق متساوية في الأوتار

٥ من ١٣	١٣ من ٢٥	٢٥ من ٤١	٤١ من ٦١	٦١ من ٨٥
٨	١٢	١٦	٢٠	٢٤
٤	٤	٤	٤	٤

هذه هي الحديقة الغناء.

فقال: اللهم إني أفهم في رقعة الشطرنج وأنواع الألعاب، ولا أفهم في هذه الحديقة شيئاً.

فقلت: أيها الصديق، إن هذا الجدول كله يرجع لأمر يعرفه العالم والجاهل وهو ١ ٢ ٣ ٤ ٥ ٦ ٧ ٨ الخ ولكن المعرفة السطحية جاهلة، فانظر في الجدول المرسوم تحت عنوان أعداد رواسم، أليس هذا الجدول عبارة عن نفس هذه الأعداد؟ قال: نعم. فقلت: أتدري ماذا حصل فيها؟ قال: لا. قلت: ربعوا ١ و ٢ ثم طرحوا مربع الأول من مربع الثاني فكان باقي الطرح ٣ ثم جمعوها فكان المجموع ٥، وضربوا ١ في ٢ ثم ضربوا الحاصل في ٢ فصار ٤، فالعمل إذن رجع إلى التربيع وطرحه وجمعه، وإلى ضرب نفس الجذرين في بعضهما ثم تضعيفهما. فقال: ما معنى الجذر؟ فقلت: ٢ جذر و ٤ تربيع له، ٣ جذر و ٩ تربيع له وهكذا. فقال: فهمت. فقلت: إذن عندنا ٣ و ٤ و ٥. قال: نعم. قلت: وهذه ناتجة من عددي ١ و ٢. قال: حقاً بسبب التربيع طرحاً وجمعاً، والجذر ضرباً وتضعيفاً. قلت: الحمد لله قد فهمتني. ثم قلت: هذا هو المثلث القائم الزاوية أ جـ ب.

فخط «أ جـ» ارتفاع، وخط «ب جـ» قاعدة، وخط «أ ب» وتر، فإذا كان خط «ب جـ» (٣) في المثلث القائم الزاوية «جـ» فإن «أ ب» فيها يكون ٥، و«أ جـ» يكون ٤.

فانظر أيها الذكي ألست ترى أن مربع ٥ وهو ٢٥ يساوي مجموع المربعين وهما ١٦ و ٩. قال: حقاً والله. قلت: أليست هذه هي النظرية المشهورة في الهندسة وهي مربع وتر المثلث القائم الزاوية يساوي مجموع مربعي الضلعين الآخرين. فقال: أهي هذه؟ قلت: نعم هي هي التي كشفها فيثاغورس فقال: عجب! أهذه البدائع كلها ترجع إلى ١ و ٢ فقط؟ فقلت: نعم، وغاية الأمر جعلناهما جذراً وربعناهما تارة وضربناهما أخرى، واستعملنا الطرح والجمع والضرب فخرج هذا كله. فقال: هذا حسن، وحسن جداً، وإذا دمت في الإفهام على هذا المنوال حتى استوفيت المسائل إلى أن تصل علم السياسة فإن عقلاء الأمم يفهمونها وتحدث أثراً على مقدار طاقة نوع الإنسان في هذه الأرض. فقلت: ثم انظر عددي ٢ و ٣ في نفس هذا الصف وهو صف أعداد رواسم، فلنجعلهما جذراً، والمربعان ٤ و ٩ إذا جمعناهما كان المجموع ١٣ وبالطرح يكون الباقي ٥ وبضرب ٢ في ٣ وتضعيف الحاصل

وهو ٦ يكون عندنا ١٢ . فهذه هي أضلاع المثلث السابق مكبراً، فإن ١٣ وتر و١٢ ارتفاع و٥ قاعدة، ولا جرم أن مربع ١٣ وهو ١٦٩ يساوي مجموع مربعي ١٢ و ٥ وهما ١٤٤ و ٢٥ . فقال: بالله ما أبهج العلم وألذ الحكمة وأبدعها، إذن بقية الأعداد هكذا أي: ٣ و ٤ ثم ٤ و ٥ ثم ٥ و ٦ . قلت: نعم كلها على هذا النمط قواعد وارتفاعات وأوتاراً بحيث يستمر الحساب إلى ما لا نهاية له من غير حصر.

ملاحظات

بالنظر في هذه الجداول نجد أن ترتيب المثلثات المذكورة على الأعداد البسيطة أنتج أولاً: الفرق بين القواعد عدد ٢ لأنها ٣ ٥ ٧ ٩ الخ . ثانياً: أن بين كل ارتفاع وما يليه نسبة وباقي طرح أحدهما من الآخر إذا قابلناه بباقي طرح ما يليهما كان الفرق بين باقي الطرح ٤ ، مثلاً ارتفاع ٤ نطرحه من ارتفاع ١٢ والباقي ٨ ، وارتفاع ١٢ نطرحه من ارتفاع ٢٤ فالباقي ١٢ ، وهكذا فإننا نجد الفرق بين كل باقي وما يليه ٤ ، ومثل ما فعلنا في الارتفاعات نفعل في الأوتار سواء بسواء، فنفعل في ٥ و ١٣ و ٢٥ الخ مثل هذا، فيكون الفرق أيضاً ٤ وهذا هو العجب، إذا نرى الأعداد البسيطة على ترتيبها تظهر منها هذه الأعاجيب، نظام مقدس في القواعد لأن الفرق ٢ ، ونظام مدهش في الارتفاعات والأوتار، لأننا نجد الفرق بينهن ١ ، وهذا أمر عجيب جداً ونظام غريب في بواقي طرح الارتفاعات والأوتار وهو ٤ .

مساواة مربع الوتر لمربعي الضلعين الآخرين

وذلك كله بدخول الجمع والطرح والضرب على مقتضى الأحوال. أليست أيها الصديق هذه هي الحديقة الغناء من ١ و ٢ و ٣ وهكذا. فهذه الأعداد البسيطة عند الجاهل لا قيمة لها. فكما أنه لا يعقل نفسه لا يعقل جمال هذه الأعداد، بل هذه الأعداد جزء من النفس، فالنفس الإنسانية في أول أمرها مبهمة غير مفصلة، ولكن كشف هذه الحقائق لها يجعلها مفصلة واضحة، لأن إحساسها بعد أن كان أمراً مجملاً أخذ الحساب يفصله، وأخذ يطالع في نفسه هذه العجائب الناجمة من الأعداد البسيطة السهلة، إن أمر الحساب لعجب! أمر الحساب عظيم، انظر كيف يقول الله: ﴿ وَٱلْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ۝٣ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴾[الفجر: ١-٤]، ثم يقول: ﴿ هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ ﴾[الفجر: ٥]، ثم ذكر أمر الدول وخرابها، ويقول في آخر السورة: ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝٢٧ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ۝٢٨ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ۝٢٩ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴾[الفجر: ٢٧-٣٠] فأي مناسبة للشفع والوتر مع الفجر والليالي؟ ثم ما مناسبة هذه كلها للنفس ورضاها ودخولها الجنة؟.

هذه إشارات بعيدة الغور ستعرفها الإنسانية في المستقبل، فإن الحساب ونظامه لبنات جميلة بني بها هيكل النفس في أول أمرها أشبه بخلية الجسم في أول أمره، خلية الجسم واحدة وتنقسم إلى ٢ ، وهذه تكون ٤ و ٨ و ١٦ و ٣٢ وهكذا، فهذه متوالية هندسية كل الأجسام فيها سواء، وعمدة حياة هذه العوالم كلها الحساب، فالحساب الذي هو جزء مهم من نفوسنا هو الذي بني عليه نظام أجسامنا وأجسام العالم كله، فكما أن خلية الجسم الأولى صارت آلافاً وآلافاً من الخلايا، ولكل خلية حياة خاصة ترجع إلى الجسم العام، هكذا النفس الواحدة المشبهة الخلية تتسع بكل محسوس ومعقول، فهذه المعلومات تزيدها اتساعاً كما يزيد الجسم حجماً بالأغذية، والفرق بينهما أن الجسم يتجزأ،

والنفس لا تتجزأ ، فهي تعظم بهذه الصور الروحية وتزداد عظماً روحياً لا جسمياً ، ولو أن الأعداد وما ماثلها من جميع العلوم ذهبت من النفس لأصبحت أشبه الدودة الضعيفة .

إذا تقرر هذا نقول : إن الجداول المتقدمة المنتظمة أمر ثابت في نفسه مجرد عن المادة ، ولما كانت النفوس أقرب إليه دخل في أمزجتها وصار جزءاً منها لا يتجزأ ، فجميع هذه الجداول وبدائع الحساب ثابتات كلها في نفوسنا ، وهذه النفوس تكشف هذه الخبايا فيها بالدراسة فتزداد سعادة .

مثلاً : في هذا اليوم ١١ إبريل سنة ١٩٣١م زار بلادنا المصرية « جراف زيلن » ، وهذا المنطاد مر فوق القاهرة ، ورأيته أمس آخر النهار يطوف بالعباسية ، وهو أشبه بالحوت في البحر ، له لون فضي جميل ، ورأيته صباح اليوم قبيل كتابة هذا المقال ، ولف حول الحي الذي أنا فيه الآن شارع زين العابدين ، وكنت أمس واليوم أجد جميع سكان القاهرة رجالاً ونساء وصبياناً وشيوخاً يقفون فوق السطوح فرحاً بهذا الأمر العظيم المدهش ، لأنه أمر عجب ، ولم يروا مثله ، وأعوزه جهاد عظيم وعلم غزير حتى برز للموجود . إن هذا سرور للنفس ، ولا جرم أن خبايا النفس إذا ظهرت لكاشفها تكون أكبر سعادة لها .

إن في الأعداد المستقرة في النفس الشفع والوتر المذكورين في الآية ، أما الوتر فقد ظهرت أمثلة له في قواعد الجداول المتقدمة ، وهنا يدهش الفيلسوف من قاعدة واحدة تكفل آلافاً مؤلفة من المثلثات القائمات الزاوية المختلفات اختلافاً تاماً ، بحيث إن ما قلناه في المثلث الأول ينطبق على كل مثلث بعده . ولنا أن نجعل الارتفاعات والأوتار السابقات في الجدول المتقدم رواسم هنا ، فكما أننا جعلنا ١ و ٢ و ٣ الخ رواسم لتلك الجداول نجعل ما ترتب على تلك الرواسم من الارتفاعات والأوتار قواعد ، فماذا يكون إذن؟ يكون هذا الجدول فتكون القواعد كلها مربعات للقواعد المتقدمة في الجداول السابقة .

قواعد	ارتفاعات	أوتار	أعداد	رواسم
٩	٤٠	٤١	٤	و٥
٢٥	٣١٢	٣١٣	١٢	و١٣
٤٩	١٢٠٠	١٢٠١	٢٤	و٢٥
٨١	٣٣٨٠	٣٢٢٨١	٤٠	و٤١
١٢١	٧٣٢٠	٧٣٢١	٦٠	و٦١
١٦٩	١٤٣٨٠	١٤٢٨١	٨٤	و٨٥

فهاهنا أصبحت القواعد أعداداً مربعات ، ولهم طرق أخرى يجعلون فيها القواعد كلها زوجية مثل هذه :

قاعدة	ارتفاع	وتر	عدد	راسم
٦	٨	١٠	١	و٣

وهو يجري على القاعدة عينها ، فلنكتف بهذا المقام ، انتهى الكلام على الجذر والتربيع من الفصل الأول ، والحمد لله رب العالمين .

الكلام على المتوالية العددية والهندسية

المتوالية العددية مثل ١، ٣، ٥، ٧، ٩، ١١ الخ، وهذه متوالية عددية تصاعدية، أو نقول هكذا: ١١، ٩، ٧، ٥، ٣، ١ فهذه متوالية عددية تنازلية، والفرق بين كل عددين متواليين يسمونه أساساً للمتوالية، وهو في هذه ٢ ويكون ٤ في الآتية ٢٦، ٢٢، ١٨، ١٤، ١٠، ٦، ٢، ولو أخذ ثلاثة أعداد «حدود» كان مجموع الطرفين ضعف الوسط كحدود ١٤، ١٠، ٦ من التنازلية، فإن ضعف ١٠ وهو الوسط ٢٠، ومجموع الطرفين وهما ١٤، ٦ يساوي ٢٠، وفي التصاعدية كذلك مثل ١٤، ١٨، ٢٢، فإن ١٤ + ٢٢ يساوي ١٨ في ٢، فإذا أخذنا ٤ حدود كان مجموع الطرفين يساوي مجموع الوسطين وهو الظاهر.

الكلام على المتوالية الهندسية

هي مثل ٣، ٦، ١٢، ٢٤، ٤٨، ٩٦ وهذه تصاعدية، ويقال فيها نسبة ٣ إلى ٦ كنسبة ٦ إلى ١٢ كنسبة ١٢ إلى ٢٤، وكل حد يساوي الحد الذي قبله مضروباً في الأساس، مثل ٦ يساوي ٣ مضروباً في ٢، أي: يساوي الحد الذي قبله مضروباً في الأساس، ٢ هنا هو الأساس، وهو الخارج من قسمة كل حد على الحد الذي قبله وهو لا يتغير، وهذه المتوالية تكون تنازلية كما تكون تصاعدية، وما قيل في الوسطين والطرفين هناك يقال هنا، ولكن بطريق الضرب، فنقول هنا: حاصل ضرب الطرفين يساوي حاصل ضرب الوسطين، أو حاصل ضرب الطرفين يساوي حاصل ضرب الوسط في نفسه «مربع الوسط»، مثلاً: ٣، ٦، ١٢ مربع الوسط فيها وهو ٣٦ يساوي حاصل ضرب ٣ في ١٢، وهذا واضح.

إنّما ذكرت ذلك هنا ليكون ذلك تذكيراً لمن لم يعرف علم الحساب، وأريد هنا أن آتي ببعض المقصود فأقول: إن للمتوالية العددية والمتوالية الهندسية فوائد في علم الأوفاق، وقد تقدم في هذا التفسير شذرات منه، ولكني أريد هنا أن أذكر منه عجباً:

جدول وفقي فردي				
٣	٢٠	٧	٢٤	١١
١٦	٨	٢٥	١٢	٤
٩	٢١	١٣	٥	١٧
٢٢	١٤	١	١٨	١٠
١٥	٢	١٩	٦	٢٣

كل قطر أو وصف أفقي أو رأسي هنا إذا جمع يساوي ٦٥، أي: يساوي حاصل ضرب جذر عدد الخانات وهو ٢٥ في عدد ١٣ الذي هو وسط المتوالية الذي هو في مربع تقاطع قطري هذا الجدول، فالجذر ٥ في ١٣ يساوي ٦٥، وكيفية تعمير هذا الجدول تراها في كتاب أستاذنا المرحوم علي مبارك باشا في كتابه «خواص الأعداد» وفي كتابي «بهجة العلوم» في الفلسفة العربية وموازنتها بالعلوم الحديثة.

جدول وفقي زوجي				
٤	١٤	١٥	١	٣٤
٩	٧	٦	١٢	
٥	١١	١٠	٨	
١٦	٢	٣	١٣	٣٤

هذا الوفقان المنتظمان العجيبان فيهما متوالية عددية أولها ١ وآخرها ٢٥ في الأول، ١٦ في الثاني، وفيهما بدائع وعجائب، فالخط الأفقي والرأسي والقطر كلها متساوية، وجذر العدد الفردي وهو ٢٥ بضربه في وسط المتوالية الموضوع في الوسط يكون هو نفسه في ذلك المجموع، ولأكتف بما ذكرته الآن في أوفاق المتوالية العددية.

أوفاق المتوالية الهندسية

إن كل ما قيل في أوفاق المتوالية العددية يقال نظيره في أوفاق المتوالية الهندسية، ولكن الأمر هنا يكون بالضرب وهناك بالجمع، فنجد في الوفق المثلث الآتي أننا عمرناه بهذه المتوالية:

١، ٢، ٤، ٨، ١٦، ٣٢، ٦٤، ١٢٨، ٢٥٦ فهاهنا ترتيب كترتيب الوفق العددي لكل قطر، وكل صف أفقي أو رأسي حاصل ضرب أعداده يساوي ٤٠٩٦ وهو مكعب ١٦ الذي في الخانة الوسطى، وطريقة التعمير هنا كالطريقة هناك:

٨	٢٥٦	٢
٤	١٦	٦٤
١٢	١	٣٢

وفق مثلث للمتوالية الهندسية

٤	٩	٢
٣	٥	٧
٨	١	٦

وفق مثلث للمتوالية العددية

فوازن بينهما أيها الذكي فإنك تجد عدد كل صف وكل قطر في الفردية ١٥ وهو من ضرب ٥ الذي هو في الخانة الوسطى وهو وسط المتوالية أيضاً في ٣ الذي هو جذر عدد الخانات وهو هنا ٩.

أما في وفق المتوالية الهندسية فإنك تجد حاصل ضرب أعداد كل صف أفقي أو قطري أو رأسي مساوياً لمكعب تلك الخانة التي في الوسط وهي هنا ١٦، ففي الفردية ٥ مضروبة في جذر عدد الخانات، وهنا مكعب تلك الخانة التي هي في الحالتين يمر بها القطران معاً وتكون وسط الوفق بالضبط، فهي في الوفق كقلب الإنسان أو الحيوان.

عند ذلك قال صاحبي: لقد فهمت المتوالية بقسميها، وفهمت أوفاق العددية بقسميها، ولكن لم أطلع على وفق للمتوالية الهندسية يكون زوجياً. فقلت: إن الأمر يطول، وأنا لم أذكر شيئاً من ذلك هنا إلا مقدمة لما سأذكره في الفصل الثاني، والثاني مقدمة للثالث، أعني أني كما قلت لك سابقاً أريد بهذه المقدمة أن أبين عجائب الأعداد في نفوسنا، ولكني لا أطيل أكثر من اللازم، وأقفي بأن أمثال هذه القوانين التي في نفوسنا وجدت في نفس الطبيعة، ثم أقفي بأن أقول: من العار على هذا الإنسان ــ الذي وجد في نفسه تلك القوانين، ثم عرفها في الطبيعة، ثم استعملها في الصناعات التي يعيش بها ــ أن يكون غافلاً أشد الغفلة، جاهلاً أفحش الجهل، إذ لم يطبقها على نفس الإنسان، فالذي أريده من ذلك كله أن أبين أن للإنسان في نفسه بصيرة ولكنها محجوبة عنه، ومادامت محجوبة فإنه يكون معذباً في حياته الدنيا والآخرة، وهذا أصبحت به موقناً، فعلي إذن أن أبينه لنوع الإنسان. قال: إذن فلنكتف في هذا الفصل بما ذكر ونبتدئ في الفصل الثاني. فقلت: نعم ولكن بقي أن آتي بلمعة يسيرة لأتمم هذا المقال، وذلك بذكر الأعداد المتحابة، وذكر الأعداد الكاملة، لتدهش أيها الذكي من عجائب نفوسنا البديعة. فقال: أرجو أن توضحه هنا إيضاحاً تاماً. فقلت: إنه سيأتي في سورة «الرحمن» عند قوله تعالى: ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾[الآية: ٥]، فإني سأبين هناك أن العوالم كلها مبنية على الحساب كنص الآية، ولكني أشير إليه هنا إشارة بسيطة لاستيفاء المقام:

اعلم أن العدد الكامل هو الذي يساوي مجموع مضاريبه، أما الزائد والناقص فهما على خلافه، فعدد ٦ من ضرب ٢ في ٣ ومن ضرب نفس العدد في ١ وبجمع ٢، ٣، ١ يكون المجموع ٦، وهذا العدد نادر جداً، وعدد ٢٨ ناتج من ضرب ٢ في ١٤ ومن ضرب ٤ في ٧ ومن ضرب ٢٨ في ١، وبجمع ١، ٢، ٤، ٧، ١٤ يكون المجموع ٢٨، وليس في الأعداد من ١ إلى ١٠٠ سوى هذين العددين، وله جدول تجده في هذا التفسير عند ذكر خلق السماوات والأرض في ستة أيام، وهنا أذكر قاعدة استخراج الأعداد الكوامل لمناسبة المتوالية الهندسية المذكورة التي رأينا فيها عجائب الأوفاق العددية السابقة، فانظر ما يأتي:

٢ ٤	٤ ٨	١٦ ٣٢	٦٤ ١٢٨	٢٥٦ ٥١٢
٦	٢٨	٤٩٦	٨١٨٢	١٣٠٨١٦
٣ في ٢	٧ في ٤	٣١ في ١٦	١٢٧ في ٦٤	٥١١ في ٢٥٦

فلما نظره قال: لم أفهم شيئاً. فقلت: إن هذه هي المتوالية الهندسية، فإنك في الصف الأفقي الأعلى تجد ٢، ٤، ٨، ١٦ وهكذا، ففي الصف الذي تحته تجد الأعداد الكوامل وهي ٦، ٢٨ وهكذا، أما في الصف الأسفل فإنك تجد أن ٢ التي في أول الفاصل الأول من أعلى قد نقلت تحت ٤ في نفس الفاصل، وتجد عدد ٣ في نفس الفاصل قد وضعت في محاذاة ٢ وعدد ٣، هذا هو عدد ٤ في الفصل الأول المذكور نقصنا منه واحداً، وبضرب ٣ في ٢ يكون الحاصل ٦ وهذا هو المطلوب، وهكذا نفعل في الفصل الثاني فإن عدد ٤ الذي في أعلاه قد وضعناه في أسفل الصف الذي في أعلاه ثمانية، ٧ التي هي في محاذاة ٤ هي عين ٨ التي عند الفاصل الثاني وقد نقصت واحد، وبضرب ٧ في ٤ يكون عندنا ٢٨ وهو العدد الكامل، ونفعل مثل هذا على التوالي في كل المتواليات الهندسية بلا حصر، ويمكننا أن نضع جدولاً بأعداد كوامل من غير نصب يبلغ آلافاً وآلافاً، وقد ذكرت هذا الجدول المذكور فيما تقدم من هذا التفسير، ولكن لم أذكر هذه القاعدة هناك، والقاعدة هنا خير مما هناك.

فقال: إن هذا عجب عجاب! كيف تكون المتوالية الهندسية ذات خواص على هذا المنوال، فإنها ذات أوفاق عددية وزوجية عجيبة، وبها أمكننا استخراج الأعداد الكوامل، ولكن لم أعرف الأعداد المتحابة. فقلت: إنها واضحة هي وطريقة استخراجها في سورة «الرحمن» فيما يأتي. فقال: ولكن أرجو أن أعرف طرفاً منها هنا لأتصور أمرها. فقلت: هي من أسرار عدد ٢ كالتي قبلها، فإنك تجد عددي ٢٢٠، ٢٨٤ متحابين، لأن ٢٢٠ يساوي مضاريب ٢٨٤ والعكس، لأن ٢٢٠ يساوي ١ و٢ و٤ و٧١ و١٤٢، وهذه عينها مضاريب ٢٨٤، و٢٨٤ يساوي مضاريب ٢٢٠، وهي ١ و٢ و٤ و٥ و١٠ و١١ و٢٠ و٢٢ و٤٤ و٥٥ و١١٠، واستخراج هذا كله بسبب عدد ٢، لأنه إذا ضرب في ٣ ثم في ٦ ثم ضرب مربعه وهو ٤ في ١٨ حصل عندنا ٦ و١٢ و٧٢، فإذا نقصنا من هذه الثلاثة واحد واحداً كان هكذا ٥ و١١ و٧١، وإذا ضربنا ٥ في ١١ وضربنا الناتج وهو ٥٥ في ٤ كان الناتج ٢٢٠، وهو أحد العددين السابقين، ويمكن إيجاد العدد الآخر بضرب ٧١ في مربع ٢ المذكور، وهو ٤، فيكون الناتج ٢٨٤ وهو العدد الثاني وهو المطلوب، وهكذا يمكن استعمال أي قوة من قوى عدد (٢) على هذا

النمط لاستخراج الأعداد المتحابة، وهذا سيتضح اتضاحاً تاماً في سورة «الرحمن» فانتظره. فقال: حقاً قد استوفينا هذا المقام بقدر الإمكان. فقلت: بقي الكلام على الكسر الدائر البسيط والمركب، فانظر $\frac{1}{3}$ فهو إذا جعل كسراً إعشارياً يكون هكذا ٠,٣٣٣٣ وهكذا إلى ما لا نهاية له فهذا كسر دائر بسيط، وانظر الكسر الدائر المركب فهو كذا $\frac{1}{7}$ وهكذا إلى ما لا نهاية ٠,١٤٢٩٥٧١٤٢٩٥٧، وترى كسر $\frac{1}{6}$ ٠,١٦٦٦ إلى ما لا نهاية له. واعلم أن الأعداد البسيطة على ثلاثة أقسام: زوجية وكل كسورها منتهية، وهي $\frac{1}{2}$ و$\frac{1}{4}$ و$\frac{1}{8}$، فهي تساوي ٠,٥ و٠,٢٥ و٠,١٢٥ وفردية وهي كلها غير منتهية، وقد تقدمت هنا، وأعداد أولية مثل $\frac{1}{5}$ و $\frac{1}{7}$ فهو منته كالأعداد الزوجية، والثاني غير منته كالأعداد الفردية.

اللهم إنا نحمدك ونشكرك، أنت الجميل، أنت الحكيم، أنت البديع، أبدعت نفوسنا وملأتها بالجمال، أنت العليم تعلم كل شيء، ولما أبدعت أرواحنا أشرق عليها نورك فأصبحت الأعداد من كيانها ومزاجها وحقيقتها، وهذه الأعداد لها نظام جميل، فإذا كانت الكسور المتقدمة قد اختلفت ــ فمنها ما له نهاية، ومنها ما لا نهاية له، وما لا نهاية له إما كسر دائر بسيط، وإما كسر دائر مركب، ولكل من هذه الأقسام التي امتزجت بنفوسنا نتائج ظاهرات في العوالم حولنا ــ فإن أمر نفوسنا إذن لعجيب، إذ كيف نرى ما حسبناه في الأعداد الممتزجة بنفوسنا تصير مظاهره في العوالم حولنا كما سيأتي في الفصل الذي يلي هذا وما بعده مثل:

(١) إن سير الكواكب لم يخرج عن الكسر الدائر المركب، وذلك بسبب تكرار الأدوار في القرون والدهور.

(٢) ومثل أن هذا النوع الإنساني لا يعلم لأجزاء المادة نهاية عند تحليلها الكيميائي كما لا علم له بنهاية الكسر الدائر.

(٣) ومثل عدم علمه بنهاية العالم من حيث المكان من جهاته الست.

(٤) وكذا هو لا يعلم متى ابتدأ ولا متى ينتهي، إن هذا كله قد أوضحه الكسر الدائر الذي وعته نفوسنا، إذن نفوسنا كمنت فيها العوالم أو نماذجها.

(٥) ومن هذه أيضاً ندرك أن الله لا نهاية لعلمه، وإذا كان الكسر الدائر لا نهاية له وقد انطوت عليه نفوسنا وصار فيها مجملاً، وعلومنا بالنسبة لعلم الله أقل آلاف مرات من نسبة أجسامنا إلى العوالم كلها، فهو إذن في علم الله مع عدم نهايته مفصلاً، وإذا نحن عرفنا الكسوف والخسوف بعد آلاف آلاف السنين معرفة مجملة؛ فالله يعلم ذلك مفصلاً، ويعلم كل الحوادث الصغيرة والكبيرة التي لا نهاية لها مفصلة، وذلك التفصيل ضرب له المثل بما سيأتي:

(٦) ألم تر المثلثين اللذين رسمناهما آنفاً وفيهما المتواليان العددية والهندسية، أفلا تعجب معي أيها الأخ الذكي. أفلا تدهش أن نرى عدد ٥ في المتوالية العددية وعدد ١٦ في المتوالية الهندسية قد جاء وضعهما في المربع الذي هو في وسط المثلثين، فكما كان عدد ٥ هو وسط ٩ هكذا عدد ١٣ وسطها، ثم إن ضرب ٥ في جذر ٩ هو عين مجموع الصفوف الأفقية والرأسية والقطرية، هذا تكعيب ١٦هو حاصل

ضرب كل صف وكل قطر، هذا النظام الذي تقدم فيهما يدلنا على أن نظام العالم على هذا النمط كما نرى نظيره في ترتيب العناصر الذي تقدم ذكره في سورة «العنكبوت»، فإن صانع العالم رحمنا بعلم الحساب وبهذه العجائب فيه التي أرتنا مفصلات الجداول منظمة مرتبة لا خلل فيها ولا خطأ، ولو اختل منها واحد لاختل الجميع وهذا الذي نفهم به على سبيل اليقين والمشاهدة ولو بطريق التنظير قوله تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا﴾[الإسراء: ١٢]، وقوله: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾[القمر: ٤٩]، وقوله: ﴿انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾[الإسراء: ٢١]، وقوله: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[النحل: ١١٨]، وذلك لأن الحساب لا يغير، ولو غير الحساب لاختل نظام المجموع، فكل امرئ في الأرض أشبه بعدد في مربع من تلك الأعداد، وكل أمة أشبه بجدول أفقي أو رأسي، وبين الأفراد علاقات لا خلل فيها، وكل فرد وكل أمة تختلف عن الأخرى، وهكذا خلق كل حيوان وكل إنسان وكل معدن الخ.

(٧و٨) نظام الأمم، وتشريح الأجسام: وكما أن علم الله مبني على نظام واحد وهو حساب محكم ظهر نموذجه الذي تقبله عقولنا الضعيفة؛ هكذا يجب أن يكون نظام أمم الأرض جميعاً، لأن اختلاط الأمم الآن دلنا أنهن متعاونات مرتبطات ارتباط هذه الأعداد بعضها ارتباطاً لا انفصام له ولا انقطاع، وأي فرق بين ارتباط الأمم وتعاونها وارتباط أعداد هذه الأوفاق وتناسب أعضاء الجسم الواحد؟ فالرجل لو نطقت لقالت: أنا أحب العين، وكلاهما يحب الكبد والكلية والعظم وما أشبههن.

الله أكبر، جلّ الله، ظهر الحق واستبان السبيل. فقال صديقي: وأي حق غير ما تقدم؟ فقلت: هو سر الأسرار وعلم الأبرار. فقال: ما هو يرحمك الله؟ فقلت: أي صديقي، إذا كانت هذه حال الأعضاء من الصداقة والمودة بحيث يرى كل عضو لو كان يعقل أنه يحب بقية الأعضاء ولا يحسد واحداً منها، لأن الجميع ينفع بعضه بعضاً، غاية الأمر أن الأعمال اختلفت كما أن عدد ١ و ٢ و ٣ الخ في الوفق المتقدم كل واحد منها في مربعه وهو مرتبط بجدوله وبالجداول الأخرى وبينهن مناسبات عجيبة، بل لو نطقن لقال كل واحد: إني أحب باقي الأعداد، لأن الوفق كله لا يتم إذا نقص واحد منها أو زاد أو انتقل من محله، كما ينقص الجسم بنقص عضو واحد وتتألم لفقده بقية الأعضاء، والذي يخطر لي كثيراً أن هذه العقول الإنسانية في الأرض سائرة إلى هذه الحال يوماً ما، وهي قبل أن تصل إلى هذه الحال لا تزال في ذل وعذاب مهين كأهل أرضنا اليوم، فإن كل أمة من شدة الجهالة الفاشية في نوع الإنسان تريد أن تستقل بالحياة، وهي في ذلك أشبه بعضو في الجسم، أو مربع في الوفق يريد الاستقلال بالحياة وحده ويذهب الباقي من الحياة، وهذا هو السبب في أن الحقد والحسد وبغض الناس من الكبائر، لأن ذلك حجاب حجب هذه النفوس عن الاتحاد الذي يجعل كل نفس تفرح بالبقية، وهذا إلى الآن لم يكن له أثر في أرضنا إلا قليلاً، وقد نجد رجال الحكومات يتعاونون ورجال الصناعات وغيرهم، ولكنه تعاون ظاهري، وكل يقصد نفسه، وخير لكل امرئ في الأرض أن يقصد المجموع الإنساني كما قدمناه في سورة «الزمر» منقولاً عن الأستاذ «كانت» الألماني في رسالته عن التعليم، فإن حض جميع أفراد الأمم على أن يكون المقصد الأسمى سعادة المجموع. هذا هو الحق

الصراح، فليجدّ المسلمون من الآن في إسعاد جميع النوع الإنساني، وهذا هو سبيل الله والجهاد فيه موصل للقاء الله عز وجل، وكيف يلاقي الناس ربهم، وهذه حال قلوبهم المملوءة جهالة بهذا الوجود وبهذه النفوس. وبهذا انتهى الكلام على الفصل الأول في حدائق النفس وبساتينها.

الفصل الثاني: في حدائق العلوم التي تفيأ الناس ظلالها وعاشوا في أكنافها من علم الفلك والطبيعة والنبات والحيوان والمعادن وجميع الصناعات

لقد ذكرنا في الفصل السابق الجذر والتربيع، وأبنا أسراراً بديعة جميلة، وحكماً بالغة، وذلك في المثلثات القائمات الزوايا، وكيف كان عدد ١ و٢ و٣ الخ بواسطة الجذر والتربيع أمكن استخراج آلاف آلاف المثلثات القائمات الزوايا ذوات الأوتار والقواعد والارتفاعات اللاتي لهن من المناسبات والاتفاقات والعجائب ما لا حصر له. هذا هو الذي رأيناه في خفايا نفوسنا. كما قال الله تعالى: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾[الذاريات: ٢١]. فهاهو ذا الذي فهمته نفوسنا واشتملت عليه، سواء أكانت جاهلة به أم علمته ظهر في نفس الطبيعة، ألا تذكر بعض ما تقدم من الجذر والتربيع في هذا التفسير؟ فقال: نعم قد تقدم في مواضع كثيرة مثل ما جاء في أول «آل عمران»، ذلك أن سرعة الأجسام الساقطة إلى بئر مثلاً من فوق جبل، أو ارتفاع ما، أو من فوق الأرض نفسها تكون بحساب ١٦ قدماً مضروبة في ١ في الثانية الأولى، وفي ٣ للثانية الثانية، وفي ٥ للثانية الثالثة، وفي ٧ للثانية الرابعة، وبعبارة أخرى ١٦ في الأعداد الوترية ١ ٣ ٥ ٧ ٩ ١١ ١٣ ١٥، وهكذا لكل ثانية على التوالي، وإذا ضربنا عدد الثواني مربعاً في ١٦ قدماً كان ذلك هو البعد الذي سقطه الجسم، فالثانيتان يكون البعد فيهما ٤ في ١٦، والثلاثة ٩ في ١٦، والأربعة ١٦ في ١٦. وبعبارة أخرى: ١ ٣ ٥ ٧ ٩ ١١ ١٣ ١٥ إذا ضرب كل منهما في ١٦ كان الحاصل هو الذي سقطه الحجر في تلك الثانية. فقلت: أحسنت أيها الأخ متذكر تمام التذكر وهناك زيادة إيضاح، ولكن الذي ذكرته أيها الأخ كاف فيما نحن بصدده، ذلك أننا نريد في هذا الفصل أن نبين أن المربعات ـ التي تقدمت في الفصل السابق وجذورها وهي في نفوسنا ما هي إلا أعداد مجردة لها نظام عجيب من تربيع وجذر، ولها نتائج في حساب المثلثات العقلية المنظمة العجيبة ـ قد ظهر آثارها في الطبيعة حولنا، مما يدل على أن نفوسنا بينها وبين العالم حولنا مناسبة، وكلما زدنا دراسة زدنا علماً بنفوسنا، وكنا أقرب إلى ربنا، وهل يكون قرب إلا بالعلم؟ وهل العبادة إلا فتح باب للعلم؟ وهل الصيام والحج والزكاة إلا مساعدات على خلوص النفس من أوحال هذه الدنيا فتحلق بالعالم المجرد عن هذه المادة فتقرب من ربها، وهل ترى أعجب من أن التربيع والجذر الكامنين في نفوسنا قد ظهرا في الطبيعة التي صنعها الله عز وجل بيده بحسابه المشاكل لما في نفوسنا، ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰۚ﴾[النحل: ٦٠]، الذي بدرسه نزيد حباً له وعشقاً وغراماً.

ثم قلت له: هذا هو الجذر والتربيع في حركات الأحجار الساقطات، فهل تذكر جذراً وتربيعاً في غير ذلك؟ فقال: نعم قد تقدم في سورة «الرعد» عند قوله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ [الآية: ٨]، فهناك الجذر والتربيع في سرعة النور والصوت والحرارة والجاذبية، ذلك أن شدة الصوت تقل بمقدار ما يزيد مربع البعد عن الجسم الصائت، كما إذا أتينا بأربعة أجراس بحجم واحد ووضعناها

على بعد ٤٠ ذراعاً ووضعنا جرساً آخر بحجمها أيضاً على بعد ٢٠ ذراعاً فإنا نجد صوت الأربعة كصوت الواحد، لأن بعدها كبعده مرتين، و٢ في ٢ تساوي ٤، فإذن يكون كل واحد من الأربعة صوته كربع صوت الجرس القريب، ونقول مثل ذلك في الحرارة، وفي النور، وفي الجاذبية، فهن سواء، والتمثيل والإيضاح تقدم هناك، فهل أعيده؟ فقلت: كلا، لأننا هنا نريد التذكير بما مضى، ومن أراد فليراجع ما تقدم. ثم قلت: هل تتذكر فيما مضى عجائب المتوالية العددية والهندسية المتقدمة في الفصل السابق حتى يكون التطبيق عليها مما سبق في هذا التفسير؟ فقال: نعم أتذكر ما مر في سورة «العنكبوت» عند آية: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾[الآية: ٢٠]، فإن هناك جدول العناصر البسيطة التي كشفها العلماء، وقد وضعت منظمة، بحيث رأينا أن الأيدروجين هو الوحدة التي يقاس عليها، وأن الهليوم زاد عليه اثنين تقريباً، وهكذا عناصر أخرى عدوها مع ضم الأيدروجين إليها ٨ وثامنها الأكسوجين، وهو له عدد ١٦، فكان لكل واحد اثنان في الجملة وإن اختلف بعض أفرادها، ونجد أن ذرة الكبريت ٣٢ وكسر وهي تمام الثمانية الثانية، وعلى كل فالنسبة بين كل عنصرين اثنان، ولكن هذا أمر تقريبي قد يختلف، ثم لننظر إلى الصفوف الرأسية التي يسمونها الطوائف، فنجد أن الليثيوم في الصف الرأسي ٦,٩٤ والصوديوم تحته ٢٣ والفرق بينهما ١٦، ثم إن البوتاسيوم تحته ٣٩,١ فالفرق بينهما ١٦، فهناك ثبت أن ترتيب زيادة العناصر ٢، ٢، ٢ عند وزنها، بمعنى أن الأيدروجين وهو أخفها جعل وحدة يقاس بها كما يقيس الناس بالذراع، وهذه العناصر كلها أثقل منه بعدد ٢، ٢، ٢ إلى آخرها، ثم وجد تناسب بينها في الخطوط الرأسية، إذن هي تفاوتت ٢، ٢، ٢ أفقياً، وتفاوتت رأسياً بمضاعف ٢ وهو ١٦، وهو العدد المسمى بزوج الزوج الذي هو عدد الشطرنج المعروف، فلما أجاب بذلك قلت: لقد كنت قوي الذاكرة، فلنكتف بهذا حتى إذا أراد أحد الأذكياء توسعاً في ذلك ورجع إلى نفس الجدول هناك رأى تفصيله. ثم قلت: وهل تذكر أثراً لأمثال هذا النظام في علم النبات؟ فقال: نعم قد تقدم في سورة «البقرة» عند آية الطير وإبراهيم أن العناصر تدخل في نظام النبات بحساب، فإذا شئت بسطت القول فيه فهو هناك مفصل. فقلت: كلا، فمن أراده فليراجعه هناك، وفي أي سورة أخرى غير «البقرة». قال: في سور كثيرة ومنها سورة «الحجر»، فإن هناك بين الأوراق مناسبة عجيبة جداً، لأننا نجد شجرة التفاح المرسومة هناك أوراقها ذوات دوائر منظمة تامة النظام، وكل دائرة تحوي دائرتين صغيرتين، وتشتمل على خمس ورقات، فتكون $\frac{٢}{٥}$، فالرقم الأعلى يشعر بالشكلين الحلزونيين، والرقم الأسفل يشعر بعدد الأوراق، وهناك نباتات أخرى فيها نسبة بين أوراقها وأشكالها الحلزونية، وهناك نظمت هذه النسب وجعلت بهيئة جميلة، ولما نظر فيها العلماء وجدوا بين النسب بدائع حسابية جميلة. فكما كانت العناصر بينها نسب هندسية وحسابية، هكذا جميع أوراق الشجر في مشارق الأرض ومغاربها بين بسط كل منها مع مقامه مناسبات لبسط باقي النبات ومقامه. فقلت: وهذا عجب! يخجل هذا الإنسان المجهول الذي لم يدرس نفسه حتى يعلم أن بين أفراده في جميع أممه نسباً حسابية، وهذه النسب جعلت للانتفاع بالمزايا الإنسانية المختلفة لا القضاء عليها ومحاربتها. انظر (شكل ٢٧و٢٨ في الصفحة التالية).

قد جاء في المجلد الثامن من هذا التفسير ما نصه: هاتان الصورتان المرسومتان أولهما صورة لغصن التفاح أو البلوط، وقد دارت الأوراق عليه مبتدئة من الأسفل دائرة حول الغصن، فالورقة الأولى المعنون عنها بعدد واحد تتلوها خمس قد صنعت دورتين حلزونيتين كما قدمنا، والخامسة منها التي هي السادسة في العدد تراها أمامك في الرسم فوق الأولى على خط مستقيم وهي تمام الدائرة الأولى، وتليها الدائرة الثانية ونهايتها، ومبدأ الدائرة الثالثة عدد ١١ وهكذا، هذا واضح في الشكل الأول، ولكن لما كان هذا لا يظهر منه أن كل خمس ورقات دائرة تامة وجب رسم الشكل الثاني الذي يمثل الدائرة التامة من هذه الدوائر بورقاتها الخمس بوضعها الأفقي، لتظهر للناس، فيعلمون أن هذه الأوراق الموضوعة وضعاً رأسياً هي دائرة تامة منظمة مقسمة خمس أقسام بخمس ورقات، كل قسم منها ٧٢ درجة تقسيماً عادلاً.

١ (شكل ٢٧)　٢ (شكل ٢٨)

فانظر في الشكل الثاني (شكل ٢٨) فإنك تجد الورقات الخمس التي صنعت دورتين حلزونيتين قد ظهرت واضحة جلية، فالورقة الأولى عدد ١ والثانية عدد ٢ والثالثة عدد ٣ وهكذا إلى السادسة التي جاءت في مقابلة الأولى على خط مستقيم. ومن أراد الزيادة فليقرأ هذا الموضوع هناك. اهـ.

موازنة بين حساب الأجرام السماوية بالكسر الدائر

ثم قلت: هل تذكر مما تقدم في هذا التفسير نظيراً للكسر الدائر؟ فقال: نعم، تقدم في بعض السور كثير منه ولكني لا أتذكره. فقلت: إننا كما نقول إن الكسر الاعتيادي $\frac{1}{7}$ إذا حولناه إلى كسر إعشاري يصير مركباً من ستة أعداد تتكرر بلا نهاية؛ هكذا نقول في حساب الكواكب بعد أن نعرف عدد أيام السيارات بهذا الجدول:

	عدد الأيام		عدد الأيام
عطارد	٨٨	المشتري	٤٣٣٣
الزهرة	٢٢٥	زحل	١٠٧٥٩
الأرض	٣٦٥	أورانوس	٣٠٦٧٨
المريخ	٦٧٨	نبتون	٦٠١٢٧

تذكرة

أعداد أيام السيارات التي حصل فيها جبر للكسر

لتسهيل الموازنة بين الكسر الإعشاري السابق وبين حساب الكواكب، قلنا: إن الكسر يساوي ١٤٢٩٥٧ ١٤٢٩٥٧ ١٤٢٩٥٧ , ٠، وهكذا تكرار هذه الأرقام بلا نهاية وهي ١، ٤، ٢، ٩، ٥، ٧، هكذا نقول: عطارد يدور إلى الأبد على مقتضى هذه الأعداد ٨٨ ٨٨ ٨٨ وهكذا إلى ما لا نهاية له.

ونقول: الأرض تسير على هذا النمط ٣٦٥ ٣٦٥ ٣٦٥ ٣٦٥ ٣٦٥ ٣٦٥ إلى ما لا نهاية له. وأورانوس يدور على هذا الحساب وهو ٣٠٦٧٨ ٣٠٦٧٨ ٣٠٦٧٨ ٣٠٦٧٨ ٣٠٦٧٨.

اللهم إنك أنت الحكيم الجميل العليم، أنت أبدعت الجمال والحكمة، وأريتنا الكسر الدائر ظاهراً نظيره في سير الكواكب، وفي تركيب كل مركب، فهو في الحركات وفي نظام العناصر، فيا ليت شعري، هل كانت هذه الدورات الفلكية نتيجة تقسيم الواحد الصحيح إلى أجزائه، أم ماذا كان؟ وكيف كان الكسر $\frac{1}{7}$ تكررت فيه ٦ أرقام من الأعداد البسيطة، وأورانوس تكرر فيه ٤ منها، ونبتون كذلك، وهكذا المشتري وزحل، وفي عطارد ٢، وفي الزهرة والمريخ والأرض ٣، فيظهر لي أن العوالم أجمعها كأنها وحدة، وهذه الوحدة تتجزأ دائماً وتتبع طريقاً مرسوماً لا تتحول عنه، كما لم يتحول الكسر الدائر عن منهجه، وإذا كان الكسر المذكور لا تنتهي أدواره، هكذا هذه الدراري لا تنتهي أدوارها انتهاء معلوماً لنا، بل علم الانتهاء عند خالقها ومدبرها. وبهذا تم الكلام على الفصل الثاني، وهو تطبيق ما ظهر في العوالم من الحساب الموافق لما في نفوسنا جذراً وتربيعاً وكسراً دائراً ومتواليات هندسية وحسابية وغيرها.

الفصل الثالث: في أن الأمم وإن استظلت بظلال تلك العلوم في حياتها لم تجن ثمراتها في سياساتها ولم تتناول القطوف الدانية من الغصون الوارفة في تلك الأشجار الباسقة بل هم لا يزالون بنظام أنفسهم فوق الأرض جاهلين

ألم تر أيها الصديق أن هذا الإنسان رأى الثعلب يصيد فقلده، وللعنكبوت شبكة للصيد فقلده ولبعض السمك منشاراً وبلطة فقلده، وللسرطان درعاً فقلده، وأخذ أحقاق النشوق عن «أم الخلول» وحرث الأرض عن الخنزير، والتباعد عن الروائح الكريهة عن الهرة، وتعاطي المسهلات عن الكلب، وتجنيد الجنود عن النمل، والمشاورة عن اللقلق، والحذر عن الغراب، واتخاذ الجلساء عن النسناس، والخيلاء عن النمر، والهندسة عن النحل، وعلم الطقس عن الخلد ـ بفتح الخاء واللام ـ وأخذ الكهرباء عن السمك الرعاد، والغناء عن الطيور، وبناء الأقبية عن بعض الفيران، والمهارة في البناية والنجارة عن كلب الماء، وصناعة الورق عن الزنابير، والغزل عن دود القز، والنسج عن دود الربيع، والحياكة البديعة الدقيقة عن بعض الطيور، وهكذا الخياطة والكدح ليلاً ونهاراً عن النمل.

كل ذلك وأكثر منه قد تقدم في سورة «طه»، فكل ما يصنعه الإنسان اليوم لرقي حياته تعلمه من الحيوان، ونعم ما فعل، ولكنه لا يزال في سياسته طفلاً غراً جاهلاً أبله، ذلك أنه استعمل عقله في درس هذا الوجود، وابتدأ معارفه بالعلوم الرياضية، والعلوم الرياضية هدته إلى استعمال العوالم حوله، فهاهو ذا الإنسان شرقيه وغربيه أدرك أن الجذر والتربيع المشروح آنفاً ورآهما ظاهرين واضحين في الطبيعة كما تقدم في بعض الفصول السابقة، وأن الضوء والجاذبية والكهرباء والصوت كلها انتشرت حولها بمقتضى هذين القانونين، وهكذا رأى هذا الإنسان أن ١ ٢ ٣ الخ بجذرها وتربيعها وأعمال حسابية أخرى نتجت منها مثلثات لا عدد لها، منظمة الحساب، قائمة الزوايا كما تقدم، فاستعمل ذلك

كله، ورأى الكسر الدائر المشروح فيما تقدم فوجد له نظيراً في المادة، وهو أولاً أنها لم تعرف لها نهاية في جميع أقطارها علواً وسفلاً ويميناً وشمالاً، ولا في زمانها أزلاً وأبداً، ولا في عظمتها وبعدها المكاني ولا في أجزائها عند تحليلها، فكل هذه لم يعرف لها الإنسان نهاية كما لم يكن للكسر الدائر نهاية، وقد تقدم هذا كله، وأعدناه هنا لنرتب عليه ما يأتي، وهو المقصود من هذه المقالات كلها.

الإنسان لم يدرس حقائق السياسة كما درس أحوال الحياة

هذا الإنسان درس ذلك كله مدفوعاً بعامل الحاجة المقومة لهيكله، الحافظة لحياته، ولكنه إلى الآن لم يتفرغ لدراسة نظامه السياسي، ذلك لأن النظام السياسي كمال ونظام الحياة مقدمة له، والمقدمات عادة تصنع قبل النتائج.

إذا كان الإنسان قدر على استكمال نظام حياته واستعان عليها بالرياضيات التي تغلغلت في صميم العوالم المحيطة به من كل جانب؛ فأحرى به الآن أن يستكمل السياسة بالعلوم الرياضية أيضاً، مثلاً الجداول المتقدمة المسماة بالأوفاق، فانظر فيها، أليس المربع الذي فيه عدد ١ والذي فيه عدد ٢ وهكذا إلى نهاية الجدول كل منها في مرتبة لا يسد بها غيره، وله صلة بجميع الأعداد، وفي الوسط هناك عدد هو أكبرها، فتأمل هناك تجد نظاماً حسابياً بديعاً أشبه شيء بنظام الجسم الإنساني والحيواني فكما أن كل عدد في الوفق لا يغني عنه سواه ويتوقف عليه جميع ما سواه، هكذا كل عضو في الجسم لا يغني عنه سواه ويتوقف عليه ما سواه، ولو نطقت تلك الأعضاء أو تلك الأعداد لقالت: إن المحبة بيننا تامة لشدة حاجة بعضنا إلى بعض، وإذا كانت العناصر المذكورة في سورة «العنكبوت» المشار إليها آنفاً بينها نسب هندسية وحسابية، وهكذا أوراق النبات المرسومة المحسوبة في سورة «الحجر».

أقول: إذا كانت هذه كلها بينها نسب فليس من المعقول أن تكون عقول النوع الإنساني وحدها هي المجردة من الحساب والنظام، فثبت ثبوتاً لا شك فيه أن بني آدم يجهلون أنفسهم وحقائقها، ولا بد من دراستها حتى يعرفوا استعداد كل أمة وكل قبيل وكل طائفة، وتوضع كل أمة وكل فرد في مرتبته التي فطر عليها، وهذا آت لا شك فيه، والسبيل لذلك قد شرحته في كتابي «أين الإنسان»، وهذا يتضمن معنى الآيات التي نحن بصدد الكلام عليها وهي: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾ [الذاريات: ٢٠]، والحمد لله رب العالمين. كتب يوم الثلاثاء ١٢ مايو سنة ١٩٣٢م.

اللطيفة الثالثة: في قوله تعالى:

﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾

اعلم أيها الذكي أن هذه الآية أشبه بالبسملة، فإن الرحمة في البسملة تستدعي ذكر كل ما شملته الرحمة، وذلك لا يسعه زمان ولا مكان، هذا أمر النظر في النفس فإنه لا حد لها، ولقد تقدم في هذا التفسير ما فيه جمال وبهجة لأذكياء المسلمين، ولكن لا بد أن نذكر هنا ثلاث شذرات جميلات تبصرة وذكرى ورحمة للمذكرين، وتلك الشذرات لا تختص بعلم تشريح البدن الذي هو الممهد لعلم النفس، ولا بعلم الطب الذي به إصلاح البدن، ولا بعلم النفس الذي هو المقصود بالذات، بل يعم هذه الثلاثة.

الشذرة الأولى: في كريات الدم الحمراء

جاء في جريدة الأهرام أول يناير سنة ١٩٣٢م تحت هذا العنوان ما نصه: نشرت صحيفة ألمانية خلاصة إحصاء وضعه الأستاذ «كيزرلغ» عن عدد الكريات الحمراء في دم الإنسان، ففي الألتار الخمسة ـ وهي مقدار ما في جسم الإنسان العادي من الدم ـ ٢٥ تريليون كرية حمراء، وإذا وضعت تلك الكريات الواحدة إلى جنب الأخرى ألفت خطاً طوله ١٨٧,٠٠٠ كيلو متر، ويقتضي عدها ثمانين ألف سنة بلا انقطاع إذا عدت عشر كريات في الثانية، وإذا وضعت الكرية الواحدة فوق الأخرى بلغ ارتفاعها ٦٢ ألف كيلو متر، أي: ما يبلغ مرة ونصف من محيط الأرض، وذلك يساوي مسافة يقطعها قطار الإكسبريس في مائة يوم إذا كان يقطع سبعين كيلو متراً في الساعة، وإذا وضعت الكريات الحمراء بعضها إلى جنب بعض غطت سطحاً تبلغ مساحته ١٤٠٠ متر مربع. انتهت الشذرة الأولى.

الشذرة الثانية: في بعض المنافع الطبية التي تقدم في هذا الكتاب

كثير منها تغني أولي الألباب عن الطبيب غالباً كما جربته، ولكن الذي ذكرته في طب الأسنان كان يعوزه ما هو أكمل فيه، لأنه تقدم في هذا التفسير أن الأسنان عليها مدار أكثر الصحة في الحياة، وقلنا هناك: إن الأمة الألمانية وغيرها لا تدع مريضاً إلا كتبت قبل الشروع في مداواته عن صحة الأسنان، فمتى داوتها كان ذلك خطوة في صحة المريض، فهاك ما قاله الدكتور محمد علي عثمان طبيب الأسنان المعروف بالقاهرة خريج كلية الطب الملكية المصرية، وهذا نصه:

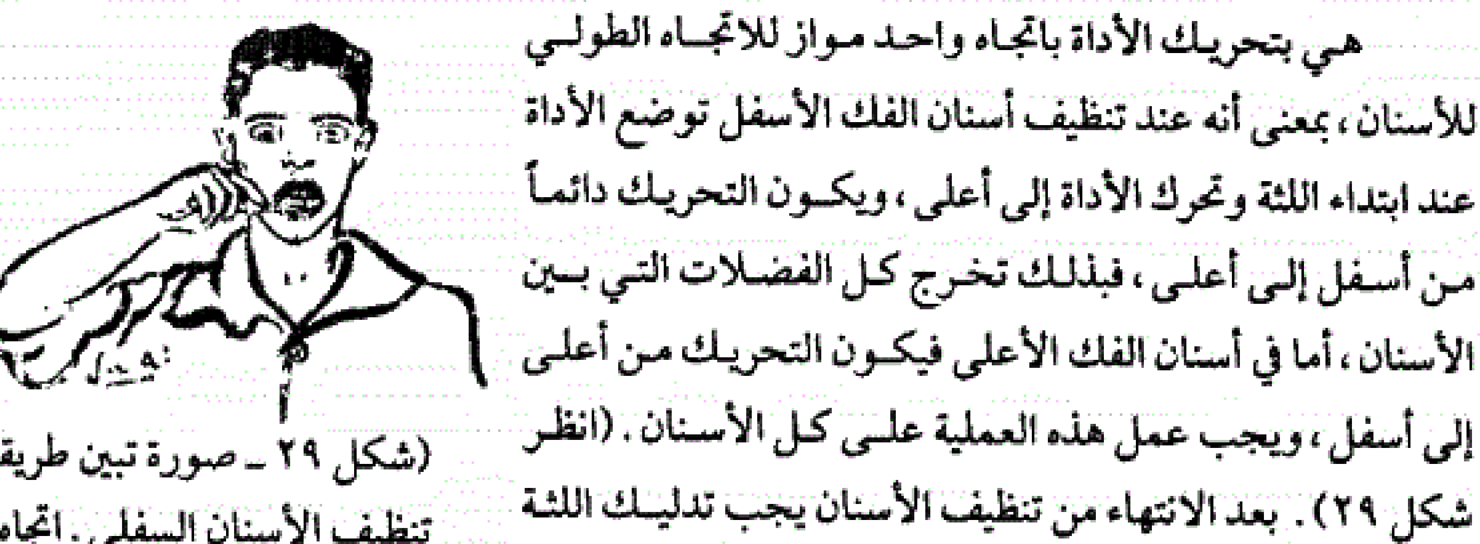
وجوب المحافظة على الأسنان

الأسنان هي أجسام صلبة تشبه العظام، موضوعة في مدخل القناة الهضمية، ومثبتة في قطعتين من العظم يقال لهما الفكان، وظيفتها قضم ومضغ الطعام وتهيئته حتى يسهل على المعدة هضمه، فطبيعي أن نظافة الطعام المعد للهضم، وخلوه من الميكروبات، تتوقف على نظافة الأسنان وخلوها من المواد المتعفنة، فإذا كانت الأسنان غير نظيفة فعند المضغ يختلط الطعام بما عليها من الأوساخ والمواد العفنة، ويدخل المعدة فيسبب أمراض الأمعاء وعسر الهضم، وما إليها من أمراض القناة الهضمية. وجائز بل ومحتم أن يمتص الدم جزءاً من هذه المواد العفنة فيسبب كثيراً من الأمراض منها، بل وأظهرها أمراض المفاصل وأمراض العين وغيرها، فمن ذلك نرى أن العناية بنظافة الأسنان هي أساس الصحة.

تنظيف الأسنان

سواء أكان بالسواك أو بالفرجون «الفرشة»، فكلها تؤدي الغرض إذا استعملت بالطريقة الصحيحة. الطريقة الشائعة في استعمال السواك أو الفرجون هي تدليك الأسنان بالأداة المستعملة، وجعل اتجاه تحريك الأداة في الاتجاه مضاد للاتجاه الطولي للأسنان، هذه الطريقة الخطأ، فبينما استعمال هذه الطريقة ينظف ما ظهر من الأسنان؛ فهي في الوقت نفسه تدفع فضلات الطعام بين الأسنان فتتخمر، وتكون نواة يتجمع حولها الأوساخ، فتتكون المواد الجيرية على الأسنان وتظهر كأنها طبقة منها، وهذه الطبقة الجيرية هي الأساس الأكبر في كل أمراض اللثة وتسويس الأسنان، واستعمال هذه الطريقة يسبب تآكل اللثة شيئاً فشيئاً حتى تتعرى الأسنان وتبتدئ تتخلخل.

الطريقة الصحيحة



(شكل ٢٩ ـ صورة تبين طريقة تنظيف الأسنان السفلى . اتجاه الفرجون من أسفل إلى أعلى)

هي بتحريك الأداة باتجاه واحد مواز للاتجاه الطولي للأسنان ، بمعنى أنه عند تنظيف أسنان الفك الأسفل توضع الأداة عند ابتداء اللثة وتحرك الأداة إلى أعلى ، ويكون التحريك دائماً من أسفل إلى أعلى ، فبذلك تخرج كل الفضلات التي بين الأسنان ، أما في أسنان الفك الأعلى فيكون التحريك من أعلى إلى أسفل ، ويجب عمل هذه العملية على كل الأسنان . (انظر شكل ٢٩) . بعد الانتهاء من تنظيف الأسنان يجب تدليك اللثة بالأصبع حتى تصير اللثة ذات ملمس ناعم غير لزج ، فهذا التدليك يفيد :

أولاً : في أنه يزيل الطبقة الرفيعة من الطعام التي قد تكون على اللثة .

ثانياً : تجذب جزءاً كبيراً من الدم النقي إلى هذه الجهة فتقويها .

ملاحظة : يجب تدليك اللثة بعد كل أكل ، بل وكلما أمكن الإنسان في أي لحظة وقت غسيل الفم . أما عملية تنظيف الأسنان فيجب أن تكرر مرتين في اليوم على الأقل . الأولى : قبل النوم مباشرة لأن الإنسان عندما ينام فمه دائماً مقفلاً فلا يمر فيه إلا هواء الزفير المملوء بثاني أكسيد الكربون الذي يساعد على سرعة عملية التخمير مع بقايا الطعام إن كانت موجود في الفم . والثانية : عند القيام من النوم ، وذلك أن الإنسان في مدة النوم التي تتراوح بين ٦ ـ ٨ ساعات فيها لا يتجدد لعابه فيكون غير مستعد لأن يؤدي وظيفته على الوجه الأكمل ، كما أن طعم الفم عند الصباح لا يكون مقبولاً .

عدد الأسنان عند الرجل والمرأة ٣٢ سناً ، منها ثمانية قواطع ، وأربعة أنياب ، وثمانية أضراس صغيرة ، واثنتا عشرة طواحن . وتتركب السن من تاج وهو الجزء الظاهر في الفم ، وجذر وهو الجزء المثبت في الفك ومغطى باللثة ، وبين التاج والجذر طبقة لها « عنق السن » ، وهي تكون الحد الفاصل بين الجذر والتاج ، وفي الحالة الطبيعية تكون « عنق السن » مغطاة باللثة . وتتكون الأسنان من :

ميناء : وهي مادة صلبة جداً ، بل أصلب مادة في جسم الإنسان ، وهي تغطي التاج فقط .

سيمنت : وهي طبقة تشبه العظم العلوي من جسم الأسنان في التركيب وتغطي الجذر .

العظم : وهي طبقة سميكة يتكون منها معظم جسم السن ، وتكون مغطاة بالميناء والسيمنت ، وتمتد من الداخل إلى اللب .

اللب : وهو مركز الحياة في السن ، وهو عبارة عن مجموعة شرايين وأوردة وعروق ، ومكانها في تجويف داخل عظم السن ، ومحتويات اللب تتصل بالدائرة الدموية العامة في جسم الإنسان ، ومن هذه المحتويات أيضاً تتفرع فروع دقيقة جداً تتخلل عظم السن والسيمنت ، وقد تمتد إلى جزء في الميناء ، ويتصل السن بعظم الفك بطبقة ليفية رفيعة تحيط جذور الأسنان ، ويمر في هذه الطبقة بعض الشرايين والأوردة والعروق التي توصل الفروع المتفرعة من اللب إلى الفروع الموجودة في عظم الفك .

من ذلك ترى أن الأسنان عبارة عن أجسام حية، لا كما يظن البعض أنها أجسام ميتة لا حياة فيها.

جذور الأسنان

كل القواطع والأنياب العليا والسفلى لها جذر واحد.

الأضراس الصغيرة كلها أيضاً لها جذر واحد ما عدا الضرسين الصغيرين الأولين في الفك الأعلى، فقد يكون لهما جذران.

الأضراس العليا كلها لها ثلاثة جذور.

الأضراس السفلى كلها لها جذران فقط.

هذا هو التقسيم الشائع، ولكن قد تشذ بعض الأسنان فتخالف المألوف.

تسويس الأسنان

يتكون تسويس الأسنان من أن الإنسان يترك بعض فضلات الطعام في الفم فتتخمر وتفرز أحماضاً تؤثر على مادة الأسنان فتذيبها، وبذلك تتكون فتحة في الأسنان قابلة لأن تمتلئ ببقايا الطعام عندما يكون التسويس واصلاً للعظم؛ فقد يشعر الإنسان بآلام عند شرب الماء البارد، أو الساخن، أو مع استعمال كثير من التوابل، أو عند الأكل، وقد لا يشعر الإنسان بآلام قط، وإذا ترك هذا التسويس بدون علاج يمتد إلى اللب فيسبب آلاماً شديدة متقطعة غير محتملة، وتزداد الآلام عندما ينام الإنسان أفقياً، وتكون حادة جداً عند الأكل أو الشرب.

عندما يكون التسويس في الأسطح الجانبية للأسنان وهي الأسطح التي ليس عليها ضغط قد لا يشعر الإنسان بأي آلام، وقد يصل التسويس إلى اللب بدون أن يدرك المريض، ففي هذه الحالة قد يموت اللب ويبقى متعفناً يسبب خراجاً.

أمراض الطبقة الليفية

قد تكون أمراضاً حادة، وفي هذه الحالة يكون الألم مستمراً دقاقاً، وتكون اللثة حول الأسنان محمرة ومتورمة، وتتألم لأي ضغط، والأسنان أيضاً تتألم عند الأكل، أو مجرد الضغط، وتكون في الغالب مخلخلة، وفي هذه الحالة يتكون في الغالب خراج حول السن المريضة، والأمراض المزمنة لهذه الطبقة تكون بتآكل اللثة مع هذه الطبقة، وسببها يكون من ضغط المادة الجيرية التي تتكون على الأسنان، وقد تكون من أسباب أخرى كثيرة لا يتسع المقام لذكرها.

أمراض اللثة

التهاب اللثة: وفي هذه الحالة تدمي اللثة من أقل لمس، وسببها الأوساخ والمواد الجيرية التي تتكون على الأسنان، وعلاجها يكون بإزالة هذه المواد.

تضخم اللثة: قد تظهر اللثة متورمة، وتدمي لأقل لمس، وسببها كالمرض السابق وغيرها من أمراض أخرى، وأغلب أمراض اللثة تتقدم بدون أن يعيرها الإنسان أدنى التفات، فتسبب امتصاص العظم الذي حول الأسنان، فتكون بذلك بين الأسنان وبين اللثة مسافة قابلة لتخزين فضلات الطعام،

فتتخمر في هذه الجيوب، فتجعل الفم ذا رائحة كريهة، وعند ضغط اللثة تفرز صديداً، وبعض من هذا الصديد يمتص في الدم فيولد أمراضاً كثيرة غير الأمراض التي تتولد من امتصاص هذا الصديد مع الطعام إلى المعدة والأمعاء. من كل ما سبق نجد أن جميع الأمراض التي تتكون في الفم نتيجتها وساخة الأسنان.

ملاحظة: إذا تكونت المواد الجيرية على الأسنان قد تترك سطحاً خشناً، فمن كثرة احتكاك اللسان بهذا السطح يتكون فيه قروح قد تسبب سرطاناً. وعندما يتقدم امتصاص العظم الذي حول الأسنان تجد الأسنان تتخلخل وتقع من زوال ما يربطها بالفك. لا يصح أن يعتبر كل تآكل في العظم الذي حول الأسنان مرضاً، فإن تقدم السن يكون مصحوباً دائماً بتآكل هذا العظم، ففي حالة كبر السن لا يصح أن يعتبر تعرية الأسنان مرضاً إلا إذا كانت مصحوبة بعوارض أخرى.

تركيب الأسنان الصناعية

قد تسمم، رأى معظم الناس بأن العلاج الوحيد للأسنان من أي مرض كان هو تغطيتها بغطاءات ذهبية.

ما عمل هذه الغطاءات الذهبية؟

أولاً: أنها تعزل السن المريض عن العوامل الخارجية فلا يتأثر بالحرارة والبرودة وغيرهما.

ثانياً: في الوقت نفسه يبقى المرض داخل الضرس فينخر فيه، فبعد تركيب الغطاء الذهبي بمدة وجيزة يبتدئ الضرس في تسبب متاعب كثيرة، وقد يكون علاجها شاقاً جداً على المريض والطبيب.

ثالثاً: إن هذه الأغطية تثبت على الضرس بطبقة من الإسمنت، وأن هذه الطبقة قابلة للذوبان في اللعاب فتترك بذلك مسافة بين الضرس والغطاء يصعب تنظيفها، فتتخمر فيها بقايا الطعام وتسبب بذلك أمراض اللثة وما ينتج عنها من أمراض وبيلة.

رابعاً: قد يضغط الذهب على اللثة فيسبب للإنسان اختلالاً في الأعصاب لا يعرف لها سبباً.

خامساً: إن صعوبة تنظيف العضلات التي بين الذهب والسن تجعل رائحة الفم دائماً كريهة.

فمن هذا ترى أضرار الغطاءات الذهبية المنتشرة في كل أنحاء المعمورة، والتي يجب أن نمتنع عنها بكل ما أوتينا من قوة. ولعلاج الأسنان يجب أن نبحث عن سبب المرض فنزيله، فإذا كان الضرس به تسويس يجب أن ننظف الضرس جيداً بإزالة الأجزاء المريضة، وبعد ذلك نضع في الضرس حشواً ليحل محل ما أزيل من الضرس، وبذلك نتفادى عن عمل الأغطية الذهبية. وإن كان لا يمكن إزالة المرض يجب خلع الضرس إصالة حتى لا يسبب للإنسان متاعب لا داعي لها.

كثير من الناس عندما يخلع له ضرس لا يفكر مطلقاً إلا في تركيب بدله شيئاً ثابتاً، أو بمعنى آخر بتركيب «كبري ذهبي»، والكبري هو عبارة عن غطاءين ذهبيين مثبتين على الضرسين اللذين حول الضرس المخلوع، وبين هذين الغطاءين يوجد ضرس ذهبي ملحوم بهما، فأظننا بحثنا سابقاً أضرار الأغطية الذهبية ولا داعي لذكرها الآن، إنّما أحسن طريقة لوضع بدل الأضراس المخلوعة هو طريقة الأجهزة المتحركة التي يمكن إخراجها وتنظيفها كلما دعت الحالة، فبذلك يبقى الفم دائماً حافظاً لرونقه.

الأسنان اللبنية للأطفال

تبتدئ أسنان الأطفال في الظهور من سن ٦ أشهر تقريباً، وتكمل في سن ٣٠ شهراً وعددها ٢٠ وتقسيمها: أربعة أسنان أمامية عليا، ومثلها سفلى. نابين أعلى، ومثلهما أسفل. أربعة أضراس عليا، ومثلها سفلى.

أسنان الأطفال عرضة للأمراض بسرعة، فتركيبها من مادة ليست من الصلابة الكافية بحيث تقاوم ما هي معرضة له من تخمر فضلات الطعام، ومن الحلوى المغرمة بها الأطفال، فعندما يشكو الطفل من أضراسه يجب عرضه على الطبيب مباشرة حتى يزيل سبب الألم، وبعض الأضراس عندما يهمل علاجها تبقى في الفك مدة زيادة عن المقررة لها، فتسبب بذلك اعوجاج الأسنان الأخرى الثابتة التي ستحل محلها، فيظهر لنا الشخص في بعض الأحيان ذا بروز في أسنانه الأمامية أو خلل في تركيب أضراسه. ويكون نتيجة ذلك سرعة تسرب مرض الأسنان.

واجب الأم نحو طفلها

يجب على الأم أن تمسح أسنان أطفالها يومياً بقطعة مغموسة في «السبترو الأبيض النقي» حتى تبقى أسنانه دائماً نظيفة.

الاضطرابات التي تحدث للطفل في وقت التسنين

عند التسنين تحدث جملة اضطرابات عند الطفل من الضغط الذي يحدث من السن على اللثة التي فوق منها:

(١) فقدان الشهوة عند الطفل فيرفض كل طعام يقدم له، ولا يقبل أن يرضع من ثدي أمه.

(٢) يحدث عند الطفل تشنجات وحركات عصبية.

(٣) ترتفع درجة حرارته وقد تصل إلى ٤٠ فيشك أن عنده حمى.

(٤) الأرق المستمر.

(٥) يتقيأ كثيراً، ويطرد اللبن الذي يعطى له.

(٦) يحصل عنده إسهال شديد.

(٧) بعض الأحيان لا يستطيع الطفل أن يرى النور.

(٨) بعض الأحيان يحصل تصلب في عضلات الرقبة وتتراجع الرأس إلى الخلف، فيشك في الالتهاب السحائي «الحمى الشوكية». في الوقت نفسه يحدث التهاب عام في فم الطفل، وفي بعض الأحيان تحصل قروح صديدية في فمه.

ففي هذه الحالات يجب عرضه على الطبيب لعلاج مرض الطفل العام، وفي الوقت نفسه يعرض أيضاً على طبيب الأسنان ليعالج الالتهابات، أو يفتح اللثة، حتى يخفف الاضطرابات عن الطفل.

هذا الموضوع مقتضب عن حالة الأسنان وأمراضها يمكن به الإنسان أن يعرف حالة أسنانه مؤقتاً حتى يستشير أصحاب الرأي في ذلك، وما سبق لا يجب أن يتخذه الإنسان قاعدة عامة تسن على كل حالة، بل لكل حالة علاجها الخاص، ولكن مما سبق يمكنه أن يكون رأياً مبدئياً عن أي حالة

كانت، وبذلك يستعد لأن يفهم ما يقوله له الطبيب عندما يعرض عليه الحالة. والذي دعاني إلى كتابة تلك الكلمة الموجزة عن الأسنان وأمراضها أستاذنا الكبير فضيلة الشيخ طنطاوي جوهري مؤلف هذا التفسير.

دكتور محمد علي عثمان

جراح وحكيم أسنان

خريج كلية الطب الملكية المصرية

الشذرة الثالثة

مسامرة بيني وبين صديقي العالم الذي اعتاد أن يحادثني في هذا التفسير في قوله تعالى: ﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝٢١ ﴾

وذلك في يوم الجمعة ١٩ صفر سنة ١٣٥١ هجرية الموافق ٢٤ يونيو سنة ١٩٣٢م بعد العصر في أمر النفس وعجائبها، ومدار الحديث على ما يأتي:

(١) الحقول هي الكلية الأولى لعلم النفس وما حوله من العلوم.

(٢) الأزهر.

(٣) المدارس النظامية.

(٤) فلاسفة القدماء.

(٥) الفلاسفة المحدثون ونظام علم النفس عندهم مع العلوم الأخرى.

(٦) علم النفس في إخوان الصفاء.

(٧) في جمهورية أفلاطون من حيث قياس نظام النفس الواحدة على نظام الأمة.

(٨) في علم التربية الحديث، وأن علم النفس فيه أوسع نظاماً بحيث يرجع إلى مبدأ الخليقة متبعاً سلسلة الرقي الحيواني والإنساني، فكأن كل فرد في حياته سلسلة منتظمة من العوالم كلها، وهذا آخر ما وصل إليه العلم الآن، وهذا بعض سر: ﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۝٢٠ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾[الذاريات: ٢٠-٢١].

قال محدثي: إني اليوم أريد أن أحدثك في هذه الآيات: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ۝١٦ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۝١٧ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۝١٨ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ۝١٩ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۝٢٠ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝٢١ وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ۝٢٢ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴾[الذاريات: ١٦-٢٣].

فهاهي ذه آيات انتظمت فيها أولاً جواهر العبادات من صلاة واستغفار، ثم تبعها العطف على الناس بالإحسان، ثم الكلام على الآيات في الأرض، ثم النفس الإنسانية، ثم السماء، ثم ختم هذا المبحث بهذا القسم، وبماذا أقسم؟ أقسم بنفس السماوات والأرض اللاتي أحاطت بالنفس من كل جانب. فقلت: أيها الأخ الذكي، إن هذا النظام معلوم مما قررته في مواضع كثيرة من هذا التفسير. فقال: ولكني أريد قولاً أوسع، ودرساً أتم، وإيضاحاً أوفى، بحيث تسكن إليه نفس الحليم، ويطمئن إليه قلب الحكيم.

فقلت: أيها الأخ، أحدثك عما زاولته في ذلك مدة حياتي في هذه الدنيا، وذلك في ثمانية فصول:

الفصل الأول: علم النفس في الحقول

رياه، أنت قد أشرق نورك، وتجلى جمالك في البر والبحر، والعامر والقفر، والجبل والسهل، والنهر والحقل. ذلك أني أيام الصبا وزمن الحيرة المطلقة لم يكن لي مدرسة إلا في حقلنا الذي كنا نزاول الزراعة فيه في أرض الثمانية بكفر عوض الله حجازي، فسبحانك اللهم وسعدانك، ماذا كانت دراستي؟ دراستي فيها كانت راجعة إلى ما في الحقل من ذرة وقمح وقطن وبرسيم، وما حوله من ماء جار وطرق يطرقها المارون، ثم ما فوق الحقل من الهواء والسحاب والمطر، والأضواء والنجوم، والشمس والقمر، والحر والبرد.

هذا هو الذي كنت أدرسه، ولكني كنت جاهلاً جد جاهل، أدرس ولا أدري ماذا أدرس، أنظر بعين حائرة وقلب خافق مضطرب، ونفس وثابة إلى العلا، فالنفس وامقة، والشقة طويلة، فأين المفر؟.

هنالك حرت في هذا الوجود الذي يرجع إلى ثلاثة أمور: نفسي المضطربة، وما فوقها، وما تحتها، فالوجود كله ثلاثة في حقلنا.

هذه أيام حيرتي، ولكني كنت أستعين بالصبر والصلاة، أصلي ليلاً وأصوم نهاراً، وأضرع إلى صانع نفسي وأخاطبه وأنا أنظر إلى النجوم ليلاً قائلاً: يا الله، قد ظهر لي أنك بر رحيم بهذه الطيور، قد علمتها ووهبتها كل ما تحتاج إليه، وأنا أريد المعرفة ولست أدري من يعلمني. أفلا ترى أيها الأخ أن ما اتفق لي في ذلك يوافق أول هذه الآيات من حيث الإكباب على العبادة والالتجاء لصانع العالم، وهذه مجرد مصادفة لأني ما كنت أدري من هذا شيئاً. لأني كنت أحفظ القرآن بلا علم ولا عقل ولا هدى ولا كتاب منير. ولكم كنت أسامر النجوم ليلاً، وأتفقد الشجر والزهر، والثمر والحب، وكل حشرة ودابة الخ، فهذه كلها كنت أدرسها درساً غامضاً، أتلمس الحقيقة بين هذه المخلوقات. انتهى الفصل الأول.

فقال: قبل أن ننتقل للفصل الثاني أرجو أن تذكر لي قبل المباحث الأخرى لماذا ذكرت النفس بعد العبادات وبعد آيات الأرض؟ فقلت: هذا الترتيب يظهر لك في الفصول الآتية، لأنك سترى أن الأمم قبلنا لم تجد لها مناصاً من دراسة العوالم التي حولنا قبل دراسة أنفسنا، لأن هذه العوالم مقدمات لخلق نفوسنا، فدراستها يجب أن تكون مقدمة على دراسة النفس، فهاهو ذا أفلاطون في الجمهورية يجعل النفس مقيسة على نظام الأمة، وهاهم أولاء الفلاسفة المتقدمون وهو منهم يقولون: إن لها قوى ثلاث سيأتي إيضاحها، وهذه القوى نظامها كنظام النبات والحيوان وهي الشهوية والغضبية والعاقلة. فقال: قد اكتفيت بهذا الآن. فقلت:

الفصل الثاني: دراستي في الجامع الأزهر

كنت أدرس فيه علوم اللسان من النحو والصرف الأحكام الفقهية، وبعض المنطق والتوحيد، وهو الذي حرك وجداني للبحث، لأن نظامه إذ ذاك لم يكن مثل نظامه اليوم، فهو اليوم أرقى مما كان عليه إذ ذاك، وسيزداد إن شاء الله تعالى.

ولطالما كنت وأنا أحفظ في «متن المنهج» وهو آخر كتاب لدراسة الفقه أنظر إلى السماء وأقول: يا الله، أنا أريد الحقائق، وقد طلبت منك ما فوق هذا، ولقد أوضحت هذا المقام في ثنايا هذا التفسير وفي كتابي «التاج المرصع» الذي ترجم إلى القازانية ببلاد الروسيا، وإلى الأوردية ببلاد الهند، ونشر في جميع بلاد الإسلام، فليراجعه من أراد. انتهى الفصل الثاني.

الفصل الثالث: في مدرسة دار العلوم

لما دخلت هذه المدرسة اعتراني الدهش مما رأيته، فإن العلوم الطبيعية من الضوء والحرارة والصوت ونحوها هي التي كنت أفكر فيها في حقلنا، وهكذا الحيوان والنبات، ثم علم الفلك، فكنت في المدرسة مثلي في الحقل أقرأ بشوق وتوق لتشبع النفس مما كانت تتوق إليه، إذن الحقل كان لي مشوقاً. أفلا ترى أيها الأخ الذكي أني على حق إذ قلت: إن أمم الإسلام يجب عليها أن لا تهمل أبناءها كما أهملت أنا في الصغر وضاع زمان المراهقة في حفظ القرآن بلا عقل، وأن تبادر بتعليم الأطفال ما كنت أتعلمه وأنا فتى، فليروهم جمال الأشجار والأزهار والأنهار والنجوم، وليحببوهم في ذلك، فإذا انتظموا في سلك الدراسة قالوا: هذا الذي كنا ندرسه من قبل، وهذه الطريقة هي المتبعة في جميع بلاد الله شرقاً وغرباً الآن، ولكن العلوم في تلك المدرسة علوم جزئية، لا بد من البحث في:

الفصل الرابع: في الكلام على الفلاسفة القدماء

هنالك اشرأبت نفسي إلى أن أقف على آراء النوع الإنساني في علم النفس وسوابقه ولواحقه بهيئة نظامية، فإن الحقل لا علم فيه إلا المشوقات ودراسة الدين بالطريقة القديمة دراسة جزئية، وبعض الكتب والعلوم تريك النفوس، ودراسة المدارس إيضاح لما أشكل علي في الحقل.

ولكني أريد أن أنظر النظام العام وآراء الأمم جميعاً فيه، حتى تطمئن نفسي وأقول: إني لم أهملها في التعليم، فماذا وجدت؟ وجدت أن محصل علوم الأمم القديمة فيما كنت أدرسه في الحقل هكذا. نظروا في مقادير المادة من العدد والمقدار والحركات، ومعنى هذا أنهم قبل أن يدرسوا نفوسهم اضطروا أن يدرسوا المادة التي تتركب منها أجسامهم التي تسكنها نفوسهم، ذلك لأن أجسامنا مركبات مما حولها، فدراسة ما حول الأجسام الإنسانية مقدمة لدراستها، ودراسة تلك الأجسام مقدمات لدراسة النفوس، ومتى درسنا نفوسنا؛ انتقلنا إلى ما ينتج عنها من الاجتماع المدني والمنزلي والتهذيب الخلقي، فعندنا مادة حولنا وأجسام لنا ونفوسنا، ونتائج نفوسنا، وقوة قاهرة فوق الجميع، ولكن هذه المادة لا تصح دراستها إلا بمقدمات وهي الأعراض القائمات بها، وذلك مثل العدد والمقدار والحركات وهكذا، فإذن ابتدؤوا بعلم الرياضيات ثم الطبيعيات المختومة بعلم النفس ثم الإلهيات، وأخروا العلوم السياسية الثلاثة وهي: تهذيب النفس وتدبير المنزل وتدبير المدينة.

فأول العلوم عندهم: علم الأرتماطيقي، تسعة أقسام مشروحة في كتابنا «بهجة العلوم» في الفلسفة العربية وموازنتها بالعلوم العصرية، تحت الطبع.

وثانيها: الهندسة «الجومطريا» الذي يبحث عن النقطة والخط والسطح وهكذا ولها علوم تتفرع عليها وصناعات تتبعها، ولا جرم أني في الحقل كنت أفكر في أعداد هذه الأشياء، وفي الامتداد

والطول والعرض وأشكال المخلوقات البديعة وبدائعها، إذن هذان العلمان مبدؤهما كان في الحقل من عد وامتداد.

وثالثها: علم الفلك «الأسطرونوميا» وفيه صفحة البروج والمنازل وحساب الشمس والقمر وهكذا، ولا جرم أن هذا العلم هو الذي كنت أفكر فيه ليلاً وأنا أنظر النجوم بلا علم ولا هدى، ويلحق بعلم الفلك عند القدماء علم الجغرافيا.

ورابع العلوم: علم الموسيقى، وعلم الموسيقى ليس شيئاً سوى مقياس حركات الأصوات، كما أن الزمان مقياس حركات الأفلاك، قاسوا حركات الكواكب، فقالوا: علم الفلك، وقاسوا حركات الأصوات، فقالوا: علم الموسيقى، وهذا العالم كله موسيقى، ولقد جعل الله لنا دليلاً على ذلك غناء الأطيار على الأشجار، وحفيف الأوراق ونغمات الأشجار إذا ذهبت الأرواح وفاءت الأفياء. هذه هي الموسيقى التي وضعها الله وأنعم بها على العالمين ولكن أكثر الناس لجهلهم لا يطربون، ويظنون أن الطبيعة لا طرب فيها لأنهم غافلون.

هذه هي العلوم الرياضية عند القدماء، وهي ترجع إلى الأعداد والحركات والمقادير. وبعبارة أخرى: إن هذه لا بد منها قبل دراسة المادة المقدمة على الجسم المقدم على النفس المقصود بالذات.

خامس العلوم: علم المنطق الذي ينتظم به الفكر كما انتظم النطق بالنحو، وبهذا انتهت العلوم الرياضية وما يقرب منها وهو المنطق.

سادس العلوم إلى ثالث عشرها هي العلوم الطبيعية، وما هي العلوم الطبيعية؟ هي التي كنت أجاهد وأنا في الحقل لأعرف حقائق المادة التي أزاول العمل فيها، مثلاً علم سماع الكيان، وما هو سماع الكيان؟ عبارة عن دراسة الهيولى والصورة والحركة والزمان والمكان وما يخص الجسم من الأعراض الزائلة واللازمة، وهو العلم السادس.

سابع العلوم: «السماء والعالم»، وهو عبارة عن شكل العالم العام ونظامه في أفلاكه وكواكبه وطبقاته، ولكن تكون الدراسة إجمالية. ولا جرم أني في الحقل كنت أبحث عن ذلك وهذه العوالم تحيط بي.

ثامن العلوم: يبحث فيه عن تكون المعدن والنبات والحيوان وما أشبه ذلك، وهذه كلها كانت محل نظري في الحقل وفي دار العلوم، وهذا يسمى علم الكون والفساد.

تاسع العلوم: هو الذي يبحث فيه عن حوادث الحر والبرد والسحاب والمطر والثلج والرعد والبرق وقوس قزح والهالات، ومنشأ السحب من البخار، وغير ذلك من النور والظلمة، وتصاريف الرياح، والأنهار والبحار، وما يكون من الغيوم والضباب، والطل والندى، والشهب وذوات الأذناب وما شاكل ذلك، وهذا العلم يسمى «الآثار العلوية» وهي التي كنت ألاحظها في الحقل ولا أفهمها.

عاشر العلوم: هو الذي يبحث فيه عما في التراب والطين والأرض السبخة، كالكباريت والأملاح والشبوب والزاجات، أو في قاع البحر كالدر والمرجان، أو في كهوف الجبال، وجوف الأشجار، وهو علم تكون المعادن.

حادي عشرها: علم النبات والبحث عن أجناسه وأنواعه وخواصه ومنافعه ومضاره، وما ينبت منه على رؤوس الجبال، وعلى شواطئ الأنهار، وفي الآجام، وما يغرس في القرى والبساتين، وما يكون منه تحت الماء، وما ينبت منه على وجه الماء، وما ينسج على الشجر، وعلى وجه الصخور وهكذا.

ثاني عشرها: علم الحيوان وعجائبه وطبائعه، وأنه متصل بالنبات من أدناه، مرتبط بالإنسان من أعلاه.

ثالث عشرها: علم الإنسان، وفي هذا العلم يبحث عن أمرين: تركيب جسده وهو علم التشريح، ومعرفة نفسه وما يلزمها وهي الحواس الخمس وما فيها من الحس المشترك والقوة المخيلة والمفكرة والذاكرة وهكذا.

فترى من هذا أن علوم المادة وأحوالها قد قدمت على علم جسم الإنسان، لأنه لا يفهم إلا بعد فهمها، وهذا هو السبب في قوله تعالى: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۝٢٠ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢٠-٢١]، فالقرآن قدم الأرض ومباحثها وهي العلوم المتقدمة وهي اثنا عشر علماً على علم النفس، وهكذا الفلاسفة، إذن القرآن أشار بقوله: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾ [الذاريات: ٢٠] إلى هذه العلوم الاثني عشر، وأتى بعدها بعلم النفس.

نرجع إذن إلى أقوال الفلاسفة القدماء، فنقول: قد اطلعنا على كلام أمثال ابن سينا والفارابي وابن رشد على علم النفس، فوجدنا أنهم يقولون بناء على ما وصل لهم من علم اليونان أن في الرأس مواضع، منها ما هو للفكر في وسطها، وما هو للخيال في مقدمها، ومنها ما هو للتذكر في مؤخرها، وكانوا يقولون: إنهم عرفوا ذلك بواسطة علماء الطب، لأنهم لما رأوا أن مرضاً يحل بجهة من هذه الجهات يختل ما هو منوط بهذا الجزء من الإدراك كالتخيل والتفكر والتذكر.

قرأنا ذلك إجمالاً غامضاً وانتهى ذلك الدور، ثم وجدناهم أيضاً يقولون: إن للنفس قوة شهوية وهي للنبات أقرب، وقوة غضبية وهي بالآساد والنمور من الحيوان أليق، وقوة عاقلة وهي إلى الملائكة أقرب، فعليه نرى أن ما سنذكره في علم التربية حديثاً من جعلهم أن الطفل يمر على الأدوار السابقة للإنسانية من مبدئها إلى آخر ما سيأتي إن هو إلا أشبه بتفصيل لما أجمله القدماء.

ثم إن القدماء يأتون بعد هذه العلوم بأبحاث عامة. وهذه الأبحاث العامة يسمونها العلم الإلهي أو الكلي أو العلم الأعلى، وذلك العلم الإلهي أو الأعلى جعلوه أقساماً:

(١) فمنها قسم سموه الأمور العامة مثل: ما هو الوجود والماهية والوحدة والكثرة والوجوب والإمكان والامتناع، ونسب ما بينها وما يخصها من حيث هي موجودات. مثال ذلك: أن يقولوا: إن الوحدة في جسم الإنسان ظاهرة، فهو واحد من جهة لكنه كثير من جهات أخرى، فله أعضاء وحواس وأجزاء لا يعرف عددها، وجواهر فردة الخ، فهاهنا وحدة وهاهنا كثرة، والعدد الذي لا نهاية له واحد من جهة أنه عدد وكثير من جهة أفراده، والعالم كله واحد كثير من جهات، وهكذا من تلك المباحث.

(٢) ومنها قسم في النظر في مبادئ العلوم كلها وتبيين مقدماتها، وهكذا المقولات العشرة المذكورة في ثنايا هذا التفسير مشروحة، كالكم والكيف الخ.

(٣) ومنها قسم للنظر في إثبات الإله الحق والدلالة على وحدته وتفريده بالربوبية وإثبات صفاته، وبيان أنها لا توجب كثرة في ذاته.

(٤) ومنها قسم للنظر في إثبات الجواهر المجردة، وهو العقول والنفوس والملائكة.

(٥) ومنها قسم للنظر في أحوال النفس البشرية بعد الموت.

فهذه خمس علوم سموها «علم ما وراء الطبيعة»، ولخصها ابن سينا في كتاب «الشفاء والإشارات»، فهذه بضمها إلى ما قبلها تبلغ العلوم ١٨ علماً، ١٣ في الرياضيات والطبيعيات، وخمسة في الإلهيات، وهذه يسمونها العلوم العلمية، وهي رياضية وطبيعية وعلوم كلية لا تختص بقسم من القسمين الأولين، وهذه هي العلوم العلمية ويتبعها نتائجها، وهي العلوم العملية، وهي خاصة بعمل الإنسان، وما قبلها كلها راجعة لعمل الله. وهذه العلوم ثلاثة: علم الأخلاق الباحث عن القوى الثلاث المتقدمة الشهوية والغضبية والعاقلة، وعلم تدبير المنزل في معرفة معاشرة الأهل والخدم الخ، وسياسة المدينة، وهو علم السياسة المعروف، وفي هذا العلم إجمال عام لسياسات الأمم.

فهذه عشرون علماً، ١٧ علمية وثلاثة عملية، وهذه العلوم لها فروع كثيرة. مثال ذلك: علم الهندسة، له فروع مثل علم المناظر، وعلم المرايا المحرقة، وعلم مراكز الأثقال، وعلم المساحة، وعلم أنباط المياه، وذلك لإحياء الأرضين، وعلم جر الأثقال، وعلم البنكامات، وهو علم به يعرف إيجاد الآلات المقدرة للزمن، مثل هذه الساعات التي يحملها الناس اليوم، ومثل الآلات الحربية.

فهذه فروع الهندسة، وهذه أصبحت صناعات تدرس في مدارس خاصة، وترى أن علمي النباتات والحيوان يتفرع عليهما فروع كثيرة، فإن صناعتي النجارين والجزارين ترجعان إلى النبات والحيوان، وعلى هذا فقس، فالعلوم المذكورة وفروعها عند القدماء بلغت ٦٠، ولهذه الستين فروع بلغت مئات سجلها قدماؤنا في كتبهم.

هذا ما وصل إليه علم القدماء، ولكن نفسي التي تعلمت مبادئ هذه العلوم في الحقل وخرجت منه في شوق إلى العلم لا تقف عند كلام القدماء، هنالك نظرت في كلام المتأخرين فماذا رأيت؟ رأيت ما يأتي:

الفصل الخامس: في ذكر ما رآه الأستاذ بيكون الإنجليزي

إنه قسم العلوم المذكورة إلى ثلاثة أقسام: أولاً: ظر إلى العلوم الاثني عشر الأولى، ومعها علم التشريح، فقال: هذه لا أسميها فلسفة، وقال: كل علم منها له تاريخ، فلنسمها هكذا: التاريخ الرياضي، التاريخ الطبيعي كالحيوان والنبات الخ. ثم قال: فأما علم النفس ومعرفة نظام الطبيعة ومعرفة الله فهي التي أسميها فلسفة، إذن الفلسفة الحديثة هكذا: تواريخ العلوم المتقدمة على علم النفس، ثم نظام الطبيعة، ثم علم النفس.

إذن «بيكون الإنجليزي» بهذا التقسيم الذي عليه مدار الدراسة في كرتنا الأرضية الآن تقريباً جعل العلوم التي كانت تسمى رياضية وطبيعية مقدمات للفلسفة، وسميت بتواريخ لهذه العلوم، وعليه الدراسة في المدارس العامة الآن، والأمور العامة وهي العلوم الخمسة جعلها قسمين: قسم منها

وهو الخاص بنظام الطبيعة سماه نظام الطبيعة، والقسم المختص بالله فصله وحده، وأخذ علم النفس أيضاً فقال هكذا: «الله، نظام الطبيعة، ونفسي»، وإنّما ذكر نظام الطبيعة لأن جزئياتها مشروحة قبل هذا العلم في الذي سماه تواريخ العلوم.

فأما العلوم العملية الثلاثة فإنه ضم إليها علم المنطق، وقال: هكذا النفس تعقل المنطق، إذن هذا العلم يتبع نفسي، ثم إن نفسي تعرف الجمال ويعوزها التهذيب، ونظام الأسرة ونظام المدينة، فيقول: إن نفسي يتفرع عليها علم الجمال بعد المنطق، وعلم الأخلاق، وعلم تدبير المنزل، وعلم سياسة الأمة.

مبدأ التقسيم عند القدماء وعند المحدثين

نظر «بيكون» إلى تقسيم المتقدمين فرأى أنهم يقولون هكذا: العلم الطبيعي يحتاج إلى المادة في ذهننا وفي الخارج، والعلم الرياضي يحتاج إلى المادة في الخارج لا في أذهاننا، لأننا نتصور العدد بدون التقيد بمادة خاصة، والعلم الإلهي لا يعوزه مادة لا في أذهاننا ولا في الخارج.

أقول: لما نظر هذا التقسيم قال: وما لنا وللمادة؟ فلنرجع التقسيم إلى نفوسنا، إن نفوسنا فيها قوة الخيال، وقوة الفكر، وقوة التذكر، فهذه إليها ترجع جميع العلوم.

فأما القوة المخيلة فإليها يرجع كل ما كان من قبيل الشعر والنقش والتصوير والموسيقى، فهذه العلوم التي ترجع إلى التصوير والتخيل فإنها ترجع إلى تلك القوة.

وأما قوة الذاكرة فلها جميع العلوم الرياضية والطبيعية، وهي الثلاث عشر المتقدمة، وعلم التاريخ الأثري والبشري، فهذه كلها تواريخ حفظت في ذاكرة الإنسان، وعليه العمل اليوم كما تقدم، فالتاريخ البشري منه عام وخاص، والتاريخ الأثري هو ما جاء في الكتب السماوية، وهكذا التاريخ الطبيعي والرياضي الخ.

أما القوة العاقلة فعلومها هي المختصة بالفلسفة: «الله، ونظام الطبيعة، ونفسي»، ومن النفس تفرع المنطق والجمال وما والاها كما شرحناه.

تبين من هذا أن النوع الإنساني اليوم رجع العلوم إلى النفس، فمن العلوم سوابق وهي ١٣ علماً، ومنها معرفة الله ونظام الطبيعة، ومنها لواحق وهي علوم نظام الأمم.

وبعبارة أخرى: إن نظام العوالم ودراسته مقدم على علم النفس، ونظام الإنسان مؤخر عن دراستها، إذن دراسة مدارس الأمم الآن تجري على نظام هذه الآيات، فقوله: ﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴾[الذاريات: ٢٠] يدخل فيها علوم نظام الطبيعة وما قبله ومعرفة الله، وقوله: ﴿ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ ﴾[الذاريات: ٢١] الخ إليه يرجع علم النفس، تلك النفس التي جعلت مبدأ لتقسيم تلك العلوم سوابقها ولواحقها.

إذن آيتنا التي نحن بصددها الآن يجب على المسلمين أن يفكروا فيها، إذن نحن نستحق أن نعنف على جهلنا فيقول الله لنا: ﴿ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾[الذاريات: ٢١]، وهذا التعنيف يخجل نفوس الأذكياء منا معاشر المسلمين، فلندرس.

فقال صاحبي العالم: إن هذا البيان لجميل جد جميل، ولكني أريد أن أسألك سؤالاً يجول في خواطر أكثر الناس: هل هذه الآية يترتب عليها هذا كله؟ أي: إنك تقرأ علوم الأمم كلها، وهل أذكياء المسلمين مكلفون بذلك؟ فقلت: لم لا وما المانع؟ ألست أنا شهيداً على الناس؟ فقال: أنت أنت. فقلت: وأنت أيضاً، ألم تسمع الله يقول: ﴿ لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾[البقرة: ١٤٣]، فكيف نشهد على الناس ونحن لا نعقل علومهم؟ فليقم الخواص بدراسة علوم الأمم، وأهمها علم نفوسنا. فقال: إن علماء الإسلام لم يقولوا ما تقوله أنت في هذا المقام. فقلت: ولكن القرآن يقول. فقال: القرآن؟ فقلت: نعم. فقال: ماذا يقول في هذا؟ قلت: إنه لم يقتصر على قوله: ﴿ لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾[البقرة: ١٤٣]؛ بل أوضحها في آية أخرى وهي: ﴿ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَـٰفِظِينَ ﴾[يوسف: ٨١]، فهل نشهد على الأمم إلا بعد العلم بما نشهد به. فقال: حسن جداً، فأرجو إيضاح علم النفس الآن. فقلت: ذلك في:

الفصل السادس: فيما قاله إخوان الصفاء

إن كتاب «إخوان الصفاء» جاءت فيه العلوم موجزة، ولكنها أوضح مما في الكتب التي قبلها، وقد جعل أكثر العلوم المذكورة في خمسين رسالة، وأكثرها سمين وأقلها غث، وفيها آراء يجب تعديلها أو محوها، فلنذكر ما فيها من حيث علم النفس، وهذا الموجز سأنقله بنصه وفصه من نفس الكتاب، ومؤلفه هو الذي لخصه في أوله، وهاك نصه:

الرسالة العاشرة: في الحاس والمحسوس

والغرض منها هو للبيان عن كيفية إدراك الحواس محسوساتها واتصالها بواسطة القوة الحاسة واتصالها إلى الحاسة المشتركة الروحانية الواصلة التي منها انبعثت قوى الحواس الظاهرة، وأنها ترد كالخطوط الخارجة من المركز إلى المحيط بنقط كثيرة الراجعة إليه بنقطة واحدة وهو أول منازل الروحانية إذ القوة الحاسة المؤدية إليه جسماني بوجه وروحاني بوجه، والحاسة المشتركة أعني الداخلة الروحانية محضة، لأن حكم الجزء منها حكم الجميع، وإن كانت لا تقع عليه بالحقيقة، لأن تصورها الشيء بإدراكها واتصالها إلى القوة المتخيلة التي مجراها مقدم الدماغ لتوصلها إلى القوة المفكرة التي مجراها وسط الدماغ لتميزها وتخلصها بجولانها فيها وتعرف حقائقها، ثم توصلها إلى القوة الحافظة الذاكرة التي مجراها مؤخر الدماغ لتمسكها، وتحفظها معتقدة أو غير معتقدة إلى وقت التذكار، ثم تؤديها إلى القوة الناطقة العاقلة التي هي ذات الإنسان المدبرة للكل الباقية بالذات تنتزع جميع المعاني والصور، ثم تصور تلك المعاني والصور المنتزعة من مصوراتها المترسمة فيها، وهي القوة الناطقة أيضاً بواسطة الأولى، فتلك الصورة هي لها كالموضوع وكالهيولى، والقوة المعبرة أيضاً للنطق الخارج هي القوة الناطقة أيضاً على وجه ثان بواسطة الألسن، فإذا همت الأولى بإظهار شيء إلى خارج وهو النطق الإلهي على الحقيقة من صورة النفس تصورت النفس الثانية، إذ هما جوهر واحد لتجردهما عن المواد وتعريهما عن الهيولى، أعني: الجسمانية، فتأدت إلى القوة الناطقة التي مجراها على اللسان لتعبر عنها بالألفاظ الدالة للمخاطبين على المعاني التي تخرج من النفس إلى القوة الصانعة التي مجراها اليدان

لتخط بالأقلام على أوجه الألواح، وصفحات الدفاتر، وبطون الطوامير، تلك الألفاظ وهي النطق الخارج والكلام الظاهر، لتبقى العلوم بصورها الذاتية، أعني: معانيها، محفوظة من الأولين إلى الآخرين، وخطاباً من الحاضرين للغائبين، إلى يوم يبعثون. انتهى ما أردته من كتاب «إخوان الصفاء» وبهذا تم الكلام على الفصل السادس، والحمد لله رب العالمين.

الفصل السابع: فيما جاء في جمهورية أفلاطون

نظر أفلاطون في نظام الأمم فقال: لا سبيل إلى نظام الدولة إلا بأن يكون فيها فلاحون وعمال وصناع وتجار الخ. وهؤلاء أشبه بالقوة الشهوية في الإنسان، وبأن يكون فيها جند مدربون بالكراع والسلاح، وهذه هي القوة الغضبية لحفظ الدولة في الداخل والخارج، ونظيرها في الإنسان قوة غضبية بها يحافظ على شرفه وأدبه، وبأن يكون فيها رجال عرفوا بسمو النظر والعقل الراجح، وهم رجال السياسة الذين يأمرون الجند، وهؤلاء الساسة وجندهم لهم السلطان والإشراف على الزراع والصناع والتجار، وهذه الطوائف الثلاثة لا بد من نظام واعتدال فيها، وهذا هو العدل.

ولقد شرحت هذا النظام في مواضع كثيرة من هذا التفسير، كالذي في سورة «النحل» عند آية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[النحل: ٩٠]، فهكذا قوى الإنسان الثلاثة إذا قويت القوة العاقلة فحكمت على الغضبية، وهي تشرف على القوة الشهوية، وتم النظام بين الثلاثة كان العدل، فهذه أربعة أصول في مقابلة الأربعة الأولى.

فلما سمع صاحبي ذلك قال: حسن والله، لقد اطلعنا على هيئة العلوم في العالم، ولكن لم تذكر لنا علماء الصين، هل كان علمهم على هذا النمط؟ فقلت: لقد تقدم في سورة «الحجرات» ما يفيد أن أمم الصين قبل التاريخ كانت معارفها على هذا النمط. وبعبارة أخرى: إن القرآن في أكثر سوره يمثل لنا عقول الأمم وعلومها. فقال: هذا أمران فأرجو إيضاحهما. فقلت: نعم. أما الأمر الأول فهو قول «كونفشيوس» فيلسوف الصين قبل الميلاد، المذكور في سورة «الحجرات»، فإن أقواله هناك هكذا:

(١) إن قدماءهم نظموا الممالك.

(٢) بعد أن نظموا أسرهم.

(٣) وهذا بعد تهذيب أخلاقهم.

(٤) وهذا بعد تنقية نفوسهم.

(٥) وهذا بعد كونهم مخلصين صادقين في تفكيرهم، منزهين في أغراضهم.

(٦) وهذا بعد توسيع معارفهم.

(٧) وتوسيع معارفهم كان عن طريق البحث والمشاهدة. انتهى.

وبعبارة أخرى: هكذا.

(١ و٢) توسيع المعارف بالمشاهدة، أي: مشاهدة الأشياء والأفعال.

(٣) ثم كمال المعارف.

(٤) ثم خلوص أفكارهم ونزاهة أغراضهم.

(٥) ثم تهذيب أخلاقهم، ومقاومة نفوسهم.

(٦) انتظام أسرهم.

(٧) ثم انتظام دولهم. وهذا هو الأمر الأول.

أما الأمر الثاني فهو هذه الآية: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ (٢٠) وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢٠-٢١]. فقال: ولكن الآية قدمت الأرض على السماء، فلم يكن ترتيب العلوم الذي شرحناه مطابقاً لها. فقلت: هو مطابق كل المطابقة، إنه قدم الأرض وبعدها النفس، ثم ذكر السماء والأرض معاً مقدماً السماء، وذلك معناه تقديم العلوم الرياضية، لأن علم الفلك من نتائجها. فقال: حسن، ولكني أريد أصرح من ذلك في القرآن، بحيث ينطبق على نظام علوم الأمم كلها المذكورة هنا. فقلت: هناك سورة تفيد ذلك، وهي: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا (١) وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا (٢) وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا (٣) وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا (٤) وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا﴾ [الشمس: ١-٥].

فهذه الخمس ترجع لعلم الفلك وهو من العلوم الرياضية، بل هو أجلّ ثمراتها، ثم هو من جهة علوم مشاهدة أشار لها «كونفشيوس». وقوله: ﴿وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا (٦) وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾ [الشمس: ٦-٧] موافق لآيتنا هنا: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ (٢٠) وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢٠-٢١]، ومعنى هذا أن العلوم الطبيعية المشروحة قريباً تكون قبل علم النفس في نظام المدارس وفي القرآن، والعجب العجيب من القرآن أنه قدم الأرض على النفس في هذين الموضعين وفي غيرهما، وألهم الأمم جميعها أن تفعل ذلك، وقال لـ«بيكون»: يا بيكون اجعل نظام الطبيعة قبل علم النفس، كما قال لـ«كنفشيوس» بالصين ولإخوان الصفاء وللأمم كلها، إن هذا القرآن مدهش، إذن عندنا مزرعتان: مزرعة هي أرضنا، ومزرعة هي نفوسنا هي المذكورة في سورة «الشمس» إذ يقول الله بعد ذلك: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ [الشمس: ٨-١٠].

جلّ الله، أليس هذا بعينه هو الأخلاق والسياسة ونظام الدولة، أليس الفجور والتقوى واضحين في الأخلاق والأسرات والممالك، أليس هذا بعينه هي السياسة العملية المتقدمة عند فلاسفة اليونان والعرب وأوروبا والصين، فهاهو ذا «بيكون» يقول: نظام الطبيعة ثم النفس ثم الأخلاق وسياسة الناس. وهاهم أولاء فلاسفة القرون الأولى يؤخرون الأخلاق وما عطف عليها من العلوم، وهاهو ذا «كونفشيوس» يفعل ذلك ناقلاً عن آبائه المتوغلين في القدم، وهم لا يعرفون علوم اليونان ولا غيرهم.

أيها المسلمون، لا عطر بعد عروس، ولا مخبأ بعد بوس، جم الأمر وأزفت الآزفة ليس لها من دون الله كاشفة، لتقرؤوا مزارع الله في الآفاق ومزارعه في النفوس، إن القرآن لوح رسمت فيه صور علوم الأمم تذكرة لكم، فهل أنتم مذكرون؟.

تباركت يا الله، أريتنا علوم الأمم السابقة كلها، فرأينا مدارها على علم نفوسنا، فنفوسنا هي المصدر الأصلي، فقد جعلوا علوم الرياضيات والطبيعيات مقدمة لمعرفة النفس، وعلوم السياسات

والأخلاق والجمال نتائجها، ومنهم من غير بعض النظام، وذلك تبع اختلاف الأنظار وتباين الآراء، والنتيجة من هذا كله فهم قولك في قرآننا الكريم: ﴿ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴾[الذاريات: ٢١].

هانحن أولاء نظرنا في أنفسنا نظراً مستمداً من آراء الأمم كلها لنشهد على علم، ولكن لا تتم شاهدتنا في ذلك إلا بدراسة علم النفس والتربية الحديثة، لأن العلوم المذكورة نقلها تلاميذ ابن رشد من يهود ومسلمين إلى أوروبا منذ نحو ٧ قرون فارتقت تلك العلوم، وإذا بقينا على ما قرأناه من كلام قدمائنا أصبحنا كأننا نعيش في القرن الثالث عشر الميلادي، ولكن نحن في القرن العشرين، إذن فلنذكر:

الفصل الثامن: فيما جاء في علم النفس الحديث

أمامي الآن كتاب «أصول النفس وأثره في التربية والتعليم» تأليف الأستاذ «أمين مرسي قنديل» أستاذ علوم النفس والتربية بمدرسة المعلمين العليا، وألفه بعد أن أخذ شهادات عالية في هذا العلم من جامعات أوروبا، فهو كتاب موثوق به يدرس بمصر الآن، وهو علم لم يدرس من قبل في بلادنا، وموضوعات الكتاب هكذا مثلاً: معنى العلم وأغراضه، حقيقة علم النفس، طرق البحث في علم النفس، فروع علم النفس، التربية وعلم النفس، العقل، الشعور، اللاشعور، الاستهواء، الجهاز العصبي، رد الفعل، الأفعال المنعكسة، تربية الجهاز العصبي، الغرائز والميول، دراسة طائفة من الغرائز والميول الفطرية، العادات، التعلم، التمرن، الشوق، التشويق، الشوق والتربية، الانتباه، عوائق الانتباه كالتعب، الأعمال المدرسية، وهكذا.

نظرة عامة في علوم النفس عند القدماء والمحدثين

أيها الأخ الذكي، هذه صفحة عامة من صفائح نفوسنا المشرقات، تلك النفوس التي هي مزارع الله عز وجل في أجسامنا، وحقوله التي تولى هو غرسها بيديه وقال لنا: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١]، بعد أن أرشدنا إلى أن ننظر دراسة مزارع أرضنا.

هاهو ذا أمامي الآن كتاب «سلوك المالك في تدبير الممالك» الذي ألفه شهاب الدين أحمد بن محمد بن أبي الربيع، ألفه للخليفة المعتصم بالله العباسي، إن المؤلف في هذا الكتاب قسم الفضائل والرذائل تقسيماً عجيباً جداً، وأوضح ذلك أيما إيضاح، وعلم الملوك والسوقة والفضلاء وغير الفضلاء، ولم يترك باباً إلا ولجه، ولا فضيلة إلا فصلها، ولا رذيلة إلا أوضحها، بجداول جميلة وعبارات طريفة وبهجة وجمال، ولأقتصر على ما جاء فيه من جداول الأخلاق الناقصة، ثم أتبعه بما جاء بعلم التربية الحديث المذكور.

أريد بذلك أن يرى المسلمون وأنت أيها الذكي أولهم آراء الأولين والآخرين في أحوال نفوسنا وأنهم جميعاً يسعون لغرض واحد متجهين لنتيجة واحدة، ذلك أنهم جميعاً يعاملون النفوس في محو رذائلها معاملة الأجسام في شفاء أمراضها، بحيث أصبح تهذيب النفس مطابقاً لشفاء الجسم من حيث سير العلاج الجسمي والروحي معاً سيراً منظماً، فانظر كيف يقول صاحب كتاب «سلوك المالك في تدبير الممالك» في صفحة ٣٨ ما نصه: إن من شر رذائل القوة الغضبية الغضب، وهو أكبر الرذائل، وله مواد وأسباب:

الرذيلة	مداواتها
الزهو	باستعمال التواضع
العجب	بمعرفة عيوب الناس
الفخر	بالتيقن أنه من جنس عبده
المرح	بالتشاغل بما يجب من الحقائق
الهزل	بالجد في طلب الفضائل
الهزؤ	بالتكريم عن أذى الناس
التعيير	بالقدرة على ترك الأقاويل القبيحة
الملاحاة	بصيانة النفس عن مر الجواب
المصادة	بترك العناد
الغدر	باستعمال الوفاء

ثم أبان أن هذه كلها سببها الخوف، أي أنه لا يزهو لأنه يريد العلو ويخاف من عدم هذه الصفة، وهكذا البواقي، فإذا استهزأ بغيره فمعناه أنه أعلى منه وهكذا. ثم أخذ يذم أمثال الكسل الذي هو جزع من أن يفعل فعلاً ما كسل عنه، ففيه معنى الخوف أيضاً لأنه يخاف أن يعمل، ثم الخجل والحياء، فالأول جزع من أن يعرف بشيء قبيح لم يفعله، والثاني جزع من أن يعرف بشيء قبيح فعله، وذكر الفرق ـ بفتح الراء ـ من فعل شيء عظيم يضعف عن احتماله، والحذر، وهو الجزع من شعور أمر مترقب واشتباهه، ثم الذعر وهو الجزع من صورة ليست مألوفة الخ.

هذه صفحة من علم الأخلاق في كلام قدمائنا في العصور الأولى، وعلم الأخلاق ربيب علم النفس، فهاهم أولاء جعلوا لكل منقصة دواء، وما هو هذا الداء؟ هو أن يجعلوا الضد مزيلاً لضده كما يفعل الأطباء، بحيث يداوون الحار بتعاطي البارد والعكس بالعكس، فلننظر إذن في كلام علماء التربية في عصرنا، فهذا كتاب «أصول التربية»، فقد جاء فيه في صفحة ١٥٣ تحت عنوان «استعمال غريزة ضد أخرى» ما ملخصه:

إن المربي يستعمل غريزة ضد أخرى ليخفف من شرها، فغريزة الخضوع تخفف شر غريزة السيطرة والظهور، والخوف يردع به الطفل عن كثير من الشرور، وهؤلاء يقولون: إن الغرائز لا تجوز إزالتها، بل يجب تهذيبها وتوجيهها إلى المثل الأعلى لا قتلها، فإن قتلها جناية. مثال ذلك: غريزة المقاتلة والاقتناء، يجب أن توجه إلى مغالبة الآلام والتغلب على العقبات التي تعترض المرء في طريقه، وإلى المنافسة في عمل الخير، وإلى الدفاع عن مبدأ نبيل، وضربوا لذلك مثلاً بأن الحكومات تتخذ اللصوص القدماء وسائل لمساعدة رجال الشرطة في ضبط السارقين والقاتلين، فهذا معناه أن المربي ينقل الغريزة من حال ضارة إلى حال نافعة، فالغضب والمقاتلة عند المهذب يكونان معينين على كل فعل نبيل كالدفاع عن كل ضعيف.

هذه هي الصورة الواضحة في التربية الحديثة، وهي على منوال التربية القديمة، فالعلم هو عينه غاية الأمر أن الحديث قد أوضح إيضاحاً أكمل، وأبان وجوه الإصلاح أيما إبانة.

وإذ فرغت من إيضاح الصور التهذيبية عند القدماء والمحدثين فلأشرع في شرح المزارع التي تزرع فيها تلك التعاليم، والحدائق الغناء الإلهية التي تنبت فيها تلك الأزهار والرياحين.

تبصرة وتذكرة لآياتنا التي نحن بصدد الكلام عليها:

﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ (٢٠) وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٢١) ﴾

فقال صاحبي: إن المسافة طويلة، والشقة بعيدة بين مزارع الأرض ومزارع الدماغ ونبات الأخلاق فيه، إن مزارع الحقول مشاهدة، وهل شوهدت مزارع الغرائز في حقول الدماغ، غاية الأمر أنها عرفت بطريق الاستنتاج. فقلت: اعلم أيها الأخ الذكي أني كما كنت في الحقل أيام الفتوة أرى المزارع وهي كانت درسي نهاراً، والنجوم وهي كانت درسي ليلاً، هكذا اليوم أشهد فيما ستراه في الدماغ مزارع الغرائز متجلية واضحة تزدهر فيها الغرائز والأميال، فكما كانت النجوم والحقول وما بينهما من نفوس الناس هي التي منها استمدت جميع العلوم التي شرحناها هنا في الأمم كلها، هكذا هذه الجمجمة الصغيرة التي ستراها الآن أصبحت مزرعة فيها جميع المزارع التي كنت أشاهدها، والنجوم التي كنت ألحظها، والعلوم التي درستها، والسياسات التي عرفتها.

تباركت يا الله، جعلت الأرض مكان الإنبات، وجعلت أدمغتنا حدائق، كل حديقة منها مختصرة من هذا العالم العظيم وعلومه المفصلات. فجلّ الله. جلّ الله! ومما أدهشني فيما ستراه أيها الأخ النبيل أن ما كنت أقرؤه في الكتب القديمة من أن المخيلة في مقدم الدماغ، والمفكرة في وسطه، والقوة الذاكرة في مؤخره، كما ذكرته سابقاً، وأن ذلك استنتجه الفلاسفة من تجاريب الأطباء في مرضاهم؛ أصبح اليوم مشروحاً على هذا النمط بعينه، فسترى أن هناك مناطق ثلاثة: أمامية ووسطى وخلفية، جعلت للتفكير والتصور، وباضطرابها لا يكون الإنسان عاقلاً.

ولكن علماء العصر الحاضر برعوا براعة أوسع من السابقين: (١) أرونا أن في المخ تلافيف وشقوقاً تتضح في العقول الكبيرة، وتصغر ولا تتضح في العقول الصغيرة وفي الحيوان. (٢) أرونا أن للمخ نصفين كل نصف يقسم أربعة أقسام، فهذه ثمانية أقسام، وكل قسم يسمى باسم عظم القحف الذي يقرب منه، وكل واحد من هذه الثمانية ينقسم إلى أقسام على حسب التلافيف التي فيه المخ. (٣) إن المخ محط جميع المواصلات في الجسم.

وستشاهد أن في هذا المخ مناطق معينة للحس وأخرى للحركة وأخرى لربط المعلومات، فترى منطقة البصر عند الفحص المؤخرى من الرأس، وهناك منطقة إدراك المرئيات والقراءة، ويلي تلك المنطقة من الداخل منطقة السمع ثم الذوق والشم، وهاتان بالقرب من الفص الصدغي. وترى في المنطقة الخلفية التي تقرب من الفص الجداري مراكز ربط تلك المعلومات وترتيبها وتنظيمها، وترى أيضاً منطقة ربط أخرى أمامية.

أيها الأخ الذكي، إنني الآن في دراسة مخ الإنسان لم أعد ما كنت أدرسه في الحقول أيام الشباب كيف لا، أليست هذه المزارع التي في أدمغة الإنسان بعد أن يدرسها المدرسون ويعرفوها، يحتالون في تهذيبها وتوجيهها، وفي انتزاع وإهلاك ما ضر منها، ويوجهون الغرائز من الضار إلى النافع.

فيا ليت شعري أي فرق بين تقطيع الحشائش في الحقول وبين إزالة الكذب من أفواه الأطفال، ثم أي فرق بين تهذيب القوة الغضبية في الطفل بأن نوجهها إلى اقتناء الفضائل، وإلى الحماسة في حماية الضعيف، وبين تقليمنا الأشجار وتشذيبنا الأغصان لتعدل الأشجار عن إضاعة قواها فيما لا يفيد، ولتتجه إما إلى ازدياد الخشب في نحو الصنوبر، وإما إلى ازدياد الثمار في الأشجار المثمرة، إذن نظام العالم واحد، ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍۖ﴾[الملك: ٣]، وحقلنا كما كان مضرب مثل لعلوم الأمم؛ هكذا هو مضرب مثل لعلوم النفس وتهذيب الأخلاق ونظام مناطق مخ الإنسان.

فقال صديقي: الله أكبر، الله أكبر، حسن حسن، يظهر لي أنك ذكرت هذه المقدمة لتكون نوراً يأتنس به من يطلع على هذه المعاني فيما تريد أن تلقيه، لأن هذا العلم صعب المنال، بل إذا لم يفهم القارئ إلا ما ذكرته فحسبه، والعقول الكبيرة ستفهم نفس الموضوع بتفاصيله وصوره الشمسية.

فقلت: نطقت بالصدق، فهاك الموضوع الذي اخترته من ذلك الكتاب بتمامه، فقد جاء فيه في الصفحة ١٠٩ وما بعدها ما يأتي بالحرف الواحد:

المخ

المخ: يملأ الجزء العلوي من القحف ممتداً من الأمام إلى الخلف، وحده الأسفل من الأمام مستوى الحاجبين، ومن الجانبين حذاء الأذنين. (انظر شكل ٣٠).

(شكل ٣٠)

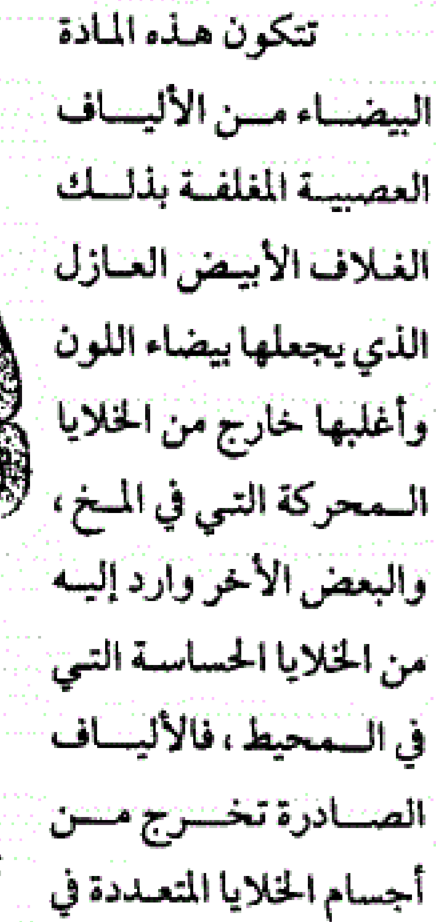
ويبلغ متوسط وزنه ١٤٠٠ جرام، إذ هو يختلف عادة بين ١٣٠٠، ١٨٠٠ جرام، ويشبه في الشكل قلب الجوزة، فهو منقسم بشكل مستطيل إلى نصفين متماثلين: النصف الأيمن، والنصف الأيسر، ويعرف كل منهما بنصف كرة، والنصفان ليسا منفصلين عن بعض تمام الانفصال بل متصلان من الأسفل بحزمة من الألياف العصبية تعرف بالجسم الصلب، وبكل نصف منهما ثنايا كبيرة تعرف بالتلافيف، بينها منخفضات ظاهرة تسمى شقوقاً، وهذه الثنايا تجعل سطح المخ في مجموعه كبيراً جداً وبذلك تكون المادة السمراء أو اللحاء كبيرة أيضاً، لأنها تدخل في الشقوق وتغطي التلافيف كلها، وهذه

التلافيف قليلة ليست ظاهرة في الحيوانات ، ولكن كلما ارتقى الحيوان بدت الشقوق والتلافيف عميقة جلية ، حتى إنها لتكون واضحة كل الوضوح في الإنسان ، فكأن نموها وعددها يسيران يداً بيد مع نشوء الحيوان وترقيه في سلم النشوء والتطور . تتميز التلافيف بعضها عن بعض بالشقوق التي بينها ، وأهم هذه الشقوق اثنان : شق رولندو ، أو الشق الأوسط ، وشق سلفيوس ، أو الشق الجانبي ، والتلافيف تختلف اختلافاً قليلاً باختلاف الأفراد ، ولكنها في جملتها ثابتة ، ولذلك وضع لكل منها اسم خاص ، كما وضع لكل شق اسم خاص به أيضاً ، وتراها واضحة في (شكل ٣٠) الذي تقدم قريباً .

ينقسم كل نصف من نصفي المخ إلى أربعة فصوص يسمى كل منها باسم عظم القحف القريب منه ، وهذه الفصوص هي : (١) الفص الجبهي . (٢) والفص الجداري . (٣) والفص الصدغي . (٤) والفص المؤخري .

وكل فص من هذه الأربعة ينقسم إلى أقسام أخرى حسب ما فيه من التلافيف ، فالفص الأمامي مثلاً ينقسم إلى أربعة تلافيف : التلفيف الأوسط الأمامي « الصاعد الأمامي » ، والتلفيف الأعلى ، ثم الأوسط ، والأدنى .

مادة المخ البيضاء



تتكون هذه المادة البيضاء من الألياف العصبية المغلفة بذلك الغلاف الأبيض العازل الذي يجعلها بيضاء اللون وأغلبها خارج من الخلايا المحركة التي في المخ ، والبعض الآخر وارد إليه من الخلايا الحساسة التي في المحيط ، فالألياف الصادرة تخرج من أجسام الخلايا المتعددة في اللحاء ، ثم تجتمع هذه الألياف بعضها مع بعض وتكون حزمتين كبيرتين من المادة البيضاء تتصلان بالقنطرة وبالنخاع المستطيل . (انظر شكل ٣١) .



(شكل ٣١ ـ مقطع جانبي للمخ يبين الألياف الرابطة متجهة بين كل تلفيف وآخر وبين الفصوص المختلفة وترى الجسم الصلب في الوسط)

والألياف البيضاء تتكون منها مادة المخ البيضاء أربعة أنواع :

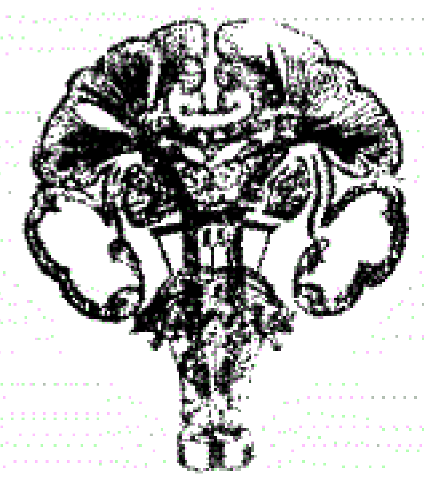
(١) ألياف رابطة وترى متجهة بين التلافيف ، ربط خلاياها كل نصف كرة بعضها ببعض كما ترى في شكل ٣١ ، وبذلك تتصل مراكز اللحاء كلها بعضها ببعض .

(٢) الألياف الضامة: وهذه أيضاً رابطة، ولكنها تربط نصفي الكرة بعضها ببعض بواسطة الجسم الصلب وغيره، وبذلك تكون التلافيف التي في كل نصف كرة مرتبطة بالتلافيف التي في النصف الآخر.

(٣) الألياف المصدرة وهي محركة، وقد تسمى الألياف النازلة.

(٤) الألياف الموردة وهي حساسة، وقد تسمى بالألياف الصاعدة.

وكلا الألياف المصدرة والموردة هذه تربط اللحاء بالأجزاء السفلى من المخ وبالحبل الشوكي، ويتصل بالدماغ مباشرة اثنا عشرة عصباً تذهب إلى الرأس كلها وتتفرع في أعضاء الحواس المختلفة. (انظر شكل ٣٢).



(شكل ٣٢ ـ مقطع مستعرض للمخ يوضح الألياف المصدرة وتقاطعها عند النخاع المستطيل «ق» قنطرة. «حـ ص» الجسم الصلب. «س» شق سلفيوس)

اللحاء

تغطي الدماغ كله طبقة رقيقة من المادة السمراء، وهذه تتكون كما تقدم من جسوم الخلايا العصبية وأوائل فروعها، ويختلف سمكها القليل الذي لا يزيد على ثلاثة ملليمترات باختلاف أجزاء المخ، واللحاء على رقته يتكون من خمس طبقات من الخلايا بينها طبقات أخرى من الألياف العصبية، وخلايا الطبقات تختلف شكلاً ووظيفة.

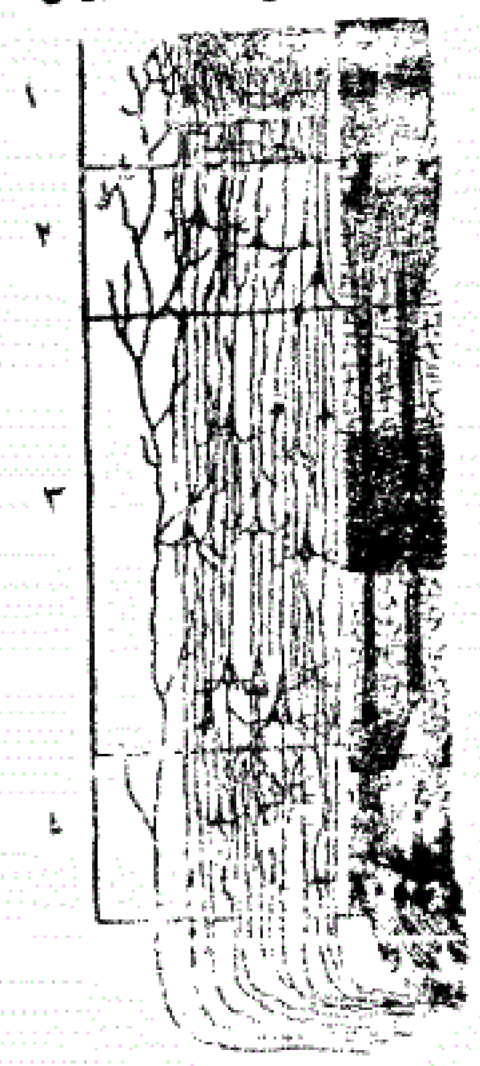
(١) فالطبقة العليا، أو السطحية، تتكون من خلايا قليلة العدد تمتد فروعها امتداداً أفقياً، وأكثرها يتكون من فروع خلايا الطبقات التي تحتها، ومن نهايات الأعصاب الموردة، وهي كلها لا تزيد نصف ملليمتر، ولا شك في أن وظيفتها ربط الخلايا الحساسة «الموردة» بالخلايا المحركة «المصدرة».

(٢) تلي هذه الطبقة طبقة أخرى بها خلايا كثيرة العدد مختلفة الحجم، هرمية الشكل، وظيفتها الربط أيضاً، وسمك هذه الطبقة يزداد برقي الحيوان في مرتبة النشوء

(٣) ثم طبقة ذات خلايا صغيرة نجمية الشكل محاورها قصيرة كثيرة التفرع.

(٤) ويلي هذه طبقة رابعة فيها خلايا هرمية كبيرة الحجم طويلة المحاور، وأغلبها في منطقة الحركة في المخ.

(٥) وأخيراً توجد طبقة خامسة خلاياها متعددة الشكول مختلفة الحجوم.



(شكل ٣٣) مقطع في اللحاء يبين طبقاته وأشكال خلاياه المختلفة. الجزء الأيمن من الشكل يوضح الألياف العصبية. والأيسر يوضح الخلايا. وهذان الشكلان يجب أن يتصورا معاً بعضهما فوق بعض. وبذلك يتضح التعقيد الكبير في تركيب اللحاء.

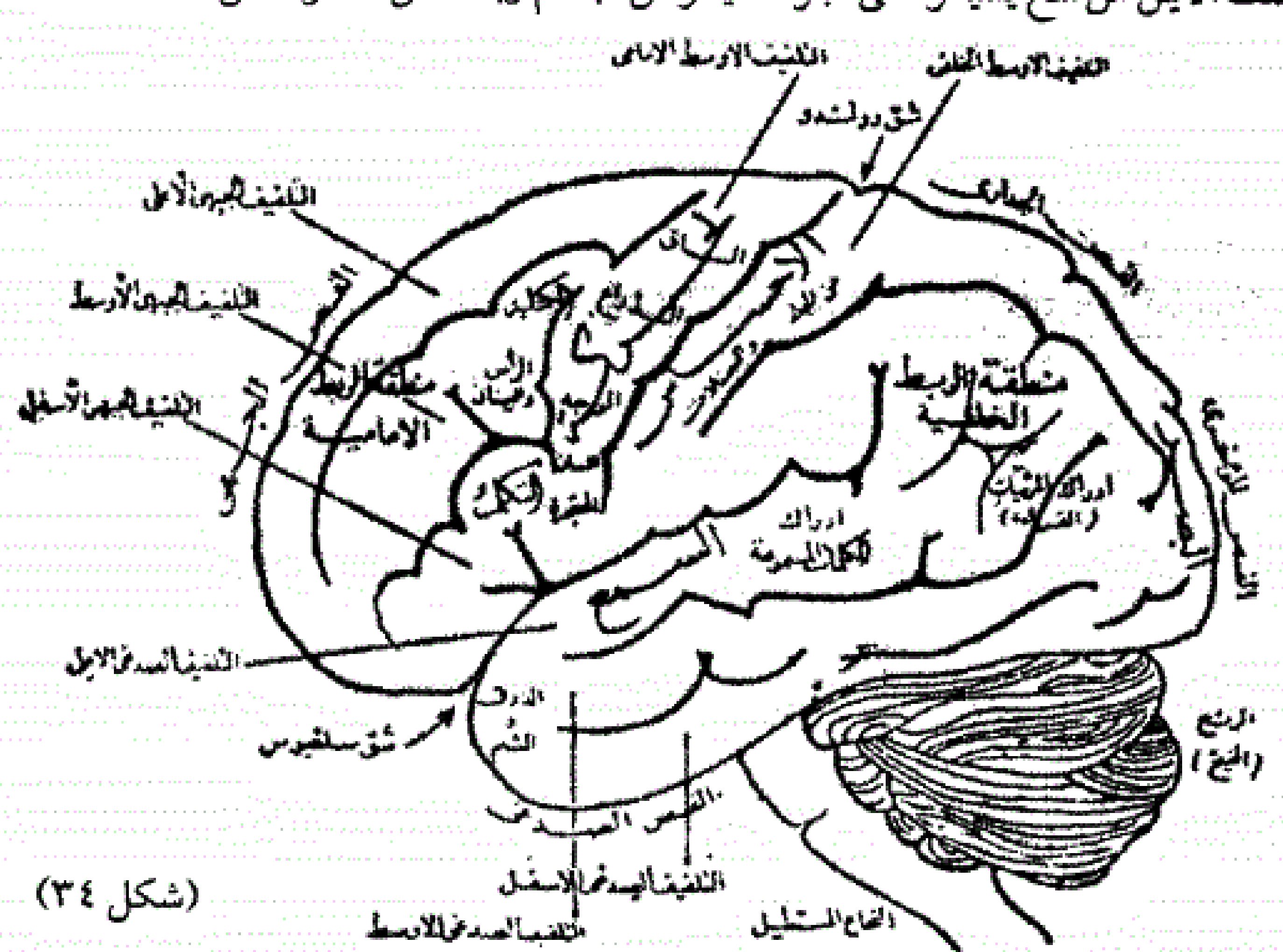
فخلايا اللحاء المخي كثيرة جداً معقدة التركيب ومختلفة الشكل، كل خلية ترسل فروعاً كثيرة متشابكة تشابكاً كبيراً بعضها مع بعض ومع غيرها من فروع الخلايا الأخرى، وهذا التشابك الكثير مما يميز الإنسان الراقي عن غيره من الحيوان، وفي الوقت نفسه إلى اللحاء نهايات محاور كثيرة أيضاً من أجزاء شتى تتشابك أطرافها مع فروع الخلايا الأخرى، وإذا تذكرنا أن بالمخ مراكز تمثل جميع أعمال الجسم الكثيرة ووظائف أعضائه المختلفة اتضح لنا مقدار التعقيد الكبير في تركيب المخ، ولا سيما في طبقته الرقيقة الخطيرة الشأن المعروفة باللحاء.

وظائف المخ

المخ أهم أجزاء الجهاز العصبي، فهو الذي يشرف على سلوك الإنسان ويدبره ويراقب كل حركة إرادية أو غير إرادية من السلوك، ويوفق بين أعمال الأعضاء المختلفة ويربطها بعضها ببعض، وهو موطن العمليات العقلية السامية، ففيه مراكز الإحساس والإدراك الحسي والذكر والتفكير وربط العمليات العقلية بعضها ببعض، وهو موطن الشعور، فكل تأثير يقع على أي جزء من أجزاء الجسم ولم يصل أثره إلى المخ؛ فإن المرء لا يتفطن إليه ولا يشعر به، ولذلك فإنه إذا نزع مخ حيوان كالضفدعة أو الحمامة مثلاً فإنها تفقد كل حركاتها الإرادية، وتصبح كأنها آلة من الآلات لا تتحرك بإرادتها وباختيارها ولا تحس بما يسلط عليها من المؤثرات، فالمخ هو محط جميع خطوط المواصلات في الجسم، وهو مستوى جميع المركز العليا.

مناطق اللحاء

لكل جزء من أجزاء اللحاء المختلفة علاقة بأجزاء معينة في الجسم يشرف عليها ويديرها، فالنصف الأيمن من المخ يسيطر على الجزء الأيسر من الجسم وبالعكس «انظر شكل ٣٤».



(شكل ٣٤)

ولقد تمكن الباحثون من علماء وظائف الأعضاء والتشريح من تعيين مواضع كثير من المراكز المختلفة في اللحاء التي تقوم بوظائف خاصة، وكثير من هذه المراكز ينحصر في ثلاث مناطق: مناطق الحس، ومناطق الحركة، ومناطق الربط. فللحس مراكز: للبصر، والسمع، والشم، والذوق، واللمس وتحريك العضلات، وللحركة مراكز كثيرة أيضاً تمثل عمل الأعضاء المختلفة، فهناك مراكز لتحريك الرجل واللسان واليد وغيرها كما سترى، وهذه المناطق توجد في كل من نصفي المخ، إلا أنه لتصالب المحاور قرب النخاع المستطيل صارت مراكز النصف الأيمن تشرف على النصف الأيسر من الجسم، ومراكز النصف الأيسر من المخ تشرف على الجزء الأيمن من الجسم.

منطقة الحركة: توجد في الفص الجبهي في تلفيفه الأوسط الأمامي ممتدة أمام شق «رولندو»، وبها مراكز لتحريك أعضاء الجسم المختلفة، ففي الجزء الأعلى من هذه المنطقة مركز تحريك أصابع القدم، تليه مراكز تحريك الركبة فالحرقفة فالأطراف العليا فالوجه وهكذا بترتيب تنازلي، فكل حركة إرادية تنشأ من عمل مركز خاص في هذه المنطقة، إذا أصيب مركز منها بضرر أو مرض أعقبه شلل العضو المتعلق به فلا يمكن تحريكه بالإرادة.

منطقة الحس: توجد موازية لمنطقة الحركة على الجانب المقابل لها من شق «رولندو» في الفص الجداري، وفيها مراكز الاحساسات الآتية من الجلد وحركة الأعضاء المختلفة، وترتيب مراكز الإحساس في هذه المنطقة عين ترتيبها في منطقة الحركة، فمراكز الاحساسات الآتية من الساق مثلاً توجد حذاء مراكز تحريكه وهكذا.

منطقة البصر: مراكز البصر توجد في الفص المؤخري من المخ، فأي إصابة لها تحدث العمى، مع أن العين نفسها قد تكون سليمة من كل شائبة، وفي الفص المؤخري هذا مراكز أخرى لإدراك المرئيات، فمنها ما يتعلق بإدراك الكتابة، ومنها ما يتعلق بإدراك الألوان أو الأشياء وهكذا.

منطقة السمع: تقع في الجزء الخلفي من التلفيف الصدغي الأعلى، وهو تلفيف يقع أسفل شق سلفيوس، وهي متصلة مباشرة بالأذنين، فأي أثر يلحق بمراكز الإحساس السمعي فيها يحدث الصمم وقرب هذه المنطقة كما في منطقة البصر مراكز مختلفة لإدارك الكلمات المسموعة، أو لتمييز الأنغام المختلفة وهكذا.

مناطق الربط والاتصال

يختلف مخ الإنسان عن مخ القردة وغيرها من الحيوانات الأخرى بأن به مناطق صامتة أوسع رقعة مما لديها، وليست هذه المناطق وظيفة الحس أو الحركة، وإنّما ربط مراكز الحس بعضها ببعض، ومراكز الحركة كذلك، والتوفيق بين أعمالها الكثيرة المعقدة، فإذا أصيبت هذه المراكز لا يحدث للمرء ضرر مادي في جسمه مثل شلل أو فقدان الحس، وإنّما يفقد قدرته على التفكير أو المهارة المكسوبة، فيختلط عقله ويلتاث أو يضطرب اضطراباً واضحاً في كل من الأعمال التي كان يؤديها قبلاً بمهارة وحذق، وتوجد هذه المناطق في ثلاثة مواضع:

(١) المنطقة الأمامية، وتقع في الفص الجبهي أمام شق «رولندو» وأمام منطقة الحركة.

(٢) المنطقة الخلفية، وتقع في الفص الجداري بين منطقتي الإحساس والبصر.

(٣) المنطقة الوسطى، وتقع فيما يعرف بجزيرة « رايل ».

فهذه المناطق الثلاث ملتقى الاحساسات المختلفة الآتية من الحواس، وفيها ترتبط بعضها ببعض وتحبك بواسطة الألياف الرابطة، فيحدث الإدراك الحسي والتذكر والترابط وسائر العمليات العقلية السامية من التفكير والحكم والاستدلال، فهي مناطق التفكير بمعناه المعروف، أو إن شئت فقل هي أعضاء التفكير، وقد دل التشريح وعلم الأمراض على أن لحاء البله وضعاف العقول يكون أرق من المعتاد في هذه المناطق، في حين أنه يكون سميكاً نوعاً ما، وتكون التلافيف عميقة ومعقدة عند النابغين والمفكرين ذوي العقول الكبيرة، ومن هذا يستنتج أن مقدرة الإنسان العقلية تتوقف على عاملين:

(١) على التربية والتدريب.

(٢) وعلى صفات المخ الخلقية التي فطر عليها.

أو بعبارة أخرى على البيئة، وعلى الوراثة، فمن الناس من يولد ذا استعداد طبيعي للموسيقى مثلاً، وهذا معناه أنه ولد وبعض أجزاء من مناطق الربط في مخه منظمة تنظيماً خاصاً مخالفاً لغيره، يجعلها متهيئة لقبول مهارة خاصة والنبوغ فيها إذا وجدت الأحوال معينة لها، كأن يوجد الشخص المجدود هذا في بيئة موسيقية، أو يجد من مدرسته تشجيعاً وحثاً على العناية بتغذية موهبته هذه، فالمواهب السامية العاملة ليست ثمرة التدريب وحده، بل ثمرة تدريب استعداد فطري وتربيته، والواقع أن التربية لا تستطيع أن تبنى إلا على أساس الفطر والغرائز والاستعدادات، فهي لا تخلق ما ليس موجوداً، ولكن تذكي الموجود منها وتنظمه وتوجهه إلى العمل في متجهات خاصة بما تغذيه به من الخبرات، وبما تدر عليه من الأعمال وتوجده فيه من ميول.

مراكز اللغة في اللحاء

في لحاء المخ أربعة مراكز ذات شأن كبير في التربية المدرسية لاتصالها باللغة، وهذه هي مراكز الكلام والكتابة وإدراك الألفاظ المسموعة والألفاظ المكتوبة، وكل مركز منها يقع قرب المركز العام المتعلق به، فمركز الكلام يقع في النصف الأيسر من المخ في التلفيف الأدنى من الفص الأمامي أمام مركز تحريك اللسان، وذلك عند من يكتب بيده اليمنى، فالطفل يتعلم التعبير عن خواطره بألفاظ وعبارات خاصة يكتسبها بالمحاكاة والمرانة، فتذكر التعبير بهذه الأصوات يتركز في هذه المراكز، ومنه ينتقل الأثر إلى المنطقة المحركة المجاورة له، فيتحرك اللسان وينطق بالألفاظ، فإذا أصيب مركز الكلام هذا بضرر ما فقد الإنسان المقدرة على التعبير بالألفاظ، أو كان تعبيره على الأقل مضطرباً لا تآلف فيه، ولذا لا يفهم مع أن لسانه يكون صحيحاً غير مصاب بأي شلل ما، فهو ليس بأبكم ولكنه مع ذلك يعجز عن التعبير عما في نفسه بعبارات يدرك السامع مدلولها ومعناها. ويقع مركز الكتابة فوق مركز الكلام أمام مركز حركة اليد، وهو مرتبط بها كل الارتباط ومتوقف عليها، وإذا أصيب بضرر فقد المرء القدرة على الكتابة وما يماثلها من الأعمال التي تستلزم مهارة وتدريباً مكتسباً بطول الخبرة والمرانة. ويقع مركز إدراك الألفاظ المسموعة قرب منطقة السمع، ويعرف بمركز فرنك، وإصابته تحدث

ما يعرف بالصمم اللفظي، فالمصاب يسمع الألفاظ ولكن لا يفهم معناها. ويقع مركز إدراك الكلمات المرئية أو مركز القراءة في الفص المؤخري قرب مركز البصر، ومرضه أو إصابته تحدث العمى اللفظي، فلا يستطيع المصاب أن يدرك لما يرى من الكلمات المكتوبة معنى ما، مع أن نظره قد يكون سليماً من كل شائبة مرض، فموقفه يكون أشبه بمن يرى لغة غريبة عنه لم يتعلمها قط، ولربما كان عجز بعض الأطفال عن التقدم في القراءة راجعاً إلى ضعف في هذا المركز. وهذه المراكز فضلاً عن كونها مراكز ارتباط في نفسها متصلة بعضها ببعض، ولا سيما مركز إدراك الألفاظ المسموعة والكلام، والأول منها يسبق الثاني في ترقيه، فالطفل يفهم كثيراً من الألفاظ والعبارات التي يسمعها من أهله ويدرك معناها قبل أن يستطيع التلفظ بها على الوجه الصحيح، ولربما تظل هذه الحال كذلك في الإنسان طول حياته، فتكون قدرته على الفهم أكبر من قدرته على التعبير عما يجول بنفسه، ولهذا فإن هذا المركز أهم المراكز الأولية كلها، فعند القراءة الجهرية تتأثر العين بما ترى من الكلمات، ويسير أثر الانفعال إلى مركز القراءة، ثم يتجه إلى مركز إدراك الكلمات المسموعة بواسطة ألياف رابطة، فيستثير ذكرى أصواتها، ثم تتصل هذه بألياف رابطة أخرى إلى مركز بروكا أو مركز الكلام، فيلفظ المرء الأصوات التي ترمز إليها الكلمات التي يقرؤها، وكذلك الحال عندما يكتب الإنسان ما يملى عليه، فإن الألفاظ المسموعة تتجه من الأذن إلى مركز إدراكها، ثم تتصل بمركز الكلمات المرئية فتستثير ذكرى أشكال الحروف التي ترمز إليها ثم تتصل بمركز الكتابة، وهذا كما علمت متصل كل الاتصال باليد، فتتحرك هذه عندئذ وتكتب الألفاظ التي تدل على ما يسمع، ومن هذا نعلم أن في التدريس يجب استعمال أكثر من حاسة واحدة، لأن ذلك يعين على سرعة الفهم وحسن تذكر ما فهم، لكثرة الارتباطات التي تتم بين المراكز المختلفة.

الرنح أو المخيخ

يوجد الرنح خلف المخ وهو أصغر منه حجماً، ويشبهه من حيث وجود المادة السمراء على سطحه، وبكثرة ما فيه من التلافيف، وهو منقسم إلى قسمين كبيرين بينهما قسم صغير يعرف بالدودة، على أن تلافيف الرنح تختلف عن تلافيف المخ من حيث شكلها، فكلها مستعرضة وضحلة بخلاف المخ.

وإذا شق الرنح رؤي أن المادتين السمراء والبيضاء تتدخلان في بعضهما البعض تدخلاً يجعلها تشبه تفرع شجرة، ولذا يطلق عليها شجرة الحياة.

وظيفته: من الثابت أن وظيفة الرنح هي ضبط حركات الجسم المختلفة، والاحتفاظ باتزان الجسم في حالي الحركة والوقوف، وهو يؤدي هذا العمل بنفسه عادة من غير تدخل المخ إلا في أحوال استثنائية تقتضي تدخله عندما تكون الحركات غير عادية، كالسير على حبل ممدود مثلاً، أو في حال الترنح من السكر، فالرنح ليس مركز حركات إرادية إنّما هو مركز توفيق بين هذه الحركات، فإذا قطع أو أصيب كانت حركات الحيوان مضطربة اضطراباً كبيراً لا توافق بينها ولا تآلف، فلا يستطيع الوقوف أو السير المنظم، وقيام الرنح بعمله هذا لا يصحبه شعور عادة، ولذلك لا ينتبه إليه المرء إلا في الأحوال

الاستثنائية. ولكي يستطيع الرنح أن يقوم بأداء وظيفته هذه لا بد له من أن يكون على اتصال تام بالأجزاء المركزية الأخرى، ولذا فهو متصل بالمخ والنخاع المستطيل والحبل الشوكي بواسطة ثلاث قوائم من الألياف العصبية. انتهى ما جاء في كتاب «أصول علم النفس»، والحمد لله رب العالمين.

هذا ما أردت ذكره في هذا المقام، وعسى أن أوفق إلى أن أكتب في سورة «والشمس وضحاها» عند آية: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴾[الآيتان: ٧-٨]، إذ أنقل ما جاء تحت عنوان «الشوق» من حيث إن كل عمل نعمله ونحن به مغرمون يجعلنا سعداء به في الحياة الدنيا، وكل عمل نحن نكرهه لا يتم على أيدينا، فهذه الحياة لا كمال فيها إلا بالغرام والشوق لما نعمل، وهذا الشوق راجع إلى القوى المركوزة في نفوسنا، بل المعلوم الذي ضعفت منطقته في الدماغ لا نعقله ولا نفهمه، فالتعليم مثير لما كمن فينا، ولكنه لا يحدث فينا أمراً ليس فينا استعداد له.

نظرة عامة على هذه المشاهد في علم النفس الحديث
وكيف كانت هذه المناظر مثيرة في نفسي التعاون العام لنوع الإنسان
وكيف كان ذلك كله كنظام عند نوع الإنسان وكأن هذه العوالم كلمات

أيها الأخ الذكي، إن منظر الصور المتقدم قد أثار في نفسي أمرين عجيبين: أثار فيها التعاون العام في نوع الإنسان، وأثار فيها ما كمن من أن هذه العوالم كلها أشبه بكلمات صادرات من رب العالمين.

انظر إلى الصورة التي فيها مقطع جانبي المخ (شكل ٣١ المتقدم)، وفيه الألياف الرابطة قد تخللت الفصوص المختلفة والألياف المختلفة، وما هي إلا أعصاب حساسة واردة من محيط الجسم موصلة لما يرد على الحواس الخمس إلى المخ، وأعصاب أخرى خارجات من مراكز الإحساس في داخل المخ من الخلايا المتعددة في اللحاء، فهذان النوعان اجتمعا وكونا حزمتين كبيرتين من المادة البيضاء إلى آخر ما تقدم.

وبعبارة أخرى: إن هذه الألياف هي التي يقال لها أعصاب الحس وأعصاب الحركة، فالأولى واردة من الحواس في ظاهر الجسد، والثانية خارجات لتنفيذ ما نتج من آثار الأولى من الأعمال.

فهاأنا ذا حينما نظرت هذا الشكل البديع تذكرت التيارات البحرية المرسومة في سورة «الشورى» في ملحقات آية: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ۝ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ﴾[الآيتان: ٣٢-٣٣] فترى هناك في (شكل ٧) أن التيار الذي يخرج من الخليج والتيار الذي يخرج من البرازيل في المحيط الأطلسي، وتيار كورسيوه، وتيار شرقي في أستراليا في المحيط الهادي وتيار موزنبيق في شرقي أفريقيا في المحيط الهندي، هذه التيارات بعضها يتجه من الجهات الاستوائية إلى العروض البعيدة لتلطف حرارة تلك التيارات برودة تلك الجهات، فلكل من التيارات الباردة أو الحارة أعمال حسنة، فالبحار الشمالية مثلاً ترسل تيارات إلى الأقطار الاستوائية مثل تيار «لبرادو» ومثل تيار شمالي شرق اليابان، فهذه تيارات باردة ملطفات لحرارة خط الاستواء.

أليس من العجب أيها الأخ الذكي أن أرى هذه التيارات العصبية من أعصاب الحس وأعصاب الحركات تتخلل نصفي الدماغ وتتصل ببعضها ويلطف بعضها بعضاً فتتحد في العمل.

الله أكبر، أيها المسلمون، أيتها الأمم التي في الأرض، أنتم نسيتم العلم، نسيتم أنفسكم ونسيتم الدين، التيارات البحرية متصلة متشابكة لإحداث السعادة لسكان الأرض، وأدمغتكم جعل تركيبها على هيئة تضامن عام ووحدة منظمة تامة النظام، وهكذا نظام كل خلية في حيوان أو نبات أو شجر أو صوان، بل هكذا نظام مملكة النحل ومملكة النمل وممالك الأرضات ـ بفتحات ـ التي تقدمت في هذا الكتاب، وهكذا مملكة المجموعة الشمسية، فهي شمس حولها سيارات لها منجذبات انجذاب النحلات والنملات لملكاتها، هكذا وحدة المخ الإنساني مسكن النفس.

أليس هذا النظام معناه أن نوع الإنسان الآن لا يزال في المهد صبياً، هذه دروس لها معناها أن يكون الناس أمة واحدة كالبحار وتياراتها، والشمس وسياراتها وتوابعها، ومملكة النحل والنمل والأرضة وأعوانها منظمات تامات النظام.

ألم يصبح اليوم نوع الإنسان متصلاً متقارباً متواصلاً، يكلم الشرقي الغربي والغربي الشرقي، وينظر كل صورة أخيه.

يا سبحان الله، إن الأمم لا سعادة لها إلا بأن تكون على هيئة النظام الذري المتقدم ذكره في سورة «العنكبوت»، بحيث أصبحت جميع العناصر بينها نسب هندسية وحسابية في الجدول هناك، وقرابة طبيعية وأخرى كيميائية، وبأن تكون أشبه بأوراق الشجر المتقدم رسمها وشرحها في سورة «الحجر» عند آية: ﴿ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡزُونٖ ﴾[الآية: ١٩]، وبأن تكون كالبحار الملحة فيها تيارات تأتي من خط الاستواء إلى القطبين وبالعكس ليكون الإصلاح العام، وبأن تكون أشبه بمملكة النحل والنمل والأرضة ـ بالفتح ـ وبأن تكون أشبه بنظام المخ من حيث توزيع أعصاب الحس وأعصاب الحركة فيه مع بهجة النظام، هذه غاية حياة هذا الإنسان على الأرض.

إن للإنسان لمستقبلاً سعيداً، وحالاً جديدة لم يحلم به الإنسان، وستعلم الأجيال المقبلة صحة ما رأيناه، وصدق ما فهمناه، وعلى أمة الإسلام أن تعلم علماً ليس بالظن أنها خير أمة أخرجت للناس وأنها الآن تخللت جميع الأمم، في الصين، في اليابان، في الهند، في أفريقيا، في آسيا، في أستراليا، في أوروبا.

أنا من هذه الأمة التي قال الله في نبيها صلى الله عليه وسلم: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ ﴾ [القلم: ٤]، وقال أيضاً: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾[الأنبياء: ١٠٧]. وأعم الرحمات انتظام الأمم كلها كأمة واحدة كمملكة النحل والنمل يقتسمون الأعمال ويوزعونها، ويترك لكل امرئ حريته في دينه، وأمرها هو الذي يقوم به الجماعات. إن القرآن قد أصبحت العلوم اليوم والعلوم المستقبلة سره وحقيقته، وأمة هذا شأنها تعلم الأمم كلها، فكل دين غير الإسلام لا يهتم إلا بنظام الجماعات الإنسانية، فأما خلق العوالم ونظام الطبيعة ونحوها فهو غالباً بضرب الأمثال والحكايات المصطنعة، الإسلام أخذ أعلى دور أيام العصور الأولى فنفع الإنسانية، ثم انحط أهله انحطاطاً لا نظير له، وهاهم أولاء الآن يريدون أن يكونوا بين الأمم في عصرنا في أمر السلام العام، كما كان شأنهم أيام عصر الصحابة والتابعين، هم الذين يدعون إلى سلام الأمم انتهاجاً منهج الآية: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾[الأنبياء: ١٠٧]، ونحن أتباعه فعلينا أن نقوم بما أنزل الله من صفات الكمال.

أما الأمر الثاني فهو أن هذه الدنيا وما حوت إنّما هي كلمات الله.

فلما سمع صاحبي ذلك قال: كون الدنيا كلمات الله فهذا أمر مجازي لاكته الألسن كثيراً، فهو أشبه بالأمر المعروف، وجاء على لسان الصوفية الذين يقولون: إن خطاب الله يسمعه الإنسان بجميع جسمه لا بحاسة سمعه فقط. وهذه أمور لا قبل لنا بفهمها، فإذا قلت لنا: إن هذه الأجسام وهذه العوالم كلمات الله فلماذا لم نسمع ـ إن صح كلام الصوفية ـ إلا بآذاننا؟ ولماذا لم تسمع أبصارنا ولا جلودنا أو لحومنا وهكذا. فأنا أرى أن هذا المقام يصح إغفاله رفقاً بالقارئين.

فقلت: يا صاح حياك الله وبياك، أنا أكتب هذا اليوم الأحد ٢٢ صفر سنة ١٣١٥هجرية الموافق ٢٦ يونيو سنة ١٩٣٢م وأنت معي، ولكن ظهر لي خاطر قبيل صلاة الجمعة الماضية وأنا متأهب لصلاتها بمسجد الحبيبي في شارع السيدة زينب، وهذا الخاطر عجيب! فبعد أن صليت لم أرجع إلى المنزل بل جلست وحدي في الخلاء لأفهم ما ورد إلى خاطري من الآراء، وذلك الخاطر ملخصه:

إن عوالم المادة ترجع كلها ـ كما تقدم في سورة «النور عند الآية ٣٥»: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ـ إلى نقط كهربائية يدور سالبها حول موجبها نحو ستة آلاف مليون مليون مرة في الثانية الواحدة، وباختلاف عددها كثرة وقلة وتبايناً أشكالها تظهر لعيوننا جبلاً وجملاً وشجراً وحجراً الخ، فهناك خطر لي أنه من المسلم به الآن عند الأمم شرقاً وغرباً أن المادة ما هي إلا حركات، وهذه الحركات في الأثير، والمحرك لها هو الله عز وجل.

حدثني أيها الذكي رعاك الله ما الصوت. قال: هو حركات تنتقل في الهواء وفي الأثير من فم القائل إلى أذن السامع. فقلت له: وهذه الحركات إن كانت أقل من ٣٢ في الثانية الواحدة لم تسمعها الأذن، وإن كانت فوق ذلك سمعت، وتزداد شدة كلما ازدادت عدداً حتى تصل إلى نحو ٣٢ ألفاً في الثانية الواحدة، فإذا ازدادت عن ٣٢ ألفاً لا يسمعها الناس. قال: نعم، هكذا تقدم في هذا التفسير. فقلت له: ما هي المادة؟ فقال: هي حركات في الأثير. فقلت: إذن الكلام حركات في الأثير. والمادة حركات في الأثير، وقصارى الأمر وحماداه أن الحركات التي يحدثها الإنسان في الأثير بأعضاء فمه المتصلات؛ أضعف أثراً وأقل عدداً من حركات الأثير التي صنعها الله لإحداث الأجسام والأضواء وجميع العالمين. فقال: هذا حق لأن الضوء لا يصل لأبصارنا إلا إذا كانت حركاته قد وصلت إلى ٤٠٠ مليون مليون حركة في الثانية فيحس بلون الحمرة، ولا يزال يزداد فتكون هناك ألوان أخرى حتى تصل عدد الحركات إلى ٧٠٠ مليون مليون حركة في الثانية، فيكون اللون البنفسجي وما وراء ذلك غير معلوم.

فقلت له: إذن أيها الأخ جميع الحركات من ٣٢ ألفاً إلى ٤٠٠ مليون مليون لم نعط لها حاسة حتى نعرفها، وما فوق ٧٠٠ مليون مليون لا نعرفه حتى نصل إلى ستة آلاف مليون مليون فهذا لا نعرفه، وتتجلى لنا تلك الحركات بصفة مذوقات ومشمومات وملموسات ناعمة وخشنة وهكذا، فهاهنا أمران: حركات لا نعلمها، وحركات وصل لنا علمها، والحركات التي وصل لنا علمها، منها ما هو من فعلنا، ومنها ما هو من فعل خالقنا، فما كان من فعلنا فهو ضعيف كحركات تسمى أصوات

كالكلام والغناء، وما كان من فعل خالقنا فهو قوي جداً ظهر بهيئة ضوء تارة، وتارة بهيئة حديد ونحاس وأرض وسماء وهكذا، ونسبة كلامنا إلى قوة كلام الله وهي هذه العوالم نسبة ضئيلة جداً، ذلك أن ٣٢ ألفاً بالنسبة إلى مليون واحد إنّما هي نحو جزء من ٣٠ جزءاً، فكيف بها إذا نسبت إلى ألف مليون، ثم إلى مليون مليون، ثم إلى ستة آلاف مليون مليون، إنها إذن تصبح كالعدم، فهي إذن كنسبة الإنسان الضعيف الذي يشبه المعدوم إلى خالقه القادر العظيم، أليس هذا معناه أن العوالم كلمات الله فعلاً، لأنها حركات كحركات كلامنا بحسب ما كشفه العلماء في عصرنا، وهو يقرأ في مدارس الشرق والغرب. قال: بلى. قلت: أفليست كلمات الله إذن هي هي أنفسها هذه المخلوقات، وهو هو المتكلم بها، ثم كلماته إن كانت أصواتاً سمعتها آذاننا كأصوات الرياح، أو كانت مذوقات أو مشمومات أو مبصرات أو حارة أو باردة أو بيضاء أو حمراء مثلاً أدركتها حواسنا، إذن الكشف الحديث أبان لنا معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[يس: ٨٢] الآية ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَـٰتِ رَبِّى﴾[الكهف: ١٠٩]﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ﴾[النساء: ١٧١] وليس معنى هذا أن ذلك كلام الله القديم، كلا، وإنّما هو كضرب مثل له، إن من هذا النوع الإنساني من صفت أرواحهم فيرون أن هذا العالم خطاب من الله لهم وكأنهم في حضرته الآن، هكذا يخطر لي أن في الأرض أناساً على هذا المنوال.

أقول: إن آية: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[يس: ٨٢] وإن كان يراد بها ضرب المثل فإن العلم أرانا أن الممثل له قريب المنال، فهو وإن لم يسم في العرف كلاماً ولكنه يشبه الكلام لأنه حركات في الأثير، وهذه الحركات قوية متينة وآثارها مدهشة بحيث تشعر بها جميع حواسنا على اختلاف طبقاتها، وتعطينا جميع اللذات المحسوسات والمعقولات الآن في الدنيا، فإذا متنا وانكشف الغطاء لنا، وتجردت أرواحنا ذاقت من اللذات أضعاف أضعاف ما تذوق هنا وهي محجوبة في هذه الحياة، إذن خطاب الله يصدر عنه المتكلم به، ويظهر في الخارج عند النطق به، وهذا ليس هو الكلام القديم بل ضرب مثل له، ويبقى آماداً وتحس به جميع الحواس، وكلام المخلوق لا قدرة له إلا على الوصول إلى الأسماع فحسب، ولا نتيجة له إلا ما يفعله السامعون.

ولما عرفت ذلك وكنت إذ ذاك خارج القاهرة تبين لي أن هذه الأشجار والأحجار والأنهار والأزهار والماء والسماء كلها كلمات، وهذه الكلمات مفرقات على حواس الإنسان، والله نفسه كأنه بها يخاطبنا، فالعلوم المشروحة في هذا المقام جميعها شرح لبعض تلك الكلمات التي نعيش فيها، إذن العالم كله كلمات فعلاً، والكلمات مقروءات لأولي الألباب. هذا ما خطر لي يوم الجمعة السابقة في التاريخ المذكور، والحمد لله رب العالمين. فرغت من هذه المقالة صباح يوم الاثنين ٢٣ صفر سنة ١٣١٥ هجرية، ٢٧ يونيو سنة ١٩٣٢م بحي السيدة زينب بشارع زين العابدين.

حديث طريف

حضر صاحبي العالم بعد ذلك في نفس اليوم وقال لي: لقد نسيت أن تذكر شيئاً أشرت إليه في علم التربية، ألم تقل فيما تقدم إن الإنسان في أدوار حياته يضارع أطوار الخليقة، ووعدت أن تشرح

ذلك. فقلت: حقاً، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ﴾[آل عمران: ٩]، إن العلماء في عصرنا نظروا في لعب الأطفال فرأوها أمراً عجباً مدهشاً، وهذا الأمر المدهش معناه قول الله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴾[الدخان: ٣٨]، ونحن نسمي لعب الأطفال لعباً، ولكن للأطفال غريزة ومزرعة، والله هو الزارع، فهل يخلق الله اللعب؟ هذا لعب عندنا، وجد عند الله والحكماء، إن الحكيم ينظر إلى لعب الأطفال والصغار ويحدق بنظره إلى أسلاف الطفل وأسلاف الحيوان، فيجد ذلك اللعب ما هو إلا فطر عليه أجداده في كرهم وفرهم، وصيدهم وقنصهم، سواء أكان إنساناً أو حيواناً، وهذا اللعب من جهة أخرى يدل على مستقبل الطفل، فهو وارث لأعمال الآباء، يجددها من جهة وهو من جهة أخرى يستعد لحياة جديدة يتمرن عليها، إذن اللعب أعطى صورتين: صورة للماضي، وصورة للمستقبل، وكلاهما في آن واحد، الفتاة تلعب بالعروس وتغني لها، والفتى يتقلد السيف والرمح ويركب العود كأنه فرس، وهما يحكيان أفعال الآباء والأجداد، ومن جهة أخرى هما يتأهبان للمستقبل القريب، بل الأمر أعظم من ذلك.

إن الإنسان يلخص في الرحم جميع الأدوار، فالتي مرت فيها الخليقة كلها من خلية واحدة إلى الإنسان، ثم هو يلخص في أدوار ترقيته من وقت ميلاده إلى نضوجه جميع الأدوار التي مر بها الجنس البشري في تقدمه من الوحشية إلى الحضارة. إن كل لعب من ألعاب الأطفال يدل على دور من أدوار الآباء في أعمالهم العادية تقبله الطفل هنا بهيئة لعب، ثم إن لكل امرئ مواهب خاصة تظهر ما استعد له، فإذا راقبنا ذلك ووضعنا كل امرئ فيما خلق له فذلك هو اليوم الذي يسعد فيه الإنسان، وهذا القول ملخص آراء الأستاذ «ستانلي هول» والأستاذ «كارل جروس» أحد أساتذة جامعة «بال» في سنة ١٨٩٦م. انتهى الحديث في نفس التاريخ، وحسبنا الله ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

تذكرة: سنذكر إن شاء الله تعالى في سورة «والشمس وضحاها» فصولاً من علم التربية جميلة نافعة. اهـ.

جوهرة في قوله تعالى:

﴿ وَمِن كُلِّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَا زَوۡجَيۡنِ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ۝٤٩ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ۝٥٠ ﴾

خلقت اللهم من كل شيء زوجين، ودعوتنا للتذكر، وأمرتنا بالفرار إليك، ونحن لا نتذكر إلا بالعلم، لا سيما علم الحيوان الذي ظهر فيه الزوجان ظهوراً تاماً، وسمعناك تقول في سورة «الجاثية»: ﴿ وَفِي خَلۡقِكُمۡ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ﴾[الآية: ٤] الخ، وفي سورة «الزخرف»: ﴿ وَٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَزۡوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡفُلۡكِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ مَا تَرۡكَبُونَ ۝١٢ لِتَسۡتَوُۥاْ ﴾[الآيتان: ١٢-١٣]، إلى: ﴿ وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقۡرِنِينَ ﴾[الآية: ١٣]، وفي سورة «الغاشية»: ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ كَيۡفَ خُلِقَتۡ ۝١٧ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ رُفِعَتۡ ۝١٨ وَإِلَى ٱلۡجِبَالِ كَيۡفَ نُصِبَتۡ ﴾[الآيات: ١٧-١٩]، ثم تقول: ﴿ فَذَكِّرۡ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ ﴾[الآية: ٢١]. نحن الآن تذكرنا، ونظرنا فوجدنا أن ذكر الإبل في الآية لم يقصد به إلا ضرب مثل، لأن الإبل مراكب الصحراء والعرب عليها يركبون، وهي تحمل أثقالهم، فذكر ما يناسب عملهم

ولو أن القرآن نزل على رجل هندي لقيل: أفلا ينظرون إلى الفيل كيف خلق، أو على الذين يعظمون الحيات في أوسط أفريقيا لذكر الحيات، أو الذين يجلون القردة في الهند أيضاً لذكر القرود، إذن الله بهذه الآية وأمثالها فتح لنا باب التذكرة والعلم، فلنبحث إذن في كل حيوان، ولنقدم مقدمة فنقول:

إن الله عز وجل أكثر في القرآن من ذكر العقل، فيقول: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد: ٤]، ومن ذكر التدبر والتذكر، وعول جد التعويل على العقول، فلننظر بعقولنا في هذه الفطرة الإنسانية العامة، إننا لما خلقنا في هذه الأرض وجدنا لنا شهوة لطلب الغذاء، ولطلب التناسل، وغضباً لمدافعة الأعداء، وقوة أعلى منهما لمعرفة الحقائق كلها كالذي نحن فيه، ووجدنا الديانات تطلب منا الاعتدال في القوتين الأوليين، فنسمع الله يقول: ﴿وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ﴾ [الأعراف: ٣١]، ويقول: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ﴾ [الإسراء: ٣٢]، ويقول: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٩٤]. إذن الديانات والوعظ والقضاء إنّما جاءت لتلطيف هذه القوى فينا لا غير، إن شهوة الغذاء، وشهوة التناسل، والقوة الغضبية فينا، كلها قوى شريفة رفيعة المنزلة أنزلها الله لحياتنا، وإنّما المذموم بها الخروج بها عن مقاصدها، وإلا فنحن بغيرها لا حياة لنا، فكل قانون وكل وعظ ديني أو دنيوي وظيفتها أن تجعل هذه القوى معتدلة لا غير، ولكن القوة العليا وهي الفكرية المسيطرة على القوتين السابقتين لها مطالب أيضاً، ومطالبها هو العلم، وغذاؤها صور المعلومات، فكما كان لشهوة الغذاء أنواع الطعام، ولشهوة الوقاع أنواع النساء، وللقوة الغضبية أنواع القتال، هكذا للقوة العاقلة أنواع الصور العلمية المكتسبة من المواد المحيطة بنا، وهذه وظيفة تامة قائمة بنفسها لا أنها مهذبة فحسب، بل هي شهوة مقدسة وهي الخاصة بالإنسان، فإذا غذاها صار إنساناً تاماً، وإذا تركها بقي حيواناً، لأنه لم يرتق عن الحيوان، فهو مثله في الشهوتين السابقتين، نعم إذا كان قد هذب الشهوتين السابقتين فقد تكمل في العمل، ولكن العلم هو الخاصية الإنسانية، الحيوان ليس في حاجة إلى التهذيب، أما الإنسان فهو في حاجة إليه، وأذكر منظراً شاهدته قبل كتابة هذه الأسطر بساعات، لأني الساعة أكتب هذا قريباً من منتصف ليلة الجمعة ١٧ يناير سنة ١٩٣٢م، وفي عصر الخميس كنت أرتاض ماشياً عند مصر القديمة ماراً على «كوبري الملك الصالح» فرأيت راعياً يسوق عنزات ذوات ضروع مملوءة لبناً ومعهن تيسهن، فتأملت ذيولهن إذا هي مرفوعة دائماً، وقد عري السبيلان عما يغطيهما، فترى الذيل كأنه قوس رجع إلى الخلف، فقلت في نفسي: يقول الله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف: ٢٦]، فنحن أمرنا وامتن الله علينا باللباس الذي يواري سوآتنا، أما هذه الحيوانات فقد كشف سوآتها وعاشت بهذا، والله لا يخلق إلا الكمال، ففكرت فيما علق بالنفس من أمر هذه الحيوانات، وأن ذكورها لا تقرب إناثها إلا وهي غير حاملة، ومتى حملت لا تقربها، وهذا عجيب! إذن كشف العورة لا يضرها هي، لأن هناك قانوناً مسنوناً، وهو أن التيس لا يقرب العنز إلا ورحمها خال من الجنين، فسألت الراعي فقال: نعم متى حملت لا يقربها التيس ولو في اليوم الثاني، أما الإنسان فإنه أعطيت له الحرية في كل شيء، فشهوة الغذاء لا حد لها وهكذا شهوة الوقاع، فهذه الحرية

وجب أن تقيد بالقيود الشرعية والعقلية لتحفظ حياته وكماله، وهذه الحرية شرف له لأنه طلب منه الجهاد بنفسه، فهو هو الملزوم بالمحافظة على قواه، فإذا قدر على أنواع الطعام وفنون ألوانه ولم يجد مانعاً يمنعه من تناول أنواع الشهوات في الوقاع؛ فهو المكلف بأن يمنع نفسه بنفسه، كما منعت ذكور تلك الحيوانات بغرائزها في بعض الأحوال، وهكذا نرى الحيوانات لا تشرب إلا إذا عطشت، بخلاف الإنسان فإنه يشرب الحلوى متلذذاً بغير عطش، فهذه حرية أعطيت له وقد كلف أنه هو الذي يقيد هذه الحرية، أما الحيوانات التي في البرية فالغريزة والسليقة أغنتها عن الشرائع، وتكليف الإنسان بمقاومة شهواته إعظام له، فكأنه قيل له: أنت حر فدبر نفسك بنفسك، لأننا نريد أن تكون ملكاً على عواطفك لا أنك مقيد بقيود طبيعية تحجزك، بل قيودك تكون من تلقاء نفسك وهذا شرف لك، وخذلان لك إن قصرت، والمقصود من هذا الجهاد أن تعتاد نفسك المران على العمل، وترتقي إلى ما هو أعلى منه، وهو تغذية القوة العاقلة بالصور الحكمية، ولن تستقيم أيها الإنسان حالك إلا بجدك واجتهادك.

إن هذه العنزات التي رأيتها اليوم قرأت فيها درسين: الدرس المتقدم وهو درس الشهوات وحفظها بالغريزة في الحيوان، واحتياج الإنسان في حفظها إلى العلم والدين. ودرس الألوان، فإن العنزات رأيت منهن البيضاء والسوداء والحمراء والصفراء والداكنة اللون، ومنهن من كان جسمها مختلط البياض بالسواد أو بالحمرة، أو بالصفرة، أو بالجميع، أو بالبعض، وهن متصاحبات متحابات فقلت في نفسي: هذا معنى قوله تعالى: ﴿ قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴾[عبس: ١٧]، لأن الناس كما احتاجوا في طعامهم وشرابهم ودفاعهم إلى وازع ليحفظ قواهم؛ هكذا في السياسة العامة يحتاجون إلى وازع يرفع من شأنهم، فهاهم أولاء أهل أمريكا يعادي البيض منهم السود لمجرد اللون، وهكذا في بلاد الإنجليز في هذه السنة لم يقبل أصحاب المطاعم والمجتمعات العامة رجلاً أسود أمريكياً مع أنه مثر عظيم، ذلك كله لمجرد اللون، فهؤلاء لم يجدوا ما يهذب هذه النفوس المحبوسة في أمور تافهة كالألوان ولكن هذه العنزات متحابة معاً وهن مختلفات الألوان، لأنهن يرين أن النظر لهذه الفوارق اللونية أمر تافه ونظرة حمقاء وقلة عقل وقصر في العلم، ولكن ليس هذا عندهن علماً، وإنما هو غريزة كغريزة امتناع الوقاع أثناء حمل الأنثى، فهاهنا درسان درستهما اليوم على هذه العنزات: درس أخلاق ودرس سياسة، ولهذا قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾[الحجرات: ١٣].

وورد في الحديث: «لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى». وقال صلى الله عليه وسلم: «اسمعوا وأطيعوا وإن ولي عليكم عبد حبشي». وأمر بلالاً أن يؤذن في الكعبة يوم فتح مكة بمحضر من قريش، كل ذلك تهذيب لهذه النفوس الإنسانية في الأمور السياسية العامة، والحيوان لم يحتج إلى هذا لأن غريزته تكفيه، الحيوان ليس مستعداً لحوز العلوم والمعارف، ولذلك لم يكلف بالجهاد لحفظ شهواته، بل كفته الغريزة كما قدمنا، أما الإنسان فجهاده في مدافعة شهواته يكون مقدمة لجهاده في إكمال نفسه بالعلم وإدراك الحقائق التي لم يخلق إلا لإدراكها، إذن هذه الشهوات وإطلاق الحرية للإنسان فيها جعلت أشبه بامتحان له، فإن جد في المحافظة على قواه الشهوية كان ذلك دليلاً على أنه

سينال العلوم العقلية ويكون رجلاً كاملاً، وإن بقي في غمرات شهواته دل ذلك على أنه ليس أهلاً لأن يستكمل نفسه بالعلم.

هذا ما أردت جعله مقدمة لما سأكتبه في هذه الآية: ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾[الذاريات: ٤٩]، وما ماثلها من قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا ﴾[الزخرف: ١٢] الخ، فلأشرع إذن في دراسة هذه الأزواج الحيوانية وأقول:

لقد تقدم الكلام عليها مفرقة في هذا التفسير، فتراها في سورة «فاطر»، وفي سورة «النحل»، وفي سورة «الحج» عند آية: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ ﴾ [الآية: ٧٣]، وهكذا في سور كثيرة، ولكني أريد هنا أن أذكر حادثة عجيبة، ذلك أني قدمت في سورة «يونس» أني أرسلت خطاباً إلى الحكومة المصرية، وإلى رجال البرلمان، أبين لهم فيه أن تعليم الشبان في المدارس الثانوية ناقص، إذ لا نبات ولا حيوان ولا تشريح، ولا علم طبقات الأرض، ولا علم الفلك تدرس فيها، فالتلميذ يخرج وهو جاهل ما حوله، فيجب أن تدرس هذه العلوم، وأن يجعل التعليم الثانوي خمس سنين، لأن هذه المواد حذفت من المدارس لما دخل الإنجليز البلاد، فوجب رجوعها، وأنتم الآن عندكم الاستقلال، وبقية الخطاب تجده هناك مسطوراً.

أفلا تعجب معي أن هذا القول قد عمل بأكثره الآن! أفلا تعجب أن ما كنت أقوله كثيراً في هذا التفسير: إن بلاد الإسلام سترتقي قريباً؛ قد أخذ يتحقق بعضه، وهذه بلادي لما كتبت ذلك الخطاب منذ بضع سنين لم تكن هذه العلوم فيها، فهاأنا ذا الآن أرى أمامي علم الحيوان وعلم النبات مشروحين في كتبهم شرحاً وافياً عجيباً، وأنا لا أزال أزاول طبع التفسير، أفليس هذا معناه أن ما بشرت به المسلمين من أنهم سيرتقون سريعاً قد ابتدأ تحقيقه، وهذا من البشائر. وهاهو ذا أمامي كتاب في علم الحيوان تأليف ثلاثة من علماء هذا الفن المصريين، فلأبين طرفاً من ذلك الكتاب هنا بحيث يكون مفيداً فوائد أحسن مما سبق في هذا الكتاب، وأريد بذلك أن أبين لك طريقة دراسة هذا الفن في بلادنا اليوم بعد أن حرمت تلك العلوم في أيام الاحتلال، فقد جاء في الكتاب المذكور تحت العنوان التالي ما نصه:

أقسام المملكة الحيوانية

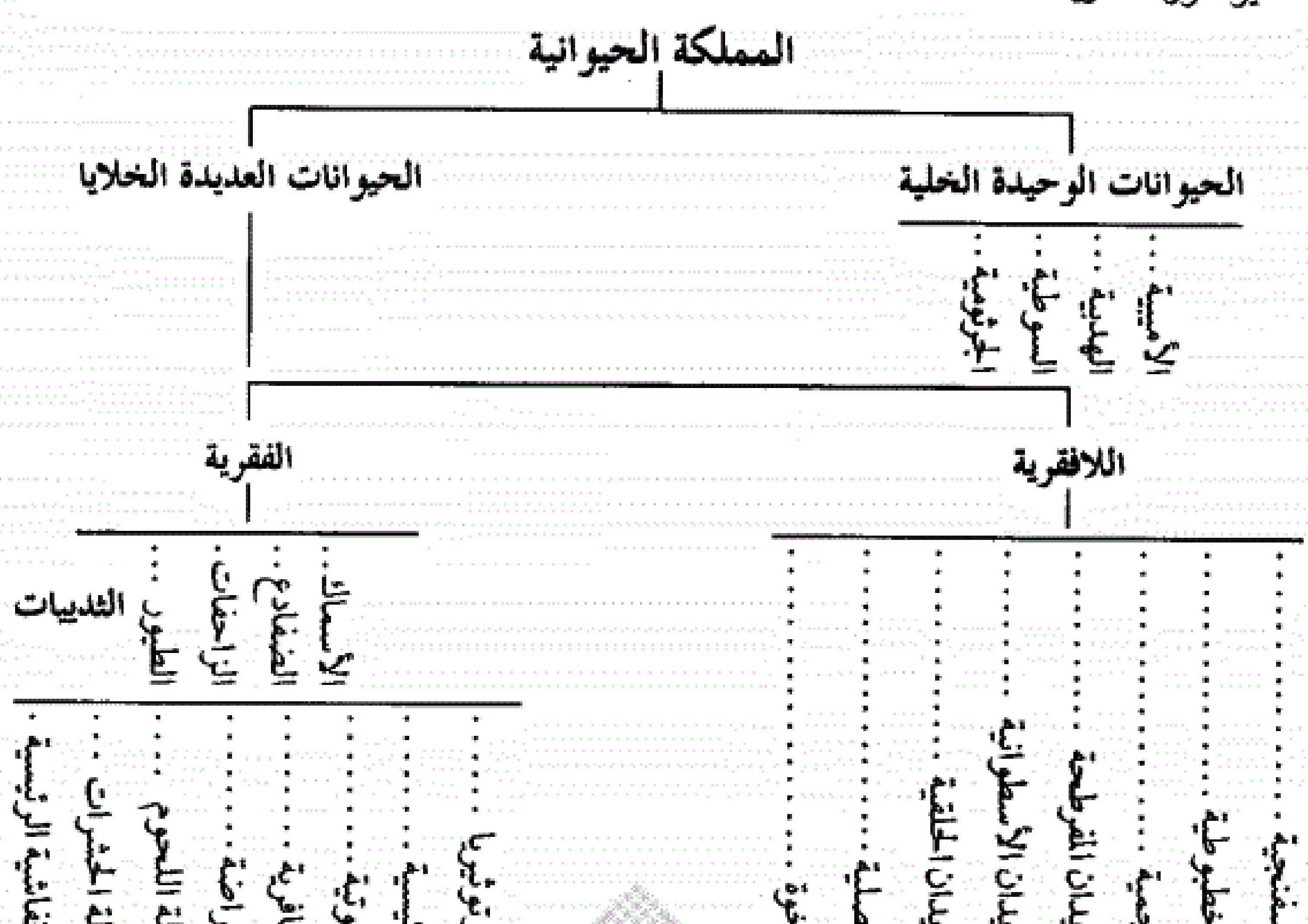
تنقسم الحيوانات تبعاً لتركيبها الخلوي إلى مملكتين وهما:

(١) الحيوانات الوحيدة الخلية أو البروتوزوه، وتسمى كذلك بالحيوانات الأولية، وهي ما يتركب جسمها من خلية واحدة.

(٢) الحيوانات العديدة الخلايا أو الميتازوه، وهي ما يتركب جسمها من خلايا عديدة تتكون عنها أنسجة مختلفة تقوم بالوظائف الحيوية للجسم.

وتنقسم الحيوانات العديدة الخلايا إلى قسمين كبيرين وهما:

(أ) الحيوانات اللافقرية: هي ما ليس لها سلسلة فقرية، وتنقسم إلى ثمان رتب كما هو مبين بالجدول الآتي: (ب) الحيوانات الفقرية: هي ما لها سلسلة فقرية، وتنقسم إلى خمس رتب كما هو مبين بالجدول كذلك.



فالحيوانات الوحيدة الخلية جعلت أربعة أقسام تراها فيما تقدم هنا، ومن هذه الأربعة «الأميبا».

(انظر شكل ٣٥).

الأميبا

الأميبا كائن حي دقيق الحجم يعيش في البرك والمستنقعات، أو على سيقان النباتات المائية، أو على الأحجار الراسية في القاع، ويرى أكبرها بصعوبة بالعين المجردة.

شكلها: عندما تشاهد «الأميبا» بالمكرسكوب تكون عبارة عن كتلة بروتوبلازمية شفافة هلامية عارية أي لا جدار لها، وليس لها شكل معين، حيث تتشكل بأشكال مختلفة في وقت قصير تبعاً لبروز أجزاء بروتوبلازمية من جسمها، ويلاحظ كذلك أن البوتوبلازمية في حركة مستمرة (انظر شكل ٣٥).

(شكل ٣٥ ـ الأميبا)

الأقدام الكاذبة
النواة
دياتوم
فراغات غذائية
البشرة الداخلية
البشرة الخارجية
الفراغ المنقبض

القسم الثاني من وحيد الخلية

الحيوانات الهدبية والذي يهمنا منها أن نعرف أن الحيوانات الطفيلية التي تعيش في الغشاء المخاطي للأمعاء الغليظة فتسبب الإسهال المخاطي الدموي المسمى « الدستاريا » إنّما هي من هذه الحيوانات الهدبية، وهي من الوحيدة الخلية. انتهى الكلام على القسم الثاني.

القسم الثالث من وحيد الخلية

الحيوانات السوطية

والحيوانات السوطية هي حيوانات أولية، يكون في أحد طرفيها زائدة سوطية تشبه الذنب، تساعدها على الحركة، وقد يكون ببعض أنواعها سوطان، والبعض الآخر لا سوط له، تعيش هذه الحيوانات في وسط سائل، وتتحرك فيه بواسطة حركة سوطها الكرباجية.

والذي يهمنا من هذا النوع « البوجلينا »، وهي حيوانات مكرسكوبية تعيش على سطح المياه العذبة الراكدة في البرك والمستنقعات، وشكلها مغزلي، وبأحد طرفي جسمها سوط طويل بجانبه فتحة الفم.

وتتغذى بالكائنات الدنيئة، وبقايا المواد العضوية التي تجدها في الماء، وتتغذى « البوجلينا » بطريقة نباتية، وهي أنها تستخلص الكربون من ثاني أكسيد الكربون الذائب في الماء وتمثله في جسمها، ثم تمتص الآزوت وغيره من العناصر بشكل أملاح ذائبة في الماء.

(شكل ٣٦ ـ البوجلينا)

الفراغ المنقبض

السوط

النواة

وتتغذى كذلك بطريقة حيوانية، وهي إدخال قطع المواد العضوية السالفة الذكر من فتحة فمها. (انظر شكل ٣٦)، وهو حيوان سوطي صغير يعيش معيشة طفيلية في دم الإنسان، ويسبب له مرض النوم، وهو منتشر في أواسط أفريقيا، وتنقله إلى الإنسان ذبابة خاصة تسمى « جلوسينا » يمضي في جسمها حيوان مرض النوم جزءاً من حياته، وعندما تمص الذبابة الملوثة دم الإنسان تمر هذه الحيوانات في لعابها إلى الجرح الذي تمص منه، ثم تدور مع الدم وتتكاثر فيه وتسبب الأعراض المرضية للمصاب.

القسم الرابع من الحيوانات الوحيدة الخلية

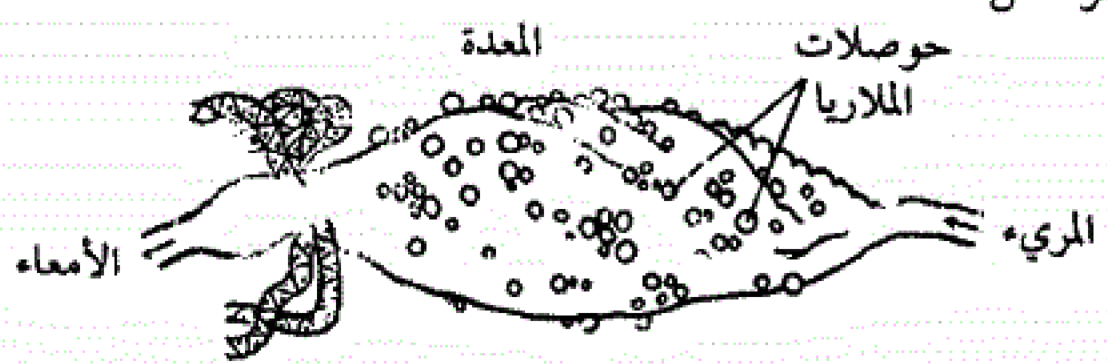
الحيوانات الجرثومية

الحيوانات الجرثومية هي حيوانات أولية ليس لها أعضاء خاصة للحركة، وتعيش معيشة طفيلية في الأنسجة المختلفة لأجسام الحيوانات التي تصيبها وتسبب لها أمراضاً قتالة. فمنها:

(١) الككسيديا: وهو حيوان دنيء يصيب حيوانات مختلفة، ففي الأرانب يعيش في أنسجة كبدها ويسبب لها مرض تعفن الكبد، وفي الأغنام يعيش في الغشاء المخاطي لأمعائها، وينتشر بينها بسرعة ويعرف بوباء الككسيديا.

(٢) حيوان الملاريا: وهو يعيش في دم الإنسان، ويسبب له حمى الملاريا.

ثم إن الناموس على قسمين: قسم ينقل هذه الملاريا، وقسم لا ينقلها، والقسم الذي ينقلها حينما يتغذى بدم الإنسان المصاب بالملاريا تتناسل تلك الحيوانات في جوف الناموسة، وهناك تكون معدية، فتنقل ذلك النسل إلى جسم إنسان آخر فتحصل العدوى، وهذه صورة معدة الناموسة المذكورة. (انظر شكل ٣٧).



(شكل ٣٧ ـ معدة الناموس وعليها حوصلات الملاريا)

الكلام على الحيوانات العديدة الخلايا

فمنها الإسفنجية كما تقدم، وهذه صورتها. (انظر شكل ٣٨).

ومنها إسفنج الحمام، وهذه صورته. (انظر شكل ٣٩).

(شكل ٣٩ ـ إسفنج الحمام)

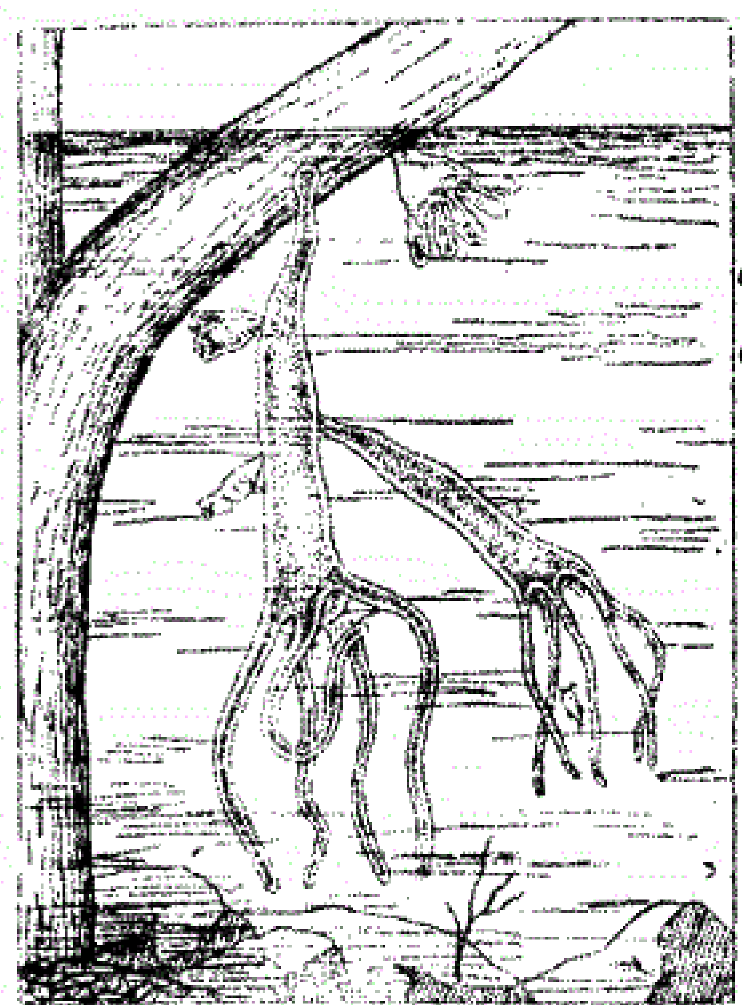
الفم
ثقوب
جنبية
أشواك
قاعدة

(شكل ٣٨ ـ نوع من الإسفنج الحجري البسيط)

القسم الثاني من الحيوانات كثيرة الخلايا
الحيوانات الأخطبوطية

(انظر شكل ٤٠)

ومن الحيوانات الأخطبوطية حيوان المرجان، وقد تقدم في سورة «الجاثية»، وفي سورة «النحل».



(شكل ٤٠)
أخطبوط في حالته الطبيعية

القسم الثالث من الحيوانات العديدة الخلايا
الحيوانات النجمية وهي ذوات الجلد الشوكي

(انظر شكل ٤١)

فتحة الجهاز المائي

ذراع

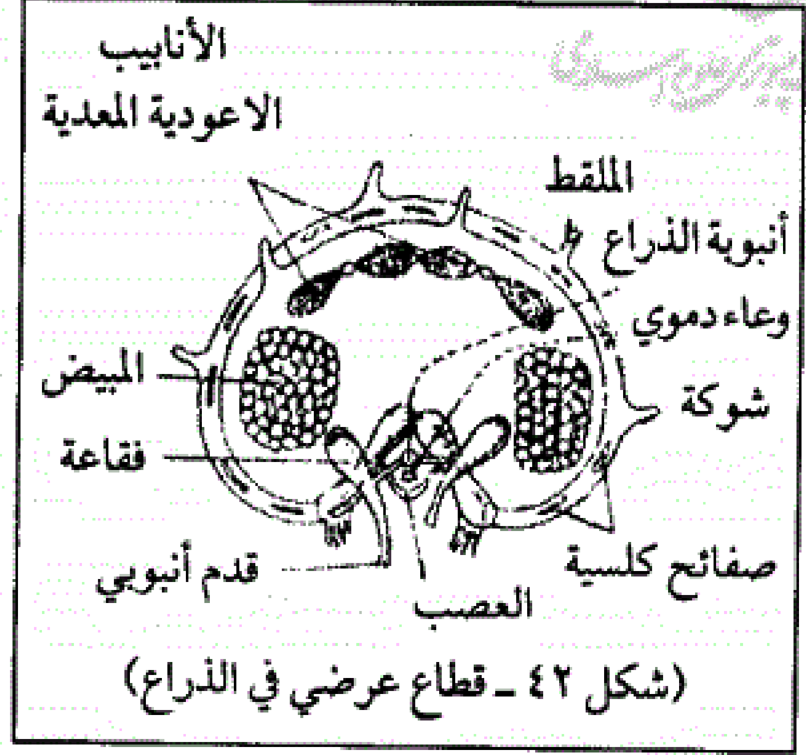
(شكل ٤١ ـ نجم يفترس محاراً)

حيوانات هذه الرتبة كلها بحرية، يعيش بعضها على سواحل البحار كنجم البحر، والبعض بالقرب من الشواطئ كقنفذ البحر، والبعض الآخر في وسط البحار كخيار البحر.

وكل هذه الحيوانات ذات شكل منتظم أعضاؤها متشعبة كأنصاف أقطار الدائرة حول مركزها وأجسامها في الغالب مغطاة بأشواك قد تكون طويلة كما في قنفذ البحر، أو قصيرة كما في نجم البحر، وقد لا تظهر أصلاً، وتغوص بصفائح حجرية صغيرة موضوعة تحت الجلد كما في خيار البحر، وقد تكون هذه الصفائح كثيرة وتتصل بعضها ببعض فتكون شبه صندوق كما في قنفذ البحر، وقد توجد الصفائح والأشواك معاً في الحيوان الواحد، وتشاهد على أجسام هذه الحيوانات زوائد بيضاء اللون متحركة تمتد وتنكمش عند الإرادة، وتنتهي كل واحدة منها بقرص صغير مقعر قليلاً، وهذه الزوائد هي أعضاء الحركة والالتصاق، والحركة في هذه الحيوانات بطيئة جداً.

الذكور في هذه الحيوانات منفصلة عن الإناث، ومن الصعب جداً التفرقة بينهما من غير الاستعانة بالتشريح.

نجم البحر: يشبه هذا الحيوان النجمة في شكلها، لهذا سمي نجم البحر، ويتركب جسمه من قرص وسطي ويتفرع منه عدد من الأعضاء، خمسة في الغالب، وكلها متشابهة شكلاً وفي الغالب متساوية حجماً، وتعرف هذه الأعضاء بالأذرع، وللحيوان سطحان: أحدهما علوي والآخر سفلي، والسطح العلوي أقتم لوناً من السفلي، وبواسطة فتحة صغيرة جداً لا ترى بسهولة تعرف بالأست.



(شكل ٤٢ ـ قطاع عرضي في الذراع)

ويوجد على حافة القرص من أعلى أيضاً وبجوار نقطة اتصال ذراعين من أذرع الحيوان جزء قشري مستدير به عدة ثقوب صغيرة يعرف بفتحة الجهاز المائي.

ويوجد عدد كبير من صفائح كلسية منتشرة تحت جلد الحيوان تبرز منها أشواك كثيرة تظهر فوق سطح الجسم، كما أنه تبرز من بعض هذه الصفائح أعضاء صغيرة كالأشواك شبيهة بالملقط، وظيفتها التقاط الأشياء الصغيرة كالحشائش المائية، وكذلك تنظيف جسم الحيوان مما قد يلتصق به من أوساخ. (انظر شكل ٤٢).

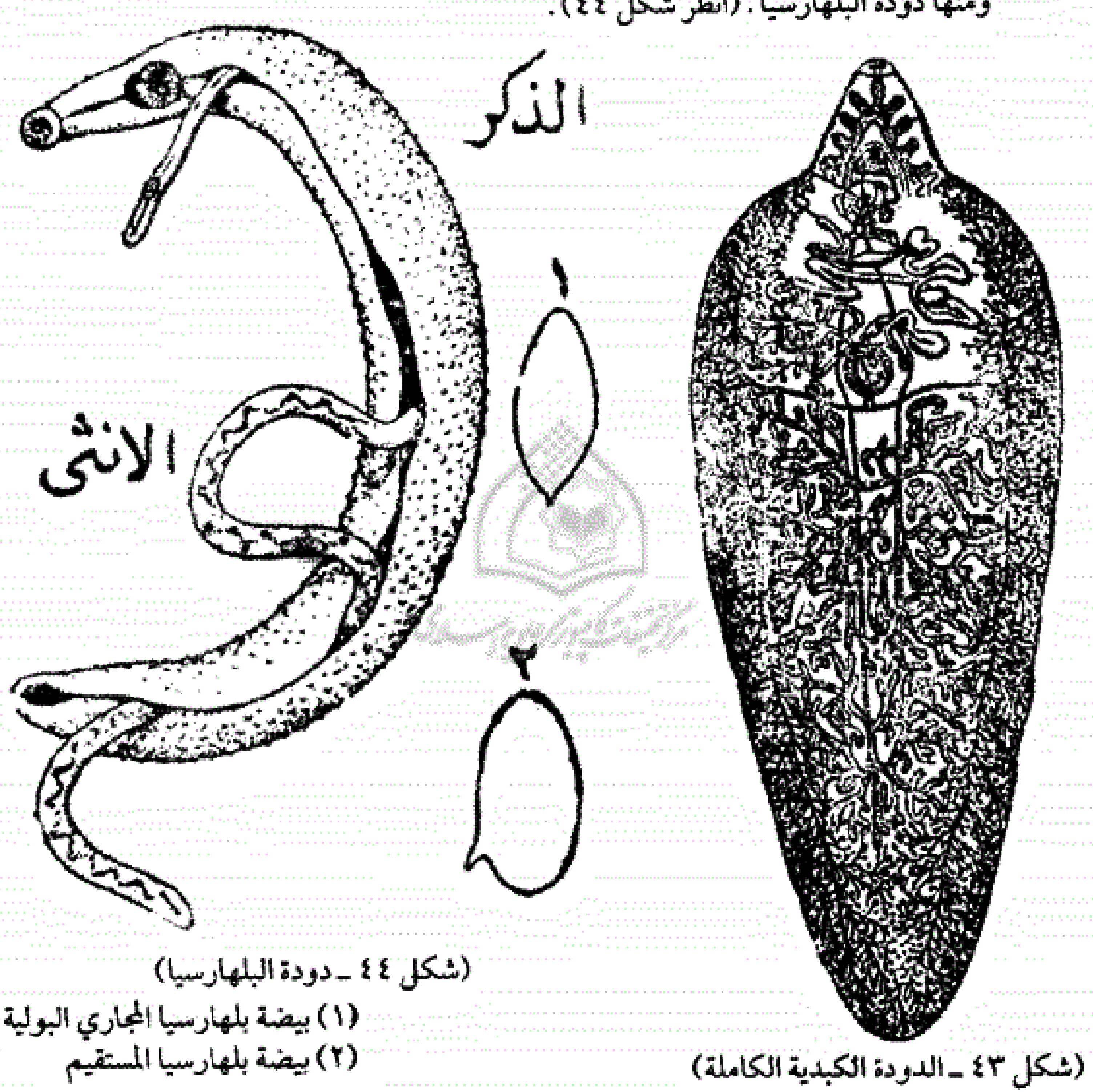
وتظهر على جسم الحيوان في المواضع الخالية من الصفائح الكلسية زوائد صغيرة شبيهة بالأصابع ذات جذر جلدية رقيقة للغاية يحصل الحيوان بواسطتها على ما يحتاج إليه من الأكسوجين الذائب في الماء المحيط به، فهي إذن أعضاء للتنفس.

وتوجد في وسط القرص من أسفل فتحة تعرف بالفم محوطة بأشواك كلسية.

القسم الرابع من الحيوانات العديدة الخلايا التي لا فقرات لها كالتي قبلها
الديدان المفرطحة ومنها الدودة الكبدية

تعيش الدودة الكبدية وهي في طورها الكامل في القنوات المرارية الكبيرة في كبد الأغنام والمواشي والجمال، وأحياناً الإنسان، ويبلغ طولها سنتيمتران أو أكثر، وتسبب لهذه الحيوانات مرض تعفن الكبد أي تفتت الكبد، لأن الكبد المصاب يصير خشن الملمس غير مرن، وسهل التفتت. (انظر شكل ٤٣).

ومنها دودة البلهارسيا. (انظر شكل ٤٤).



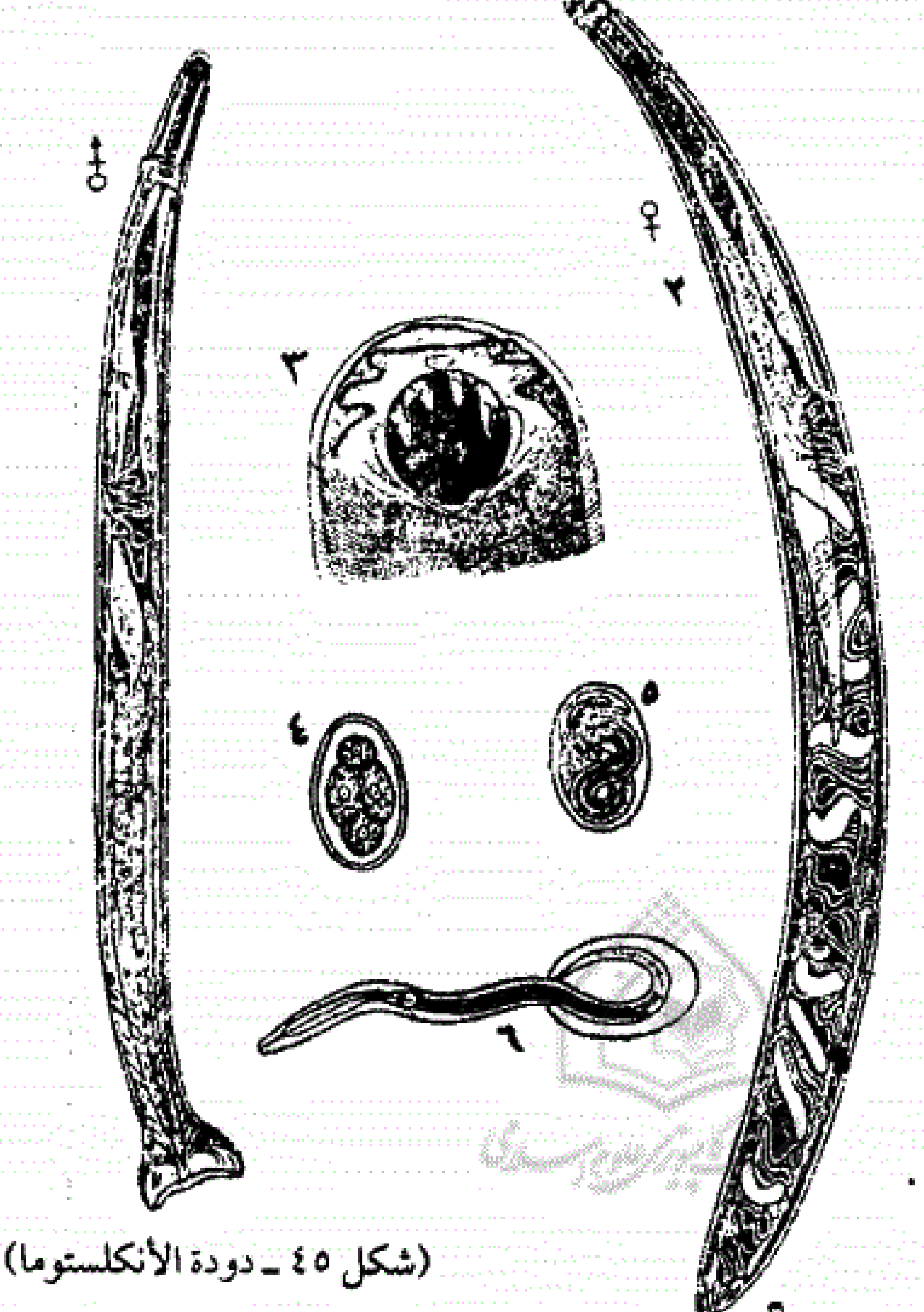
(شكل ٤٤ ـ دودة البلهارسيا)
(١) بيضة بلهارسيا المجاري البولية
(٢) بيضة بلهارسيا المستقيم

(شكل ٤٣ ـ الدودة الكبدية الكاملة)

القسم الخامس من الحيوانات عديدة الخلية
الديدان الأسطوانية

ديدان «الأنكلستوما» هي ديدان رفيعة بيضاء، يبلغ طولها سنتيمتراً تقريباً، وتعيش في الأمعاء الدقيقة ملتصقة بجدرها وتمتص الدم منها، وتحدث للمصاب بها ضعفاً وانحطاطاً مستمراً في قواه ناشئاً من فقر الدم ينتهي بالموت، ويسمى فقر الدم الناشئ من الأنكلستوما عند الفلاحين بـ«الرهقان» أي: سرعة دقات القلب عند القيام بأي مجهود جسماني.

وإناث الأنكلستوما أكبر بقليل من ذكورها، وتعيش الإناث منفصلة عن الذكور بخلاف البلهارسيا، ولا تتصل بها إلا عند التزاوج. (انظر شكل ٤٥).



(شكل ٤٥ ـ دودة الأنكلستوما)

(١) الذكر.
(٢) الأنثى.
(٣) فم الدودة مفتوحاً.
(٤) البيضة عند وضعها.
(٥) البيضة عند نضج الجنين فيها.
(٦) اليرقة.

القسم السادس من الحيوانات عديدة الخلية
الديدان الحلقية، وهي من الحيوانات التي لا فقرات لها

ومنها دودة الأرض، وقد تقدم الكلام عليها في سورة « فصلت » فراجعه هناك إن شئت.

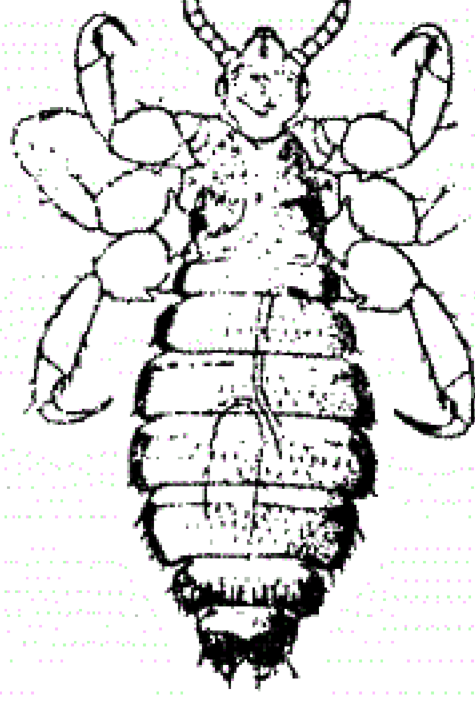
القسم السابع من الحيوانات عديدة الخلية التي لا فقرات لها
الحيوانات المفصلية

ويدخل في هذا القسم الحيوانات القشرية كالجمبري، أو الكثيرة الأرجل كأم أربعة وأربعين. (انظر شكل ٤٦).



(شكل ٤٦ ـ أم أربعة وأربعين)

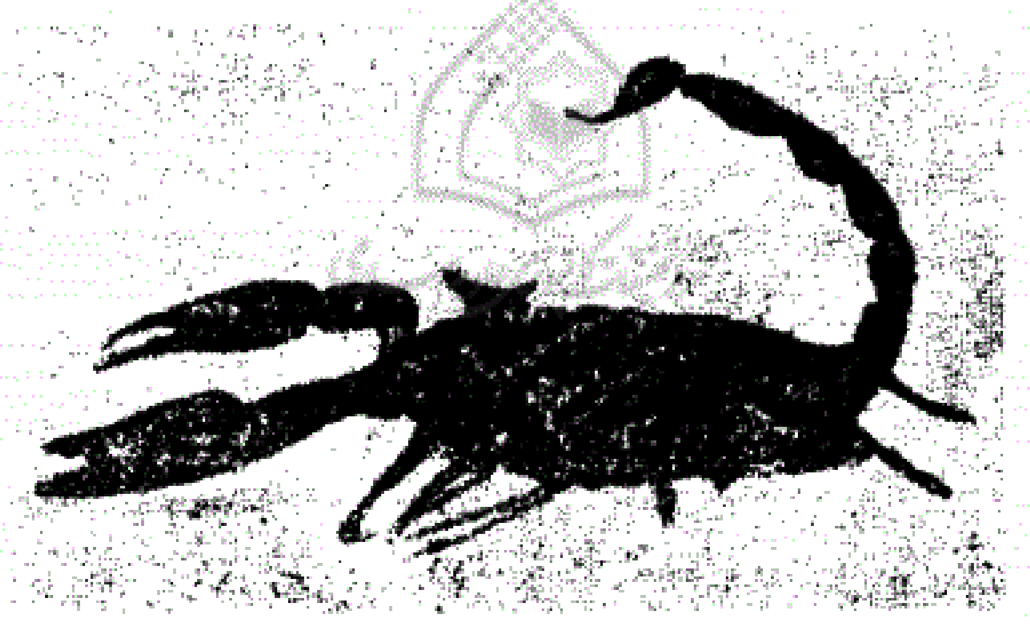
والعنكبوت ونحوه، والحشرات: كالجراد، وفرس النبي، والصرصار، ودودة القطن، والذباب والناموس، والبق، والبرغوث، والقمل. (انظر شكل٤٧). ودود القز، والنحل، والعقارب. (انظر شكل ٤٨). و(شكل ٤٩). ثم الجمبري (شكل ٥٠).



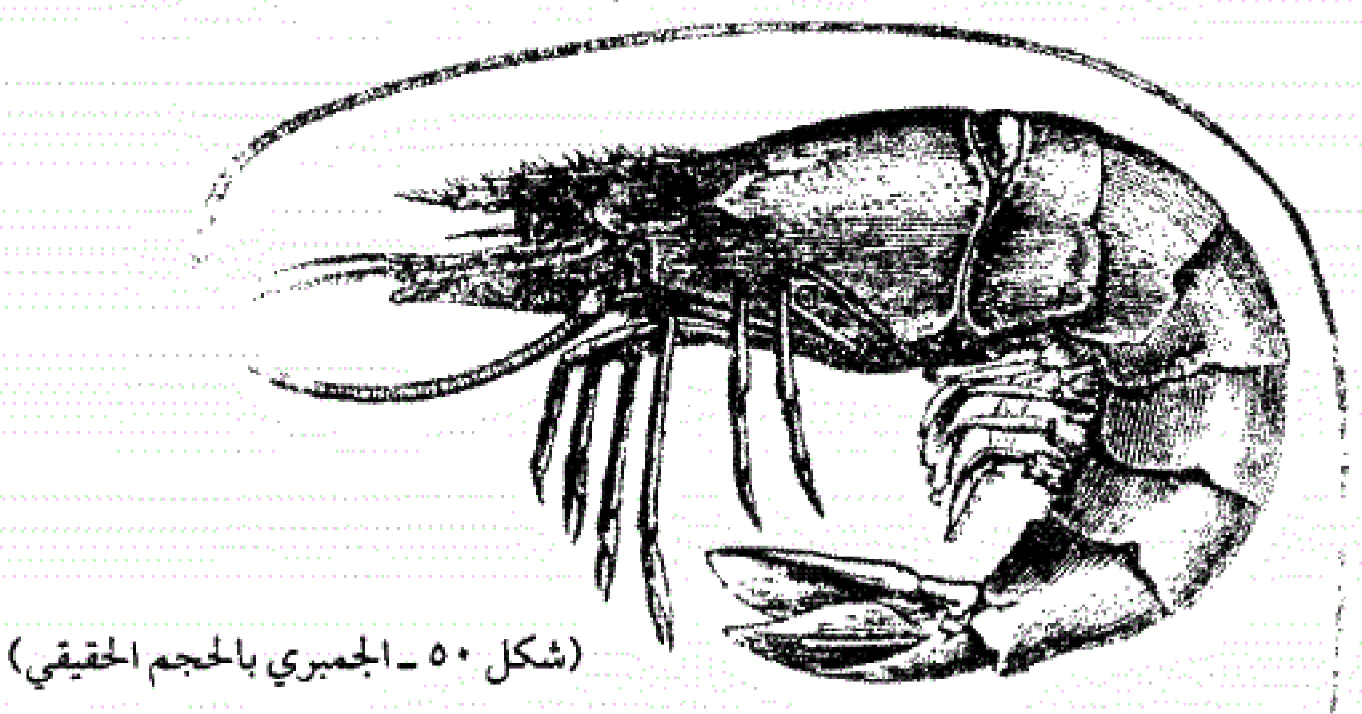
(شكل ٤٧ ـ قمل الرأس)



(شكل ٤٨ ـ عقربان يتصافحان عند مقابلتهما)



(شكل ٤٩ ـ عقربة تحمل صغارها على ظهرها)



(شكل ٥٠ ـ الجمبري بالحجم الحقيقي)

القسم الثامن من الحيوانات عديدة الخلايا وهي ليست ذات فقرات الحيوانات الرخوة،ومنها القواقع،وبلح البحر

(انظر شكل ٥١).

(١) الفم. (٢) الزوائد الأمامية.

(٣) الزوائد الخلفية الحاملة للعين.

(٤) حافة البرنس. (٥) القدم.

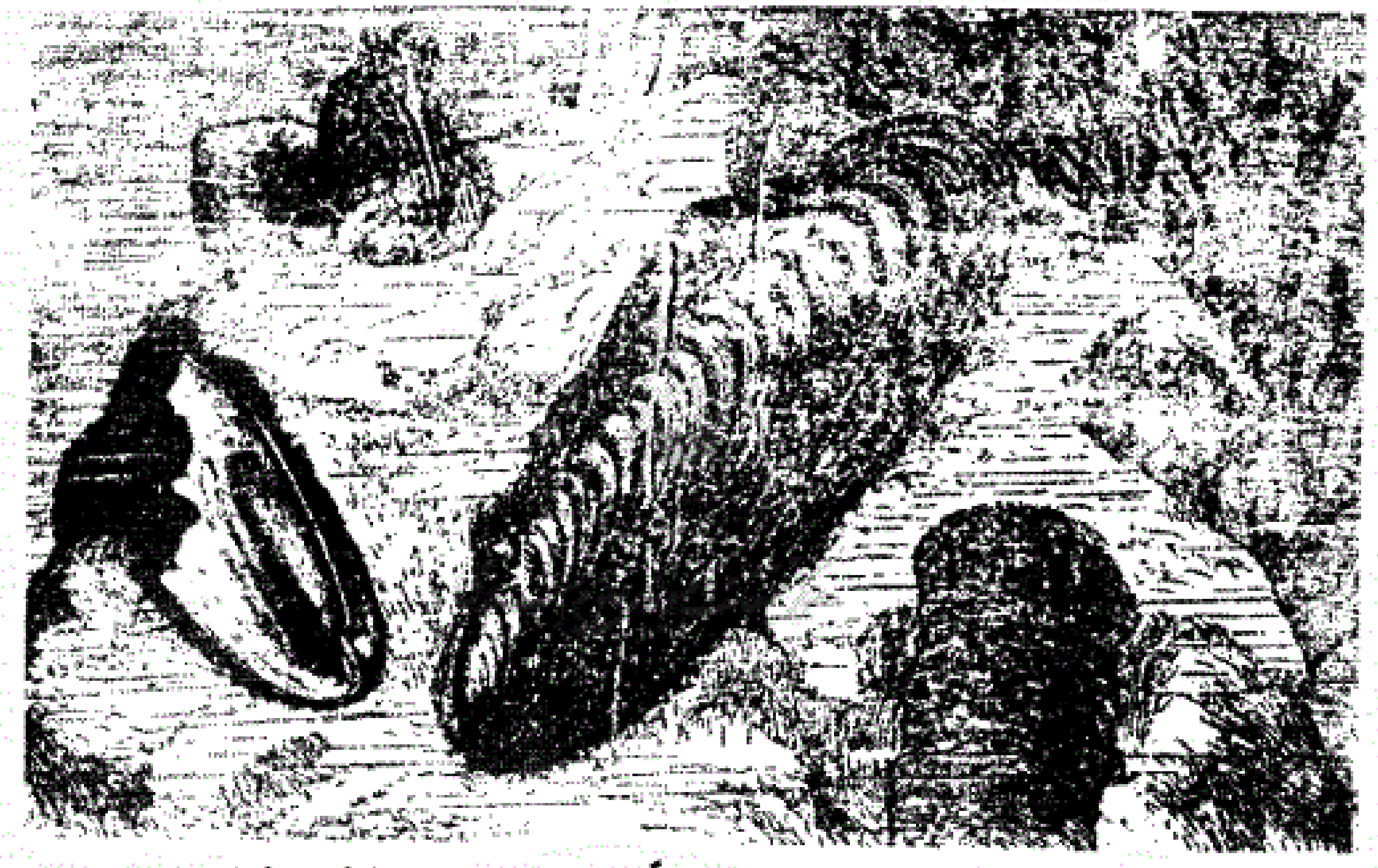
(٦) الفتحة التنفسية.

(٧) الفتحة الشرجية.

(٨) الفتحة التناسلية.



(شكل ٥١ ـ القوقع الروماني)



(شكل ٥٢ ـ بلح البحر مدفوناً في الصخر بحالته الطبيعية)

هذا ما أردته من كتاب « علم الحيوان » في هذا المقام، وبهذا تم الكلام على أقسام الحيوانات الثمانية الوحيدة الخلية والعديدة الخلية، والحمد لله رب العالمين.

بهجة الحكمة في هذه المناظر الحيوانية وعجائبها وبدائعها

أنا يا الله وجميع المغرمين بعجائبك وقراء هذا التفسير المطلعين على أكثره من أهل الفطنة موقنون إيقاناً مبنياً على المباحث العقلية، والمشاهدات الحسية، والنظريات الحكمية، إنك رحيم رحمة لا حد لها، بحيث أصبحت رحمة الأمهات والآباء بالنسبة لها قليلة الجدوى، وبهذا فهمنا قولك: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران: ١٨]، فأنت عززت فحكمت وأحكمت التدبير، وأولوا العلم هم الذين يشهدون بالحق، والجهال مؤمنون لا غير، وفهمنا أيضاً معنى قولك في القرآن: ﴿ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ [يوسف: ٦٤] فكل منا عنده رحمة ولكنها رحمة جزئية، فأما رحمتك التي شهدناها فإنها لا حد لها، ومن آيات

ذلك إحكامك الصنع في أجسامنا، ودقة صنع أعيننا، وتلك الطبقات العجيبة المنظمة، وكيف وضعت بهيئة بها تقبل ضوء الشمس، وهذا الضوء يوصل الصور المرئية، وهذه الصور تدخل في تلك الطبقات وتخترق العدسة وتمر في الشبكية وراءها، ثم تصل إلى أعصاب الإحساس البصري وتتجه إلى القوة الباصرة في الدماغ، وهناك يكون الإحساس، وما هذا إلا وسائط، وقد فعلت أمثال ذلك في إحساسنا بالأصوات وفهم الكلمات والجمل، وأبدعت وصورت وأحكمت، وأودعت في آذاننا قطعات تتلوها قطع تتحرك حركات تنتقل من واحدة إلى الأخرى، وهكذا من العجائب التي لو كانت ممثلة لنا دائماً لاستغرقت قوانا وعقولنا الأوقات في الإعجاب ثم الحب والهيام والغرام بصانعها الحكيم.

ومن أنعم النظر في عجائب الأشجار والأزهار والأوراق والجذور وبدائع الحيوان يدهش من تلك الثروة الحكمية، وأن نظرة واحدة لورقة واحدة ـ كما تقدم في سورة «يس» عند آية: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا﴾ [الآية: ٣٦] الخ ـ بل لخلية واحدة من خلايا الورقة المرسومة هناك؛ يدهش كل الدهش ويعجب كيف خلقت الشمس وبيننا وبينها نحو ٣٥٠ سنة بسير القطار و١٢ سنة بجري قلة المدفع و٨ دقائق و١٨ ثانية بسير النور، خلقت هذه الشمس في ذلك البعد العظيم عنا، ولو أنها قربت منا لأحرقتنا فلم نعش، فهذه الشمس ترسل نوراً لأعيننا به نرى الطرق ونقرأ الكتب، وهذا النور نفسه يدخل في الخلية من الورقة المحتوية على آلاف من الخلايا بل عشرات آلاف الآلاف في بعض الورق، وهذه الخلية ذات حيطان شفافة مسقوفة بسقف من مواد شفافة موضوعة وضع اللبنات في أبنيتنا لبنة بجانب أخرى، فهي إذن مقفلة، وهذا الإقفال لا يمنع دخول نور الشمس، فماذا يفعل ذلك النور، يا ترى يقابل السائل الذي في وسط تلك الحجرة، فيجد فيه مادة خضراء وهو «كلورفيل»، فباجتماع هذا الضوء المسافر من أقطار شاسعة مع هذه المادة الخضراء تجتذب الورقة المادة الكربونية من الهواء.

الله أكبر، إذن هذه الخلية أشبه بالرئة للحيوان، والكربون أشبه بالأكسوجين للحيوان، والأكسوجين الذي يخرج من الورقة قائم مقام المادة الكربونية التي يخرجها الإنسان والحيوان.

هاهنا هاهنا وصلنا إلى المقصود، وهو أن خلية واحدة من خلايا الورقة اتحدت مع الشمس المرسلة ضوءها لحياة الشجرة، ولا ريب أن هذه الرئة واحدة من آلاف آلاف آلاف آلاف الخلايا في الشجرة، والشجرة واحدة من آلاف آلاف النبات والشجر في الأرض، وكل هذه صنعت لأجل حياتنا نحن، فهاهنا رحمة لا حد لها وحكمة لا نهاية لهما، والرحيم الحكيم محبوب على مقدار رحمته وحكمته، ولعمري ليس يحب الله أحد من الناس حباً حقيقياً إلا من درسوا أمثال ما نكتبه الآن فالرحمة والحكمة لا حد لهما.

وإذا نظرنا نظراً أرقى وقلنا إن نفس هذه المادة وأوراقها وأشجارها وحيوانها كلها ليست موجودة بالفعل، وما هي هذه إلا حركات انقلبت ضوءاً، وهذا الضوء كهربائي متحرك سالبه حول موجبه آلاف آلاف في الثانية الواحدة، وباختلاف الحركات والأحوال اختلفت المظاهر كما هو رأي علماء عصرنا الحاضر.

أقول: إذا نظرنا هذه النظرة أدركنا معنى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥]، وأدركنا: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦]، وأنه هو المتجلي في كل عمل دقّ أو جلّ، ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [يونس: ٦١].

فلما سمع صاحبي ذلك قال: هذا المقال جميل، ولكنه ليس أمراً جديداً في هذا التفسير، فهو كله على هذا النمط، ولكن هذا الأسلوب شيق يبهج القلوب ويحركها إلى المعالي، وعندي سؤال وهو أنك في هذا المقال أبنت الرحمة العامة، وحل هذا الموضوع يناسب ذكر الصور المتقدمة، أنت ابتدأت الكلام بذكر ما شاهدته من الرجل الذي يرعى العنز، وأنك استنتجت من منظر العنز وألوانها أمرين: الأمر الأول علم الأخلاق، الأمر الثاني علم السياسة، وأن انكشاف عضو التناسل في أنثى المعز جاء لحكمة، وهي أن الحيوان عنده غريزة تحفظه من التمادي في شهوة الوقاع، وأن الإنسان حر يتصرف كما يشاء، فهو أبداً يعوزه المذكرات العقلية والدينية ومزعجات الأيام والليالي حتى يرجع من تلقاء نفسه بتلك المذكرات، فيعرج بهذه القوة التي اكتسبها من المران على حفظ شهواته إلى الحكمة والعلم اللذين خلق في الأرض لهما، ويظهر من كلامك أن أهل الأرض جميعاً لا فائدة تامة لهم إلا لطائفة خاصة وهم الحكماء، وبقية الناس همج الهمج، فإن هؤلاء الذين ظنوا الشهوات من المطعم والمشرب، أو غلبة الأعداء هي المقصودة من الحياة، جاهلون أغبياء إلا من تاب وعرف وقرأ الحكمة.

فهذا هو الذي ذكرته أنت في مقدمة هذا المقال، ورسمت بعض صور الحيوانات، وأبنت الحيوانات ذوات الخلية الواحدة الأربعة وهي: «الأميبية» و«هدبية» و«سوطية» و«جرثومية»، ثم الحيوانات ذوات الخلايا التي لا فقرات لها مثل: «الإسفنجية» و«الأخطبوطية» و«النجمية» إلى آخر الأقسام الثمانية المتقدمة، فهذا هو الذي ذكرته أولاً، فهل الكلام على رحمة الله بعدها مناسب لها كل المناسبة؟ هذا ما أريد سؤالك عنه. فقلت: حياك الله. إن الرحمة التي ذكرتها بعد انتهاء هذه الصور الحيوانية إنّما نقلتها على سبيل التمثيل للرحمة بمثال سهل مقبول، ورحمة الله تعالى لنا بتلك الحيوانات رحمة شريفة عالية، إن الرحمة على قسمين: رحمة الأم، ورحمة الأب، أما رحمة الأم فإنها يقل فيها التفطن والتفكر والتأديب، أما رحمة الأب فهي الكاملة، لأن الأب واسع النظر حكيم يريد للولد مستقبله، أما الأم فهي تريد الأحوال الجزئية والمنافع السطحية.

فهذا المثال الذي ضربته هنا بخلية الورقة جاء في الرحمة المشبهة رحمة الأم، فأما هذه الحيوانات وما فيها من الأعضاء والمنافع فإنها كرحمة الأب التي تشتمل على التأديب والزجر، كما تشتمل على تغذية البدن بأنواع الغذاء. قال: فبين لي هذا المقام على شريطة أن تكون الأمثلة من نفس تلك الحيوانات المصورة فيما تقدم. فقلت: اللهم إننا خلقنا في هذه الأرض فرأينا أسلوباً واحداً متبعاً في حياتنا، فكما أن الشهوات للغذاء وللتناسل حفظتها بالغرائز في الحيوان وهذبتها في الإنسان الذي أعطي الحرية في التصرف بالمنذرات والعبر والعلوم والمعارف، وجعلت عقولنا هي المسيطرات على قوانا المخلوقة فينا، وغرائز الحيوان لا حاجة معها إلى عقل كبير، ثم إننا نظرنا حولنا يا ربنا فرأينا أغذية

تعاطاها وفيها الضار والنافع، فقامت عقولنا بما تعرفه من التجارب والعلم، فاختارت منها ما ينفعنا ونبذت ما يضرنا، وهكذا رأينا ماء ينزل من السماء ويسيح على الأرض، فألهمت عقولنا أن تحفر لها الأنهار وتقيم له السدود لتحفظه فيسقي زرعنا، كما أقامت هذه العقول موانع وحواجز حجزت شهواتنا عن التوغل والإسراف لحفظ حياتنا.

ثم إن هذه العقول أنفسها بها نظمنا دولنا، فنحن في هذا كله أرقى من الحيوان، لأن الحيوان نظم دوله بغرائزه، أما نحن فقد أحكمنا عقولنا فتصرفت في شهواتنا بخلاف التيس مع العنزات في المشاهدة التي ذكرتها سابقاً، فالمانع له غريزته، وتصرفت أيضاً في نظام طعامنا وشرابنا، وسقي زرعنا وإقامة دولنا، والغريزة عندنا لا حكم لها هنا، وإنّما الحكم لعقولنا، وبهذه العقول قويت إرادتنا، وعملنا باختيارنا لا بغرائزنا. أما الحيوان فهو مسوق لا سائق، ومقود لا قائد، فإذا رأينا حيوان الملاريا يدخل الكرات الدموية الحمراء ويهلك ما فيها ويميتها، وبهذا العمل ترتفع درجة الحرارة في فترات منتظمات كل يومين أو ثلاثة على حسب نوع الملاريا، ثم تستمر هذه النوبات بضع أسابيع حتى يضعف المصاب بها. وهذا الحيوان دقيق الجسم جداً من الحيوانات الجرثومية ذوات الخلية الواحدة وهو يتكاثر، ثم يساعده في الانتقال إلى جسم إنسان آخر ليجعل له مستعمرة هناك حشرات الناموس المعروفة لتمتصه الإناث منها وتذهب به إلى إنسان آخر فتمتص دمه وتبقي بجسمه ذلك الحيوان الفتاك فيتكاثر فيه.

أقول: إذا رأينا حيوان الملاريا هكذا فلم يخرج ذلك عن إعطائنا الحرية والعلم، وعن أنه مهماز يسوقنا إلى العمل، ولولا ذلك لكان الكسل ولكان الموت.

الله أكبر، أي فارقة بين شهواتنا التي أطلقت لنا الحرية فيها ـ بخلاف الحيوان ذي الغريزة ـ وبين خلق هذه الحيوانات لنا، الحيوانات هي المساعدات لنا، كما أن الشهوات لولاها لم نعش، فالمخلوقات الخارجية مساعدات لنا، والقوى الباطنية فينا كشهوة الغذاء والوقاع لا حياة لنا بدونها ولا بقاء، وقد أطلقت لنا الحرية في شهواتنا، وبالمحافظة عليها يتم لنا نظام الحياة، وبعدم المحافظة عليها والإسراف يكون شقاء الحياة، فالنتيجة من ذلك تدريبنا على حكم أنفسنا، وأن نتولى نحن بأنفسنا العمل لها بخلاف الحيوان، فهل نحن إذا رأينا «حمى الملاريا» تقتل آلافاً منا ـ كما أن حشرة النمل ودودة الحرير وأنواع الجاموس والبقر والخيل جالبات الخير والسعادة لنا ـ قد خرجنا عن المثال السابق. كلا. فلو أننا أعطينا العسل والحرير والصوف واللحم واللبن من الحيوان ثم لم يصاحب هذه النعم ضدها لكنا أغبياء كسالى، بل كنا حيوانات أقل من الإنسان، لأننا قلنا في مثال العنزات: إن الفارق بيننا وبين الحيوان المحافظة بأنفسنا على قوانا وعلى نعمنا، حتى نستأهل الارتقاء إلى عالم فوق هذا، إذن الله عز وجل يكلمنا دائماً ليلاً ونهاراً بكلام بلا حرف ولا صوت، يقول: يا عبادي اعقلوا عني هذه قواكم فيها الخير وفيها الشر فاحترسوا، وهذا الماء وهذا الهواء وهذا الحيوان فيها كلها الخير والشر فاحترسوا، وعملي هذا بعلم أشبه لكم بعمل الأب لابنه منكم، ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾[النحل: ٦٠]، فهو يأخذه في دكانه، أو في حقله، أو في محل تجارته، ويترك له الحرية حتى يخطئ ويصلح خطأه بعقله وبنفسه،

ولكنه عادة في بعض بلاد الشرق لا يعلم ابنته هذا التعليم، لأنها في نظره غير أهل لتلك النعمة، نعمة الرجال الذين يفكرون بأنفسهم لأنهم خلقوا للاستقلال، ولو أني لم أخلق من الحيوان إلا ما نفعكم، ولم أخلق لكم أنواع الملاريا التي تتربى في دمائكم، ويحملها الناموس من واحد إلى آخر منكم؛ لكنتم في مرتبة صغيرة حيوانية جاهلة.

بهذا تفهمون أيها الناس قولي: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾[الفجر: ١٥-١٨].

أيها الناس، إن المدار على عملكم أنتم لا على العطايا والمواهب وحدها، وأعظم عطائي ونعمي علمكم وعملكم، لهذا خلقتم في الدنيا، وعلمكم وعملكم لا يتمان إلا بالمتضادين، ولذلك قلت: ﴿وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ﴾[الذاريات: ٤٩-٥٠]، فهأنا ذا خلقت لكم الضار والنافع في قواكم الشهوية والغضبية، فالاعتدال نافع، والإسراف ضار، وخلقت الضار والنافع في الهواء وفي الماء وفي الحيوان، وتركت لكم الحرية فلتختاروا ما تشاؤون لأنكم إلي راجعون، وهل يرجع إلي ويكون عندي في مقعد صدق وأنا المليك المقتدر أحد إلا إذا تخلق بالصفات الشريفة من العلم والعمل، وكل من ازداد علماً وأحسن عملاً في صناعة أو في عمل كان قريباً مني بقدر منفعته للناس وإتقانه لصناعته.

يا عبادي، هاهو ذا عملي معكم، خلقت فيكم حيوان الملاريا، وما هو إلا كلمات يعقلها الموفقون، وهذا القول مجسم بخلاف أقوالكم، فهي أصوات، والأصوات يفهمها العلماء والجهلاء، والكلام المجسم لا يعقله إلا الحكماء، فهؤلاء الذين أفهمهم أنا كلماتي المجسمة فيفهمونها ويعلمونها للناس في مشارق الأرض ومغاربها، وهؤلاء الحكماء هم الذين يقولون لكم عني ويبلغونكم أني أنزلت هذه الحيوانات الخلوية الدقيقة، وخلقت دودة «البلهارسيا» وقلت لها: أيتها الدودة عيشي في أكباد بني آدم، وكلي واشربي من دمائهم، وأحدثي ضعفاً فيهم، ثم انزلي إلى المجاري البولية فيكون النزيف الدموي، أو انزلي في المستقيم، وأحدثي نزيفاً دموياً في البراز، فيكون هناك صعوبة وآلام في أثناء قضاء الحاجة، فإذا نزل بيضك بهذه الصفة ووقع في نهر فإني أجعله يفقس هناك، وتخرج الذرية على مثالك فألهمها أن تعمد إلى القواقع التي خلقتها هناك، فتدخل فيها بعد أن تثقبها وتعيش فيها، ثم تخرج الذرية فتعوم في الماء ٤٨ ساعة، فإن لم تجد إنساناً تعيش في جسمه ماتت، فإن رأته فهنالك تكون سعادة ذريتك، فتثقب جلده وتتجه إلى كبده، كما اتجهت إلى كبد القوقعة أولاً، ودخولها جسم الإنسان إما بالاستحمام أو الشرب أو الاغتسال بالماء الملوث بها، ذلك هو عمل دودة البلهارسيا، ومثلها الدودة الشريطية التي تعيش في بعض الحيوان، وتصيب من لم يطبخه طبخاً جيداً إن لم يكشف عليه كشفاً صحياً الطبيب العام في البلاد، وهكذا دودة الأنكلستوما وبقية الحشرات السابقات كالقمل والعقارب وما أشبهها، فكل هذه أيها الناس كلماتي المجسمة أنزلتها عليكم وقلت لها: لا تدخري وسعاً في إلحاق الأذى والمكروه بالأمم في الأرض وبالأفراد، فإن أجمعوا

أمرهم بينهم علـى قتالكن وإزالتكـن مـن الأرض وانتهوا بأنـهم صـاروا متضامنين جميعـاً في الشرق والغرب فذلك هو الذي أريد سوقهم إليه بهذه الرزايا والنوائـب، بحيـث تنتقـل العـدوى مـن بلـد إلى بلد، ولا فرق بين البلدان بـهذه الرزايـا، فيـا أيتـها المخلوقـات المؤذيـة لبنـي آدم استمري في عملـك ولا تفرقي بين أهل الديانات والممالك، وافتكي بهم فتكاً ذريعاً حتى يعلموا أنهم خلقوا أمة واحدة تتعـاون وهناك تكونين قد أديت مهمتك الشريفة في هذه الأرض. هذا ما يقولـه الحكمـاء لأهـل الأرض في هـذا الزمان ليدلوهم على المحبة والمودة، وتعميم السلام العـام، والحمـد لله رب العـالمين. كتـب ليلـة السبـت ١٨ يناير سنة ١٩٣٠م قبيل الفجر.

زيادة إيضاح قوله تعالى:

﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾

كتب ليلة الثلاثاء قبيل الفجر يوم ٢١ يناير سنة ١٩٣٠م

بعد أن كتبت ما تقدم ملخصاً من ذلك الكتاب أخذت أطالع ما جاء في أحوال الديـدان الحلقية التي منها دودة الأرض التي تقدم رسمها ووصفها في سـورة «فصلت» وأنـها تكـون سـبباً في خصـب الأرض الخ. ومنها العلق الطبي، فماذا رأيت؟ رأيت أن الأمم المستعمرة إذا منعـت النـاس عـن العلـم والحكمة ودراسة أمثال هذه العجائب فإنها بهذا تفوز وتملك البـلاد، ولماذا تملكها؟ تملكها لأن النـاس بلا علم بأمثال هذه العجائب يكونون أشبه بالبهائم فيسهل التسلط عليهم وإذلالـهم وتسـخيرهم كمـا تسخر الدواب.

ولما وصلت إلى هذا المقام قال صاحبي بعد ما قرأ هذا: هاأنت ذا رجعـت إلـى الـذم والتقريـع، فعلام هذا اللوم؟ أعلى دودة في الأرض منبوذة لا علاقـة لـها بالدنيا ولا بدين، فـهل يكـون المسـلمون وقد جهلوا هذا الدود قد استعدوا لإذلال الأمم لهم، إن هذا منك مبالغة، ثم لماذا أعدت القـول في هـذه الدودة وحدها، وهل الجهل بها وبأمثالها هو الذي مكن الإنجليز من بلادكم فيما مضى؟ فقلت: اعلـم يا صاح أن الجاهل أعمى، والأعمى يستحق قائداً يقوده، لقد كنت في حقل وأمامي سـاقية قـد دار فيـها ثور، وكان على عينيه غطاء فانكشف الغطاء فوقف الثور، فلمـا أن أعيـد إليـه الغطـاء جـرى كمـا كـان ودارت الساقية، وما أشبه الأمم الإسلامية وقد غطيـت بصائرهـا عـن نظـر العجـائب الكونيـة إلا بـهذا الثور الذي كان أمامي لما غطيت عيناه، وأنا لا أشبهها وقد أزيل هذا الغطاء عن بصائرها بالفهم والعلم إلا بنفس هذا الثور إذا أزيل عن عينيه الغطاء فوقف عن السير.

فقال صاحبي: هذا لم يزد عن أنـه مـن ضـرب الأمثـال. فقلـت: يـا صـاح إن للقـول بقيـة، لقـد أدهشني وصف دودة الأرض المتقدمة في سورة «فصلت» بل أذهل عقلي أي إذهال من فـرط التعجـب وزاد يقيني بأن هذه الدنيا جنة خلقنا فيها وحجبنا عـن بسـاتينها وحدائقـها وأزهارهـا وأثمارهـا، نحـن معذبون في الدنيا لشـدة جـهالتنا، فـإذا علمنـا فنحـن مـن المقربـين، دود منبـوذ في الأرض يكـون سـبباً لإسعادنا وإمدادنا بالخبز والفاكهة والتين والرمان والحب والعصف والريحـان، دود منبـوذ يكـون سـبباً لتغذية العلماء والحكماء والأنبياء، دود منبوذ يقوم بحرث الأرض وتسميدها والناس لا يعلمون، دود

منبوذ يفتت القطع الأرضية فيدخل الهواء فيها فيحسن الزرع فتكون سعادة الحياة، ويخجلني والله أن نعيش في الأرض ونحن غافلون.

أما أنا فإني أحمدك يا رب على نعمة العلم، وأنا أعلم أن من الناس من يقرؤون ما ذكرته فيها ولا يعجبون، وأكثر علماء النبات و الحيوان يعرفون أضعاف ما في هذا الكتاب وهم غافلون، فهم يرون الجمال وكأنه لا جمال، ويرون الحسن ولا حسان، وكأنه لا حسن ولا إحسان، أكثرهم عمي وقد رأوا الغداة الحسان، صم وقد سمعوا أجمل النغمات، وليس هذا عجيباً، فقد نرى الحسان ونسمع أبهج النغمات وقد اعترانا في النفوس موانع وهموم، فلا نهتز طرباً ولا نهتاج شوقاً ولا غراماً، هكذا أغلب نوع هذا الإنسان، إنني لما قرأت ما ستسمعه تذكرت أن هذه العوالم التي نعيش فيها إنّما هي شموس في مجرات، والمجرات كثيرات، ووراءها السدم، ووراء السدم سدم وهكذا إلى ما لا نهاية له كما هو مقرر في علوم الفلك اليوم، وهذا هو الذي يغذي نفوسنا، إن نفوسنا تود أن تزيد علماً، ولو كان للعلم نهاية لكان ذلك عذاباً لنفوسنا. إذن العلم غذاؤنا فإن انتهى العلم نفد الغذاء.

قد كنا أيام الصبا وزمن المراهقة نحمل الشص « الصنارة » لنصطاد السمك، ونبحث في الطين لنستخرج دود الأرض ـ قد تقدم رسمه و الكلام عليه في سورة « فصلت » فراجعه هناك إن شئت ـ لنضعه فيها فيأكله السمك فيعلق بالشص فنصطاده فنأكله، فهذه علومنا ونحن صغار بالنسبة لهذه الدودة، والفلاحون وجميع المسلمين غالباً لا يزيدون علماً بهذا عن الأطفال.

أقول: فهل كان يدور بخلدي وأنا مراهق، أو يدور بخلد أكثر عامة المسلمين وعلمائهم أن الفدان الواحد فيه ٥٣ ألف دودة، وكل هؤلاء إنّما هم حراثون يحرثون الأرض ويقدمون لها سماداً يغطي نصف سنتيمتر من سطح الأرض.

والحق أقول: إن الله لما خلق لنا الحيات والعقارب، وأمثال هذا الدود جعلها في المحسوسات أشبه بالحكايات الخيالية في المسموعات، نسمع حكايات « كليلة ودمنة » وما شاكلها من حكايات « ألف ليلة وليلة » فنظن أننا بها عالمون، ومتى عقلنا وعلمنا أدركنا أنها أعظم قدراً مما كنا نظن، الجهال والأطفال يسمعون حكاية الحمامة المطوقة، وقد اجتمعت مع صواحبها في ذلك الكتاب، وقد أجمعن أمرهن وتخلصن من الشبكة بمساعدة حيوانات أخرى، فيظنون أن هذه حقائق وأنهم بها عالمون، ويقصونها على غيرهم وهم لا يعقلون، ولكن الحكماء والعلماء يستنتجون منها نتائج وهم يفكرون، هكذا العقارب لا يعرف الناس منها إلا أنها مؤذية، وقد علمت فيما تقدم في غير هذا المكان أنها أكلات لحشرات ضارات بأمتعتنا، وهكذا الحيات لا يعرف الناس إلا أنها سامات، ولكنهم في الوقت نفسه يرون رجلاً وهو المشعوذ الذي يسمونه « الحاوي » تأبط منها كثيراً فلا تلدغه، وهو قد حمل معه الحيات التي لا سم لها وهي تملأ الخافقين والناس لا يعلمون، وهكذا دودة الأرض التي كلامنا فيها يراها الناس مزدراة محقورة إذا هي عونهم وغوثهم وحارثهم ومسمد أرضهم.

يا سبحان الله ويا سعدانه، يقول الله: ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴾[النبأ: ١٠-١٣]، فهذا السراج الوهاج إذا

أظهره لنا كان المعاش، وإذا غيبه عنا كان اللباس، ولكن هذه الدودة التي نحن بصددها، ومثلها النمور والأسود والفهود وجميع السباع كالذئاب قد عكس الأمر عليها، فالليل معاشها والنهار لباسها فالسبع الشداد يا ربنا جعلت فيها سراجك الوهاج فأقمت به طائفة وأنمت أخرى إذا أضاء وإذا أظلم، فإذا أضاء أمرت أنواع العصافير مثل أبي ذيل أبيض وأبي ذيل أحمر وأبي رقبة بيضاء، ومثل المغني في الصفصاف، ومثل المغني الأصفر والمغني الأحمر، وأبي ذيل طويل وأبي قفصادة وأبي ذور أحمر وآكل الذباب والقنبرة الإفرنجية والوروار بأنواعه والهدهد والعنز وأبي قردان والكروان والزقزاق المطوق والزقزاق الشامي، والزقزاق البلدي، مما شرحته هناك في أول سورة « يوسف » فهؤلاء أنت يا الله تأمرهم إذا طلعت شمسك أن يأكلن الحشرات الضارات لزرعنا، ويحفظن بلادنا، ويكن عوناً على حياتنا وحيواننا، كما أن الليل إذا جن تبعث دود الأرض فيطوف حقولنا ويلتقط الورق منها ويعيش في هناء وسعادة، ويغيب في جوفها إذا طلع النهار، فالليل والنهار آيتان مدهشتان، فلا ندري أيهما نفضل وقد عرفنا بهذا العلم أن المانوية كاذبون إذ يقولون بإلهين: إله الخير وإله الشر، وأن إله الشر هو الذي خلق الليل، فهاهو ذا الليل فيه يتمتع الدود النافع لمزارعنا المنمي لحاصلاتنا.

تباركت يا الله وتعاليت، وأريتنا رحمتك الواسعة، وعرفتنا أننا غافلون جاهلون، ندرس القليل ونجهل الكثير، وأصبحت اليوم أقول: لو أنني درست بعد موتي جميع المجرات وجميع السدم التي كشفت حديثاً واطلعت على جميع سكانها، وخبرت بواطن أحوالهم، وأسرار حياتهم، لقلت: إنني لا أزال كما أنا الآن أيضاً أجهل الكثير كما جهل اليوم عموم المسلمين إلا النادر منهم عجائب دودة الأرض التي ذكرناها، ومنافع الطيور التي بيناها، وإحساسنا بالجهل يحثنا على العلم، والعلم غذاء أرواحنا، فلنكن باحثين في الدنيا لنرقي الأمم وذلك يجعلنا من المجدين في العلم بعد الموت لتتغذى به أرواحنا، وكلما ازددنا علماً قربنا من ربنا، وربنا هو الجميل الحكيم الذي ينزل منه كل جمال وكل حكمة.

ألا فليسمع المسلمون أني أكتب هذا وأنا أحس بسعادة تفوق كل سعادة أرضية، ولقد جربت كما جربت جميع الحيوانات والناس أنواع السعادات واللذات فوجدت اللذة العلمية طوراً لا صلة بينه وبين تلك الأطوار، إن ارتباط الشمس وضوئها، ودود الأرض وحشراتها، ومزارعها وطيورها، وآكلها ومأكولها، أشبه برواية تفوق كل الروايات. إن الناس في أحوالهم العادية يذهبون إلى محال الصور المتحركة ودور التمثيل التي تمثل فيها الروايات الغرامية، ويفرحون بذلك العلم، ويقرؤون الروايات في « ألف ليلة وليلة » وهم فرحون بتلك الصور الخالية، إن سعادة الناس بالعلم تابعة لمقداره، فهي في الخياليات خيالية، وفي الحقائق حقيقية، وهل يستوي الرجلان: رجل عرف هذه الحقائق فرأى تمثيلاً حقيقياً، وامتزجت في نفسه مشرقات الكواكب ومنيرات الشموس مع الطيور والغلق والدود، وانكشف لنفسه بدائع المناظر العجيبة، يرى ستاراً ينزل فيكون الظلام، فهناك تمثل الروايات الليلية التي أسلفناها، فإذا أشرقت الغزالة أسدلت الستار على مناظر الليل، فغابت تلك المناظر الكوكبية في دياجي الظلمات، وهجعت الطيور الليلية والبوم في أعشاشها، والأسود في آجامها، ودود الأرض في باطنها، وأخذت الشمس تظهر الألوان، والبحار والأشجار، والمسالك والممالك.

وسيكون من قراء هذا التفسير من تكون الأرض لهم جنات ونعيم وإن شاركوا الناس في أتراحهم وأفراحهم، ولكنهم يرون في نفوسهم ما لا يراه الأكثرون، وهؤلاء إذا أخذوا يصلون وهم يسلمون على أنفسهم في التشهد، وعلى عباد الله الصالحين وعلى الأنبياء والمرسلين، إذ يقولون: السلام عليك أيها النبي الخ. يفهمون معاني تشبه ما ذكرناه الآن، إذ هم بعد أن درسوا الوجود على هذه الشريطة وأدركوا أنه عالم جميل وبديع ومتسق، وبين أعلاه وأدناه نسب بديعة، بحيث يرون الرباط محكماً بين دودة الأرض وعلقها، وبين الطيور والنبات والإنسان والشمس، هكذا هنا يرون المناسبة والرباط بين المصلي وبين عباد الله الصالحين والأنبياء والمرسلين، وأن هذا الوجود مبني على هذا، فالصلاة نوع من العلم والتذكرة، فالمسلم يذكر نبيه صلى الله عليه وسلم وجميع الصالحين من الأمم القديمة والحديثة والآتية بعدنا، ليعلم من الآن أن ربنا سيجمع جميع الصالحين على مقتضى درجاتهم بعد مفارقة الأجسام أولاً وبعد الحشر، فهو من الآن يتعرف بهم، ومنهم الملائكة الذين يذكرون في جميع الديانات، فالصلاة تذكرة حتى إذا فارقنا أجسامنا وقابلنا الأرواح من جميع الأمم ومن الملائكة لم نكن في حال شديدة الغرابة علينا، والعلم الآن يساعدنا على الرقي هناك، لأن عالمنا الحسي قد ضرب مثلاً للعالم الروحي، فهاهنا رباط وثيق عجيب بين أخس الأشياء وأرفعها، وهناك نفس الرباط بين الأخس والأرفع، وترى أضعف المؤمنين يقول: السلام عليك أيها النبي، كما ترى دود الأرض بين ظهرانينا ذا علاقة بالشمس إذ يطلع ليلاً فيأكل الورق، والورق ما نما إلا بسبب ضوء الشمس الذي أشرق عليه فامتص الكربون من الهواء، ولولا ذلك الضوء مع «الكلوروفيل» ملون الورق لم يكن ذلك الامتصاص فلم يكن نبات، ولم يكن دودة تمثل في دياجي الظلمات في مسرح الوجود، هذه الفصول التي شرحناها، فأعلى الأرواح له صلات بأدناها، كما أن للشمس صلة بأدنى الحيوان وهو دود الأرض، وهذا كله ظاهر في التشهد في صلاتنا الإسلامية.

ولا جرم أن هذه المعارف التي شرحت في هذا المقام تجعل نفوسنا مشوقة إلى إسعاد جميع الناس، لأننا إذا عرفنا أن للشمس صلة بالدودة أفلا يكون لها صلة بنوع الإنسان، فيا حسرة على الأمم الإسلامية الحالية. اللهم إنك أنت تعلم أن الجهل فرقهم، والبدع طمست على بصائر الكثيرين منهم، ولكن آن أوان ارتقائهم وإسعاد أممهم، والله هو الولي الحميد، والحمد لله رب العالمين. كتب في ضحى يوم الثلاثاء ٢١ يناير سنة ١٩٣٠.

مسامرة بيني وبين أحد العلماء الفضلاء

في آيات: ﴿ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾، مع آية: ﴿ وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ ﴾

حضر صاحبي العالم الذي اعتاد الحديث معي في هذا التفسير يوم الاثنين صباحاً ١٤ من شهر المحرم الحرام سنة ١٣٥١هـ، ٣٠ مايو سنة ١٩٣٢م، فأخذ يجاذبني أطراف الحديث في هذه الآيات، ومما قاله لي:

لقد رأيتك في آيات القرآن المتشابهة المعاني بحسب ظواهرها تذكر في كل منها من المعاني ما ليس في غيرها فيكون ذلك مسرة وتذكرة للناس، وعبرة للمعتبرين، ونشاطاً للقارئين، فماذا تقول في قوله تعالى هنا: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٩]، وما هذا الفرار إلى الله الذي ذكر عقبها، وما هذا الإنذار؟ فقلت: لقد تقدم الكلام على الذكور والإناث من أنواع النبات في سورة «الأنعام» وفي سورة «طه» وفي سورة «الشعراء» وغيرها. فقال: ولكني في سؤالي لك قد صرحت بأنك دائماً تنوع الكلام في الآيات المتشابهات، نعم قد تقدم في سورة «الأنعام» أن علماء النبات لم يجدوا طريقاً لتقسيمه إلا بتشريح الزهر، وتبيان ذكرانه من إناثه، ولكن المقام يعوزه إيضاح أتم. فقلت: لقد اطلعت على ما ذكره «بول بيرت» العالم الطبيعي الفرنسي، وهو أستاذ في «السربون» ووزير المعارف العمومية في كتابه المترجم إلى اللغة الإنجليزية. قال في صفحة ٩٨ ما ترجمته:

سأشرع في الكلام الآن على تقسيم النبات إلى فصائله، ولكن هذا ربما كان أشد تعقيداً وأكثر صعوبة من تقسيم الحيوان، ألا ترى رعاك الله أن فصائل الحيوان وأنواعه يمتاز بعضها عن بعض بسهولة، ولا كذلك النبات، فإن أنواعه وفصائله متشابهة، إن الناس يعرفون بكل سهولة الفرق بين الحشرات والطيور، بل يعرفون الفرق بين الذباب وبين أبي دقيق اللذين هما من نوع الحشرات، ولكنهم لا يتسنى لهم بسهولة أن يرسموا خطوطاً فاصلة ما بين فصائل المملكة النباتية وأنواعها، إن ذلك على الناس عسير. ثم نادى أحد التلاميذ قائلاً: يا بول، لو أنني كلفتك بأن تقسم النبات إلى فصائل فماذا أنت صانع؟

(جـ) كيف يصعب يا سيدي هذا؟ إنه لأمر سهل، أنا أقسمه إلى ثلاثة أنواع: شجرات وشجيرات وأنجم، أي وهو ما لا ساق له، كالقمح والذرة والشعير.

(س) حسن، إن هذا الرأي يغلب على كثير من المفكرين، ولكن انظر هل تعرف كم من العقبات في طريق تقسيمك هذا، وكم من المتشابهات فيه التي تورث العقول حيرة وارتباكاً، وتضيع الزمن على المفكرين، فأرجو أن تبين لي الحدود الفاصلة بين هذه الأنواع الثلاثة، فخبرني إلى أي مدى تنتهي أصناف الشجيرات؟ ومن أين تبتدئ الأشجار؟ ومتى نطلق على النبات أنه شجيرة بدل أن نطلق عليه أنه نجم، خبرني يا بني، أنبات البندق من الشجرات أم من الشجيرات؟ وهل ما يقال له «دفرز» باللغة الإنجليزية ـ وهو نبات شوكي دائماً أخضر وله زهر أصفر ـ أمن الشجيرات هو أم من الأنجم؟ اللهم إن الفاصل بين هذه الأنواع والفصائل عسير غير يسير. ثم أشار إلى تلميذ آخر فقال:

(س) ما الذي تقوله يا جورج؟

(جـ) يا سيدي أنا أقسم النبات إلى نبات سنوي، وإلى نبات ذي سنتين، وإلى نبات ذي سنين كثيرة بسبب جذوره فقط، وإلى نبات ذي سنين كثيرة حقيقية.

(س) هذه فكرة أجمل وأتم، ولكن يرد عليها اعتراض، فانظروا، أليست مظاهر المراعي تشابه مظاهر مزارع الحبوب، ولكن الحب سنوي أما الحشائش فإنها تعيش سنين في الأرض.

إن الحشائش والحب إذن يدخلان تحت نوعين مختلفين من أنواع النبات، فهما من جهة ذوات حب، ومن جهة أخرى هذا سنوي وهذا ذو سنين كثيرة، بل هناك ما هو فوق ذلك، فهذا نبات «الشوفان» وقد تقدم الكلام عليه في هذا التفسير، فهذا إذا زرعناه صار سنوياً، ولكنه إذا نبت بنفسه بدون زرع كالذي ينبت في جوانب الطرق فإنه يعيش سنين كثيرة. وأيضاً هاهنا نوعان من نبات ترجمته بالإنجليزية «كأس الزبدة».

هاأنا ذا وضعت ما اختلف منه بعضه بجانب بعض، فهاهو ذا بعضه سنوي والآخر ذو سنين كثيرة ويعسر إزالته من الأرض وإهلاكه، إذن هذا غير موفي التقسيم حقه، ولا قائم بما توخيناه.

أهمية الزهر في تحقيق تقسيم النبات

هاهنا أخذ المؤلف يشرح هذا التقسيم النباتي بواسطة درس الزهرة النباتية. جلّ الله. جلّ الله. يا عجباً يا ربنا! يعيش الناس في الدنيا ويموتون وينظرون يا ربنا جمال زهرك، ويشمون روائحه، ويتهادونه ويفرحون ويمرحون، وهم ساهون لاهون.

يا سبحان الله، في الأرض أزهار، وفي السماء شموس وأقمار ونجوم وسدم ومجرات، هناك المجموعة الشمسية، فالشمس تحيط بها السيارات، ولها أبعاد خاصة لولاها لاختل النظام، وتقدم موضحاً في هذا التفسير. الله أكبر، منه الجمال وهو مفيضه على الأرض وعلى الناس، العوالم التي نعيش فيها كتاب مفتوح لا يقفل، صفحة منه تظهر لنا نهاراً، وأخرى تظهر ليلاً، فصفحة النهار تظهر بواسطة ضوء الشمس، وصفحة الليل تظهر بواسطة النجوم، فهذه النجوم بينها وبين زهر النبات مناسبة، وأي مناسبة هذه؟ إنها لمشابهة قويمة، ألم تر أن الزهرة الواحدة فيها أوراق خضر يسمونها الكأس، وفي داخلها أوراق ملونة يسمونها «تويج»، وفي داخل هذه أعضاء الذكور التي فيها اللقح، ووراء هذه أعضاء الإناث التي تتلقى هذا الطلع، وينزل فيها إلى محل النمو ما يشبه الجنين في الحيوان، فيكون الحب أو الثمر، وفي داخل الثمر يكون النوى، فهاهنا مملكة، ولكن الإحكام والإبداع فيها يدهش العقول العظيمة كما يدهشها نظام المجرات ونظام المجموعة الشمسية، إذ يرى الإنسان السيارات جاريات بنظام حول الشمس، وهن يرسلن الأشعة لمنفعة أهل الأرض، هكذا هذه الزهرة الصغيرة منظمة محكمة مبدعة، وهذا الإبداع كله لأجل حصول الثمرات النافعات للإنسان والحيوان وأعظم مساعد على تغذية النبات ضوء الشمس الآتي إلينا من بعد شاسع جداً، يبلغ بسير قلة المدفع ١٢ سنة، ويسير القطار السريع نحو ٣٥٠ سنة، فضوء الشمس يهجم على الورقات من منافذها، فيساعد على التغذية، فيكون النمو فالثمرات فالحبوب، وينتج من الزهرات وثمراتها منافع تناسبها كما ينتج من الشموس والكواكب منافع تناسبها، وهناك ضوء وجمال، وهنا بهجة وجمال، فصحيفة الليل بهجة جميلة، وصحيفة النهار بديعة بهية.

رباه، هذا كتابك الذي صنعته أنت، وأريته لنا، وقلت: انظروا، فنظرنا فأدهشنا صنعك. تقول لنا: ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الذاريات: ٤٩]، تذكرنا فوجدنا أن علماء النبات حاروا في تقسيم النبات، أيقسم بأنه شجر وشجيرات وأنجم، وسترى صور هذه الثلاث في

سورة « النبأ » إن شاء الله . ولكن هذا التقسيم غير مجد ولا نافع ولا محدد ، أم يقسمونه باعتبار أنه سنوي ، أو ذو سنتين ، أو ذو سنين كثيرة ، ولكن هذا التقسيم أيضاً غير مجد ، لأننا نرى البرسيم في بلادنا المصرية منه ما هو سنوي وهو البرسيم المعتاد ، ومنه ما يبقى سنين كثيرة وهو البرسيم الحجازي ، وهو الآن مزروع في حقلنا جهة المرج ، فهذا أمثل به ليتضح لأهل الشرق الأدنى فوق أمثلة المؤلف ، فماذا يصنعون إذن؟ رجعوا إلى الزهرة والثمرة والحبة ، فدراسة هذه هي التي بها قسم النبات إلى فصائل ، بحيث تجتمع كل طائفة منه تحت شكل من أشكال الزهرة ، ولا تختلف فيه إلا قليلاً ، وبهذا انحل الإشكال عند أهل الأرض ، انحل الإشكال بفعل الله عز وجل في نظام الزهرة وهو نظام ثابت جميل .

ثبت نظام الكواكب والمجموعة الشمسية ، وبثباتها انحل إشكال ما على الأرض من سير السفن في البحار ، لأنها لا تعتمد إلا على النجوم الثوابت والسيارات ، فثباتها في السماء وحسن نظامها واتساقها في مسيرها هو الذي على مقتضاه سارت السفن ، السفن في بحر الظلمات ، وفي بحر الهند وجميع الأقيانوسات ، إن لم تهدها النجوم ويلاحظها الربان ضلت سواء السبيل وهلكت ، لولا ثبات النجوم في السماء لضاعت معالم فن المساحة في الأرض ، فمساحة الأرض الواسعة ووضع حدودها يقتضي ملاحظة الكواكب ، وهذا لا يعرفه إلا أكابر علماء المساحة .

لولا ثبات النظام السماوي ونجومه لم يثبت المكيال المصري مثلاً ولا الميزان ولا المقياس ، ألم تر إلى ما تقدم في سورة « يونس » ، وأن العلم أثبت أن هناك ارتباطاً بين مساحات الهرم بالجيزة وبين بعد الشمس ومدار سيرها ، وأن أبعاد الهرم أساس للأردب والكيلة الخ . وللفدان وللقيراط الخ . وللذراع المعماري والبلدي الخ . وللقنطار والرطل والأوقية الخ .

كل هذا موضح في سورة « يونس » فارجع إليه أيها الذكي إن شئت . هذا فعل الله عز وجل بالكواكب في أرضنا ، ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ [المؤمنون : ١٤] .

الزهرات تنوب عن النجوم في بعض آثارها

انظر إلى الزهرات في النباتات ، إن كل زهرة أشبه بمجموعة شمسية ، لأن نظامها متزن كما تقدم قريباً . الله أكبر ، كأس وتويج وأعضاء ذكور وأعضاء إناث وروائح ومادة عسلية ونحلات وحشرات أخرى تغدو وتروح ، وهناك يكون الثمر وهناك تكون الحياة ، فالزهرات في نظامها الدقيق البديع قائمات مقام المجموعات الشمسية بهجة سارة للناظرين .

وبهذا الثبات وهذا النظام قسم النبات إلى أنواع وفصائل ، فالتقسيم هنا تابع لثبات نظام الزهرات ، كما كانت المكاييل والموازين والمساحات وسير السفن في البحر تابعات لثبات الكواكب ، وكما كانت الساعات والدقائق ، وحساب الناس في المعاملات تابعات لسير الشمس الصادق المتقن ، فعلى الإتقان وحسن النظام يكون ثبات الأعمال ، فهاهنا في الزهرة ثبت نظام تقسيم النبات لحسن إتقانها بخلاف ظواهر النبات من حيث إنه شجرات أو شجيرات ، ومن حيث إنه سنوي أو غيره .

جملت النجوم وجملت الزهرات، والجمال أس السعادات، فلنرجع إلى ما وراء النجوم ليلاً، وإلى ما وراء الزهرات نهاراً، ولننظر بعقولنا فترى تلك العقول تلمح وراء هذا الجمال من هو أجمل، وهو الحكيم وهو البديع، وهنالك تطمئن وتحس بالسعادة في الحياة، ثم ترجع ثانياً هذه النفوس فتدرس أقسام هذه الزهرات، فماذا ترى؟ ترى أن من الزهر ما يكون الذكر والأنثى منه في زهرة واحدة كزهرة القطن، ومنه ما يكون أحدهما في زهرة والآخر في زهرة أخرى في نبات واحد كما يرى في الذرة، فالذكر أعلى، والأنثى في وسط العود، ومن الزهرات ما يكون زهرة الذكر في نبات وزهرة الأنثى في نبات آخر كالنخل، وهذا القسم إن تباعدت الديار بحيث صارت الذكور في إقليم والإناث في إقليم آخر فلا ثمر لهؤلاء ولا لهؤلاء، وذلك كشجر الصفصاف، فإن الصفصاف الذي في بلاد آسيا كله ذكور، والصفصاف الذي في أوروبا كله إناث، فلا ثمر لهذا ولا لذاك، فلو اقترب هؤلاء من هؤلاء لكان للصفصاف ثمرات.

ومما يدهشنا أن نرى ذكور الصفصاف في الشرق دلالة على أن الشرق هو الذي يجب أن يلقح الغرب، لأن الغرب يأخذ بالظواهر، والشرق يبحث عن البواطن، ولذلك كانت الديانات من الشرق فاستعمرت الغرب، إذن الشرق لا بد منه لإصلاح عقول الغرب، وهذه الإنسانية لن تستقيم ما لم يظهر في الشرق نابغون يصلحون الأمم، ذلك مأخوذ من الإشارة التي فهمناها من نظام شجر الصفصاف، فهو في الشرق ذكر وفي الغرب أنثى، وهما الآن عقيمان. الله أكبر، إن نظام الزهر كما قدمنا به كان تقسيم النبات.

الفصيلة الأولى من فصائل النبات

ومن أقسام النبات الفصيلة الخضرية، سميت بذلك لأن كثيراً من هذه الفصيلة يطبخ لأكله، ومن هذه الفصيلة: الفول واللوبيا والبسلة «الجُلّبَان»، شجيرة شوكية ذات ورق دائم الخضرة وزهر أصفر، والعدس، وشجر السنط، وشجرة تسمى المكنسة والبرسيم وغيرها، فهذه النباتات كلها كأسها مكون من خمسة أوراق، والتويج كذلك، وفي داخلهما عشرة ذكور: واحد مرتفع إلى أعلى، وتسعة متحدة عند القاعدة تكون أنبوبة واحدة، ثم ينتج اللقاح في آخر الأمر قروناً، وهذه القرون في داخلها حب، وكل حبة فلقتان.

كل نبات إما مخرج ذا فلقة واحدة وإما مخرج ذا فلقتين

الله أكبر، إن جميع النبات لن يخرج عن إحدى حالين: إما أن ينتج ما هو ذو فلقتين، وإما أن ينتج ما هو ذو فلقة واحدة، فما كان مخرجاً ذا فلقتين فإن ساقه تكون مخروطية، وما كان مخرجاً ذا فلقة واحدة فإن ساقه تكون أسطوانية، أليس هذا من العجب! أليس من العجب أن نرى النخل أسطواني الشكل، بخلاف العدس والفول واللوبيا وكل ما كان ثمره ذا فلقتين، فليس أعلى عود العدس واللوبيا كأسفله، وهكذا الشوك والسنط والبرسيم، فهذه كلها نرى أعلاها أدق من أسفلها، أما النخل مثلاً فأعلاه كأسفله لماذا ذلك؟ لأن النواة في التمرة غير منقسمة قسمين كما انقسمت حبة الفول واللوبيا وقرظ السنط.

أليس هذا أيها الذكي هو السر الذي قدمته من أن جمال الزهر والحب والنوى والفاكهة يشبه الثبات والجمال في المجموعات الشمسية، وأن الثبات في العالم العلوي ظهر أثره في قطراتنا وساعاتنا المنظمات وسفننا، كما ظهر أثر نبات الحب والفاكهة والزهرات الجميلات في تنظيم فصائل النبات، ومن أروعها وأبدعها نظام كل ساق لكل نبات، لأن ذلك النظام يتبع الحبة، فإن كانت ذات فلقتين كان نظام ذلك الساق مخروطياً، وإن كانت ذات فلقة كان نظام ذلك الساق أسطوانياً، نظام في السماء أنتج ثباتاً في الأرض، ونظام في الأزهار وما والاها أثبت نظاماً في تركيب النبات.

تذكرة: إن ذكر الفلقة والفلقتين جاء هنا تبعاً للكلام على الفصيلة الأولى الخضرية التي يطبخ بعض أفرادها، فلنرجع الآن إلى فصائل النبات ولنذكر الفصيلة الثانية وهي الفصيلة الوردية، ويدخل فيها الورد والكمثرى واللوز والكريز والعليق و« العريس » الذي يشبه ثمره ثمر التوت والتفاح والبرقوق وهكذا، فهذه كلها متشابهات من حيث نظام زهرها، فالكأس في الورد البري خمس والتويج خمس، فأما أعضاء الذكور فهي كثيرة جداً، وبقية المذكورات معه ونحوها مثله تماماً، فسميت كلها باسم الفصيلة الوردية، وهناك فصائل أخرى كالفصيلة الزنبقية الخ.

فهذه الفصائل إنّما رتبت ونظمت على مقتضى الأزهار والثمار والحبوب، وكيف كان الزهر منظم الكأس والتويج وأعضاء التناسل، وهذا النظام يكون متحداً في كل فصيلة من فصائل النبات.

الله أكبر، هاهنا ظهر سر قوله تعالى: ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الذاريات: ٤٩]. الله أكبر، الله أكبر بنظام الذكور والإناث في الأزهار عرف الناس فصائل النبات، وبنظام الذكور والإناث في نوع الإنسان ألفت أنا طنطاوي جوهري كتاب « أين الإنسان » لنظام هذه الأمم الأرضية على مقتضى نظام الله في وضعه عواطف أصناف الناس واستعدادهم كما أنه وضع بنفسه نظام الذكور والإناث.

الله أكبر، إذن آية: ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ ﴾[الذاريات: ٤٩] فيها ثبات نظام النبات، وثبات نظام الإنسان في السياسة.

أما النبات فقد انتظم وعرف، وأما نظام الجمعية الإنسانية فإنه لا يزال في اختباط واختلاط حتى يظهر في بلاد الشرق رجال يعلمون أوروبا المتخبطة الجشعة التي يعوزها عقول من الشرق تدبر أمرها في السياسة كما دبرت أمر الدين، والله هو الولي الحميد.

فلما سمع ذلك صاحبي قال: حيا الله العلم، وحيا الله الحكمة، إن هذا لعجب! وحكمة ونظام كيف تكون آية: ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ ﴾[الذاريات: ٤٩] يعوزها نظام الأزهار، وتقسيم فصائل النبات حتى تفهم، ويعوزها نظام الأمم وعواطفها وقواها المختلفة، وكيف حملتنا هذه الآية على أن نسيح في هذه العوالم فندرسها، وكيف كانت هذه الأزهار التي تضمنتها الآية لها ارتباط بالكواكب العليا من حيث إن ضوء الشمس مساعد على نمو أشجارها فتزهو هي وتثمر، وكيف نرى الله في نفس السورة، أي: سورة « الذاريات » يقول: ﴿ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾[الآية: ٢٢]، ويقول: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾[الذاريات: ٤٧]، فهو نفسه كما ربط هذه الأزهار

بالعوالم العلوية جعل الكلام على العلويات مرتبطاً بالزوجين الذكر والأنثى، فجعل كلامه كفعله، فقول الصانع راجع لفعله. ثم قال: وهاهنا قد عرضت لي تذكرتان:

التذكرة الأولى: في اتجاه العقول الإسلامية قديماً

إني ليدهشني هذه المفارقة، فبينما القرآن يوجه العقول إلى النظام الجميل البديع، وهذا النظام لا يعقل إلا بدرس الزهرات وأنواع النبات والجمال البديع في السماوات والأرض؛ إذا بشعراء الإسلام لا يتغنون إلا بما يثير الشهوات، ويظن هؤلاء الغافلون النائمون الجاهلون أنهم سيروضون عقولهم لبلاغة القرآن، فوا أسفاه فهل بلاغة القرآن وصدق القرآن وإبداع القرآن لا يتم إلا بالتغني بما يثير الشهوات.

أمم والله نائمة، هام شيوخها وهام شبابها بما ينيم العقول ويضيع الوقت، ويرجع بالإنسان إلى الحال البهيمية، فالقرآن في ناحية والمسلمون في ناحية.

لقد تقدم في هذا التفسير عند «الآية ٢٢٤ في سورة الشعراء»: ﴿ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴾ كيف حكم العلماء في أوروبا بأن ضياع بلاد الأندلس إنّما نشأ من إكباب العلماء على الشعر وترك العقول فارغة، والأسبان في نفس الوقت يفكرون في تدمير المسلمين.

إن المسلمين في المستقبل غير هؤلاء السابقين في القرون المتأخرة، هم سيكونون كالصدر الأول ويخرج جيل لا نظير له، ويكونون تلاميذ الصحابة والتابعين الذين يعرفون من أين تؤكل الكتف.

فيا ليت شعري، أهذا الذي نراه من الجمال الرائع والإبداع في نظام هذه العوالم الجميلة، أم ما يتغنى به أطفال الرجال ولا يتعدونه في القرون المتأخرة الإسلامية، فيقرؤون موشحة الوزير أبي عبد الله بن الخطيب شاعر الأندلس والمغرب لعصره إذ يقول:

جادك الغيث إذا الغيث همى	يا زمان الوصل بالأندلس
لم يكن وصلك إلا حلما	في الكرى أو خلسة المختلس
إذ يقود الدهر أسباب المنى	تنقل الخطو على ما ترسم
زمراً بين فرادى وثنى	مثل ما يدعو الوفود الموسم
والحيا قد جلل الروض سنا	فسنا الأزهار فيه تبسم
وروى النعمان عن ماء السما	كيف يروي مالك عن أنس
فكساه الحسن ثوباً معلماً	يزدهي منه بأبهى ملبس
في ليال كتمت سر الهوى	بالدجى لولا شموس القدر
مال نجم الكاس فيها وهوى	مستقيم السير سعد الأثر
وطر ما فيه من عيب سوى	أنه مر كلمح البصر
حين لذ النوم منا أو كما	هجم الصبح نجوم الحرس
غارت الشهب بنا أو ربما	أثرت فينا عيون النرجس
أي شيء لامرئ قد خلصا	فيكون الروض قد كنن فيه

تنهب الأزهار فيه الفرصا … أمنت من مكروه ما تتقيه

فإذا الماء تناجي والحصا … وخلا كل خليل بأخيه

تبصر الورد غيوراً بدما … يكتسي من غيظه ما يكتسي

وترى الآس لبيباً فهماً … يسرق الدمع بأدنى فرس

يا أهيل الحي من وادي العضا … وبقلبي مسكن أنتم به

ضاق عن وجدي بكم رحب الفضا … لا أبالي شرقه من غربه

فأعيدوا عهد أنس قد مضى … تنقذوا عائذكم من كربه

واتقوا الله وأحيوا مغرماً … يتلاشى نفساً في نفس

حبس القلب عليكم كرماً … أفترضون خراب الحبس

وبقلبي فيكم مقترب … بأحاديث المنى وهو بعيد

قمراً يطلع منه المغرب … شقوة المغرى به وهو سعيد

قد تساوى محسن أو مذنب … في هواه بين وعد ووعيد

ساحر المقلة معسول اللمى … جال في النفس مجال النفس

سدد السهم رسمي ورمى … بفؤادي نهبة المفترس

إن يكن جار وخاب الأمل … وفؤاد الصب بالشوق يذوب

فهو للنفس حبيب أول … ليس في الحب لمحبوب ذنوب

أمره معتمل ممتثل … في ضلوع قد براها وقلوب

حكم اللحظ بها فاحتكما … لم يراقب في ضعاف الأنفس

ينصف المظلوم ممن ظلما … ويجازي البر منها والمسي

ما لقلبي كلما هبت صبا … عاده عيد من الشوق جديد

كأن في اللوح له مكتتباً … قوله إن عذابي لشديد

جلب الهم له والوصبا … فهو للأشجان في جهد جهيد

لاعج في أضلعي قد أضرما … فهي نار في هشيم اليبس

لم تدع من مهجتي إلا الدما … كبقاء الصبح بعد الغلس

سلمي يا نفس قد حكم القضا … واعمري الوقت برجعي ومتاب

واتركي ذكرى زمان قد مضى … بين عتبى قد تقضت وعتاب

واصرفي القول إلى المولى الرضى … ملهم التوفيق في أم الكتاب

الكريم المنتهى والمنتمى … أسد السرح وبدر المجلس

ينزل النصر عليه مثل ما … ينزل الوحي بروح القدس

فإذا كان الوزير هذا دينه يضيع ذكاءه في أمثال هذا النظم، وليس لهذه النجوم ولا لهذه الأزهار في نظره إلا أنها ضرب أمثال للحبيب وابتسامته، وأمة هؤلاء حكامها لا بد من أن يعتروها الانحلال.

فقلت: هذا حق أيها الحبيب، إن نسبة هؤلاء الذين لا يعرفون من الزهر والكواكب إلا ظواهرها، وذكرى الحبيب بها إلى العارفين بعجائب الكواكب وبواطن الزهر كنسبة لون الكوكب والزهر ونحوها إلى حقائق العوالم السماوية ونظامها وتركيب الزهرات وإبداعها، فالأول كطفل للثاني، وهؤلاء الأطفال هم أكثر شعراء الإسلام الذين يعيشون ويموتون ولا هم يذكرون ﴿ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴾[الشعراء: ٢٢٤-٢٢٦]، وترى المتعلمين في الديار العربية على هذا المنوال في زماننا إلا قليلاً منهم وهم العقلاء.

وهذا الكتاب الذي نقلنا عنه نظام الأزهار لم يؤلفه إلا وزير المعارف في فرنسا، فالوزير الفرنسي قلبه معلق بنظام النبات والنجوم وغيرها، والوزير الأندلسي مثلاً ليس له من العلم إلا الحظ الأدنى، وهو تحويل العوالم الجميلة إلى مسألة التناسل الذي تنقضي إذا حل الكبر واشتعل الرأس شيباً، ثم ينظر الإنسان فلا يجد في عقله متسعاً للحكمة وهو خال من كل فضيلة وكمال.

فقال صاحبي: هذه هي التذكرة الأولى، أما التذكرة الثانية فإني حينما سألتك في أول الأمر عن أمر الأزهار وما معها أجبتني بجواب هو في أسلوبه أشبه شيء بما جاء فيما تقدم في الأجزاء السابقة في سورة «الزمر» من حيث الكلام على انكسار الضوء، فإن الأسلوب هناك جميل كالأسلوب هنا، والذي ذكرني به تلميذ في المدرسة الخديوية في السنة الرابعة، فإنه لما قرأ انكسار الضوء هناك اغرورقت عيناه بالدموع، وقال: هذا الأسلوب أسهل وأجمل مما نعطاه في المدرسة، لأنه بهيئة سؤال وجواب، فلما سمعت الأسلوب هنا في مسألة الأزهار وجدتها تطابق ذلك الأسلوب فقلت: حياك الله إن المؤلف واحد.

فقال صاحبي: إذن أرجو أن تفصل الكلام على عالم السماء المذكور هنا في هذه السورة بهذا الأسلوب كما فصلته على أزهار النبات في آية: ﴿ وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ ﴾[الذاريات: ٤٩].

فقلت: أيها الأخ الذكي، إن المقام هنا قد طال جداً فسأوضح الكلام بهذا الأسلوب في سورة «الملك» على عالم السماوات وعلى الأنوار، وكيف نرى الضوء النازل من الشمس النافذ في حجراتنا يصطحب معه بحرارة، ثم تحكم عقولنا بأن ذلك النور يجري على خط مستقيم، وتحكم علومنا بأن سرعته في الثانية تبلغ نحو ١٨٥ ألف ميل، ثم نضع أيدينا على ذلك النور فنحكم بالحرارة المصطحبة معه، فهاهنا حكمان: حكمنا باستقامة الخط بالبصر، وبالحرارة باللمس، ثم ننتقل من هذا إلى أن الصور الواصلة من الخارج إلى حجراتنا معكوسة مقلوبة لتقاطع الأشعة الداخلة في حجراتنا وهكذا، ندخل في أودية من العلم فيها أزهار وأثمار وحدائق وجنات، فنرى أن هذا الضوء إذا عارضناه بمرآتنا فإنها تعكسه على الحائط المقابل للضوء الداخل، وتكون تلك الأنوار الساطعات على ذلك الحائط تابعة في ثباتها وذبذبتها إلى المرآة التي بأيدينا، وتكون هناك زاوية للسقوط وأخرى للانعكاس بينهما ارتباط وثيق.

أليس هذا من أعجب العجب! إن ما تقدم يفسر وضع صورنا في المرآة أمامنا، فيميننا موضوع في المرآة جهة اليسار والعكس بالعكس، وهكذا نرى البعد الواقع بيننا وبين المرآة مماثلاً للبعد الذي بين المرآة والصورة المصورة، كما حصل لما عرضنا المرآة للضوء وانعكس منها على الحائط المقابل، وهكذا ننتقل من المرآة الزجاجية إلى الماء فنجده مرآة أيضاً، وهو يتقبل الصور المحيطة به كما يتقبلها الزجاج، وهناك نرى أن النور متى دخل في الماء حصل له ما يسمى بانكسار الضوء الذي وضحناه في سورة «الزمر» كما ذكرتنا به أيها الأخ الذكي الآن، وهذا الانكسار نعمة عظيمة في هذه العوالم، ولولا انكسار الضوء ما كان صبح ولا مغرب، وانكسار الضوء له حالان: فإما أن يسير الضوء من طبقة لطيفة إلى أخرى كثيفة، فهناك ينكسر الضوء إلى ناحية خاصة، وإذا كان العكس فإنه ينكسر إلى الجهة الأخرى.

العدسات والميكرسكوبات والتلسكوبات والمناظر وأضواء الشمس السبعة

هنالك، هنالك يدخل العلماء في باب واسع من العلم، وهاهنا يكون الكلام على العدسات، وهي إما محدبات، وإما مقعرات، فالعدسات المحدبات زجاجات منتفخات من الجانبين، فهذه تكبر الأحجام المنظورة من خلالها، فإذا نحن وضعنا جملة من هذه الزجاجات متحدة بنظام خاص كان عندنا ما نسميه ميكروسكوب «الآلة المعظمة»، وهذه قد تكبر الشيء ألف مرة بل أكثر، وقد توضع تلك العدسات بهيئة خاصة أخرى وهي تسمى «التلسكوب» الآلة المقربة، فهي تكبر الأجسام البعيدة فترى قريبة لنا، فبهذا سميت مقربة. وهل أتاك نبأ العدسات المقعرات اللاتي تفعل عكس العدسات المحدبات، إن هذه تصغر الأجسام كما كانت التي قبلها تكبرها، وهاهنا يدخل الضوء في علم الطب فتكون العدسة المصغرة لصاحب النظر القصير والمكبرة لصاحب النظر الطويل.

للعدسات المكبرات عمل آخر

وذلك أنها تستعمل لإحداث حرارة وضوء على ما وراءها من ورق مخصوص مثلاً، فهاهنا يدخل ضوء الشمس في العدسة، ويستمر جارياً إلى ما وراءها، وهناك تكون بؤرة خاصة في بعد مخصوص، أي أن الحرارة في بعد مخصوص تجتمع في نقطة خاصة، وهذه الحرارة قد تتقد بها النار، بل إن ربان السفينة لما عنده من العلم إذا كان في الأقطار الشمالية التي ليس فيها إلا الثلج يقدر بتلك العدسة المكبرة للضوء المحدبة الوجهين أن يستعملها في إيقاد النار في الصوفان مثلاً، وذلك بأن يستعمل عدسة من نفس الثلج، وهذا الثلج يجمع ضوء الشمس الضعيف في تلك الأقطار، وفي البؤرة في البعد المخصوص يضع ذلك الربان ما يريد إحراقه فيشتعل، فيذهل من ذلك نوتية السفينة، ويذهل سكان الأقطار الشمالية وهم «الإسكيمو».

وهاهنا مباحث أخرى لا محل لتفصيلها الآن مثل أضواء الشمس السبعة وعجائبها، ولعلنا نفصل الكلام على هذه العجائب في سورة «الملك» إن شاء الله تعالى بشرح أطول وصور بديعة تشرح الموضوع كما تشرح الصدور. ولعلنا أيضاً نفصل الكلام إن شاء الله تعالى في سورة «النبأ»:

﴿ عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [الآيتان: ١-٢] على أنواع النبات المتقدمة، والفصائل بصورها وأشكالها بمناسبة قوله تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ۝١٤ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ۝١٥ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ﴾ [النبأ: ١٤-١٦]، كما نذكر بعض ما تقدم مجملاً عند الكلام على قوله تعالى في سورة «الحشر»: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ۝٢٢ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٢٣ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [الآيات: ٢٢-٢٤] لنبين أن هذه العجائب لا تفسر أسماء الله حق تفسيرها إلا بها، وأن من أراد أن يفقه معنى البارئ المصور ونحوهما فليس له طريق إلا هذه العجائب.

فلما سمع صاحبي ذلك قال: الحمد لله فقد أثلجت صدري بهذا البيان.

فقلت: الحمد لله رب العالمين.

وإلى هنا تم الكلام على سورة «الذاريات».

كتب في ١٥ ربيع الثاني سنة ١٣٥١ هجرية.



تفسير سورة الطور
هي مكية آياتها ٤٩، نزلت بعد السجدة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ وَٱلطُّورِ (١) وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ (٢) فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ (٣) وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ (٤) وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ (٥) وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ (٦) إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ (٧) مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ (٨) يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا (٩) وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا (١٠) فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (١١) ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ (١٢) يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا (١٣) هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ (١٤) أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ (١٥) ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٦) إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ (١٧) فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ (١٨) كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٩) مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ (٢٠) وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ (٢١) وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ (٢٢) يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ (٢٣) ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ (٢٤) وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ (٢٥) قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ (٢٦) فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ (٢٧) إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ (٢٨) فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ (٢٩) أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ (٣٠) قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ (٣١) أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ (٣٢) أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ (٣٣) فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ (٣٤) أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ (٣٥) أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ (٣٦) أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ (٣٧) أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ (٣٨) أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ (٣٩)

أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾ وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ ﴿٤٩﴾ ﴾

هذه السورة ثلاثة أقسام

القسم الأول: في تفسير البسملة.

القسم الثاني: في ذكر العذاب والنعيم، ووصف أهل الجنة وأهل النار، مبتدئاً ذلك كله بالقسم بما في العلويات والسفليات، من أول السورة إلى قوله: ﴿ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾ ﴾.

القسم الثالث: في إلزام الكافرين بالحجة، ومجادلتهم بالتي هي أحسن في صدق النبوة، وإثبات الألوهية، من قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ ﴾ إلى آخر السورة.

القسم الأول: في تفسير البسملة

تنوعت الرحمات في هذه العوالم التي أبدعها الله عز وجل، وهذا التنوع يدعو إلى استيقاظ الأرواح، ونشاط النفوس التي خلقت في هذه العوالم، موت وحياة، وذل وعز، وجهل وعلم، وشقاء وسعادة، ثم نار وجنة، وهذان هما المذكوران في السورة، كل مخلوق في هذه العوالم الأرضية يبدو في أول أمره ناقصاً، ثم يأخذ في الاستكمال شيئاً فشيئاً، حتى يصل إلى درجة الكمال، كالزروع والحيوان والإنسان، فالنقص قبل الكمال، والنار قبل الجنة ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾ [مريم: ٧١-٧٢].

الإنسان يخرج من بطن أمه لا يعلم شيئاً والعلم يبدو له قليلاً قليلاً، وأكبر مذلة في هذه الحياة للأفراد والأمم الجهل، وأعظم سعادة بالعلم، وأولهما مقدم على ثانيهما، وفي هذه السورة نرى آيات العذاب جاءت في أول السورة، وتلتها آيات النعيم والجنات كما يتلو العلم الجهل والسعادة الشقاء، ومن أجلّ الرحمات وأبهج السعادات أن تصل النفوس إلى مبتغاها بعد حرمانها، وإلى سعادتها بعد شقاوتها، وتتذكر ما كانت تعانيه وتوازنه بما نالته من الهناء والسعادة، ويشير لذلك إقبال بعض أهل الجنة على بعض يتساءلون ويتذكرون أنهم كانوا يخافون العاقبة وسوء المنقلب، فنجوا من العذاب وتمتعوا بأنواع اللذات، متكئين على سرر مصفوفة وهم متزوجون بالحور العين.

ومن أبدع ما يسر النفوس ويشرح الصدور الحجج القيمة والبراهين المنتظمة، كأن يقال: أهذا العالم خلق نفسه؟ أم وجد بلا خالق؟ وكلاهما باطل، إذن له خالق وهو الله تعالى، وهذا أيضاً راجع للعلم بعد الجهل، والعز بعد الذل، فكأن الرحمة في هذه السورة متجهة لمنهج واحد معبد ـ بتشديد الباء ـ

وذلك على سبيل النشوء والارتقاء، فالإنسان قبل تمام الحجة جاهل بالنتيجة، والجهل عذاب، ورسوخ العقيدة بتمام الحجة نعيم، كما أن الجنة بعد المرور على الجحيم، ولقد جاء في «إخوان الصفاء» أن شقاء الناس تابع لجهلهم. وقد مثل ذلك سقراط، فإنه أبان أن الإنسان لا يفعل المعصية إلا لظنه أنها نافعة له من وجه، ولو أيقن أنها ضارة له لم يفعلها، وأوضح ذلك الإمام الغزالي رحمه الله تعالى فقال: لو أن طبيباً قال للمريض هذا الكوب فيه سم قد تخلل الشراب الذي يملؤه وهو واثق طبعاً بكلام الطبيب لم يشربه المريض ولم يقربه، وفرّ منه فراره من الأسد، فلو أن الناس أيقنوا بمضرة الذنوب وثوقاً حقيقياً لم يذنبوا، ولكن العلم الناقص لا يفيد، إذن نقص العلم باب من أبواب جهنم، والعلم التام باب من أبواب الجنة. وليس ينال المرء كمالاً في هذه الحياة إلا بأمرين: الصبر عن الشهوات، وعلى البلاء، وفي الأعمال حتى تكمل، ومن أجلّ الأعمال في هذه الحياة الدنيا الوقوف على سر هذا النظام، وسره أن كل شر في هذا العالم لم يقصد به إلا أنه مقدمة لخير، فالخير والشر يتجهان معاً لنظام العالم نظاماً تاماً يستوجب الحمد، ولذلك ختم السورة بهذه الآيات: ﴿وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَاۖ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَإِدۡبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾ [الطور: ٤٨-٤٩].

في أول السورة ذكر العذاب والنعيم، وفي آخرها اطمئنان النفس بالصبر وبالعلم، وهما المقصودان من هذه الحوادث الإنسانية في هذا الوجود، التسبيح والتحميد معاً سر هذه الحياة، فالتسبيح كما شرحناه مراراً ملازم للتحميد، إذ نرى سلامة عيوننا من المرض ملازمة لتمتعنا بالنعمة الموجبة للحمد، فتنزيه الله عن العبث وعن الظلم بطريق البحث العلمي ملازم لحصول الخيرات لنا، ولذلك كان التسبيح والتحميد ملازمين لأهل الجنة، فهم الذين أدركوا سر هذا الوجود واطمأنوا بنور عقولهم إلى أن كل شر لم يقصد به إلا الخير، بل أيقنوا أنه لا خير بلا شر، ولا يمكن حصوله بدونه، فالشر لابد منه لحصول الخير، وهذه الطمأنينة نهاية سعادة هذا الإنسان في الدنيا والآخرة، فإذا لاحظ النجوم وسيرها وجمالها فرح بجمالها وجمال مبدعها، وكان في هذه الحياة الدنيا في سعادة وحبور، ومن أيقن بهذا بطريق العلم فهم معنى: ﴿وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَإِدۡبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾ [الطور: ٤٨-٤٩]. انتهى الكلام على القسم الأول في تفسير البسملة، كتب يوم الثلاثاء ١٦ أغسطس سنة ١٩٣٤م.

القسم الثاني: في ذكر العذاب والنعيم ووصف أهل الجنة وأهل النار

التفسير اللفظي

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلطُّورِ﴾ طور سينين، وهو جبل بمدين كلم الله موسى عليه السلام فيه، والطور بالسريانية الجبل، ﴿وَكِتَٰبٖ مَّسۡطُورٖ﴾ مكتوب، يقال: سطره، رتب حروفه المكتوبة، والكتاب المسطور كل ما كتب من القرآن أو التوراة، أو بقية الكتب السماوية، وما سطر في القلوب الإنسانية من المعارف، وما في نفوس الملائكة من الحكمة، وما في اللوح المحفوظ، بل كل ما دل على حكمة يرمز له بالكتاب المسطور

﴿ فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ ﴾ الرق هو الصحيفة، أو الجلد الذي يكتب فيه، وأريد به هنا مجازاً ما هو أعم، والمنشور المفتوح لا ختم عليه، ﴿ وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ ﴾ أي: الكعبة المعمورة بالحجاج والمجاورين، وقلب المؤمن الممتلئ بالمعارف والحكمة والإخلاص، وهكذا كل ما كان فيه عبادة كالذي ورد في الحديث الآتي، وهو بيت في السماوات العلى قدام العرش، ﴿ وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ ﴾ أي: السماء، ﴿ وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ﴾ أي: الموقد المحمى بمنزلة التنور المسجور كما قال ابن عباس، وهذا البحر هو الذي كشف في العصر الحاضر على سبيل الظن، وقد أشارت له الأحاديث، ولكن الأمم قديماً لم تعرفه، فعن عبد الله بن عمر: لا يركبن رجل البحر إلا غازياً أو معتمراً أو حاجاً، فإن تحت البحر ناراً وتحت النار بحراً. ولا جرم أن هذا البحر هو باطن الأرض الذي اتضح اليوم، وعلم من الكشف أن الأرض كلها كبطيخة وقشرتها كقشرة البطيخة، أي: إن نسبة قشرة البطيخة إلى باطنها الذي يؤكل كنسبة قشرة الأرض إلى النار التي في باطنها، فنحن الآن نسكن فوق نار عظيمة، أي: فوق بحر مملوء ناراً، وهذا البحر مغطى من جميع جهاته بالقشرة الأرضية المحكمة سداً عليه، ومن وقت إلى وقت يتصاعد من ذلك البحر نار تظهر في البراكين أو بالزلازل، كالزلزلة اليابانية التي حدثت سنة ١٩٢٥، وكبركان إيزوف بإيطاليا، وهذا البحر المسجور الآن يعتبر من أكبر المعجزات للقرآن، فإنه لم يعلم به أحد من الأمم الإسلامية، ولا غير الإسلامية بعد النبوة، ومن عجب أن يذكر في الحديث أن تحت البحر ناراً، وهذا عجيب! وأما كون النار تحتها ماء فمعناه أن البحر فوق الأرض والنار في باطنها، وفي الجهة المقابلة يكون البحر، فالبحر في الجهتين المتقابلتين والنار محصورة بينهما. أقسم الله بهذه كلها، وجواب القسم: ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ﴾ لنازل ﴿ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ﴾ يدفعه ﴿ يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ﴾ تضطرب، والمور: تردد في المجيء والذهاب، ﴿ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ﴾ أي: تسير عن وجه الأرض فتصير هباء، ﴿ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ يقول: إذا وقع ذلك فويل لهم، ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴾ أي: يندفعون في الباطل والكذب، كما قال تعالى أيضاً في سورة أخرى: ﴿ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴾[المدثر: ٤٥]، ﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴾ يدفعون إليها بعنف بحيث تغل أيديهم إلى أعناقهم وتجمع نواصيهم، ويقال لهم: ﴿ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾، ولقد كنتم تنسبون لمحمد أنه يسحر العقول ويغطي على الأبصار، فهل هذا الذي هو مصداقه سحر أيضاً، وهذا قوله: ﴿ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴾ هذا أيضاً كما كنتم لا تبصرون في الدنيا ما يدل عليه، وهذا تقريع وتهكم ﴿ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓاْ أَوْ لَا تَصْبِرُواْ ﴾ أي: ادخلوها على أي وجه شئتم من الصبر وعدمه ﴿ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ ﴾ الأمران: الصبر وعدمه. ثم علل الاستواء المذكور بأن الجزاء لا بد منه فلا يتوقف على الصبر، فقال: ﴿ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾.

ولما فرغ من ذكر أهل النار شرع في الكلام على أهل الجنة فقال: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ۝١٧ فَٰكِهِينَ ﴾ معجبين بذلك ناعمين ﴿ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ﴾ من الخير والكرامة ﴿ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴾ يقال لهم: ﴿ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا ﴾ مأمون العاقبة من التخمة والسقم ﴿ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ في الدنيا من إيمان وطاعة ﴿ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ ﴾ موضوعة بعضها إلى بعض

مصطفة، ﴿ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ (٢٠) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ ﴾ هذا مبتدأ، خبره: ﴿ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ﴾ أي: نلحق بهم ﴿ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ في إيمانهم، ولو كان أولئك الأبناء مقلدين لآبائهم، فالآباء إيمانهم نظري والأبناء إيمانهم تقليدي لاتباعهم الآباء، فنحن نلحق الأبناء بالآباء في الإيمان، ونجعل غير الناظرين كالناظرين المفكرين، ويلزم من ذلك أن يدخلوا الجنة معهم ﴿ وَمَا أَلَتْنَاهُم ﴾ وما نقصناهم ﴿ مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ ﴾ بهذا الإلحاق ﴿ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ بعمله مرهون عند الله تعالى، والعمل الصالح يفكه وإلا هلك، ﴿ وَأَمْدَدْنَاهُم بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴾ أي: وزدناهم وقتاً بعد وقت ما يشتهون من أنواع النعم الحسية والمعنوية ﴿ يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا ﴾ يتعاطون في الجنة هم وجلساؤهم ويتجاذبون خمراً في كأس ﴿ لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴾ لا يتكلمون بلغو الحديث أثناء شربها، ولا يفعلون ما يؤثم به فاعله، بخلاف خمر الدنيا، فالشارب لها كثير اللغو فعال للآثام ﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ ﴾ بالكأس ﴿ غِلْمَانٌ لَّهُمْ ﴾ مماليك مخصوصون بهم ﴿ كَأَنَّهُمْ ﴾ في الحسن والبياض والصفاء ﴿ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴾ مخزون مصون لم تمسسه الأيدي. وقد سئل صلى الله عليه وسلم فقيل له: هذا الخادم فكيف المخدوم؟ فقال: فضل المخدوم على الخادم كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب. ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴾ يسأل بعضهم بعضاً في الجنة، أي: يتذاكرون ما كانوا فيه من الخوف والتعب في الدنيا ﴿ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا ﴾ في الدنيا ﴿ مُشْفِقِينَ ﴾ خائفين من العذاب ﴿ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا ﴾ بالمغفرة ﴿ وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ ﴾ عذاب النار النافذة في المسام نفوذ السموم ﴿ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ ﴾ أي: كنا من قبل ذلك في الدنيا نعبده ونسأله الرحمة ووقاية العذاب فنقول: ﴿ وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾[البقرة: ٢٠١]. ثم إن في تجاذب الكأس بينهم وإقبالهم بعضهم على بعض، وعدم اللغو في مجالسهم، إشارات إلى لذات فوق لذات أهل الأرض كما قال ابن الفارض:

صفاء ولا ماء ولطف ولا هوا ونور ولا نار وسكر ولا خمر

وقوله: ﴿ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ ﴾ أي: المحسن ﴿ الرَّحِيمُ ﴾. انتهى التفسير اللفظي للقسم الثاني من السورة.

القسم الثالث: في إلزام الكافرين بالحجة ومجادلتهم بالتي هي أحسن في صدق النبوة، وإثبات الألوهية

قال تعالى: ﴿ فَذَكِّرْ ﴾ فعظ يا محمد بالقرآن كفار قريش ومن معهم، ﴿ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ ﴾ برحمته وعصمته وإنعامه عليك بالنبوة، أو بحمده وإنعامه ﴿ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴾ الكاهن من يوهم الناس أنه يعلم الغيب ويخبر به، ﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ ﴾ أي: بل أيقولون هو شاعر، وريب المنون: ما يقلق النفوس من حوادث الدهر، أو نفس الموت، يقال منه إذا قطعه، ﴿ قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُتَرَبِّصِينَ ﴾ أتربص هلاككم كما تتربصون هلاكي، ﴿ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُم بِهَٰذَا ﴾ أي: بل أتأمرهم عقولهم بهذا التناقض في القول، فالشاعر غير الكاهن غير المجنون، وفرق عظيم بين مجنون العقل وبين من يزن الشعر بحكمة ودقة ومن هو كاهن، ﴿ أَمْ هُمْ قَوْمٌ

طَاغُونَ﴾ مجاوزون الحد في العناد ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ﴾ اختلقه من تلقاء نفسه ﴿بَل لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ فيرمونه بهذه المطاعن كفراً وعناداً، وفي قوله: ﴿بَل﴾ رد لما زعموا، أي: ليس الأمر كما زعموا ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ﴾ أي: بحديث مختلق مثل القرآن ﴿إِن كَانُوا صَادِقِينَ﴾ في زعمهم، وفيهم الفصحاء. ثم شرع يبين فساد نظرياتهم في الإلهيات بعد النبوات فقال: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ﴾ أي: بل أخلقوا من غير خالق، ومعلوم أن الحادث لا بد له من محدث، أم هم أحدثوا أنفسهم ويلزم عليه أن الشيء مقدم على نفسه وهو مستحيل، فهم باعتبار أنهم خالقون مقدمون على أنفسهم في الوجود باعتبار أنهم مخلوقون، وهذا هو قوله: ﴿أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ أي: بل أهم ﴿أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ أي: وإذا فرض أنهم خلقوا أنفسهم فهل هم خلقوا السماوات والأرض اللتين عليهما تتوقف حياتهم؟ فإن من يخلق شيئاً يخلق أسبابه، وإذن لا بد أن يخلقوا السماوات والأرض، وهذا معلوم كذبه طبعاً ﴿بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ إذا سئلوا: من خلقكم ومن خلق السماوات والأرض؟ قالوا: الله، ولو أنهم أيقنوا ذلك ما أعرضوا عن العبادة ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ﴾ خزائن رزقه حتى يعطوا النبوة لمن يشاؤون، ويصطفوا لها من يختارون ﴿أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ﴾ الغالبون على الأشياء يدبرونها كيف يشاؤون، ﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ﴾ مرتقى إلى السماء ﴿يَسْتَمِعُونَ فِيهِ﴾ كلام الملائكة وما يوحى إليهم من علم الغيب حتى يعلموا ما هو كائن من تقدم هلاكه على هلاكهم وظفرهم في العاقبة دونه، ﴿فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ بحجة واضحة تصدق استماع مستمعهم ﴿أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ﴾ سفه سبحانه أحلامهم إذ اختاروا لله البنات ولهم البنين، ومن كان هذا رأيهم لا يعتد بهم ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا﴾ على تبليغ الرسالة ﴿فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ﴾ من التزام الغرم ﴿مُّثْقَلُونَ﴾ محملون الثقل، فلذلك زهدوا في اتباعك، ﴿أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ﴾ اللوح المحفوظ المثبت فيه المغيبات ﴿فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ ما فيه حتى يقولون لا نبعث، وإذا بعثنا لم نعذب، ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا﴾ وهو كيدهم في دار الندوة برسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أظهر في موضع الإضمار لتسجيل الكفر عليهم ﴿هُمُ الْمَكِيدُونَ﴾ هم الذين يحيق بهم الكيد، ويعود عليهم وبال أمرهم، وقد تم يوم بدر، ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ﴾ يعينهم ويحرسهم فيكفرون بالله ويلتجئون إلى ذلك الإله ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ عن إشراكهم ﴿وَإِن يَرَوْا كِسْفًا﴾ قطعة ﴿مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا﴾ من فرط طغيانهم وعنادهم هذا ﴿سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾ تراكم بعضه فوق بعض، وهذا جواب لقولهم: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾ [الشعراء: ١٨٧]. يقول الله: لو عذبناهم بسقوط قطعة من السماء لقالوا أول ظهورها ليس بعذاب، مكابرة كما هي عادتهم ﴿فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾ عند النفخة الأولى ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ أي: شيئاً من الإغناء في رد العذاب ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ يمنعون من عذاب الله ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ من كل أمة وجيل ﴿عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ أي: دون عذاب الآخرة في الحياة الدنيا كقحط قريش وقتلهم يوم بدر، وهكذا المصائب التي تحيط بالمسلمين اليوم بإغارات الفرنجة عليهم وغير ذلك، وكعذاب القبر ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ إذ أمهلهم وأوقعك في نصب معهم، فذلك لأجل معلوم، ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾

في حفظنا ورعايتنا فنحن نراك ونكلؤك، وجمع العين للمبالغة في الحفظ ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ من أي مكان قمت، من منامك، وإلى الصلاة ﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ ﴾ فإن العبادة فيه أشق على النفس وأبعد من الرياء ﴿ وَإِدْبَـٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴾ وإذا أدبرت النجوم من آخر الليل، أي: في أعقابها إذا غربت أو خفيت، والمراد أن يقول: سبحان الله وبحمده في هذه الأوقات، وقيل: التسبيح: الصلاة إذا قام من نومه، ومن الليل صلاة العشاءين، وإدبار النجوم: صلاة الفجر. انتهى التفسير اللفظي للقسم الثالث من السورة.

وينبغي للإنسان أن يقول: سبحانك اللهم وبحمدك، إذا قام من المجلس. وزاد الترمذي: أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك، فإنها تكفر ما بينهما. وغيره يقول: ذكر الله بالليل من حين تقوم من الفراش إلى أن تدخل الصلاة. وقالت عائشة رضي الله عنها: كان صلى الله عليه وسلم إذا قام بالليل يفتتح بالتكبير عشراً والتسبيح عشراً والتهليل عشراً والاستغفار عشراً ويقول: اللهم اغفر لي وارحمني واهدني وارزقني وعافني، وكان يتعوذ من ضيق المكان يوم القيامة. وأيضاً كان صلى الله عليه وسلم يفتتح الصلاة بقوله: سبحانك اللهم وبحمدك، وتبارك اسمك، وتعالى جدك، وجل ثناؤك، ولا إله غيرك.

لطائف هذه السورة:

(١) في قوله تعالى: ﴿ وَٱلطُّورِ ﴿١﴾ ﴾ الخ.

(٢) وفي قوله: ﴿ وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ ﴿٤﴾ وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ ﴿٥﴾ وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ﴿٦﴾ ﴾.

اللطيفة الأولى: في قوله تعالى: ﴿ وَٱلطُّورِ ﴿١﴾ ﴾

أقسم الله في هذه السورة بأعلى مكان وأشرفه وأكثره رحمة وهو السماء، وبأدنى مكان قد ملئ جحيماً وعذاباً وهو البحر المسجور في باطن الأرض، وبما بين ذلك من الكتب المسطورة والعلوم المنشورة، والحكم المنثورة، والآراء المبثوثة، المقروءة في كتب الديانات، وبدائع الآيات، وحكم السماوات، ومعارف النفوس وإشراق القلوب، وبأماكن العبادات من البيت الحرام، وغيره من أماكن في عوالم لا يعلمها أحد إلا الله.

أقسم الله بالسماوات العلى، وبما تحت الثرى، وبيوت العبادات في الأرض والسماوات، وبالعلوم المعقولات في الأرض وفي السماء.

أقسم الله بذلك كما أقسم بالذاريات ذرواً، هناك أقسم بالرياح وتصريفها، وبالسماء وحسنها وجمالها، وهنا أوسع القسم إيساعاً فلم يذر عالماً سماوياً ولا أرضياً، ولا موضع عبادة، ولا مكان علم إلا أدخله في القسم أو أشار إليه. انتهت اللطيفة الأولى.

اللطيفة الثانية: في قوله تعالى: ﴿ وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ ﴿٤﴾ ﴾ الخ

وأعجب ما أقسم به البحر المسجور الذي في باطن الأرض على ما يظن الناس، والبيت المعمور والرق المنشور، وقد روي أن الله تعالى يجعل البحار كلها يوم القيامة ناراً فيزاد بها في نار جهنم، فإذا أضفنا هذا الحديث إلى الحديث المتقدم وهو: «إن تحت البحر ناراً»؛ يكون البحر الذي هو باطن

الأرض منضماً إليه البحر الملح فيتسع نطاق النار، فإذن باطن الأرض نار الآن، والبحار يوم القيامة تصير ناراً، وهذا واضح لأن البحر المسجور الذي هو عبارة عن باطن الأرض إذا جاء أجل الأرض ووقع ماء البحر في باطن الأرض لم تكن البحار التي على وجه الأرض شيئاً مذكوراً بالنسبة للنار، فتتحول ناراً في لمح البصر، فإنا نشاهد أننا إذا أنزلنا الماء على النار ليطفئها وكان الماء قليلاً تحول الماء إلى نار، وزاد في اشتعالها، لأن الأكسوجين الذي في الماء نار فينقلب الماء إليها، وهذا من أعجب العلم والمعجزات في القرآن.

وأما البيت المعمور الذي يقال له: « الضراح » فيقال: إن حرمته في السماء كحرمة الكعبة في الأرض. وقد جاء في حديث المعراج من أفراد مسلم عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى البيت المعمور في السماء السابعة ، قال: فإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه. وفي رواية أخرى: فانتهيت إلى بناء فقلت للملك: ما هذا؟ فقال: بناء بناه الله للملائكة يدخل فيه كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون، يسبحون الله ويقدسونه ، ولعل ذلك البيت في عوالم مما لا يخطر بالبال ذكرها غابت عنا لبعدها، ومن تأمل علم الفلك أيقن بما تقدم، ولا سيما ما روته روح الفيلسوف غاليلي لما أحضرت وطلب منها التكلم عن العالم، ذكرت أن هناك كواكب شمسنا بالنسبة لها كحبة بالنسبة لجبل، وحياتهم ونظامهم أرقى من حياة أهل الأرض ونظامهم، بل لا يخطر بالبال السعادة هناك والهناء والعظمة وأنواع المعيشة، وهناك الشموس التوائم جمع توءم، فإن نظام أهلها لا يخطر بالبال، ولم تسمعه أذن، ولم تره عين، بل هو فوق متناول الخواطر من البهجة والجمال، ويقول: إن تلك العوالم كلها مسكونة وهي تعد بمئات الملايين، فما جاء في هذا الحديث وهذه الآية أصبح مما يقرأ في العلم الفلكي والعلم الروحي بأوروبا.

وأما الرق المنشور الذي ذكر بعد الطور المتناول كتاب التوراة وكل كتاب سماوي وحكمي الخ؛ فإنه قد ظهر أتم ظهور في هذا الزمان، إذ لم يكن النوع الإنساني ليعرف رقاً منشوراً كما نعرف نحن الآن، فلقد أظهر الله في سائر الأرض الجرائد والمجلات منشورة يقف بها الباعة في الطرقات والحارات والشوارع، وقد نشروها في أيديهم وقرأها الناس في كل مكان، ولم يكن ذلك معروفاً قبل هذا العصر عصر الورق، والقرآن يسميه الرق المنشور.

فانظر كيف أقسم الله بالبحر، وبالبيت المعمور، وبالرق المنشور، ولم يظهر بحر النار، ولا أن هناك عوالم في الكواكب لا تتناهى، ولا أن هنا في الأرض جرائد تنشر وتباع للعامة والخاصة، ولا أن هناك تعليماً عاماً يشترك فيه الخاصة والعامة من كل الأمم إلا في هذا الزمان.

نشر الصحف على قسمين: أحدهما: انتشار التعليم والتربية وهو التعليم العام الذي أخذ ينتشر انتشاراً سريعاً في الوقت الحاضر. وثانيهما: ظهور الجرائد والمجلات في كل مكان، ومن هذا الباب عموم التليفون والتلغراف « البرق » الذي له سلك والذي لا سلك له، وهكذا المسرة « التلفون »، كل هذه في معنى الرق المنشور، فهذان القسمان من الصحف المنشورة لم يكن لهما وجود قبل هذا الزمان أخبر عنها القرآن.

لم يكن في الأرض أمة قط تعلم تعليماً عاماً أيام النبوة، لم يكن في دولة الرومان تعليم إلا لأبناء الأشراف، وهكذا دولة الفرس الذين يجعلون التعليم لطبقة معلومة، جاء القرآن وقال: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴾ [العلق: ١-٢].

كانت البراهمة تجعل الناس أربع درجات: فمنهم من هم كالرأس وهم رجال الدين، ومنهم من هم كالصدر وهم رجال الجيش، ومنهم من هم كالبطن، ومنهم من هم كالرجلين، ومعنى هذا أن الرق لم يكن منشوراً عاماً بل كان خاصاً، جاء الإسلام وعمم العلم وقال: ﴿ فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ ﴿٣﴾ ﴾، ولا نشر على الوجه الأكمل إلا في هذا الزمان، فهو يرمي لغرضين: الأول: تعميم التعليم، والثاني: الإخبار عما حصل في هذا الزمان من قولهم: انتشار التعليم، وقولهم: تعميم التعليم، وقولهم: نشر الصحف، وقولهم: نشر المدنية والحضارة، وقولهم: نشر الكتب وما أشبه ذلك.

نتائج هذه المعجزة القرآنية في النفوس

إن نتائج هذا المقال في العقول قسمان: القسم الأول: ما يحصل في عقول بعض المؤمنين من أمتنا فيفرحون بهذا القول ويقولون: الله أكبر، إن نبينا حق والإسلام حق، ويفرحون، وهؤلاء هم الكسالى الغافلون الذين يقتصرون على الإيمان وهم نائمون. القسم الثاني: هم أهل الحكمة والبصيرة الذين سيقرؤون هذا الكتاب وأمثاله ويدركون بنور البصيرة مستقبل الإسلام، فيقولون: لم يذكر الله ذلك ليريد مجرد الإيمان، كلا، وإنّما يريد أن يحثنا نحن أبناء هذا الجيل على العلم والحكمة، وأن نأخذ حظنا في الأمم ومركزنا في الحياة، وهذا الفريق يقول: إن هذه الآيات حجة علينا، فإذا كان الله نشر العلم في العالم الإنساني؛ وأبرز مكنون الحكمة كالبحر المسجور والبيت المعمور، وإذا كان جلّ جلاله يقسم بما هو فوق السماوات العلى، وبما هو تحت الأرض السفلى، وبما بينهما من العلم المنشور وقد أقسم قبل ذلك بعجائب الرياح والسحاب والمطر التي بها كان نظام حياتنا، وذلك بعد أن لفت عقولنا للسماء والأرض في سورة « ق »؛ إذا فعل الله ذلك وكرره فليس له نتيجة إلا أن المسلمين إذا قصروا في معرفة علوم العالم العلوي والسفلي لا سيما بعد ظهور الصحف المنشورة في عصر العلم والعرفان؛ فإنهم لا يستحقون الوجود، وأن هذا الدين ينقل منهم إلى قوم آخرين، ويسكن الله أرضهم قوماً خيراً منهم، لأنهم لا يصلحون للحياة، فالناظر لهذه الأقسام من أرباب الفكر يجدون في ارتقاء أمتهم خائفين من ربهم إذا قصروا في العناية بما أقسم به.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولوالدي والمسلمين والمسلمات، وأسأل الله أن يفتح بهذا الكتاب باباً يلجه المسلمون للعلوم والعرفان، وأن يكثر في هذه الأمة من رجال العلم العاملين.

وإلى هنا تم الكلام على سورة « الطور »، والحمد لله رب العالمين.

كتب في ٢٩ ربيع الثاني سنة ١٣٤٥ هجرية.

تفسير سورة النجم

هي مكية إلا آية:

﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ ۖ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾﴾

فمدنية، آياتها ٦٢ ، نزلت بعد الإخلاص

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾ أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ ۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا

ٱللَّمَمَۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلۡمَغۡفِرَةِۚ هُوَ أَعۡلَمُ بِكُمۡ إِذۡ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَإِذۡ أَنتُمۡ أَجِنَّةٞ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡۖ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾ أَفَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعۡطَىٰ قَلِيلٗا وَأَكۡدَىٰٓ ﴿٣٤﴾ أَعِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلۡغَيۡبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَمۡ لَمۡ يُنَبَّأۡ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبۡرَٰهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيۡسَ لِلۡإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعۡيَهُۥ سَوۡفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجۡزَىٰهُ ٱلۡجَزَآءَ ٱلۡأَوۡفَىٰ ﴿٤١﴾ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلۡمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضۡحَكَ وَأَبۡكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحۡيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطۡفَةٍ إِذَا تُمۡنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيۡهِ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰ ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغۡنَىٰ وَأَقۡنَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعۡرَىٰ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّهُۥٓ أَهۡلَكَ عَادًا ٱلۡأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَاْ فَمَآ أَبۡقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوۡمَ نُوحٖ مِّن قَبۡلُۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ هُمۡ أَظۡلَمَ وَأَطۡغَىٰ ﴿٥٢﴾ وَٱلۡمُؤۡتَفِكَةَ أَهۡوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نَذِيرٞ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلۡأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾ أَزِفَتِ ٱلۡأٓزِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيۡسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ أَفَمِنۡ هَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ تَعۡجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضۡحَكُونَ وَلَا تَبۡكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمۡ سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾ فَٱسۡجُدُواْۤ لِلَّهِۤ وَٱعۡبُدُواْ۩ ﴿٦٢﴾ ﴾

هذه السورة ثلاثة أقسام:

القسم الأول: في تفسير البسملة.

القسم الثاني: في أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يوحى إليه، وفي قربه من ربه، من أول السورة إلى قوله: ﴿ لَقَدۡ رَأَىٰ مِنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ ﴿١٨﴾ ﴾.

القسم الثالث: تقريع المشركين على جهلهم وكفرهم بعبادة الأصنام، ونسبهم البنات إلى الله، وأخذهم بالظن، وبخلهم، وفي حكم عملية، وفي صفات لله علية.

القسم الأول: في تفسير البسملة

إيضاح الرحمة في البسملة في سورة «النجم» وبيان أن الرحمة قد اكتنفت البسملة، فإن في آخر السورة قبلها رحمة كصلاة الليل، وفي أول السورة بعدها إفاضة علمهم على الناس.

آخر سورة الطور، وأول سورة النجم

خواطري في صلاة الصبح يوم الخميس ٢٧ أغسطس سنة ١٩٣١ م

كتب هذا في يوم الجمعة ٢٨ أغسطس سنة ١٩٣١م

كنت أقرأ في الركعة الثانية من صلاة الصبح أول سورة النجم فخطر لي في الصلاة وبعدها ما يأتي: إن سورة «الطور» مختومة بقوله تعالى: ﴿ وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَاۖ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَإِدۡبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴾ [الآيتان: ٤٨-٤٩]، إن آخر سورة «الطور» متصل

بأول سورة « النجم » كأن الله يقول : أيها الناس قوموا الليل إلا قليلاً ، تهجدوا في آخر الليل ، وسبحوا واحمدوا ، ثم أخذ يقسم بالنجم مذكراً المصلي بالنجوم التي تقارن صلاته آخر الليل ، وسبحوا واحمدوا ثم أخذ يقسم بالنجم مذكراً المصلي بالنجوم التي تقارن صلاته آخر الليل ، أقسم بالنجم ليذكر المصلي والمسبح والنجوم في إدبارها آخر الليل . إن الصلاة والتسبيح العاريتين عن الفكر ضعيفتا الأثر ، قليلتا الخطى ، لا هما في العير ولا هما في النفير ، وهل يقسم الله إلا بما هو جليل وعظيم ، والجليل والعظيم والآيات الكبرى هي التي إليها تتجه الأنظار وبها تطمئن القلوب :

(١) أقسم الله بالنجم وقال فيه : ﴿ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾[الواقعة : ٧٦] ، لماذا هذا؟ لأنه يعلم قبل أن ينزل القرآن لأهل الأرض أن أمماً وأمماً ستظهر بعد نزول القرآن ، وتدرس النجم ، وتفتح لها أبواب السماء والأرض ، وذلك بعلم النجوم ، ذلك العلم الذي به أمكن الناس السير في المحيط الهادي والهندي والصيني والأطلسي والبحر الأبيض المتوسط وغيرها . يا سبحان الله ، كيف يعرف الربان مكانه في وسط البحار اللجية إلا بواسطة الآلة الفلكية التي لا اعتماد لها إلا على النجوم والثوابت والسيارات ، فإذا غفل ثانية طاح وضاع في وسط اللجج ولات حين مناص .

(٢) أقسم الله بالنجم إذا هوى ، لأن النجم في وسط السماء في خط نصف النهار ، لا يعرف اتجاهه ، لكنه إذا هوى ومال إلى الغروب عرف اتجاهه فهدى السارين في الصحراء ، أقسم بهذا النجم الموصوف بهذه الصفة أن محمداً ما ضلّ وما غوى ، وكما أن النجم إذا هوى لا يصحبه في هذه الحال الضلال ، هكذا محمد صلى الله عليه وسلم لا يصحبه ضلال ، بل هاد للناس كما يهدي ذلك النجم الربان .

(٣) أقسم الله بالنجم لأنه يعلم أن أمماً وأمماً تبحث في مقادير الكواكب وأعدادها ، وهذا من آيات الله العظيمة ليرشد المسلمين إلى تلك الآيات . إن سير نور الكوكب ١٨٦ ألف ميل في الثانية أو ٣٠٠ ألف كيلومتر ، وهكذا الأمواج التي لا سلك لها ، وكلاهما يجري حول الأرض في سبع ثانية مرة واحدة ، ويجري حول الكون كله نحو مائة مليون سنة ، إذن نسبة محيط الكرة الأرضية إلى محيط ما عرف من الكون كنسبة سبع ثانية إلى مليون سنة ، وأيضاً أن الأرض إذا صغرت فصارت مقدار حجم الجوهر الفرد بلغ حجم الكون الذي عرفه الناس بأقوى التلسكوبات على هذه النسبة حجم الأرض مرة واحدة ، ويبلغ حجم الكون كله على ما هو ممثل في مذهب النسبية ألف مليون أرض منتشرة حولها في الفضاء ، النظام الشمسي يشتمل على الشمس وتسعة سيارات تدور حول أكثرها أقمار ، وهذه الشمس وعالمها جزء من المجرة ، والمجرة فيها نجوم تبلغ ٣٠ ألف مليون نجم كلهن شموس كشمسنا أو أكبر أو أصغر ، ويقول الأستاذ « شايبلي » أحد أساتذة علماء الفلك في « هارفرد » : إنها مائة ألف مليون نجم ، وقطر المجرة الأطول ٢٢٠ , ٠٠٠ سنة ضوئية ، أعني أن الضوء الذي يسير في الثانية ١٨٦ ألف ميل يقطع المجرة في مائتين وعشرين ألف سنة بهذه السرعة ، وفي خارج هذه المجرة سدم لولبية أقربها إلينا يبعد عنا ٨٥٠ , ٠٠٠ سنة نورية ، والسديم الواحد فيه مادة تكفي لتكوين ألفي مليون نجم ، ويقول الدكتور « هيل » : إن تلسكوب مرصد جبل ولسن الذي قطر مرآته العاكسة ١٠٠ بوصة

يستطيع الوصول إلى مليونين من هذه العوالم الجزرية، يبعد أحدها عن الآخر نحو مليوني سنة ضوئية وأبعدها عنا يبعد ١٤٠ مليون سنة ضوئية، والمنتظر أنه متى تم بناء التلسكوب الجديد الذي سوف يكون قطر مرآته ٢٠٠ بوصة تمكن الراصدون من الوصول إلى ١٦ مليون مجرة من هذه المجرات بدلاً من مليونين. ويقدرون عمر الشمس بنحو خمسة ملايين مليون سنة، وعمر الأرض بنحو ألفي مليون سنة، وعمر الحياة عليها بنحو ٣٠٠ مليون سنة، وعمر الإنسان عليها بنحو ٣٠٠ ألف سنة. إن شمسنا التي تزيد عن أرضنا ألف ألف مرة وثلاثمائة ألف مرة كوكب له توابع وسيارات ونيازك وذوات أذناب لا حد لها، وهذا الكوكب وتوابعه واحد من ثلاثين ألف مليون شمس، وهذه كلها تكون مجرتنا، وهذه المجرة لها نظائر، وهذه النظائر هي السدم اللولبية، وكل سديم منها فيه شموس في دور التكون، أو هو مادة سيأتي عليها ذلك الدور الذي فيه تحول إلى شموس، وقد وجدوا أن كل سديم فيه مادة تكفي لتكوين ألف مليون شمس، وفوق ذلك إن تلك المادة لطيفة جداً، إذ يبلغ حجم كل جزء من مليون جزء من الأوقية منها حجم جبل «الماترهورن»، وعلوه نحو ١٥ ألف قدم، فنسبة كل من هذه السدم إلى جبل «الماترهورن» كنسبة ألف مليون شمس كشمسنا إلى جزء من مليون جزء من الأوقية. هذه صورة سعة الكون وشموسه. ولقد أوردنا كلاماً يقرب من هذا في سور كثيرة منها آخر سورة «الكهف».

وقد قدر الأستاذ «هيل أن هذه السدم التي وصفناها تبلغ نحو مليوني سديم كلها منتشرة في الفضاء الذي يمكننا رؤيته بتلسكوب مرصد جبل ولسن، وأن في الكون فضاء يفوق الفضاء الذي يرى بالتلسكوب ألف مليون ضعف، فعدد السدم في الفضاء كله يبلغ نحو ألفي مليون مليون سديم، فإذا كان في كل سديم منها ألف مليون نجم كان عدد النجوم التي في الفضاء المنظور وغير المنظور نحو (٢) على يمينها (٢٤) صفراً ٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٢.

هذه هي الآراء التي وصل لها عقل الإنسان الآن، وأن النجوم التي أعظم أمرها الله هذا عددها وهذه مقاديرها، وبهذا نفهم لماذا يقول: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾[الواقعة: ٧٦]، إذن الله ما أقسم بالنجوم إلا لعظم قدرها، والله يقول إننا لا نعلم قدرها إلا إذا علمنا، فهذا هو العلم، هذا هو العلم الذي به نعرف قيمة النجم، فإذا لم يتعلم المسلمون هذه العلوم فإنهم لا يعرفون قيمة القسم بالنجم في أول هذه السورة، وهذه من عجائب القرآن التي خبأها الله فيه لتبرز لأبناء المسلمين الذين يقرؤون هذا التفسير في حياتنا وفيما بعدها، ومن عجب أن آية: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ [الواقعة: ٧٦] جاءت في سورة متأخرة عن سورة «النجم» وهي سورة «الواقعة» مشعرة بعظم هذا القسم. ولله الحمد وله الشكر على العلم والفهم.

(٤) أقسم الله بالنجم على شرف الهداية المحمدية ليفتح لنا باب العرفان، ولما فتح لي في الصلاة ذلك الباب ولجت منه، فدخلت في دائرة المعارف، فألفيت فيها تلاميذ مبتدئين، وآخرين قد أتموا الدروس منتهين، وفيها أساتذة معلمون مهذبون، ولقد هالني الأمر إذ وجدت في هذه الدائرة كل ما جادت به الأمم المتحضرة في دوائر تعليمها.

محاورة بيني وبين صديقي العالم الذي اعتاد مجالستي في هذا التفسير

فلما اطلع على ذلك صاحبي سكت واجماً وقال: نعم. أحسنت في ذكر النجوم وعددها ومقاديرها العظيمة، وأحسنت أيضاً في ذكر القسم والإبداع فيه، وأن المسلم لن يعرف معنى هذا القسم ولا عظمته إلا بدراسة هذه العلوم حتى يعرف عظمة مبدع هذا الوجود، هذا قول لا مرية فيه، وقد جمع الحسن كله، فأما قولك إنك وأنت في الصلاة دخلت في دائرة العرفان، وإن تلك الدائرة حوت كل نظام علمي في الأمم المتحضرة، فهذا من الأقوال التي اعتاد الناس أن يرسلوها سبهللاً، ولعمر الله ما هذه بعادتك، إن من نعم الله على أمتنا الإسلامية أن الكتّاب ـ بالتشديد ـ اليوم فيها يكتبون، وأكثرهم يبرهن على ما يكتب وأنت منهم، فكان الأجدر أن تترك هذه الجملة الأخيرة وتحذفها من نظام هذا المقام. فقلت: حياك الله أيها الأخ، لقد وقفت من الجملة على المبتدأ ولم تنتظر الخبر، أو على الجملة ولم تصبر حتى ترى تفسيرها.

أيها الأخ، أنا جعلت الذين في دائرة العرفان ثلاثة أقسام: قسم منهم مبتدئ، وقسم منهم قد انتهى في التحصيل، وقسم بعد إتمام التحصيل يعلم غيره. قال: نعم. فقلت: إن المبتدئ في التعلم الآن في بلاد الإسلام يجب على القائمين بتعليمه أن يقرنوا العلم بالتطبيق، سواء أكان ذلك في العلوم الرياضية أم الطبيعية أم الخلقية والأدبية، أم في العبادة. وأي أمة علمت تلاميذها الأخلاق بلا ممارستها، أو الحساب بلا تطبيق، أو النحو وما معه من علوم اللسان، أو الدين بلا عمل، فإن هذا التعليم لا فائدة منه.

فعلى المسلمين في الأزهر، وفي المعاهد الدينية، وجميع مدارس الإسلام في الشرق والغرب أن يمرنوا التلاميذ من أول درس في كل علم، وذلك التمرين يختلف باختلاف العلوم، وفي الدين يكون بالعبادة، كالصلاة وكالتهجد ليلاً، وكالصدقات، وكالصيام الخ.

فلما سمع صاحبي ذلك ظهرت عليه هيئة الانفعال والغضب، وقال: ما هذا الذي تقوله؟ أين هذه الأقسام الثلاثة؟ أنت إنّما وصفت قسماً واحداً وهم التلاميذ، ولكنك لم تسمعني من الآية شيئاً، فأما هذه الآراء فإنك تعرفها في المدارس ومن الكتب، فأما الآية فما الذي فيها من هذا؟ فقلت: إن الأقسام الثلاثة في هذه الآيات، فإن في آخر سورة «الطور» التسبيح والتحميد، وبعبارة أخرى قيام الليل، وهذا من أعظم العبادات، والعبادة تمرين على الإيمان، لأن الأستاذ يقول للتلميذ: ﴿ ٱللَّهُ خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ﴾[الرعد: ١٦]، فإذا لم يكرر التلميذ هذه المعاني في الصلوات وغيرها حرم التمرين، ومن حرم التمرين على النظريات عاش جاهلاً، فمن نشر التعليم الديني ولم يمرن المؤمنين على تلك النظريات بالأعمال الصالحة فدينه ناقص لا ثمرة فيه، والتمرين في كل شيء بحسبه، فأما في معرفة الله فبالعبادات كالصلوات، وأما في الأخلاق فبالتعود عليها كالتعود على الصدق وعلى عدم إخلاف الوعد وعلى الإحسان، ويبتدئ ذلك من أول الدراسة من أول سني التمييز، إذن آخر سورة «الطور» يشير إلى التمرين على المعارف الإسلامية، وذلك التمرين ضرب له مثلاً بالتسبيح والتحميد في كل وقت وفي آخر الليل، هذا هو القسم الأول وهو القسم الابتدائي.

فإذا أخذ التلميذ في الترقي شيئاً فشيئاً وقد أتقن الدور الأول بالتمرن على الطاعات فهو لا جرم يوماً ما واصل إلى النهاية المشار إليها بقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴾[النجم: ١٣-١٥]، وأخذ يصف تلك السدرة بأنها غشيها ما غشيها، فهل كان يغشاها فراش من ذهب، أو يغشاها ملائكة كأنها الطيور؟ أو غشيها نور الله؟ ونبقها كقلال هجر وأوراقها كآذان الفيلة، أو هي تحمل الحلي والحلل والثمار من جميع الألوان، والورقة منها لو وضعت في الأرض لأضاءت لأهل الأرض، وهي شجرة طوبى.

نحن لسنا في مقام أن الأحاديث حسنة أو صحيحة أو ضعيفة، نحن في مقام عام، إن هذه الأوصاف كلها إعراب عن العجائب الإلهية، فلتكن أنوار، وليكن فراش من ذهب، أو لتكن حلي وحلل، كل هذا عند حكماء الإسلام جمال الله وجلاله، ولم يذكر في الأحاديث من جماله وجلاله إلا ما تحتمله عقولنا، فهذه المناظر غاية ما تسمح به مخيلاتنا الضعيفة فتخرج من هذا المقام بنعمة عظيمة، وحكمة قويمة، وآية مبينة، ونعمة حديثة قديمة، وهي أن المقام جمال وجلال وحكمة وبهاء، وهذا كله ليس يدركه إلا الذين كان مبدؤهم العبادة، كالمذكور في آخر «الطور»، ونهايتهم العلم بجمال الله وجلاله، وهو المشار إليه بقوله تعالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴾[طه: ١١٤]، فالنبي صلى الله عليه وسلم في كل وقت يزيد علماً، فلتكن سدرة المنتهى عظيمة جداً يسير الراكب في ظلها أو في ظل فرع منها مائة عام أو أكثر، ولتكن الأنوار محيطة بها، وليكن الفراش من الذهب حولها، وليكن الجمال كل الجمال فيها، فالمنتهون في العلم لن يقفوا في معارفهم عند حد، لأن الوقوف عن الرقي عذاب للواقفين.

إن نهاية كل امرئ أن يزداد علماً في كل ساعة من الزمان، كما ورد عن سيدنا علي كرم الله وجهه: «إذا طلعت شمس يوم ولم أزدد فيه علماً فلا بورك لي في ذلك اليوم»، وهذا هو الحق الصراح، إذن هنا مرتبتان: مرتبة المبتدئين، وهي أن يتمرنوا على الإيمان والإسلام بالعبادات. ومرتبة المنتهين في العلم، وهم الذين درسوا هذا الوجود وأدركوا حقائقه بقدر طاقتهم.

وأما الدرجة الثالثة فهم أولئك المنتهون في العلم، إذ أخذوا يفيضون على تلاميذهم وعلى الأمة مما امتلأت به صدورهم، فهؤلاء يفيضون على الناس من العلم الذي أحرزوه بالجد، وثبتوه بالطاعة، فصارت العلوم عندهم ملكات أشبه بالعواطف فيلقونها على الناس بعد إلقاء الأنبياء العلم للناس بالوحي، وللإشارة إلى هذه الدرجة جاء أنه ما ضلّ وما غوى، وأنه ما ينطق عن الهوى.

ومن عجب أن وصف النبي صلى الله عليه وسلم بأنه يوحى إليه وأنه ما ينطق عن الهوى إنّما ذكر بعد القيام بالليل مباشرة في السورة قبلها، للإشارة إلى أن التمرين بالعبادة على قواعد الإيمان هو الأس الذي يبنى عليه نهاية العلم أولاً، وإفاضته على الناس ثانياً، ولا جرم أن النبوة كانت على هذا المهيع، فإنه صلى الله عليه وسلم كان يتعبد في غار حراء، ثم أفيضت عليه العلوم بالوحي وأفاضها على الناس، فهاتان المرتبتان مؤخرتان عن العبادات، وهي التمرين العملي على القواعد الدينية.

فلما سمع صاحبي ذلك قال: هذه الآراء جميلة وهي من جهة أخرى غريبة، فإذا أفضت فيها بشرح يكفل تبيانها بضرب أمثال تكون المقالة قد أثمرت وآتت أكلها بإذن ربها. فقلت: اسمع يا صاح زادك الله هدى وآتاك تقواك، ماذا يفعل الناس في تعليم النحو؟ قال: يبتدئون بمعرفة الاسم والفعل والحرف، ويركبون الجمل، ويأتون بأقسام الأسماء والأفعال والحروف وما تفرع منها، ويبينون النصب والرفع والجر، وهكذا. فقلت: والصرف؟ فقال: يأتون بالمصادر ويشتقون منها الأفعال وأسماء الفاعلين والمفعولين، وهكذا. فقلت: وعلم المعاني؟ فقال: يأتون بالخبر والإنشاء والمسند، والمسند إليه، وحذفهما وذكرهما، وتوابعهما وقصرهما، والفصل والوصل، والإيجاز والإطناب والمساواة، وهكذا. فقلت: والبيان؟ فقال: يأتون بالتشبيه والمجاز والكناية وما أشبهها، ويفصلون الكلام تفصيلاً. فقلت: والبديع؟ فقال: يأتون بالمحسنات اللفظية والمعنوية، فالجناس وأنواعه والطباق والاستخدام، وهكذا. فقلت: والحساب؟ فقال: يجمعون ويطرحون ويقسمون ويضربون، ويأتون بأبواب كثيرة ومبنية على ذلك مثل الحطيطة الداخلية والخارجية، وحساب الكسور، وحساب اللوغارتم، والقاعدة الثلاثية البسيطة والمركبة، وهكذا. فقلت: والهندسة؟ فقال: يأتون فيها بالنقطة والخط المستقيم والمنحني والسطوح والأجسام التعليمية والمربعات والمخمسات، وهكذا، والدوائر والكرات، وسطوح الكرات، والأسطوانة والمكعبات وهكذا، والمخروط وما أشبه ذلك، ويبنون بعض هذه على بعض، فالخطوط تكون منها الزوايا، ومن الزوايا الثلاث تكون المثلثات، ومن المثلثات يكون من كل اثنين منها مربع، وبازدياد مثلث آخر يكون المخمس، وهكذا يقال في مساحة محيط الدائرة ومساحة نفس الدائرة وسطح الكرة وحجم الكرة. انظر هذا المقام موضحاً إيضاحاً تاماً في سورة «الروم» عند قوله تعالى: ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ [الآية: ٣٠] الخ. فقلت: والطبيعة؟ فقال: يأتون بأقسام الجسم من حيث إنه صلب أو سائل أو غاز، ويأخذون في تقسيم هذه الأجسام كلها، ويبحثون في خواصها، وهي قسمان: خواص عامة لجميع الأجسام، وخواص يختص بها أنواع من الأجسام، فالمسام عامة في الأجسام، وكذا عدم التدخل، ومثل السرعة في الضوء، وسرعة الصوت، وهكذا، ويبحثون في الحرارة والضوء والصوت والكهرباء والمغناطيسية، وهكذا، فأما الكيمياء فإنهم يبحثون فيها عن اتحاد الأجسام بحيث تصبح بعد تركيبها فاقدة خواصها الأصلية، كما في تركيب الماء من الأكسوجين والأدروجين، فإن خواص الماء وكذا خواص الحيوان والإنسان والنبات غير خواص العناصر التي تركبت منها، فقلت: بناء عليه يكون علم الطبيعة أقرب إلى علم المعاني، ألا ترى رعاك الله أن الماء إذا صار ثلجاً أو صار بخاراً فإنه يكون أشبه بالمعنى الواحد يذكر بطرق مختلفة مرة بالإيجاز، والمساواة أخرى، والإطناب آونة، فالمساواة كحال الثلج، لأنه يكون أكبر من حجم الماء، والماء كالإيجاز، والغاز كالإطناب، وهكذا نرى علم البيان يقرب من الكيمياء فله بها نوع من الشبه بسيط، لأننا نخرج عن اللفظ الحقيقي ونتجوز له بلفظ، فهو أشبه بانقلاب العناصر إلى مركبات بخواص جديدة.

فقال صاحبي: حسن ما تقول، فقلت: كيف أجبتني حين سألتك عن هذه العلوم؟ فقال: تلك الإجابة حضرت عندي لأني مرنت على هذه العلوم. فقلت: حسن جداً، وهناك علم آخر يعوزه

التمرين مثل هذه العلوم، فإذا كان النحوي وعالم الحساب والهندسة لا يحسن أحدهم إفاضة هذه العلوم على الناس إلا إذا ثبتت تلك العلوم في نفسه بسبب التمرين وقتاً بعد وقت؛ فيركب جملاً معربة أو مبنية ويصرف المشتقات ويأتي بعمليات الحساب ويحلها ويحل مسائل الهندسة والطبيعة، ويدخل المعمل بالمدرسة لأجلها ولأجل الكيمياء، وهكذا هناك علم آخر له تلاميذ يتعلمون ويصيرون أساتذة، ولن يفيضوا العلم على الناس إلا بعد أن يثبتوا قواعد ذلك العلم بالتمرين، ومن هم هؤلاء الناس؟ هم هداة النفوس، فأما العلماء المتقدمون فإنّما يعلمون أموراً أقرب إلى الأجسام الحسية، أما هداة النفوس فعلومهم وتمارينهم كلها نفسية، وهؤلاء لن تعيش أمة في الأرض إلا بأن يكون هؤلاء منبثين بين أفرادها، وعلم هؤلاء معرفة الله وتوحيده، وتمرينهم هي الصلوات، فإذا قرأ الناس ديناً ولم يمرنوا أنفسهم على صلواته؛ فإن هذا الدين لا يرفع هذه الأمة كما لا يرفع علم الحساب ولا علم النحو صاحبيهما إلا إذا كانا قد تمرنا على هذين العلمين، فإذا سمعنا الله يقول في آخر سورة «الطور»: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ۝٤٨ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَـٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾ [الآيتان: ٤٨-٤٩]؛ قلنا: هذا هو تمرين هذه الطبقة على قواعد علمهم كما يتمرن النحوي على المرفوع والمنصوب، فالنحوي يحفظ لسانه بذلك التمرين، وهذا العالم النفسي الديني يرفع نفسه بالصلاة وتصبح نفسه ذات صلة بخالقه لكثرة التكرار في الصلوات، كما يتكرر الحل لمسائل الحساب، فذاك يحل مشاكل الحساب بسهولة، وهذا تتوارد المعاني على قلبه بسبب تكرار الصلوات والعبادات، وهذا هو السر في ذكر الوحي بعد قيام الليل.

اسمعي يا أمة الإسلام: يجب تغيير المناهج الحالية، أظهروا عواطف الإسلام، لا تبتدئوا بعلم الفقه كرة واحدة بحذافيره، بل يجب الابتداء بما يرقق القلوب ويصفيها، فتذكرون صفات رسول الله صلى الله عليه وسلم ورحمته، وأخلاق أبي بكر وعمر وعثمان وعلي، وليحذف من التعليم كل خلاف شجر بين الصحابة، ثم لتسمعوهم جمال الطبيعة المسمى بعلم الأشياء مقروناً بالآيات القرآنية وأنتم في ذلك تصلون معهم صلاة حاضرة فيها قلوبهم، بل مروهم أن يقوموا بالليل كما كان يفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم، فهذا التمرين لا بد منه حتى يثبت حب الله في قلبه ويمتزج بدمه، ثم بعد ذلك ادرسوا علوم الفقه والأصول والعلوم الأخرى كما تشاؤون.

لماذا وجب المران في كل شيء

قد ظهر أن المادة ليست شيئاً مذكوراً، اللهم إلا أنها أنوار متحركة اجتمعت وقد اختلفت مظاهرها باختلاف حركاتها. انظره في سورة «النور عند الآية ٣٥»: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

يا عجباً! إذن أجسامنا نور متكاثف ولكنه متحرك حركات سريعة جداً تبلغ نحو ستة آلاف مليون مليون حركة في الثانية، ثم إن هذه الأجسام لا تظهر ثمراتها إلا بالحركات، كأن ندلك الأجسام بهيئة خاصة فتكون الكهرباء كأنها لما كانت دائمة التحرك أبت أن يستخرج ما فيها من الأسرار إلا بحركات جديدة غير حركاتها الطبيعية، العالم حركات منظمات لا غير في شيء سموه الأثير، ولن تستخرج كنوز المادة إلا بالحركة أيضاً، ولو أمكن استخراج ما في الجوهر الفرد بأي عمل كان، وخرج

منه ما كان كامناً فيه، لأخرج حرارة وضوءاً بهما تصبح الأرض مشتعلة جميعها. هذا كلام علماء زماننا.

الله أكبر، إذن نحن الآن في وسط عجائب وغرائب، إذن جسمي أنا فيه من الكنوز ما لا حصر له، وذلك في ذراته هو المادية، وإذا كان جسمي على هذا النمط فكيف بأرواحنا؟ تلك الأرواح التي لها صلة ما بصانع العالم، وهو على طريق المجاز نور وشعاع من إبداعه فلها قرب ما، ولكن لن يستخرج ما كمن فيها إلا بالعبادات لأنها تكرار وتمرين على القاعد الكلية للدين، فبها يذكر اسم الله، ونذكر نعمه، ويتوجه العبد إليه.

فإذا كان الجوهر الفرد باستخراج ما كمن فيه إن أمكن يقلب الأرض كلها، فرجل واحد إذا استخرجت قواه بالصلوات والعبادات، وكان ذا قلب سليم محب للعلم مخلص، فهذا يقلب نوع الإنسان كله أو بعضه، وهؤلاء هم الأنبياء ويتبعهم المخلصون المحققون من أممهم.

وملخص هذا المقام أن العلوم لا يتم الانتفاع بها إلا بالتمرين، وأجلّ العلوم معرفة الله، وهذه لا تتم إلا بالعبادات، وهذه العبادات مثبتات لتلك المعرفة، معينات على تلقي ذلك العلم إلى النهاية، فيصل لربه ويصير مرشداً للأمم، والنبي صلى الله عليه وسلم كان يصلي بالليل، ورأى من آيات ربه الكبرى، وأوحي إليه، فهدى الناس، وهكذا تابعوه المخلصون من هذه الأمة، لكنهم لا يوحى إليهم بل يهتدون بهديه ويصلون، وخواصهم يقومون الليل كما كان يقوم، ويتعلمون ويفتح عليهم، ويقرؤون علوم الأمم. حتى إذا ما سمعوا أن شجرة المنتهى يسير الراكب في ظل كل فنن من أفنانها مائة سنة، أو يستظل بظلها مائة ألف راكب؛ فإنه يقول: إن العلوم اليوم قربت هذه المسائل، لأننا إذا رأينا في السدم المتقدم ذكرها وهي ألفا مليون مليون سديم، وكل سديم منها فيه ألف مليون شمس على الأقل، والضوء يجري في مجرتنا وحدها مئات الألوف من السنين، فهذا معناه أن عالم المادة مدهش وعجيب، فكيف بعالم الغيب الذي لا يعرفه إلا الأنبياء، فأصبحت العلوم اليوم مفهمات مقربات لمسائل الدين.

فلما سمع ذلك صاحبي قال: الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات. وإلى هنا تم الكلام على القسم الأول في تفسير البسملة. انتهى ليلة السبت ٢٩ أغسطس سنة ١٩٣١م.

مقدمة: في مناسبة هذه السورة لما قبلها

لقد ختمت السورة المتقدمة بعبادات تقرب العبد من الله، وأخلاق شريفة، كالصبر على ما يصيب الإنسان، وأن يقول المرء عند القيام من الليل، وعند القيام إلى الصلاة، وعند القيام من أي مجلس كان: سبحانك اللهم وبحمدك، ونحوها وبالعبادات ليلاً، كصلاة المغرب والعشاء، وكصلاة ركعتين بعد الفجر إذا أدبرت النجوم، وهما ركعتا الفجر قبل الفرض، كما أن إدبار السجود الركعتان بعد المغرب، فهذه العبادات مذكرات بالله، مقربات العبد من ربه، لأن كثرة الذكر تؤثر في النفس، تستحضر المذكور استحضاراً تقرّبه النفس على طول الزمان، وذلك هو الذي يهيئ النفس الإنسانية للإلهام في عامة الناس وللوحي في الأنبياء، ولقد كان صلى الله عليه وسلم يتعبد في غار حراء فأوحي

إليه، فهاهنا ذكرت العبادة في آخر سورة « الطور »، وأتبعت بالوحي في سورة « النجـم » تعليماً للأمة أن من أكثر من ذكر الله عند قيامه من النوم، ومن مجلسه، وصلى المغرب والعشاء بحضـور قلب، وفي بعض الليل، وركعتي الفجر، فإنه أقرب إلى الإلهام من غيره.

وينبغي لمن يتصدى لإرشاد الأمة أن يكون هذا خلقه، فإن لم يفعل ذلك كانت آثاره ضائعـة في الأمة، لأن النفوس التي لا تشرق بذكر الله لا تؤثر في الأمة، وكأن الذاكر باقتراب قلبه من المذكور يتجلى عليه فيفيض العلم على قلبه، فتحس النفـوس بذلـك الفيـض فتقبلـه، وفي ذكـر إدبار النجوم وتعقيبه بالنجم إذا هوى مناسبة لطيفة، وكأنه يقول: أيها الناس، إنه صلى الله عليه وسلم يقـوم الليل ويصلـي المغرب والعشاء، ويذكر الله عند قيامه من النوم، وعند قيامه للصـلاة، ويصلـي ركعتـي الفجـر، فـهو في عبادة إلى مطلع الفجر إذا أدبرت النجوم، فاستحق بذلك أن أفيض عليه العلم والوحي، وذلك في:

القسم الثاني: في أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يوحى إليه، وفي قربه من ربه

التفسير اللفظي

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴾ أي: أقسم بجنس النجوم إذا غربـت أو طلعـت، يقـال: هـوى هويـاً ـ بالفتح ـ إذا سقط وغرب، وهويـاً ـ بـالضم ـ إذا علا وصعـد، أو بـالنجم من نجوم القـرآن إذا نـزل، فالنجم السماوي عند شروقه وعند غروبه يشعر النفس بجمـال الإبـداع وحكمـة الخلق، وهكـذا نجم القرآن، وقد نزل القرآن في عشرين سنة، أقسم الله بذلك، وجواب القسم قوله: ﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ ﴾ ما عدل محمد صلى الله عليه وسلم عن الطريق المستقيم ﴿ وَمَا غَوَىٰ ﴾ وما اعتقد باطلاً، والخطاب لقريش ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴾ أي: بالهوى، أي: لا يتكلم بالباطل، وذلك رد لقولهم: إن محمداً يقـول القـرآن من تلقـاء نفسـه، ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ أي: مـا القـرآن إلا وحـي يوحيـه الله إليـه ﴿ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴾ ملك شديد بقواه وهو جبريل، ويقال إنه اقتلع قرى قوم لوط وحملها على جناحه، ورفعها إلى السماء ثم قلبها، وصـاح صيحة بثمـود فـأصبحوا جـاثمين، هـذا هـو الـذي يقولـه علماء التفسير رحمهم الله، وقد جاء في علم الأرواح الحديث أن للأرواح من القوى مـا يعجـز البشـر، وكلما ارتقت الروح كانت أعلم وأقدر على الأفعال العظيمة، ولقد مر عليك في هذا التفسير في سـورة « البقرة » ما رفعه خمسة عشر ألف نفس إلى مجلس الأعيان في الولايات المتحدة، وقولـهم: إنـا رأينـا أنواراً وسمعنا أصواتاً وشهدنا زلزلة وأموراً عظاماً، فهانحن أولاء جئنا إلى مجلسكم الموقـر لنستجلي حقيقة الأمر في ذلك، وهذا عند استحضار الأرواح، إلى آخر ما هناك وقد ذكرتـه هنـاك بلفظه فـارجع إليه. وإذا كان هذا في الأرواح التي فارقت أرضنا فمـا بـالك بـالأرواح العلوية كجبريل، فـانظر للعلـم الحديث كيف أظهر ما كان العقل لا يصدقه وإنّما يؤمن الناس به إيمانـاً، فالملائكة أقويـاء الأجسـام، في عقولهم حصافة رأي وتدبير وحكمة، وهذا هـو سـر قولـه: ﴿ ذُو مِرَّةٍ ﴾، ولعلـك تذكـر مـا مـر في هـذا التفسير نقلاً عن علمـاء الطبيعـة في أوروبـا لا سيمـا « أوليفـر لـودج » وقولـه: إنـي أصبحـت موقنـاً أننـا يحيط بنا عالم نحن بالنسبة إليه كالنمل بالنسبة لنا، وهم يساعدوننا ويحافظون علينا.

ويقول: هذا وقفت عليه بطريق علمي، يريد تحضير الأرواح. ثم قال: إذن ما قاله القديسون من أنهم رأوا الملائكة، أو أنهم رأوا الله، كل ذلك حق لا مرية فيه، وهذا من عجائب القرآن، إن سمعياته أصبحت اليوم تذاع بين الناس بصفة علوم روحية وكشف حديث، وذلك هو قوله تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾[فصلت: ٥٣]، فقوله: ﴿ فِى ٱلْءَافَاقِ ﴾ راجع لما كشف حديثاً كالبحر المسجور المتقدم، وقوله: ﴿ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ كقوله: ﴿ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝ ذُو مِرَّةٍ ﴾، فإن القوة الجسمية والعقلية للعالم الروحي قد ظهرت بطريق علم الأرواح، وهذا يستحيل أن يعرفه الناس إلا بالاستحضار أو التنويم المغناطيسي وكلاهما لن يكون إلا بالأنفس البشرية، فإن التنويم المغناطيسي معناه انخلاع النفس عن البدن انخلاعاً جزئياً أو كلياً وهي به مربوطة، وهناك تتصل بالعوالم الروحية فإذن معرفة العالم الروحي لم تتم إلا بواسطة أنفسنا، ولعلك تذكر ما مرّ في سورة «البقرة» من تنويم المريض حتى اطلع على مرضه وعلى دوائه، وبين أوقات المرض المقبلة بالدقة، وبين الأدوية اللازمة، وهذا كان أمام أكابر الأطباء بفرنسا كما شرحته هناك، وتم كل هذا بعد الامتحان الدقيق والحرص الشديد والانتباه التام، فهذه النفوس الإنسانية المتعلقة بأجسامنا هذا شأنها، ومن شأنها أن تنطلق وتكلم الأرواح الأخرى كما عرفت، فهذا هو المقصود من إراءتنا آيات الله في الأنفس والآفاق.

ولقد تجلى لك في هذا التفسير أكثر ما تجلى في الآفاق من عجائب الطبيعة، وما تجلى للأنفس من عالم الأرواح والملائكة، وسترى بعد ذلك ما يظهر من العجائب، فعلى المسلمين أن يفكروا فيها، وأن يعلموها، وقوله: ﴿ فَٱسْتَوَىٰ ۝ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴾ أي: استقام على صورته الحقيقية التي خلقه الله عليها حين أحب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يراه في صورته الحقيقية، فظهر له في الأفق الأعلى، وهو أفق الشمس، فملأ الأفق، ثم أخذ جبريل يدنو من رسول الله صلى الله عليه وسلم ويتدلى، أي: يريد في القرب والنزول بقرب النبي صلى الله عليه وسلم حتى كان منه مقدار قوسين، والعرب تقدر بالقوس وبالرمح وبالسوط وبالذراع والباع، أي: فكان مقدار مسافة قربه مثل قدر قوسين أو أقرب على تقديركم، وعلى مقدار فهمكم، إذ تقولون: قدر رمحين أو أنقص، وليس بعد التدلي والقرب إلا الوحي، فأوحى جبريل إلى عبد الله محمد صلى الله عليه وسلم ما أوحى، عبر بذلك تفخيماً للموحى به، مثل أنه أوحى إليه: ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ۝ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾[الضحى: ٦-١١]، وهذا من عظائم الأمور، ولا جرم أن ظهور الأرواح في صور مرئية أصبح الآن معروفاً، وقد قص علماء الأرواح عجائب، إذ تظهر الروح في صور بشرية وصور نورية وتخاطبهم، وذلك في حال التنويم المغناطيسي، وتحضر الفواكه، وقد تم ذلك في جهات كثيرة من الأرض والمسلمون لا يعلمون، وقد ذكرت كثيراً من هذا في هذا التفسير في مواضع كثيرة، ظهر ذلك على يد الأمم الأوروبية من أرواح ليست في شرف جبريل، ولا هي مستنزلة على أنبياء، بل على أناس امتازت قواهم بأنها مستعدة للتنويم المغناطيسي، وإن لم تكن قدسية كأرواح الأنبياء، فإذا صح هذا

بالنسبة لآحاد الناس اليوم فليكن للأنبياء من باب أولى بطريق يناسب مقامهم، إذ لا تتجلى الأرواح إلا بالمناسبة بين المتجلي والمتجلى عليه، وهاهنا ظهر جبريل لنبينا صلى الله عليه وسلم وتبدت صورته له صلى الله عليه وسلم، وهذا راجع لقوله: ﴿ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴾[النجم: ٥]، لأن ظهوره في صورة مرئية راجع لقوته وشدتها، وقوله: ﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴾[النجم: ١٠] راجع لقوته العلمية، أي قوله: ﴿ ذُو مِرَّةٍ ﴾[النجم: ٦]، فهو على سبيل اللف والنشر المرتب. ولما كان الإنسان كثيراً ما يظن أنه قد تخيل ما رآه ويكذب قلبه ما ظهر له، بل قال علماء الأرواح: إنهم لما خاطبوا الأرواح قالوا لهم: إنكم كثيراً ما يظهر لكم عجائب روحية فتظنونها من الوهم وتنسبونها إلى خداع الحواس، فالناس في أكثر أحوالهم يكذبون ما يقع لهم من غرائب الأرواح، مع أن فيهم من هم أقرب استعداد لتجليها، فلما كانت هذه عادة الناس أعقبه الله بما يفيد أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يقم بنفسه إن هذا خداع الحواس ولا أنه وهم، فقال: ﴿ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴾ أي: ما قال فؤاده لما رآه لم أعرفك، كما يحصل لبعض العامة بعض التجليات الجزئية فيظنونها وهماً لأنهم ليسوا مؤيدين من الله، ﴿ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴾ أفتجادلونه على ما رآه بعينه تلك الليلة، بل صدقه وحققه ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾ أي: ولقد رآه مرة أخرى كما رآه هذه المرة فكان ظاهراً له بهيئته، فكان قاب قوسين أو أدنى، فأوحى إلى محمد صلى الله عليه وسلم، فما حصل في الأولى حصل في الأخرى، ولم يكن ذلك في الأرض، بل كان عند شجرة نبق في السماء السابعة عن يمين العرش، وهي في منتهى الجنة أي آخرها، ولم يجاوزها أحد في الرقي من الخلائق، وعلم الملائكة ينتهي إليها، وما وراءها غيب لا يعلمه إلا الله، وأرواح الشهداء أيضاً تنتهي إليها، أو هي منتهى ما يعرج من الأرض فيقبض منها، وإليها ينتهي ما يهبط من فوقها فيقبض منها، وفي الحديث أن نبقها كقلال هجر، وأن أوراقها كآذان الفيلة، وقد غشيها من نور الله ما غشيها فتغيرت، فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسنها، ومن وصفها أن الراكب يسير في ظل الفنن منها مائة سنة، أو يستظل بظلها مائة ألف راكب، فيها فراش الذهب، ووصفها مقاتل أنها شجرة تحمل الحلي والحلل والثمار من جميع الألوان ولو أن ورقة وضعت منها في الأرض لأضاءت لأهل الأرض، وهي شجرة طوبى التي ذكرها الله في سورة «الرعد». ولقد فهمت من هذا الملخص قوله تعالى: ﴿ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴾ أي: رآه إذ يغشى السدرة ما يغشاها من الخلائق الدالة على عظمة الله وجلاله، ومن الأنوار والإشراق والبهجة والحسن والنضارة، ومن الملائكة، ومن فراش الذهب، من كل ما ورد في الحديث، ﴿ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ ﴾ أي: بصر رسول الله صلى الله عليه وسلم، أي: ما عدل عن رؤية العجائب التي أمر برؤيتها ومكن منها، وما مال يميناً ولا شمالاً ﴿ وَمَا طَغَىٰ ﴾ وما جاوز ما أمر برؤيته ﴿ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴾ أي: والله لقد رأى الكبرى من آياته وعجائبه الملكية والملكوتية ليلة المعراج، ومنها نور رب العزة الذي غشى السدرة فلم يزغ بصره، بل ثبت في ذلك المقام الذي تزل فيه الأقدام، حافظاً قواه، والآيات الكبرى منها ما ذكر ومنها ما لم يذكر، ومنها أنه رأى رفرفاً أخضر سد أفق السماء، وأنه رأى جبريل له ستمائة جناح.

ثم كأن الله يقول: هذا وصف ما رآه، فماذا رأيتم أنتم أيها المشركون؟ فهل ترون في اللات والعزى ومناة من العجائب ما رأى محمد؟ وكيف تحصرون نفوسكم في العالم المادي وأصنامه وتقطعون على أنفسكم طريق الوصول والارتقاء، إن النفس لا ترقى إلا بما استعدت له، فإذا وقفت نفوسكم عند هذه المادة وأصنامها لم يكن لها عروج إلى السماء.

القسم الثالث: تقريع المشركين على جهلهم وكفرهم بعبادة الأصنام

ونسبتهم البنات إلى الله، وأخذهم بالظن وبخلهم

وفي حكم علمية، وفي صفات لله علية

قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ۝ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ هذه الثلاثة أصنام كانت لهم، فاللات كان رجلاً يلت السويق للحاج، فلما مات عكفوا على قبره يعبدونه، ثم صنعوا له صورة تعبد، والعزى شجرة بغطفان كانوا يعبدونها، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد فقطعها، فجعل يضربها بالفأس ويقول:

يا عز كفرانك لا سبحانك إني رأيت الله قد أهانك

ومناة صخرة كانت لهذيل وخزاعة، أو لثقيف، وكانت دماء النسائك تمنى عندها، أي: تراق، وقوله صفة ذم، أي: المتأخرة الوضيعة المقدار كما في قوله تعالى: ﴿قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ﴾ [الأعراف: ٣٨] أي: وضعاؤهم لرؤسائهم وأشرافهم، ولفظ «الأخرى» متعارف بين أبناء العرب المصريين بهذا المعنى، فيقولون: هو الآخر وهي الأخرى، بمعنى الضعة، وتأخر القدر والشرف.

ولما قرعهم على تنزل عقولهم لعبادة الأصنام، وتناهيها في الجهالة، وسقوط المنزلة عن المقام الأرفع عند سدرة المنتهى أخذ يذكر جهالات أخرى من جهالاتهم فقال: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ﴾ كانوا يزعمون أن هذه الأصنام هياكل للملائكة، أو مواطن لجنيات تسكنها، والملائكة والجنيات بنات الله، أفرأيتم هذه الأصنام الثلاثة؟ ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ﴾ تقريعاً لهم وتوبيخاً، إذ يجعلون هذه الهياكل لبنات الله من ملائكة أو جن، وهم يأنفون من البنات، ويصطفون الذكور. فكأن الله قد منحهم ما حرمه على نفسه، فقوله: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ۝ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ مفعوله الثاني: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ﴾، كقوله: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ۝ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ [الواقعة: ٥٨-٥٩]، ﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ﴾ جائرة حيث جعلتم له ما تستنكرون منه، وهي فعلى كفضلى، من: الضيز، وهو: الجور، ولكن كسرت فاؤه لتسلم الياء، ﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ﴾ أي: إن الأصنام من حيث الألوهية إلا أسماء تطلقون عليها وتقولون إنها آلهة وليس فيها شيء من معنى الألوهية ﴿سَمَّيْتُمُوهَآ﴾ أي: سميتم بها ﴿أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم﴾ بهواكم ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ برهان ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ إلا توهم أن ما هم عليه حق تقليداً وتوهماً باطلاً ﴿وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾ وما تشتهيه أنفسهم ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ الرسول أو الكتاب ﴿أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ﴾ بل ألالإنسان ما يتمناه، أي: ليس له كل ما يتمناه، إذن ليس لهم مطمع في شفاعة الآلهة المخترعة، وليس لهم أن يطمعوا حيث يقولون: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ

لِلْحُسْنَىٰ ﴾ [فصلت: ٥٠] ويقولون: ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف: ٣١] وما أشبه ذلك، ومثل هذا أماني الإنسان في نفسه أو أمته، فالله هو المدبر، وعلى الإنسان العمل والجد، ﴿ فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴾ يعطي منهما ما يشاء لمن يريد وليس لأحد أن يتحكم عليه في شيء منهما، ﴿ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا ﴾ أي: وكثير من الملائكة لا تغني شفاعتهم شيئاً ولا تنفع، فإذن أمر الشفاعة ضيق، فإن الملائكة مع قربهم من ربهم وكثرتهم لو شفعوا بأجمعهم لأحد لم تغن شفاعتهم قط ولم تنفع إلا إذا شفعوا من بعد أن يأذن الله لهم في الشفاعة لمن يشاء الشفاعة له ويرضاه ويراه أهلاً لأن يشفع له.

وإذا كان هذا أمر الملائكة الذين هم عالم روحي أقرب إلى الرب من الأصنام وعبادة الأصنام فكيف يكون الأمر إذن في أصنام أرضية ميتة لا روح لها في غاية البعد عن ذلك المقام الأقدس، وبهذا فهمت قوله تعالى: ﴿ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ﴾ أي: كل واحد منهم ﴿ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴾ بأن سموه بنتاً ﴿ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ﴾ أي: وما لهم بما يقولون من علم ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴾ فإن الحق الذي هو حقيقة الشيء وما هو عليه إنّما يعرف بالإيقان لا بالظن والتوهم ﴿ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا ﴾ فأعرض عمن رأيته معرضاً عن ذكر الله وهو القرآن ﴿ وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ ﴾ أي: اختيارهم الدنيا والرضا بها ﴿ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ﴾ منتهى علمهم ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴾ يقول: إنه يعلم من استعد للهداية ومن ليس أهلاً، فلا تتعب نفسك في دعوتهم إنّما عليك البلاغ، ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ خلقاً وملكاً وعبيداً يهدي من يشاء ويضل من يشاء، ﴿ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ ﴾ أي: بعقاب عملهم ﴿ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى ﴾ أي: بالمثوبة الحسنى، وهي الجنة، على مقتضى النظام الذي وضعه بحيث يسير كل في الطريق الذي قدره له الله على مقتضى الاستعداد.

ثم وصف المحسنين فقال: ﴿ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ ﴾ أي: الذنب الذي يستحق صاحبه العقاب ﴿ وَٱلْفَوَٰحِشَ ﴾ جمع فاحشة، وهي ما عظم قبحه من الأفعال والأقوال ﴿ إِلَّا ٱللَّمَمَ ﴾ إلا ما قلّ وصغر من الذنوب أو مقاربة المعصية من غير مواقعة، فهذا مغفور من مجتنبي الكبائر، والاستثناء منقطع، ﴿ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴾ حيث يغفر الصغائر باجتناب الكبائر، وله أن يغفر ما يشاء من الذنوب صغيرها وكبيرها، وإنّما ذكرها هنا لئلا ييئس صاحب الكبيرة من رحمة الله، والكبيرة كل ذنب ختمه الله بنار، أو غضب، أو لعنة، أو عذاب أو حد في الدنيا، أو أقدم صاحبه عليه من غير استشعار خوف أو ندم، أو ترتب عليه مفاسد كبيرة، ولو كان في نظر الناس صغيراً، فمن أمسك إنساناً ليقتله ظالم، أو دلّ العدو على عورات البلاد، فقد فعل كل منهما أمراً عظيماً، فيكون أكل مال اليتيم بالنسبة لهذين قليلاً جداً مع أنه من الكبائر، ولو كذب على إنسان كذباً يعلم أنه يقتل بسببه فهذا من الكبائر أيضاً، فأما إذا كذب عليه وترتب على الكذب أخذ تفاحة منه فليس من الكبائر، يقول الله: إنه واسع المغفرة ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ ﴾ أعلم بأحوالكم منكم ﴿ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى

بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ ﴾ أي: علم أحوالكم ومصارف أموركم حين ابتدأ خلقكم من التراب وحين صوركم في الأرحام ﴿ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ ﴾ تنسبوها إلى زكاء العمل، وتثنوا عليها بزيادة الخير والطاعات، أو بالطهارة من المعاصي، فدعوا الثناء عليها واهضموها، إن الله علم الزكي منكم، والتقي أولاً وآخراً قبل أن يخرجكم من صلب آدم، وقبل أن تخرجوا من بطون أمهاتكم.

وسبب ذلك أن ناساً كانوا يعملون أعمالاً حسنة ويقولون صلاتنا وصيامنا وحجنا، وكان ذلك على سبيل الإعجاب والرياء، وليس على سبيل الاعتراف بالنعمة فإنه جائز، والمسرة بالطاعة طاعة، وذكرها شكر ما لم تصبح كالحجاب على النفس، فتمنع ما يرد عليها من الواردات كما تقدم منقولاً عن الإمام الغزالي في سورة «آل عمران»، وهذه الآية كآية: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ﴾[الحديد: ٢٢-٢٣]، فهناك يقول: كل شيء في كتاب، فما جاءكم من نعمة أو فاتكم منها فينبغي أن لا يؤثر فيكم فرحاً ولا ترحاً، لأنا نحن كتبناه في كتابنا، فهكذا هنا يقول: لا ينبغي تزكية النفس لأن ما عملناه مقدر. وملخص الآيتين أن الكامل لا يفرح بنعمة، ولا يحزن بنقمة، ولا يفتخر بفضل، لأنه لا عمل له ولا تقدير والعمل لله وحده، وهذه مرتبة شريفة متى وصلها الإنسان كان سعيداً، وهذه هي التي نقولها في صلواتنا في الرفع والاعتدال: أهل الثناء والمجد أحق ما قال العبد، وكلنا لك عبد، لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا راد لما قضيت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد فهذا الدعاء يقصد منه الاستكمال بهذه المنقبة الشريفة، وقوله: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴾ أي: يعلم التقي وغيره منكم قبل أن يخرجكم من صلب آدم، ﴿ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴾ أعرض عن الإيمان ﴿ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴾ قطع عطيته وأمسك، وأصل ذلك أن الحافر تلقاه كدية، أي: صخرة عظيمة فيمسك عن الحفر، ﴿ أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴾ أن الكفر والبخل من الأعمال النافعة عند الله ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴾ أي: بل ألم يخبر بما في صحف موسى وهو التوراة ﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ ﴾ أي: وصحف إبراهيم ﴿ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴾ أي: وفى وأتم، فما أمره الله بشيء إلا وفى به ولم يسأل مخلوقاً فلما قذف في النار قال له جبريل: ما حاجتك؟ فقال: أما إليك فلا، وأيضاً صبر على نار النمروذ، وذبح ولده، وقد كان يمشي كل يوم فرسخاً يرتاد ضيفاً فإن وافقه أكرمه وإلا نوى الصوم. ثم ذكر الله ما في صحفهما، وهو ما يأتي:

(١) أن لا يؤاخذ الإنسان بذنب غيره.

(٢) ولا يثاب إلا على عمله.

(٣) وأن عمله سوف يرى يوم القيامة في ميزانه.

(٤) وأنه يجازى عليه الجزاء الأوفر.

(٥) وأن انتهاء الخلائق ورجوعهم إنما هو إلى ربهم فيجازيهم بأعمالهم.

(٦) وأن الله خالق الضحك والبكاء والفرح والحزن.

(٧) والموت والحياة.

(٨) وأنه خلق الذكر والأنثى من نطفة إذا تصب في الرحم.

(٩) وهو الذي أعطى الغنى، وأفاد القنية، وهي أصول الأموال وما يدخرونه بعد الكفاية.

(١٠) وأنه هو رب الشعرى، وهو كوكب يطلع بعد الجوزاء في شدة الحر وكانت خزاعة تعبدها، فقال الله: كلا، إنه هو ربها. وأول من سن لهم ذلك أبو كبشة من أشرافهم عبدها، وقال لأن النجوم تقطع السماء عرضاً، والشعرى تقطعها طولاً، فهي مخالفة لها فعبدها، وخزاعة تبعه، وتسمى الشعرى أيضاً: «كلب الجبار»، والشعرى اثنتان: يمانية وشامية، والمجرة بينهما، وإحداهما تسمى العبور والأخرى تسمى الغميصاء، وهي أخفى من العبور، والمراد هنا العبور.

(١١) وأنه أهلك عاداً الأولى القدماء لأنهم أولى الأمم هلاكاً بعد قوم نوح.

(١٢) وثمود فما أبقى الفريقين.

(١٣) وقوم نوح من قبل عاد وثمود، وقد كانوا أظلم وأطغى من الفريقين، فلقد كانوا يؤذونه وينفرون عنه ويضربونه حتى لا يكون به حراك.

(١٤) والمؤتفكة: وهي القرى التي ائتكفت بأهلها، أي: انقلبت، وهي قرى قوم لوط، أهواها الله وأسقطها، فهو بعد أن رفعها قلبها، ﴿ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴾ فيه تهويل وتعظيم.

هذه أربع عشرة مسألة مذكورة في صحف موسى وإبراهيم، وإنّما جيء بها لأن الذي تولى وأعطى قليلاً وأمسك عطاءه عاقل عن علم الله وعن العلم الذي أنزل على أنبيائه، ومن هذا العلم هذه المسائل، ومنها أنه لا ينفعه إلا ما عمل من صالح كالعطاء فلماذا يمسكه، والعطاء بدون إيمان لا ينفع، فكيف يعرض عن الأصل وهو الإيمان وعن الفرع وهو العطاء، وأكثر المفسرين رحمهم الله أنها نزلت في الوليد بن المغيرة، كان يتبع رسول الله صلى الله عليه وسلم فعيره بعض المشركين وقال: تركت دين الأشياخ وضللتهم. فقال: أخشى عذاب الله. فضمن بعضهم أن يتحمل عنه العذاب إن أعطاه بعض ماله، فارتد وأعطى بعض المشروط ثم بخل بالباقي، فهذا يذكره الله بأنه لم يطلع على علم الله حتى يعرف حقائق الأشياء، وأن فعله المذكور ليس مرضياً عند الله، وأنه لا يؤاخذ أحد بذنب أحد، فكيف ظن أن ذلك الرجل يتحمل عنه ذنبه يوم القيامة؟ والآية عامة لا تختص بهذا السبب ولا بغيره كما رأيت.

ولما عدد الله تلك المسائل وفيها عبر وحكم، ومتى اعتبر بها الإنسان صارت نعمة قال تعالى: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴾ أي: فبأي نعم ربك أيها المخاطب تتشكك؟ أبما أولاك من النعم أم بما كفاك من النقم؟ وكلها دالة على وحدانية ربك وربوبيته فبأيها تتشكك مع أنها واضحة؟ ﴿ هَٰذَا ﴾ أي: محمد ﴿ نَذِيرٌ ﴾ منذر ﴿ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴾ من المنذرين الأولين، أو الأولى على معنى الجماعة أو القرآن نذير من جنس الإنذارات الأولى التي أنذر بها من قبلكم، ﴿ أَزِفَتِ ٱلْءَازِفَةُ ﴾ قربت الساعة الموصوفة بالقرب في قوله تعالى: ﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ ﴾[القمر: ١]، ﴿ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴾ أي: ليس لها نفس كاشفة، أي: مظهرة ومبينة متى تقوم إلا الله، أو الكاشفة بمعنى الكشف كالعافية لا يكشف عنها ولا يظهرها إلا الله، وهما يؤولان لمعنى واحد، أو يقال ليس لها نفس قادرة على كشفها

إذا وقعت إلا الله ، غير أنه لا يكشفها لأنه لا بد ماض في جزاء كل بما يستحقه ، كما يقتضيه نظامه في السماوات والأرض ، فالمعنيان الأولان بمعنى بيانها ، والمعنى الأخير بمعنى كشف غمها إذا وقعت . ثم قال تعالى : ﴿ أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ ﴾ القرآن ﴿ تَعْجَبُونَ ﴾ إنكاراً ﴿ وَتَضْحَكُونَ ﴾ استهزاء ﴿ وَلَا تَبْكُونَ ﴾ تحزناً على ما فرطتم ﴿ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴾ لاهون أو مستكبرون ، يقال : سمد البعير ، إذا رفع رأسه في مسيره ، أو مغنون ، من : السمود ، وهو الغناء ، لتشغلوا الناس عن استماعه ، ﴿ فَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ وَٱعْبُدُواْ ﴾ دون الآلهة . انتهى التفسير اللفظي للقسم الثالث من السورة ، والحمد لله رب العالمين .

لطائف هذه السورة :

اللطيفة الأولى : في قوله تعالى : ﴿ وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ ﴾ .

اللطيفة الثانية : في قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ۝٤٣ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ۝٤٤ ﴾ .

اللطيفة الثالثة : في قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ۝٤٥ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ۝٤٦ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ۝٤٧ ﴾ .

اللطيفة الأولى : في قوله تعالى : ﴿ وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ ﴾

لقد علمت مناسبة أول هذه السورة لما قبلها ، وأدركت السر في ذلك ، وأزيدك الآن وضوحاً فأقول : لقد ختمت السورة السابقة بقوله تعالى : ﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ۝٤٨ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴾ [الطور : ٤٨-٤٩] ، والتسبيح بالحمد إما سبحان الله وبحمده ، وإما الصلاة ، ولا جرم أن التسبيح هو التنزيه ، والحمد هو الذكر بالجميل على الجميل الاختياري ، أي : أن يشكر الإنسان النعمة ، ليس المقصود مجرد الألفاظ ، إنّما يراد بالألفاظ وتكرارها إيقاظ القلوب إلى نعم علام الغيوب . وبعبارة أصرح : أن يتغلغل الإنسان في معرفة النعم ، أي : أن يدرس هذا النظام الذي نعيش فيه ، فالعامة يكتفون بالتسبيح والتحميد اللفظيين المعينين على نور القلب واستعداده للفيض ، وحكماء الأمة الإسلامية يسبحون ويحمدون ويكبرون لفظاً ، ثم يتغلغلون في الفكر والحكمة والعلم ، ويوقنون بأن الذكر بالقلب واللسان لهما في أثر المعارف والعلوم ، وعلى ذلك يجدون في الحكمة ، ولعلك تقول : أين هذا في هذه الآيات؟ أقول لك : انظر إلى سورة « ق » وإلى سورة « الذاريات » وإلى سورة « الطور » ، ففي « ق » قرع الكفار ووبخهم على أنهم لم ينظروا ما في السماوات وما في الأرض ، وفي « الذاريات » و« الطور » جعل الرياح والسحاب والمطر مقسماً بها ، تعظيماً لشأن العلم بها ودراستها ، وفي « الطور » أقسم بالعرش والفرش وبمعرفتهما ومعرفة ما بينهما . ولما ختم السورة أمر بالتسبيح والتحميد ، والحمد يرجع إلى النعم ، والنعم إن لم تعرف فلا حمد عليها ، فأصبح أمر الحمد هو نفس أمر العلم ، والعلم بكل مخلوق في الأرض وفي السماء بقدر الطاقة البشرية ، وما في الأرض والسماء مذكور أول السورة وما قبلها ، وابتدأ سورة « النجم » بأن أقسم بها لفتاً لنظر العبد إلى النجوم في إقبالها وإدبارها ، وإصباحها وإمسائها ، حتى لا يعيش الإنسان في دار وهو يجهل ما يحيط به فيها ، وفي ذكر النجم تذكرة بإشراق النجوم وبإشراق النفوس وبالعبادة وبإشراق القرآن ، وبإشراق الشرائع المنزلة ، وبإشراق نور النبوة ، وأن صاحبها صلى

الله عليه وسلم دنا من ربه فتدلى إلى آخره أو دنا الله منه، أو دنا هو من جبريل، هذه معان ثلاث رآها علماء آخرون جاءت في التفسير ذكرتها لتطلع عليها حتى تقف على ما ذكره العلماء، ولا تضيع وقتك في اقتفاء آثار الأقوال، وإنّما يهمنا الحكمة والعلم، فنقول:

لما رأى النبي صلى الله عليه وسلم من آيات ربه الكبرى كان هذا نوعاً من العلم، لأن كل ما رآه الإنسان ببصره أو بعقله فهو علم، وهذا العلم يستوجب الحمد المذكور في آخر السورة السابقة. يقول الله: ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴾[الطور: ٤٨]، وهنا يقول: إني أطلعتك على عجائب ملكي، وعلى شجرة عظيمة، وعلى فراش من ذهب الخ. وهذا العلم هو الموجب للحمد، فكأنه في السور السابقة شوق النفوس للمعارف، ذلك لأنه أقسم بالمخلوقات في السورتين السابقتين، وهذا تشويق للعلم بها، وذكر في سورة «الطور» البيت المعمور، وهو في السماء، ففتح بهذا باباً للنفس، وهنا يقول: انظر إلى عجائب خلقي، ومتى اطلعت عرفت، ومتى عرفت النعمة حمدت الله عليها، فالحمد اللساني قليل الجدوى.

يقول الله: إن محمداً ما ضلّ وما غوى، ثم قال: إنه اطلع على عالمنا وعجائبنا، فإذن يكون حمده المصحوب بالتسبيح في آخر السورة السابقة حمداً مصحوباً بعلم، فلا حمد إلا على نعمة، ولا بد أن تكون معلومة للحامد، وهاهو قد اطلع على عجائبنا وحكمنا في خلقنا.

ثمرة هذا المقام في أمم الإسلام

ما من امرئ إلا وأحس في نفسه بقول خفي تحدثه به نفسه فتقول في وقت ما: ما هذا الكوكب؟ ما هذا النبات؟ ما هذا الشجر؟ ما هذا الحجر؟ ما هذا المطر؟ ومن أين جاء البحر؟ وما هذه الشمس؟ وما هذا النور؟ وما أشبه ذلك، ويود لو يقف على حقائقها، ففي هذه السورة ابتدأ بذكر النجم تشويقاً لدراسته، وجاء فيها اطلاع النبي صلى الله عليه وسلم على عجائب هذه الدنيا وغرائبها، فلئن كان هذا للأنبياء من غير تعليم فليكن لنا بطريق التعليم، وليس عظمة الثروة عند الأغنياء إلا مشوقة لمن دونهم أن يكونوا على شاكلتهم، فمن جملت صورته طبعاً، ومن ورث الملك عن أبيه، ومن هو حاد الذكاء من الناس قد كانوا قليلين في الناس، وليس معنى هذا أن الناس لا يتولون الأحكام ما لم يكونوا ملوكاً، ولا يدرسون ما لم تكن أذهانهم خارقة للعادة، ولا يتجملون ما لم يكونوا آية في الجمال، كلا. فالأدنى يقلد الأعلى، فإذا رأينا في أنفسنا شوقاً إلى الاطلاع إلى العالم فلنجدّ في العلم حتى نعرف ما نطيقه، وإذا أطلع الله نبيه على آياته الكبرى وجعلها له نعمة فلندرس نحن بعض آياته المشاهدة في الطبيعة والفلك، وإذا وجدنا أنه صلى الله عليه وسلم رأى البيت المعمور، وأن هناك ملائكة يدخلون وهم كثيرو العدد الخ؛ فلندرس العلوم الفلكية، ولنقرأ ما عرفه الناس، فإن هناك عوالم عظيمة وكواكب تصغر شمسنا دونها، وإذا رأينا أن سدرة المنتهى قد انتهت إليها علوم الخلائق فلا يعرفون ما وراءها؛ فلنعلم أن ذلك يفتح لنا باب العلم فندرس ما في طاقتنا دراسته حتى تقف عقول الناس.

إن الناس يزيدون علماً في معرفة الكواكب والأفلاك والطبيعة ، ولم يقف الناس وهم يزيدون كل يوم كشفاً وعلماً ، فلندرس علومهم لأنها في حيز الإمكان .

ويعبارة أخرى : لم تصل العلوم إلى سدرة المنتهى ، فلو أنها وصلت إليها لوقفت العقول وأعلن العلماء أن العلم لا يزيد ، ولكن العلم يزيد ، ولا يجوز للمسلمين أن يقولوا : إن العلم قاصر على الفرنجة ، فهاهو ذا نبينا صلى الله عليه وسلم يقول : إن للخلائق حداً في العلم ، وليس معنى هذا أن يكون العلم خاصاً بغير المسلمين ، فإن قدوتنا صلى الله عليه وسلم هو الذي اطلع على آيات ربه الكبرى بلا تعليم ، فلنطلع نحن على آيات ربنا التعليم لأننا من الخلائق ، ولا يصح أن نستثني أنفسنا ، لأننا بهذا نكون قد جهلنا ديننا ولم نقتد بنبينا الذي أمره الله أن يقول : ﴿ رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴾[طه : ١١٤] فليس يصح لنا أن نقول ذلك .

يفتح لنا صلى الله عليه وسلم باب العلم ويقول : إنه رأى سدرة المنتهى ، وإن هناك علوماً ومعارف ، ويقول : إن ما وراء سدرة المنتهى ممنوع عن الخلائق ، وكل هذا يؤخذ من : سبحان الله والحمد لله والله أكبر ، فالتسبيح تنزيه الله ، والتحميد معرفة حق النعمة ، والتكبير الاعتراف بأنه أكبر مما نعلم ، فإذا كان التسبيح والتكبير والتحميد وراء الصلوات فهو مذكر لنا بذلك ، مذكر لنا بأن تصفو نفوسنا أخلاقاً وآداباً ، وتتفرغ للعلم ، فتنزيه الله عن المادة ولواحقها يفتح لنا باب التفرغ للعلم وترك المألوفات ، والتبري من العادات ، لأن العلم لا يدخل إلا قلوباً لها حظ من التهذيب والتأديب ، وهذا نوع من التنزيه عن المادة ، والعلم للنفوس المهذبة أقرب وهو المشار إليه بالحمد ، والعلم أمده طويل ولا حد له ، فليجد الإنسان فيه ليقرب من خالقه ، وعلى مقدار علمه يكون قربه ، فما قرب صلى الله عليه وسلم إلا قرباً علمياً ونحوه ، لا قرب الذات بل قرب المعنى .

ثم نعلم فوق ذلك أن الله أكبر من كل ما عرفناه وما يعرفه الخلق من ملائكة وجن وإنس ، فالتسبيح والتحميد والتكبير في الإسلام فواتح لرقي المسلمين كما تراه في هذا المقام ، فلم يقصد ذكر اللسان وخلو الجنان ، ولو قصد ذلك ما ذكرت سورة « النجم » بعد « الطور » التي ختمت بالتسبيح والتحميد ، بل جيء بسورة « النجم » التي في أولها المعارف والعلوم وأنه رأى من آيات ربه الكبرى ، فليقرأ المسلمون علوم العوالم المحيطة بنا ، فليقرؤوا تلك الكواكب البعيدة المدهشة التي يصل ضوؤها في مئات السنين ، بل في ألوف السنين ، بل في ملايين السنين ، وإذن تكون شمسنا قريبة جداً ، بل تكون المسافة بيننا وبينها بالنسبة لغيرها أشبه بطول رمح صغير بالنسبة لمحيط الأرض عشر مرات ، ويكون ضوؤها وقدرها بالنسبة لغيرها ضعيفين جداً وقليلين . فراجع ما تقدم في سورة « آل عمران » تجد ما نقلته هناك من أبعاد الكواكب عن أرضنا ، وفي سور غيرها كـ « الأنعام » ، وهكذا تقدم في هذا التفسير ما ذكرته روح غاليلي من العوالم البديعة ، والخلائق العجيبة ، التي تعيش عيشاً لا يحلم به أهل الأرض .

وإلى هنا تم الكلام على اللطيفة الأولى في قوله تعالى : ﴿ وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝ ﴾ ، والحمد لله رب العالمين .

اللطيفة الثانية: في قوله تعالى:

﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾ ﴾

قال صاحبي الذي اعتاد مسامرتي في هذا التفسير: الله أضحك وأبكى، الله أمات وأحيا، الله أهلك عاداً، الله أهلك ثموداً، وقوم نوح، وأهوى المؤتفكة، وانتهت الآية أن هذه آلاء الله، الآلاء: النعم، أمن النعم أن يبكي العيون ويهلك الأمم؟ نعم هذا السؤال ورد كثيراً في هذا التفسير وكثرت الإجابة عليه، ولكن النفس لا تزال تطالب بالمزيد، فحدثني أليس الله أرحم الراحمين؟ أليس الله قدوة لنا في أفعاله، الله أهلك أمماً وأبكى عيوناً، وإذا قتل أحدنا إنساناً عمداً دخل جهنم، الله يهلك أمماً، الله يسلط الميكروب على الأمم فيهلكها، ويسلط الأمم القوية على الضعيفة فتذلها، الله يسلط الوحوش على آكلات الحشائش فتأكلها، كل هذا فعل الله، لأن هذا نظامه، ثم تشريعه لنا على خلاف ذلك، فنحن بقتلنا إنساناً عمداً نعذب في جهنم يوم القيامة، وتحكم شريعتنا علينا بالقتل. وإذا كان الله أرحم الراحمين هذا فعله فكيف بنا نحن الضعاف في الأرض؟ هذه المعاني تتردد في نفسي صباحاً ومساء، وكل ما جاء في هذا التفسير من الأجوبة فيما مضى فإنما هي أجوبة جزئية، والجزئيات لا تغني عن الكليات، فأنا الساعة يوم الأربعاء ١٢ رمضان سنة ١٣٥٠ هجرية، ٢٠ يناير سنة ١٩٣٢م أريد إجابة شاملة كاملة حتى لا أحتاج إلى سؤال بعدها في هذا الشأن. فقلت: ماذا تقول في آية: ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾[الأنبياء: ٢٣].

فقال: وما تقول في آية: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ﴾ [آل عمران: ١٨]. فنحن الآن في مقام السير في طريق أولي العلم الذين يشهدون ببصائرهم أن صانع العالم قائم في عمله بالقسط والعدل، نريد أن نشهد ونحن في الأرض كيف كان الله قائماً بالقسط في تدبير الخلق، وفوق ذلك نريد أن نفهم كيف يمكن الجمع بين هذا الإهلاك والإبكاء والتدمير وإبادة الأمم وإذلالها وبين اسمه «الودود»، ألم يقل الله: ﴿ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾[البروج: ١٤-١٦]، ولا جرم أن الودود يفعل ما يريد، ولكن هل يلقي وده إليهم ويكون فعله محبوباً لأنه أتى على سبيل المحبة، وهو إهلاك المدن، وإزالة الدول، وإبكاء العيون، أيكون ذلك وداً؟ وأيضاً جاء في القرآن آيات في سور كثيرة كلها دالة على تنزيهه في ذاته وصفاته وأفعاله، وذلك بصفة التسبيح، والتسبيح تنزيه، وهذا المعنى جاء مصدراً وفعلاً ماضياً وفعلاً مضارعاً وأمراً، فهو مصدر في سور كثيرة مثل: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا ﴾[الإسراء: ١]، ﴿ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴾[الروم: ١٧]، وفي هذه السورة، وفي آخر السورة قبلها: ﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴾[الطور: ٤٩]، وسيأتي في سورة «الحديد»: ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ

وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾[الآية: ١]، وذكر الإحياء والإماتة هناك كما ذكرها هنا، وفي آخر سورة «الحشر»: ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾[الآية: ٢٤]، وفي آخر سورة «المجادلة»: ﴿رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾[الآية: ٢٢]، إن رضا العبد عن ربه وتنزيهه وحبه ووده يعوزه الاطلاع على جمال الأفعال، والأفعال الإلهية المذكورة مشكلة مع أوصاف الحب والود والرضا الخ. فأرجو الإجابة على هذا حتى لا أعود إلى السؤال كرة أخرى، فقلت: سأسامرك إن شاء الله في أول سورة «الحديد» في هذه المعاني، وهناك تتجلى المعاني التي تريدها، وإن كان أكثر ما سأقصه عليك هناك قد مضى كثير منه متفرقاً فيما مضى من التفسير. وسأشرح:

(١) النظام التكويني.

(٢) والنظام التشريعي وأنهما متفقان

(٣) وأبين درجات التربية الست.

(٤) تربية الأم لولدها.

(٥) وتربية الأب له.

(٦) وتربية المعلم.

(٧) وتربية الحكومة للأفراد مع ما يتبع ذلك من نظام الجندية.

(٨) التربية الإلهية وأنواع الزلازل والحوادث العظيمة.

(٩) وأن الأم حين تمنع ولدها ما يضره وهو يبكي لم يمنع ذلك حبها له، وقد ضربت مثلاً لدرجات التربية التي بعدها، وبمقدار ازدياد العلم تعرف حقائق تلك التربية ويزداد الحب للمربي.

(١٠) وبيان أن العلم إما بهيئة سطحية كعلم الشعراء والأدباء، وإما بهيئة حكمية فلسفية عالية كعلم الحكماء، وإيضاح ذلك وتفصيله من كلام «كونفوشيوس» فيلسوف الصين الذي توفي في القرن الرابع قبل الميلاد.

(١١) ثم بيان أن الحب على مقدار العلم.

(١٢) بيان أن الله توارى عنا بحجبه ولكنه قذف لنا كرات جميلة لا حصر لها، وهي الشموس والكواكب، وهو يقربها ويبعدها ليجذبنا إلى حضرته، وجعل الشطرنج والنرد عند اللاعبين مثلاً لذلك، كما جعل الجمال والحب الأدنيين مثلاً لجماله وحبه الأعليين، وصنع للناس في الأرض عجائب لولا حوادث الموت والحياة ومزعجات الليالي لذهلت عقولهم، فمن سرج تجري في سقف مرفوع تدور حولهم، ومن حدائق وحقول حولهم ومناظر بهجات، وتارة يرسل لهم شهباً تقترب من أرضهم ليوقظهم إلى العلا، ونسبة هذه الأعاجيب إلى صانعها كنسبة صفات الكرة والصولجان والنرد والشطرنج إلى مخترعيها، والتعجب يكون على مقدر إتقان الصنعة.

هذا ما سأذكره هناك إن شاء الله مع شذرات في الآيات التي ذكرتها أيها الأخ الذكي.

فلما سمع ذلك قال: إن هذا لعجب! وإني لفي غاية الشوق إلى ما وصفت. انتهت اللطيفة الثانية.

اللطيفة الثالثة: في قوله تعالى:

﴿ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾ ﴾

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الرحمة مذكورة في البسملة في أول هذه السورة، وهي منبثة في كل أجزاء العالم الذي نعيش فيه، الذي هو محل دراستنا كما أنه مناط حياتنا.

اللهم إنك أنت الحكيم العليم الملهم الهادي، نحمدك اللهم على الهداية، وعلى الحكمة، وعلى النور والعرفان، العرفان الذي ابتهجت به يوم الأحد الماضي في تفسير هذه الآيات، وذلك بتاريخ ١٤ مارس سنة ١٩٣٢ في شهر شوال سنة ١٣٥٠هـ.

خرجت من القاهرة مع أهل بيتي لمشاهدة حقلنا الذي اعتدت في هذا التفسير أن أكتب خواطري فيه، تلك الخواطر التي ترد في المزارع والحقول، وقد امتزج المعقول فيها والمنقول، نور الله على نور، نور الوجود على نور الكتاب المبين، نور الحكمة العلمية يزدان بكتابنا المقدس، كتابنا الذي جاء به الوحي تفسره المناظر الطبيعية، وتشرح تفسيره المباهج الحقلية، ركبنا القطار من القاهرة، آذن القطار بالمسير، إذ ارتفع صفيره، وازداد شهيقه وزفيره، وأخذ يطوي الأرض طياً من محطة الليمون عند القاهرة ميمماً محطة المرج وهي التي منها نتوجه إلى حقلنا، هنالك أخذ الفكر يجول في عالمنا الذي خلقنا فيه، وخيل لي أن روحاً علوياً قد تمثل لي بشراً سوياً، وقد أخذ يخاطبني، وما أجمل الخطاب، وما ألذ حديثه المستطاب، إذ أخذنا نتجاذب أطراف الحديث من قديم وحديث، هناك نسيت القطار ومن فيه، وخرجت من ضيق الأرض إلى فسيح السماوات، وغبت عن عالم الحس، وارتقيت إلى عالم الروح والعقل، وسموت إلى فسيح السماوات تذكيراً وتفكيراً.

هنالك قال لي الروح: انظر إلى عجائب الشمس، انظر إليها كيف ترسل ذرات النور متتابعات متتاليات في الجو، وانظر كيف تسافر تلك الذرات في فسيح الجو جاريات منها إلى الأرض، ما أسرع جريها، إنها تجري حثيثاً من حين خروجها إلى أن تصل إلى أرضكم هذه في ٨ دقائق و١٨ ثانية، تجري وتلحقها أخرى بتقدير محكم ونظام عجيب، وهذه الذرات الضوئية المشاهدة يحسبها الناس غير موزونة وهي موزونة. لقد تقدم في هذا التفسير أن علماء عصرنا قد وجدوا للضوء وزناً، وأن الشمس تخرج في الثانية الواحدة منه ما يقدر بمئات الملايين من القناطير المقنطرة، وكل هذا واضح فيما تقدم بأجلى بيان، ذلك لأن النور عبارة عن حركات، والحركات طبعاً لها ميل واتجاه، وهذا الاتجاه له ثقل وإن كان ذلك لا يشعر به أحد، ولكن اجتماع الكثير الذي لا حصر له يوجب ثقلاً عظيماً كما قدمناه.

ثم قال: وهذا الضوء الذي هذه صفته يجري في جو أثقل منه بما لا حد له، أقول: انظر ما تقدم في أول سورة «الصافات» فقد أثبت العلماء في عصرنا أن هذا الجو الفسيح بقطع النظر عن الهواء الذي هو فيه مملوء بما يسمونه الأثير، والأثير عالم لا نحس به، وقد قلنا: إنه أشبه بخيالنا نحن، فكما أن خيالنا لا وزن له وهو موجود هكذا الأثير يظن الإنسان أنه لا وزن له بل لا وجود، ولكن العلماء أثبتوا وجوده ووزنه معاً، ولكنه وزن مدهش إذ قالوا: إنه لو قدر وكان مادة محسوسة لكان أثقل من الحديد

بمئات المرات، وهذا المقام محقق هناك بقدر الإمكان فارجع إليه، ويقرب من ذلك أن الشمس والكواكب والأرض كلها متجاذبات، والحبال التي تتجاذب بها وتتمسك بها هذه الأجرام الكبيرة، هذا هو الأثير فلنفرضه حبالاً، وهذه الحبال المعنوية بها تجذب الشمس الأرض والسيارات، وتجذب الأرض القمر.

وبعبارة أخرى: إننا نعيش في جو مشبع بالجذب، فهذا الجذب قوة، وهذه القوة لو جسمت لكانت أثقل من الحديد والرصاص والأحجار بآلاف المرات، وهذا الذي قلته الآن يسهل عليك أيها الأخ فهم مقال الروح لي، ويزداد به فهم ما ذكره العلماء ونقلته في أول سورة «الصافات»، وذكرت هذا الإيضاح هناك.

ثم قال الروح بعد ذلك: انظر الطيور، انظر الحشرات، انظر الأشجار، انظر هذا كله. فقلت: ثم ماذا؟ قال: قد فهمت منظر الشمس، وفهمت إخراجها لأنوارها، وأنها جاريات في عالم قوي متين وهذا العالم القوي المتين هو الأثير، ذلك الأثير القوي المتين الذي به عرفتم قوله تعالى: ﴿ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴾[النبأ: ١٢]، فكل كوكب يحيط به أثير، والعيون تنظر الجو إلى أمد محدود، وهنالك ترى قبة منظورة واضحة لا يشك من رآها أنها سماء تظله، كما لا يشك الرجال والنساء في سقوف بيوتهم أنها تظلهم، وهذه السماء المنظورة عبارة عن أجزاء من الهواء منبثة في أجزاء الأثير، والأثير هو الأصل، والأثير قوي متين قوة لا حد لها، وهذا قوله تعالى: ﴿ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴾[النبأ: ١٢]، فالشدة الآن واضحة أشد وضوح في زمانكم، وقوله بعدها: ﴿ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴾[النبأ: ١٣] بيان للضوء الجاري من الشمس في ذلك الجو الشديد القوي المتين، وهذا الجو القوي المتين هو العمد الذي لم تروه في آية: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾[الرعد: ٢] فهذا الأثير عمد غير مرئية، وهذه العمد قوية متينة، وكيف لا تكون قوية متينة، وقد رفع فوقها سماء شديدة: ﴿ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴾[النبأ: ١٢].

ثم قال: إذا عرفت هذا فأنت الآن وجميع بني آدم وكل حيوان ونبات تعيشون في وسط واحد يغمركم جو الأثير، ذلك العالم الخفي القوي المتين، النور يشرق عليكم جميعاً، إذن هذا العالم جسم واحد، وهذا الجسم يشرق عليه نوران: نور حسي، ونور معنوي، فالنور الحسي شرحناه، والنور المعنوي هو الذي سنشرحه الآن، فهذه الطيور لها غرائز وأنواع من الإدراك وهذا الإنسان، بل النبات له نوع إحساس، وما ذلك كله إلا أنوار معنوية، وإذا كان للنور منبع وهو الشمس، وقد سطع على كل بر وبحر، وعامر وقفر، ونبات وحيوان وإنسان، فهكذا ذلك النور المعنوي المنبعث من عوالم أرقى من الشمس، عوالم هي هي شموس العقول والإدراك، عوالم أنتجت بقدرة الله وعلمه، هذه الشموس هي أولى باسم الوجود، هي أولى باسم النور، هي أعمدة لهذه العصافير الطائرات المغردات المربيات لذريتها، هي المعطيات لهذه الحشرات إدراكها وعلمها.

أيها الجوهري، ألا خبرني رعاك الله، ألم تقرأ ما جاء في كشفكم الحديث في أرضكم أن هناك في المزارع التي تراها مادة تسمى الفيتامين وهي مادة الحياة، والفيتامين المذكور يقوى في الفواكه والخضر ويقل في غيرها، ويشتد ظهوره في البرتقال وما قاربه، ويقل في نحو الأرز الذي فصل من قشره، كما

جربوا ذلك مع الفيران في ألمانيا، إذ رأوا ما أكلت الأرز منها وهي في الظلمة قد مرضت وهلكت، وما أكلت البرتقال منها قويت وسمنت، فعلموا أن البرتقال أخذ من مادة الحياة المنبثة في ضوء الشمس، المنبعث منها عليه أكثر مما أخذ الأرز، لأن القشر الذي كان عليه هو الذي تلقى ضوء الشمس، فلما فصل منه أصبح هو قليل القوة والمتانة، وأصبح آكله المقتصر عليه أضعف من آكل البرتقال ونحو البرتقال.

ثم قال: إذن هنا ضوء الشمس فيه قوة الحياة، وهذه القوة منبعها الشمس، وهذه القوة تكثر وتقل بحسب القابليات، فعلى مقدار القابليات تكون العطايا.

الله أكبر، جلّ الله، أليست هذه الحيوانات من حشرات وطيور ودابة وإنسان قوابل لنور الفكر، والعالم العلوي الملكي أشبه بشموس تنبعث منها الأنوار الفكرية، وهذه الأنوار الفكرية تكون في الإنسان أكثر من الحيوان، وتختلف الأنوار الفكرية باختلاف القوابل الحيوانية، إذن الأنوار الفكرية لا تزال تنبعث من عوالم نورية تسمى بلسان الشرائع ملائكة، وبلسان الحكمة عقولاً ونفوساً، اختلفت الأسماء ولكن المسمى أصبح معلوماً لكم بطريق القياس، لأننا نكلمكم على قدر عقولكم أيها الناس، فهناك عوالم روحية نورية عقلية نسبتها إلى عقولكم وعقول حشراتكم ودوابكم كنسبة أجرام هذه الشموس والكواكب إلى أحجام أجسامكم، وإذا كان للنور المحسوس أجرام عظيمة هي منابعه، هكذا للنور المعقول منابع هي أصوله، إذن المحسوسات جعلت أمثلة للمعقولات، وهل أدار الله الشمس حول أرضكم وأجراها جرياً متتابعاً بحساب إلا لتدرسوها، ومن أجل دراستها أن تتفكروا وتقولوا هاهي ذه أنواع المآكل اختلفت قوة الحياة فيها قدراً ومنفعة، حتى إن قشور الفاكهة والحبوب قد كمنت فيها قوة الحياة المستمدة من ضوء الشمس أكثر مما كمن فيما وراء تلك القشور من لب الثمار ولب الحبوب البعيدة عن ضوء الشمس، فآكل تلك القشور ينال من قوة الحياة أكثر مما ينال آكل ما تحت تلك القشور.

ثم تقولون: وإذا كان ذلك كذلك في عالم الحس فليكن هكذا عالم الروح، وأن النفوس لا تأخذ من العوالم الروحية إلا على مقدار ما استعدت له، فإذا رأينا إنساناً وحشرات وطيوراً ودواب، فهذه لم تختلف في إدراكها إلا باختلاف قابليتها لما يرد عليها من العوالم الروحية التي تحيط بالشموس وبالثوابت وبالسيارات، وإذا كان المسلمون اليوم في أنحاء الأرض أقل علماً من غيرهم في الأمم فما ذلك إلا لأنهم قد أصبحوا أشبه بما تحت قشور الحبوب والثمار والفواكه، لأن الخرافات قد أحاطت بعقولهم، وأضلهم بعض شيوخهم، فمنعوهم العلم، ومنحوهم مواعيد عرقوبية، وأفهموهم أن حظوظ الحياة وحظوظ الممات ليس مدارها على العمل، واتكلوا على المغفرة المجانية، ونسي كثير منهم أنفسهم وغرائزهم وعقولهم، فلم يصل لهم من تلك العقول العالية إلا قليل، كما لم يصل لما تحت قشور الحبوب إلا قليل، فقلّت مادة الحياة في الدقيق الناعم في نحو البر، وكثرت في النخالة وفيما يسمى بـ «السن»، وهو الذي يتركه الناس فلا يأكلونه، وقد يطعمونه البهائم جهلاً منهم، وهو الذي فيه قوة الحياة والمنفعة.

إن نور الفكر منتشر انتشار ضوء الشمس، نور مشرق على جميع هذه الكرة الأرضية كما ينتشر نور الشمس وجميع كواكب السماء، لا مكان في الأرض، ولا في الجو، إلا وهو مشبع بأنوار لا حصر لها، أنتم يا بني آدم لا تكادون تفهمون من الأنوار العلوية في أرضكم إلا نور الشمس والقمر، مع أنكم في الحقيقة تشرق عليكم أنوار كثيرة جداً لا حصر لها، فكل كوكب كشف أو لم يكشف يسطع نوره الآن على الأرض، وتصل منه آثار إلى أجسامكم كما تصل آثار من الشمس والقمر، وتلك الآثار لها عمل فيها. إذن هنا أنوار كثيرة لا حصر لها تسطع على أجسامكم، وأنتم لا ترونها، وإذا كان ذلك محققاً فعلاً في نور محسوس فإن الأنوار العقلية المشرقة العلوية الروحية تحيط بكم ولا حصر لها من مشرقات عليا، وهي عوالم الملائكة، ونفوسكم تتقبل منها كما تتقبل أجسامكم أنوار الشموس والكواكب والأقمار.

فلتتعرضوا لتلك الأنوار الروحية أيها المسلمون، وإن كانت خافية فنظيرها في الخفاء أضواء الكواكب البعيدة مع أنها محققة، ولن يتم ذلكم لكم إلا بنبذ الخرافات ودرس نفس هذا الوجود ونفس القرآن، وليس يغني والله ما قرأتم في كتب أسلافكم الذين درسوا ما يناسب زمانهم ولم يتوسعوا في العوالم العلوية والسفلية توسع أهل زمانكم، وإن كانوا لم يقصروا في ذلك ولمحوا تلميحاً إلى ما ظهر في هذا الزمان، إذن هاهنا أمران اثنان لا ثالث لهما: نور محسوس، ونور معقول، والمعقول أصل المحسوس، هذا جسمك يا جوهري تشرق عليه الشمس ويشرق عليه نور الفكر، يشاركك في ذلك كل إنسان وحيوان، بل النبات له حظ من الإدراك، وهذه العوالم كلها في المجموعة الشمسية، والمجرة العامة، والمجرات كلها جسم واحد متجاذب فلا فضاء إذن، وهذا الجسم المتجاذب له قوى متعددة مختلفة، خلقه الله وبث فيه أنوار الكواكب وأنوار العقول العالية، فهو الخالق لتلك العقول العالية ولتلك الشموس الكبيرة، ولا تعجب أن تكون أنت الساعة لك اتصال بعوالم علوية مشرقة وأخرى تزجي الفكر، وأنت وكل حيوان ونبات تستمدون من النورين وتسعدون بالإشراقين، الله عز وجل لا ترونه لأنكم الآن في حال التربية، وهذه العوالم هي الغطاء، فالعوالم الحسية غطاء حسي، والعوالم الروحية غطاء روحي، هما غطاءان لو كشفا لرأيتم الله، ولكنهما لن يكشفا رحمة بكم وإحساناً ولطفاً، لو أن الله كشف هذه الحجب ورفع الغطاء عن أعينكم الباطنية لهلكتم ولذبتم، ولكن لرحمته العظيمة خلق لكم شموساً ظاهرة وشموساً أجمل منها باطنة، وهي العوالم الروحية، وقال لهما: تعاونا في تربية كل إنسان وكل حيوان، فتعاونت أضواء الشموس مع أضواء العقول على تربية العالمين.

حيرتي وفراقي لتلك الروح الجميلة
والكلام على الهواء والضياء والقوى الفكرية في الرئة وفي الغذاء وفي المخ

هنالك وصل القطار إلى محطة المرج، ومدة جريه نصف ساعة من الزمان، فأفقت من غشيتي ورجعت إلى حسي، وغاب عني ذلك الروح الذي تمثل لي بشراً سوياً، فساورتني حيرة، واعتراني هم، ذلك أن ما تخيلته وأنا في القطار له قيمة علمية، ولكن المقصود من تفسير الآية لم أصل إليه

بعد، لأني أريد أن أفهم لماذا يذكر الله: ﴿ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰ ﴾[النجم: ٤٧] بعد ذكر ﴿ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰ ﴾[النجم: ٤٥]؟ وما المناسبة بين الذكر والأنثى والنشأة الأخرى؟ ثم لماذا نسمع الله يقول في سورة «الأنعام»: ﴿ كَتَبَ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ﴾[الآية: ١٢]، ولا جرم أن جمعنا يوم القيامة يكون بالنشأة الأخرى، فهل كون الإنسان ذكراً وأنثى هو الرحمة التي جعلها الله مقدمة لتلك النشأة؟ أم ماذا يكون؟ فإذا رأينا الرحمة جعلت في مقابلة ذكر الزوجين وجعل ما بعد كل منهما هو النشأة الأخرى؛ فإذن علينا أن نفهم هل في الذكورة والأنوثة مبادئ للنشأة الأخرى، هذا هو الذي حار فيه فكري، هنالك نزلت من القطار، ولكني لم أمش في طريقي من المرج إلى مزرعتنا كما جرت عادتي لأنني اعتدت كما ذكرت في هذا التفسير مراراً أني أنزل من القطار وأمشي نحو ساعة حتى أصل إلى الأرض، وهكذا في الرجوع طلباً لرياضة البدن، وفرحاً بنعمة العلم، واستنشاقاً للهواء النقي، فإنه إذا كانت أجسامنا لا بد لها من غذاء، وأهمه الفيتامين أي مادة الحياة الكامنة في الخضر والفاكهة والحبوب ولا سيما في قشورها. وإذا كانت عقولنا لا بد لها من أنوار فكرية تصل لها إذا خلت من الشواغل الحسية والمعنوية، وهذه الأنوار الفكرية يحصل عليها كل حيوان بحسب استعداده وكل إنسان بحسب قابليته، هكذا الرئة لا بد لها من هواء يدخل بالشهيق ويخرج بالزفير.

وقد ظهر اليوم أن الإنسان إذا استنشق بالشهيق مقداراً كبيراً وهو في الخلاء وعند شواطئ البحار، وأخذ إذ ذاك يدخل النفس بلطف ويحبسه قليلاً ثم يخرجه بالتدريج بلطف فيدخله في نحو ٦ ثوان أو ٧ مثلاً ويبقيه في مدة كذلك ثم يخرجه في نحو هذه المدة بالتدريج، ثم يبقيه خارجاً كذلك، يفعل ذلك آناً فآناً حتى يتعوده، ثم يزيد في الزمن على مقدار الطاقة إدخالاً وإخراجاً، وحبساً للنفس داخلاً وحبساً له خارجاً، فأنا هكذا كنت أفعل أثناء المشي كل مرة وأنا مع ذلك أدرس هذه الطبيعة الجميلة البهجة ذات الجمال.

أقول: ففي هذا اليوم لم أمش بل ركبت مع عائلتي سيارة، وسرنا إلى أن وصلنا الأرض «مزرعتنا» عند كفر الباشا من أرض بركة الحج.

منظر الأرض وتفسير الآيات في مزارع الحقول

أخذنا نجوس خلال الأرض، وجلنا فيها جولات، وجلسنا هناك إلى قرب صلاة العصر، فكان منظر الحقل جميل أي جمال، حقل أمامه الجبل شرقاً، ووراء المزارع الخضرة والنخيل وأنواع الحبوب والحشائش المختلفات غرباً، وقد هبت النسمات، فتذكرت الأثر الوارد: إذا هبت الأرواح، وفاءت الأفياء، فاذكروا الله فإنها ساعة الأوابين.

مناظر الأشجار المحيطة بالحقل فيها النخيل الكثير، وهناك الأثل، أي: العبل، والطيور مغردات والحشرات مغنيات، وأنواع الشعير والقمح والبرسيم والفول وهي متمايلات طرباً وبهجة، تهتز اهتزاز الولهين، وتمشي مشية العروس بهجة للناظرين، والريح تعبث بالسنابل وتلعب بجريد النخل وأغصان الأشجار تقلبها ذات اليمين وذات الشمال.

ولهذه الأنواع أصوات موسيقية، ورنات غنائية، وهي موسيقى حقيقية لا خيالية، ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[الأعراف: ١٨٧]، وللحشائش من النغمات ما ليس للأشجار والنخيل والأعناب، العوالم كلها في طرب وبهجة وحبور، ولكن هذا الإنسان هو الذي حيل بينه وبين ذلك الطرب والحبور للجهل الفاشي في نوع الإنسان، هذه هي الخواطر التي خطرت لي أثناء جولاتي في وسط الحقول.

حضور الروح الخيالي في الحقل معي وتفسيره لآية:

﴿ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾ ﴾

وبينما أنا غارق في هذه الأفكار في الحقل إذ حضر الخيال الروحي الذي كان معي في القطار فقال: إن ما ذكرناه معك في القطار يجعل العقل الإنساني كأنه ناظر إلى ربه، إن الأمر أصبح واضحاً إنسان عاقل تحيط به أنوار، ويداخله فكر، هو في أنوار عقلية وأنوار حسية، هي مرسلات له من الله، ولكنه لا يزال في حال التربية، وهو وإن حجب بذلك عن أن يرى الله فإنه إذا صفت بصيرته يرى أنه هو جزء من هذه العوالم التي أرسلها له الله، وهذه العوالم جميلة جمالاً حسياً وجمالاً معنوياً، ألا ترى إلى جمال الحقول واختلاف الصور والنغمات، ألا ترى إلى جمال العقول واختلاف إدراك العصفور والزنبور والنخلة وإدراك الإنسان، تلك مناظر ذات جمال وبهاء وسناء، فلئن اختلف شجر النخل وشجر العنب والرمان وأنواع الفول والقمح والشعير من حيث أشكالها، ومن حيث نغمات الهواء المتخللة أوراقها وأغصانها؛ فلتختلفن آراء الإنسان والحيوان من حشرات ودواب وطيور، اختلفت الأحجام والأصوات والإدراكات ولكن الأخيرة هي الباقية، أما الأصوات وأما الأجرام فهن كلهن ذاهبات، وعالم الفكر هو الذي إليه تشد الرحال، وبه يسعد الرجال.

وبينما أنا كذلك إذ لاحت مني التفاتة إلى نخلتين في الحقل إحداهما ذكر والأخرى أنثى، فأردت أن أقتلع الكُفُرّى ـ بضم الكاف وتشديد الراء ـ أي: وعاء الطلع من النخلة، فمنعتني السلاء التي يحملها قحف الجريد المحيط بذلك الطلع، هنالك تذكرت ما مرّ في هذا التفسير من أن تلك الشوكات الطالعات بجانب أوراق شجر السنط لم تخلق إلا للمحافظة على تلك الورقات لضعفهن ضعفاً كثيراً، فهذه الشوكات تساعدها حتى تتحمل العواصف وتقلب الهواء في الأجواء والأوقات المختلفات، ولذلك نرى ورق السنط مع ضعفه يعيش جنباً لجنب مع خوص النخل القوي المتين، وخوص النخل لا يعوزه من يقويه، أما ورق السنط فهو ضئيل وضعيف، أما ما هنا في النخلة فإن هذا الشوك المنتظم على جانبي القحف لم يجعل إلا للمحافظة على الطلع في ذكر النخل، وعلى خلق التمر وتربيته في أنثاه، إذن هذا الشوك اعترضني حتى لا أمد يدي فأتناول الكُفُرّى من هذه النخلة التي أنتجته لأني أستعمله فيما لم يخلق له، خلق هذا الطلع ليلقح ثمر النخلة قريبة أو بعيدة، وفي حقلنا نخلة تقرب منه، لذلك جعل الله هذه السلاء ـ جمع سلاءة ـ لتمنع الأيدي العابثة فلا تمتد إليها، هذا الخاطر ورد إلي أثناء هذه المحاولة، فجاء غلام صغير في الحقل وقال: إن هذا يشوكك فابتعد عنه وأنا أنتزعه لك، فتقدم لينزع الكفرى فلم يقدر وقال: إنني إن انتزعته انكسر، ونحن نريد أن نعطيه لك

سالماً، فبقول هذا الغلام تم الدرس الذي كنت أفكر فيه، فجاء رجل من نفس الحقل، وقال: لا يمكن قطعه إلا بسكين حادة، فقلت في نفسي: الآن حصحص الحق، أعني أن هذا الطلع لا يأخذه إلا من له به عناية، ولا عناية إلا بمنفعة، والمنفعة هنا الإلقاح، والإلقاح كثيراً ما يكون بيد الإنسان، فيأخذ الطلع من الذكور إلى الإناث، وهذه العناية النافعة يتخذ الإنسان لها عدة، وهي آلة حديدية حادة، بها يقطع ذلك المطلوب.

هنالك قلت: لا يتسع الوقت للبقاء واشكرك، وأنا الساعة أريد الرجوع إلى المنزل بالقاهرة، هنالك خاطبني الروح قائلاً: أنسيت الدرس الذي كنا ندرسه في القطار؟ إن له صلة بهذا الموضوع الذي هو تفسير لهذه الآيات. فقلت: وكيف ذلك؟ فقال: إن النخلات الذكور والإناث متصلات بنور الشمس الذي شرحناه قريباً، فهاهنا شمس وهاهنا نخل، ولولا النظام الدقيق في حساب الشمس ما أثمر النخل، هذا أوان فصل الربيع قد بقيت له أيام قليلة، ولا جرم أن الشمس في هذا الفصل تأخذ بالاقتراب من بلادكم، وبها تزدهر الأشجار والزروع، وتكون الثمرات، وتزاوج الحيوان، وظهور الأنوار، والجمال والحسن، والعشق والغرام، وهاهنا ذكر وأنثى، وهاهنا سلاء شائكة حارسات لهؤلاء الذكور وهؤلاء الإناث، الشمس بقربها أرسلت نوراً، وذلك النور له آثار بفعل الله في نماء النبات قرباً وبعداً، وفي إنتاجه أنواع الثمرات، وهذه الشمس لولا حسابها الدقيق لم يكن شجر ولا ثمر، لأن النماء لا بد أن يكون بنظام، وهذا النظام لا بد أن يسبقه نظام في حساب سير الشمس، ولو لم تكن الشمس جارية بحساب لم تر عينك اليوم هذا الطلع في النخلة الصغيرة التي أمامك الآن، ولو أن الشمس قربت وبعدت بغير نظام لم يكن شيء من هذا، بل لم تكن أنت موجوداً في هذه الأرض، ويقال لك: يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا، فترجعون إلى عالم الأموات، إذن بين هذا الطلع وبين نفس الشمس وبين حساب سيرها مناسبة تامة، وإذا صح ذلك بالنسبة لنور الشمس فليصح نظيره في مسألة ظهور السلاء على قحوف الجريد: جمع قحف كحمل، فهل هذه السلاء بارزات بهذه الدقة ولهذه الغاية والمنفعة والمحافظة على تلك الثمرات وطلعها من تلقاء نفسها، فإذا كان بروز الثمرات من تلقاء نفسها ولم يكن بأسباب الضوء الجاري من الشمس بنظام وحساب فليكن بروز السلاء الشائكة على قحوف الجريد بغير علة، بل نظام بلا منظم، ولكن الأمر ليس كذلك، إن الثمر في ظواهر حاله تابع لمؤثر الظاهري وهو ضوء الشمس قرباً وبعداً بحساب، ولكن ضوء الشمس لا يعقل ولا يفهم أن هذا الطلع الضعيف يعوزه سلاء تحافظ عليه فتمنعني أنا من أخذ الطلع، إذن هناك تلك الأرواح التي ضربت لها الشموس مثلاً في الوجود، وهن مرسلات أنواراً حكمية على كل بقعة، فإن كانت في الإنسان فهي عقل، أو في الحيوان فهي المسميات غرائز، وإن كانت في النخلة أو في أجسام الإنسان والحيوان كان ذلك تنظيماً وإحكاماً بحيث يعطى كل ذي حق حقه.

فهذه السلاء أيها الجوهري التي أمامك نظمت بنور حكمي استمد من أرواح عالية كما استمدت هذه النخلة أنواراً من الشمس قرباً وبعداً، وكما كان الحساب في سير الشمس ظاهر الأثر ظهور الطلع في إبانه.

هكذا كان الحساب عند تلك الأرواح العالية ظاهر الأثر في إبداع تلك الشوكات المختصات بثمر هذه النخلات.

أيها الجوهري، هذه الحكمة التي وضحت الآن تفسر هذه الآية تفسيراً جميلاً لم يسبق له في كتب المسلمين نظير.

انظر أيها الجوهري، انظر، انظر في جسمك، ألست الآن في آخر العقد السابع من حياتك، انظر ألست ترى الرأس مشتعلة بالمشيب، ألست ترى هذا الجسم قد أدبر شبابه وأقبل هرمه؟ قلت: بلى. قال: ماذا يقول هذا الجسم بلسان حاله؟ السلاء في النخلة، هاأنا ذا أسمعتك قولها، فهاك أسمعك أقوال جسمك الذي أدبر شبابه وقوته، وأقبلت أيام هرمه وضعفه، يقول جسمك اليوم وجسم كل إنسي على شاكلتك: أنا لباس روحك، تلك الروح التي تحيط بها أنوار حسية وأنوار عقلية، تشرق عليها من عوالم الجمال والكمال، كنت فتى وشاباً وكهلاً، كل ذلك لتنمو روحك في هذه الحياة وتجرب هذه الدنيا وتدرسها، ولكن هذه الحال مقدمات، والمقدمات لها نتائج، فإذا أنا ضعفت اليوم فهذا الضعف مقدمة للزوال، ومتى زالت عنك كشفت روحك هذا الوجود، فقلت للروح الذي تخيلته: أنا إلى الآن لم أفهم المراد، ولم أعرف سر الآية، فأقول أنا أوضح ذلك.

إيضاح تفسير الآية بمسألة الذكور والإناث

هنالك أخذ الروح يسألني: هل ترى أن الذكورة والأنوثة واستقلالهما ضروري في الحيوان والنبات؟ قلت: لا. قال: ولمَ؟ قلت: لأن من النبات ما يتولد بغير ذكر كما نرى من الأغصان التي نأخذها من شجرات ونزرعها فتكون شجرات كأمهاتها وذلك كثير في الأشجار وهكذا.

المحار: من أنواع الحيوان. إن المحارة الواحدة تلد الألوف بهيئة بيض، وهذا البيض يبقى فيها أمداً حتى يفقس، ومتى فقس عاش حولها في البحار وتربى وهو صغير بهيئة الذر كأنه مادة تلون الماء ـ هذا المقام واضح في سورة «مريم» فاقرأه هناك ـ فهذه المحارة فيها الذكورة والأنوثة معاً، فلا عشق ولا غرام ولا هجر ولا فراق، بل هناك ولادة بغير هذه التكاليف كلها، فلا طلاق ولا خلع ولا نفقة ولا عدة ولا أحكام شرعية ولا حقوق لزوجة، ولا حقوق لرجل، بل كل هذا استغنى عنه المحار، إذن هذا كله لا ضرورة له في خلق الحيوان. فقال: إذن ما الحكمة في هذه التكاليف والغرام والهيام والوصل والفراق؟ فقلت: أنا لا أعلمها. فقال: أنا بذلك عليم. أاعلم أن كل ما هو حولكم وما يحيط بكم دروس لكم، ولا جرم أن ما في نفوسكم أقرب إليكم مما حولكم، ومع كونه أقرب إليكم مما حولكم ترونه أبعد عنكم، فإنكم لا تفقهون نفوسكم إلا بعد دراسة ما حولكم لتشابه العالمين، درسنا معك السلاء والطلع، وعرفنا أن هناك أسباباً ونتائج، هكذا الأسباب هنا لها نتائج، وذلك أن العشق والغرام والجمال والحسن؛ كل ذلك جعل مقدمات لما بعده من حصول الزوجة أولاً والولد ثانياً، فهناك جمال يتبعه شوق له فزواج ووصال، وهناك قد تحصل نتيجتان: أولاهما: هناء الحياة بقدر الإمكان بين الزوجين. ثانيتهما: إنتاج الذرية. إذن جمال أجسامكم في حال الشباب له نتيجتان: إحداهما: قاصرة على الزوجين وهي هناء الحياة، وثانيتهما: متعدية وهي إنتاج الذرية الباقية بعد موت الأبوان، إذن

انفصال الذكر عن الأنثى في الإنسان الذي يهمنا الكلام فيه، وحصول الهجر والوصل، والأحوال المختلفة، والمسرات والأحزان، كل ذلك مقدمات لنتائج، والنتائج هي تعاون الزوجين في أمور الحياة وإنتاج الذرية الباقية بعد الممات. إذا صح ذلك في ذكورة الإنسان وأنوثته فإنّما ذلك جعل مقدمة لما نحن فيه الآن.

النفوس الإنسانية في شوقها للعلوم أشبه بالشبان في شوقهم إلى الشابات

إن هذه الأجسام الحاملة لأجسامكم اليوم تقوم بأود الروح وتحملها وتحفظها إلى يوم الموت، وهي في أيام الشباب غارقة في مهمات الحياة، ولكنها إذا أقبلت أيام المشيب تفتح لبعض العقول أبواب الفكر والبحث، وتشتاق شوقاً على مقدار همتها إلى الاطلاع على هذه العوالم، وكلما ارتقت في العلم ازدادت ولوعاً، ولا تزال في ازدياد حتى تعاني ما يعانيه الشباب من الهجر والفراق، وخير أيام الفكر أيام كبر السن، فتذكرت ما قاله الدكتور شاهين باشا رئيس الأطباء في مصر اليوم في خطبة خطبها في العام السابق سنة ١٩٣١م، إذ قال: إن الدم يتحول إلى المخ في زمن الشيخوخة، فلينتهز تلك الفرصة الشيوخ، وليفكروا في تلك السن.

أقول: ولكن ليس معنى هذا أن كل الشيوخ يقدرون على ذلك، فإن كثيراً من الشيوخ ضعفت قواهم العقلية في زمن الشباب بالانهماك في اللذات، فجاؤوا إلى زمن الشيخوخة وهم مقلون فلا يفكرون، بل يرجعون كالأطفال. ثم قال الروح: إن هذه العوالم المحيطة بكم غذاء لأرواحكم، وكما أن من يجلس ليلاً وهو فارغ من الهم يحس بسعادة في منظر النجوم وجمالها، هكذا أرواحكم المحبوسة الآن إذا خلت من هذه الأجسام ورجعت إلى عوالم الأرواح تحس بسعادة لا حد لها، وليس المثل كالممثل له، بل هو مجرد تنظير، وإلا فأرواحكم تصبح إذا فارقت الجسد وعندها استعداد لعالم الجمال؛ سعيدة سعادة مطلقة مغمورة بالجمال. إذن انقسام الناس إلى ذكور وإناث فيكون شوق وتوق وهجر ووصال، كل ذلك ممهد لما هو أعلى، فأنتم في أيام حياتكم تشتاقون إلى المعرفة والعلم، والمعرفة والعلم في الحقيقة غذاء لأرواحكم. تلك الأرواح المستعدة للبقاء، وهي تغتذي بتلك المعارف التي هي زادها، وتفيد الأرواح التي هي أقل منها هناك علماً ومعرفة، فإذن هناك فوائد قاصرة على الروح، وفوائد متعدية، فهي بالعلوم تستلذ وتغتذي، وهي بها تفيد غيرها علماً ومعرفة كما يفعل ذلك الزوجان، فهما بعد الشوق بداعي الجمال والهجر يتصلان، فيكون هناك سعادة زوجية بينهما، وذرية هما يسعدان بتربيتها، وهكذا تسعد الأرواح بعد الموت بالاطلاع على هذه العوالم الجميلة فتتغذى بها كما تتغذى الأجسام اليوم بالحبوب والثمار، وتفيد أرواحاً صغيرة فوائد تكون سعادة لها أيضاً، كما سعدت بتربية الذرية، وأحست بلذة في هذه الحياة، إذن ظهر لك السر الآن أيها الجوهري، وبان لك واتضح أن الجمال والعشق التابع له، والهجر والفراق وما ماثله، كل ذلك مقدمات لما هو أهم، وهو أن المحارة التي لم يتميز فيها الذكر من الأنثى ليست أهلاً للمعارف التي ستنالها أرواحكم بعد الموت، فلم تعذب في الحياة الدنيا بالهجر والخلع والطلاق والفراق، بل حملت وولدت بلا كلفة من هذا النوع، لأنه تعذيب لا نتيجة له.

أما التعذيب في الإنسانية فإن له ثمرة، لأنه يعلم النفس ما هو الجمال، وما هو الحب، وما هي السعادة مع الإخوان، وما هي السعادة في منح الغير هبات وعطايا كالذرية، حتى إذا ارتقت النفس واشتاقت للعلوم والمعارف وأغرمت بها؛ هنالك تبحث وتجد، وكلما كبرت وعرفت الحقائق اشتاقت وحنت وأنت وبكت واشتكت، حتى إذا فارقت هذا البدن المانع لها من عالمها حصل لها الهناء والفوز بحصول المطلوب والعز المرغوب، فتصبح مغمورة في جو من الجمال والحكمة والنور لا يدركها أحد في هذه الحياة، وهنالك يفهم المسلمون لماذا يقول الله في القرآن: ﴿ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ﴾[الأنعام: ٧٨-٧٩]، وذلك لأن الله لا بد أن يكون حاضراً بعلمه وقدرته، والشمس تقرب وتبعد وتشرق وتأفل، بدليل أن بعدها أورث البرد في دياركم، وقربها أورث بروز طلع النخل في حقلكم، ولكن الله ليس كذلك، ألا ترى أن السلاء الطالعة في قحف الجريد المذكور آنفاً، وهاهو ذا أمامك معتنى به ليلاً ونهاراً، فإن نمو كل نام لا يقف ليلاً ولا نهاراً، أي أن النمو مستمر وإحكامه وتدبيره وتقديره مستمر ليلاً ونهاراً، وهذا من عالم روحي، ﴿ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴾[الأنبياء: ٢٠]، فعوالم الأرواح لا تنام كما ينام الإنسان، ولا تغيب كما تغيب الشمس، وعالم الأرواح أقرب إلى الحضرة العلية من عالم الحس، فلذلك اعتنت بهذه السلاء في ظهور الشمس وفي أفولها، إذن عالم الأرواح أقرب إلى ربه المنزه عن كل مخلوق، المتعالي عن كل مربوب، من عالم الأجسام، وكل محسوس فلقربه منه وكثرة استمداده منه دام إقباله ولم يغب كما تغيب الشمس، ولو غابت تلك القوى الحافظة للعالم لحظة لهلك كله، ولتصدعت هذه السلاء طبعاً، فإذا كانت القوى الروحية المحيطة بكم مشرقة لا تغيب فكيف بالله عز وجل؟ فهو إذن أكثر منها ظهوراً بما لا حد له، فإذا ارتقت نفوسكم فإنها يوماً ما ستعرف ربها. وهذا سر الحديث الوارد في أنكم سترون ربكم كما ترون الشمس ليس دونها سحاب. وفي رواية أخرى: جاء ذكر القمر على حسب اختلاف مراتب الناس من علماء بهذه العجائب، ومن عباد محجوبة أفكارهم فلا يدركون من كمال الله إلا قليلاً، كما يدرك الناس من أنوار الشمس على ما انعكس منها على القمر ثم أشرق على الأرض.

هذا هو السر أيها الجوهري في قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴾[النجم: ٤٥-٤٧]، ففي الذكورة والأنوثة تمهيد للشوق والغرام والعشق الحاصلات لكثير من الشبان والشيوخ في هذه الدنيا، وهي نفوس مصطفاة لا يخلو منها زمان ولا مكان، يعيشون في أرضكم وفيهم هذا الشوق، وإذا ماتوا تنعموا بنعيم العالم الروحي، بل كثيراً ما يحسون في هذه الحياة كأنهم غرقوا في بحر لجي من جمال الأرواح، وكأن ربهم يخاطبهم، وكأنهم يرونه وإن كانوا لا يرونه فعلاً لضعف مراتبهم وللحوائل الكثيرة، وهذه النفوس هي المنعشات للأمم جيلاً فجيلاً وآناً فآناً، وهذه النفوس تقول في هذه الحياة: لو كشف عني الغطاء ما ازددت يقيناً. فالنشأة الأخرى التي مقدمتها الموت لها مقدمة وهو عشق العلوم، وعشق العلوم له مقدمة وهي بهجة المناظر ومحاسنها التي تغرم بها بعض النفوس.

فإذا كانت آية « الأنعام » جاء فيها أن الرحمة أعقبها أن الله يجمعنا ليوم القيامة، ففي سورة « النجم » كانت الرحمة المودعة في انقسام الناس إلى ذكور وإناث متبوعة بالنشأة الأخرى، لأن الذكورة والأنوثة مرنت النفوس على الغرام فالوصال إلى آخر ما تقدم، فهكذا هنا غرام وحب ثم هجر وبعد، ثم خلو النفس بالموت فتصل إلى السعادة الأبدية. هذا هو السر الذي يمكن أن ألقيه إليك الآن لتنشره في نوع الإنسان، وكم في القرآن من أسرار، ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾[يوسف: ٧٦].

كل ذلك وأنا واقف أمام شجرة النخل إذا قائل يقول لي: لقد أزف الوقت لأن موعد صاحب السيارة أن يوافينا الساعة الرابعة، ولم يبق إلا دقائق، فاستعددت للرجوع، وأخذت أهلي ووصلنا إلى المكان الذي أمكن السيارة أن تقف فيه، فتأخر ذلك السائق مدة، وكنا لم نعطه أجراً حتى يكون ذلك حاملاً له على الرجوع إلينا، ثم حضر، وما وصل إلينا حتى قال: أنا أعلم أني قد أخطأت، ولكن لتكن المغفرة، فقلت: لا بأس. ثم ركبنا السيارة ورجعنا إلى محطة البرج، وسار بنا القطار إلى محطة القاهرة ثم المنزل، وذلك يوم الأحد ١٥ مارس سنة ١٩٣٢م.

وإلى هنا تم الكلام على سورة « النجم »، والحمد لله رب العالمين.



تفسير سورة القمر

هي مكية إلا ثلاث آيات وهي:

﴿ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ (44) سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (45) بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ (46) ﴾

فمدنية

آياتها ٥٥،نزلت بعد الطارق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ (1) وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ (2) وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ (3) وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّنَ الْأَنبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ (4) حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ (5) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ (6) خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ (7) مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ (8) ۞ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ (9) فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ (10) فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ (11) وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ (12) وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ (13) تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ (14) وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (15) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (16) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (17) كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (18) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ (19) تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ (20) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (21) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (22) كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ (23) فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ (24) أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ (25) سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ (26) إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ (27) وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ (28) فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ (29) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (30) إِنَّا أَرْسَلْنَا

عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَٰئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٥٥﴾ ﴾

هذه السورة ثلاثة أقسام:

القسم الأول: في تفسير البسملة.

القسم الثاني: مذكرات بالساعة وعذاب الدنيا بالهلاك، من أول السورة إلى قوله: ﴿ فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾ ﴾.

القسم الثالث: في توبيخ قريش، وقياس حالهم على حال الأمم الماضية، وأنهم سيهزمون كما هزم الأولون ويدخلون النار كما دخلوا، من قوله تعالى: ﴿ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَٰئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ ﴾ إلى آخر السورة.

القسم الأول: في تفسير البسملة

يعجب الإنسان من أمر آي القرآن، وكيف كانت الرحمة المجسمة في الشمس والقمر والنجوم قد ذكرت في القرآن بهيئة لم يعهدها العرب الذين نزل القرآن بلغتهم، يذكر الله الشمس فيقول: ﴿ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ﴾[الشمس: ١]، ويذكر النجم فيقول: ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴾[النجم: ١]، ويذكر القمر فيقول عطفاً على: ﴿ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ﴿١﴾ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ﴾[الشمس: ١-٢] رحمة عامة ظاهرة واضحة مجسمة، لذلك يكرر الرحمة في أول كل سورة ليلفت نظرنا إلى رحمات مجسمة وغير مجسمة، ومن غير المجسمة ما جاء في هذه السورة من العبر والحكم والمواعظ والآيات البينات. سبحانك اللهم وبحمدك جعلت الرحمة تحيط بنا من بين أيدينا ومن خلفنا، وعن أيماننا وعن شمائلنا.

الله أكبر، الله أكبر، رباه ظهرت أنوارك ولكنها غشت على عقولنا لأنها أنوار لا حد لها ولا نهاية، شمس وقمر ونجوم وجمال وبهاء وعجائب تتلوها عجائب، ولكن لما كانت العقول خامدة، والنفوس جامدة، منحها نعماً على قدر طاقتها، وهي عبر التاريخ وبدائع السير ونظام الأمم، فأخذ يحدثنا بتاريخ من قبلنا، فذكر تلك الأمم البائدة التي قرعت أسماع العرب من قوم نوح وعاد وقوم لوط وآل فرعون، أخذ يحدثهم بما يعرفون وليس مما ينفعهم أو يؤثر فيهم أن يذكر لهم أمم الصين، أو أهل أستراليا، أو أهل أوروبا، فهؤلاء لا علم لهم بتلك الأمم، فلم يكن هناك بد من تذكيرهم بما يأتون، وإعلامهم بما يفعلون.

فسبحانك اللهم جعلت السابقين عبرة اللاحقين، والأولين نبراس الآخرين، إن ذكر هذه الأمم فتح لباب علم التاريخ، يرشد الله المسلمين إلى الاعتبار بتاريخ كل أمة من الأمم السابقة واللاحقة شرقاً وغرباً، فليس ذكر قوم نوح وعاد وثمود بقيد في علم التاريخ، كما لم يكن ذكر الإبل وخلقتها والسماء ورفعتها والجبال ونصبها والأرض ونظامها؛ مقيداً لأمم الإسلام بهذه المخلوقات، بل إن هذه أمثلة ونماذج لعلم التاريخ، والاتعاظ والائتناس بحوادثه المختلفة ليعتبر الخلف بالسلف، ويقتدي الآخرون بالأولين، واللاحقون بالسابقين، ومتى درسوا هذه الدنيا عرفوا أنها منتظمة، وأن كل شيء موزون بميزان لا بخس فيه، وعلى ذلك النظام ستهزم الجموع الكافرة كما انهزم من قبلهم أمام جيوش الأنبياء السابقين، ﴿ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴾[القمر: ٤٥]. ونتيجة ذلك كله أن يقرب الناس من ربهم متى عرفوا أن عمله متقن وأدركته عقولهم، وذلك القرب بالعلم والمكانة لا قرب بالمكان، والنهاية أن يكون الإنسان في مقعد صدق عند مليك مقتدر، وهذه نهاية السعادات في الدنيا والآخرة، فأما في الدنيا فإن الناس جميعاً في حيرة مغمورون، إلا طائفة واحدة، وهي التي أدركت هذا النظام وأعجبت به، ولن يكون في حضرة الملك القدوس إلا هذه الطائفة، أما بقية الناس فإنهم إما في جنة ولا يرون الله إلا على مقدار ما عرفوا، وإما في نار وهم عنه محجوبون، والحمد لله رب العالمين. انتهى الكلام على القسم الأول في تفسير البسملة. كتب ظهر يوم الثلاثاء ١٦ أغسطس سنة ١٩٣٢م، ١٥ ربيع الثاني سنة ١٣٥١هـ.

القسم الثاني: مذكرات بالساعة وعذاب الدنيا بالهلاك

التفسير اللفظي

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴾ أي: سينشق يوم القيامة، أو أنه قد انشق، كما روي عن أنس: «إن أهل مكة سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يريهم آية فأراهم انشقاق القمر مرتين» أخرجه البخاري ومسلم، وكيفية ذلك أنه انشق فلقتين: فلقة فوق الجبل، وفلقة دونه، ومعنى هذا أنه يقول سبحانه: قربت القيامة، وهاهو ذا القمر انشق من الآن، كما تقول: أقبل الأمير وقد جاء البشير بقدومه، فإن انشقاق القمر دلالة على ما سيؤول عليه حال العوالم العلوية والسفلية، فإن مآلها الانحلال والبوار.

يقول الله: انظروا أيها الناس، إنكم تظنون الكواكب والشمس والقمر لا يعتريها البلى، إن القمر يقبل الفناء والدليل على ذلك انشقاقه الذي استبان لكم، ليدلكم على أنه سيبيد من الوجود كما تبيد أرضكم، والممكنات بأسرها تقبل الفناء.

يقول المؤلف: ومن عجب أن علماء الهيئة في العلم الحديث لم يذكروا أن شيئاً اشتق من الأرض إلا القمر، ويقولون: إنه أثناء دورانها قديماً انحل عنها ودار حولها، وهذا نوع من الانشقاق، ولكنه انشق من غيره، وانشقاق القمر من الأرض دليل على أن الأرض تبدل غير الأرض والسماوات فإذن يكون انشقاق القمر في القرآن من المعجزات العلمية، لا من حيث إن قريشاً رأوه منشقاً وجبل حراء بين فلقتيه على رواية ابن مسعود فحسب، بل إن هذا الذي حصل زمن النبوة تذكرة باشتقاقه من الأرض وانفصاله عنها، فكما انشق القمر نصفين هكذا كان هو مع الأرض سابقاً وانشقت الأرض فانفصل عنها القمر، ومعنى هذا تجزؤ المادة وفناؤها وذهابها وتبدلها، هذا ما تشير له الآية، وإلا فلماذا خص القمر بالانشقاق؟ ولماذا لم يختر الله له الشمس أو كوكباً من الكواكب؟ ذلك لهذه النكتة، وهو أن القمر هو محل البحث الحديث، وأن له انشقاقاً عن غيره، فانشقاقه شقين عن الجبل ودونه يشير إلى ما كان له قبل ذلك من اشتقاقه من الأرض، ويكون ذلك من دواعي العلم والكشف والبحث، فنظر كيف جاء في هذه السور: البحر المسجور تحت الأرض، والقمر المنشق من الأرض، والرق المنشور إشارة لعصر الورق وعصر المدنية والعلم، والبيت المعمور إشارة إلى العوالم التي كشف الناس بعضها، كل ذلك تذكرة للمسلمين النائمين الآن، المستيقظين في مستقبل الزمان، فهذه كلها محرضات على العلم مشوقات له، وسيقوم بهذه العلوم أبناء أمة الإسلام في مستقبل الزمان، انشقاق القمر فتح لباب العلم والبحث في أصل الأرض وأصل القمر، وكل ذلك واجب على أمة الإسلام، ﴿ وَإِن يَرَوْاْ ءَايَةً يُعْرِضُواْ ﴾ عن تأملها ﴿ وَيَقُولُواْ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴾ مطرد، وذلك أنهم رأوا آيات متتابعات فلم يعيروها التفاتاً ﴿ وَكَذَّبُواْ ﴾ النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ ﴾ وهو ما زين لهم الشيطان من رد الحق الظاهر ﴿ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴾ كل شيء ينتهي إلى غاية تناسبه، فأمركم ينتهي إلى غاية من الخذلان والعذاب في الآخرة، وأمر محمد صلى الله عليه وسلم ينتهي إلى نصر في الدنيا وجنة في الآخرة، وكل حركات الأفلاك، ونظام العمران، وأعمال الأمم، ونظام الإنسان والحيوان والنبات، كل ذلك داخل في هذه القاعدة، فلكل من هذه غاية ينتهي إليها، وهذه من جوامع الكلم وعجائب الحكم، فقضية النبي صلى الله عليه وسلم وقضية المشركين داخلتان في هذه القاعدة العامة، ولذلك أعقبها بقوله: ﴿ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنبَآءِ ﴾ أي: جاءهم في القرآن من أنباء القرون الخالية وأنباء يوم القيامة ﴿ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴾ ازدجار من تعذيب العاصين يوم الدين وهلاك دولهم في الدنيا، وأبدل من «ما» قوله: ﴿ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ﴾ غايتها لا خلل فيها، والملخص أن كل أمر ينتهي إلى غاية ومن تلك الأمور المنتهية إلى غاياتها ما يتلى في كتاب الله من العذاب الذي يزجر من يعتبر، ومن الحكمة المنتهية إلى غايتها مصداقاً لما ذكر من أن كل شيء ينتهي إلى غاية تناسبه، ومع ذلك لم يتعظوا، وهو قوله: ﴿ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ﴾ أي: فأي غنى تغني النذر، جمع نذير بمعنى المنذر، إذا علمت

أن الإنذار لا يفيدهم ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ﴾ واذكر ﴿ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ ﴾ أسقطت « الياء » اكتفاء بالكسرة ، والدعاء هنا بمعنى الأمر كقوله تعالى : ﴿ كُن فَيَكُونُ ﴾[البقرة:١١٧] ، أو الداعي إسرافيل ﴿ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ﴾ فظيع تنكره النفوس لأنها لا عهد لها بمثله ، وهو أهوال يوم القيامة ﴿ خُشَّعًا أَبْصَـٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ ﴾ أي : يخرجون من قبورهم ذليلاً أبصارهم من الهول ، فـ « خُشَّعًا » حال من الواو ، وتقول : خاشعاً أبصارهم ، كما تقول : يخشع أبصارهم ، وقرئ : « خاشعة أبصارهم » ، وأما قراءة : خشعاً أبصارهم ؛ فهي على لغة أكلوني البراغيث ، كأنك قلت : يخشعن أبصارهم ، وقوله : ﴿ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴾ في كثرتهم وتموجهم وانتشارهم في الأمكنة ﴿ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ ﴾ مسرعين مادي أعناقهم إليه مقبلين ﴿ يَقُولُ ٱلْكَـٰفِرُونَ هَـٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴾ صعب ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ ﴾ قبل قومك ﴿ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا ﴾ نوحاً عليه السلام ، وهذا تفصيل بعد إجمال ، ﴿ وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ ﴾ أي : هو مجنون ﴿ وَٱزْدُجِرَ ﴾ أي : وزجر عن التبليغ بأنواع الأذى ﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى ﴾ بأني ﴿ مَغْلُوبٌ ﴾ غلبني قومي ﴿ فَٱنتَصِرْ ﴾ فانتقم لي منهم ، وذلك بعد أن يئس منهم ﴿ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴾ منصب ، وهذه الجملة مبالغة وتمثيل لكثرة الأمطار وشدة انصبابها ﴿ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا ﴾ أي : وجعلنا الأرض كلها كأنها عيون متفجرة ، وفي هيئة الإعراب عند النحاة يقال أصلها فجرنا عيون الأرض فعدل عنها إلى ما يفيد المبالغة ﴿ فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ ﴾ ماء السماء وماء الأرض وقرئ « الماءان » ، ﴿ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴾ على أمر قد قدره الله ، وهو هلاك قوم نوح بالطوفان ﴿ وَحَمَلْنَـٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴾ هذا من فصيح الكلام وبديعه ، إذ جعلت الصفة القائمة مقام الموصوف نائبة عنه فأدت مؤداه وذكر الصفة التي على هذا المنوال أبلغ من ذكر الموصوف ، فقولك : قميصي مسرودة من حديد ، أبلغ من قولك : قميصي درع ، فهكذا هنا : ﴿ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴾ ـ جمع دسار ، وهو المسمار ، من : الدسر ، وهو : الدفع ، لأنه يدفع منفذه ـ أبلغ من سفينة ، وقوله : ﴿ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا ﴾ أي : تجري حال كونها محفوظة بنا ، لأنها إذا كانت بمرآنا فهي في حفظنا ، وإنّما فعلنا ذلك ﴿ جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴾ وهو نوح لأن النبي نعمة من الله ورحمة ، فإذن نوح نعمة مكفورة ﴿ وَلَقَد تَّرَكْنَـٰهَآ ﴾ أي : السفينة ، أو الفعلة ، أي : جعلناها ﴿ ءَايَةً ﴾ يعتبر بها إذا شاع خبرها واشتهر أمرها ﴿ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ معتبر ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴾ جمع نذير وهو الإنذار . أي : فانظر يا محمد كيف كان عذابي ، وكيف كان حال إنذاري لهؤلاء الذين أنذرهم نوح ، ألم يتم نصري لنوح الذي أنذرهم وهلاكي لهم لكفرهم؟ وذلك من الحكمة السابقة : ﴿ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴾[القمر:٣] ، فهكذا ستكون الأمم وأحوالها ، وهكذا عواقب أمورها ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ ﴾ سهلناه ﴿ لِلذِّكْرِ ﴾ أي : ليتذكر ويعتبر به ﴿ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ أي : متعظ بمواعظه ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴾ وإنذاري لهم بالعذاب قبل نزوله ، ألم يتم؟ ألم يكن مهولاً؟ وكأنه يقال : ما هذا العذاب؟ فقال : ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا ﴾ باردة أو شديدة الصوت ﴿ فِى يَوْمِ نَحْسٍ ﴾ شؤم ﴿ مُّسْتَمِرٍّ ﴾ أي : استمر شؤمه فاستمر عليهم حتى أهلكهم ﴿ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ ﴾ تقلعهم من أماكنهم حال كونهم ﴿ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ ﴾ أصول ﴿ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴾ منقلع من مغارسه ساقط على الأرض ، وإنّما شبهوا بالأعجاز لأن الريح طيرت رؤوسهم وطرحت أجسادهم

والنخل اسم جنس جمعي يذكر ويؤنث، فلذلك جاء في القرآن: ﴿أَعۡجَازُ نَخۡلٍ خَاوِيَةٍ﴾[الحاقة: ٧]، وجاء هنا: ﴿أَعۡجَازُ نَخۡلٍ مُّنقَعِرٍ﴾، ونظير ما هنا: ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾[فاطر: ١٠]، ﴿فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ كرره للتهويل، ولأن لهم عذابين: أحدهما في الدنيا، والثاني في الآخرة، وجاء في قصتهم: ﴿لِّنُذِيقَهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَخۡزَىٰۖ﴾[فصلت: ١٦]، ﴿وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ﴿٢٢﴾ كَذَّبَتۡ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ﴾ بالإنذارات والمواعظ التي جاء بها صالح، ﴿فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٗا مِّنَّا﴾ من جنسنا أو من جملتنا ﴿وَٰحِدٗا﴾ منفرداً ﴿نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ وَسُعُرٍ﴾ الضلال: الخطأ، والسعر: الجنون، ومنه: ناقة مسعورة، وهذه الكلمة مستعملة اليوم عند العامة في أمتنا المصرية بهذا المعنى، ﴿أَءُلۡقِيَ ٱلذِّكۡرُ عَلَيۡهِ مِنۢ بَيۡنِنَا﴾ وكيف يكون كذلك وفينا من هو أحق منه به ﴿بَلۡ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٞ﴾ حمله البطر على الترفع علينا بادعائه الوحي، فقال الله تعالى على لسان صالح عليه السلام: ﴿سَيَعۡلَمُونَ غَدٗا﴾ عند نزول العذاب بهم في الدنيا ويوم القيامة ﴿مَّنِ ٱلۡكَذَّابُ ٱلۡأَشِرُ﴾ الذي حمله أشره على الاستكبار عن الحق، وطلب الباطل أصالح أم من كذبه؟ ﴿إِنَّا مُرۡسِلُواْ ٱلنَّاقَةِ﴾ مخرجوها وباعثوها ﴿فِتۡنَةٗ لَّهُمۡ﴾ امتحاناً لهم، لأنا نمتحن بالنعم وبالنقم ﴿فَٱرۡتَقِبۡهُمۡ﴾ فانتظرهم وانظر ماذا يصنعون أيشكرون أم يكفرون ﴿وَٱصۡطَبِرۡ﴾ على أذاهم ﴿وَنَبِّئۡهُمۡ أَنَّ ٱلۡمَآءَ قِسۡمَةُۢ بَيۡنَهُمۡۖ﴾ مقسوم بينهم، وفيه تغليب العقلاء على غيرهم، فللناقة يوم ولهم يوم ﴿كُلُّ شِرۡبٖ مُّحۡتَضَرٞ﴾ أي: محضور يحضره صاحبه في نوبته، يحضر القوم الشرب يوماً وتحضر الناقة يوماً، كما في آية أخرى: ﴿لَّهَا شِرۡبٞ وَلَكُمۡ شِرۡبُ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ﴾[الشعراء: ١٥٥]، ثم سئموا النعمة ﴿فَنَادَوۡاْ صَاحِبَهُمۡ﴾ قدار بن سالف أحيمر ثمود ﴿فَتَعَاطَىٰ﴾ فاجترأ على تعاطي الأمر العظيم غير مكترث له ﴿فَعَقَرَ﴾ الناقة، أو فتعاطى السيف الخ، ﴿فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ﴾ في اليوم الرابع من عقرها ﴿صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ صاح بهم جبريل ﴿فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلۡمُحۡتَظِرِ﴾ أي: كالحشيش اليابس الذي يجمعه صاحب الحظيرة لماشيته. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: هو الرجل يحظر لغنمه حظيرة من الشجر والشوك دون السباع، فما سقط من ذلك فداسته الغنم فهو الهشيم، والمعنى أنهم صاروا كيابس الشجر إذا بلي وتحطم، ﴿وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ﴿٣٢﴾ كَذَّبَتۡ قَوۡمُ لُوطِۭ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ حَاصِبًا﴾ أي: الحصباء، وهي الحجارة دون الكف، وقد يراد بالحاصب: الرامي، أي: أرسلنا عليهم عذاباً يحصبهم، أي: يرميهم بالحصباء ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٖۖ نَّجَّيۡنَٰهُم بِسَحَرٖ﴾ أي: في سحر، وهو آخر الليل ﴿نِّعۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَاۚ﴾ أي: إنعاماً منا ﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي مَن شَكَرَ﴾ نعمتنا بالإيمان والطاعة ﴿وَلَقَدۡ أَنذَرَهُم﴾ لوط ﴿بَطۡشَتَنَا﴾ أخذتنا بالعذاب ﴿فَتَمَارَوۡاْ بِٱلنُّذُرِ﴾ فشكوا بالإنذارات ولم يصدقوا ﴿وَلَقَدۡ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيۡفِهِۦ﴾ أي: طلبوا منه أن يسلم إليهم أضيافه لما يقبح فعله ﴿فَطَمَسۡنَآ أَعۡيُنَهُمۡ﴾ فمسحناها وسويناها كسائر الوجه، وذلك لما دخلوا داره عنوة، أو طمس الله أبصارهم فلم يروا الرسل، فقالوا: لقد رأيناهم حين دخلوا فأين ذهبوا؟ قال تعالى: ﴿فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ أي: ما أنذركم به لوط من العذاب ﴿وَلَقَدۡ صَبَّحَهُم بُكۡرَةً﴾ أي: جاءهم وقت الصبح ﴿عَذَابٞ مُّسۡتَقِرّٞ﴾ أي: دائم، أي: استقر فيهم حتى أفضى

بهم إلى الهلاك ﴿ فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ ۝٣٩ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ تكرار هذه وتكرار أمثالها في القرآن كما في سورة « الرحمن » الآتية للإيقاظ والتنبيه، وهذا كثير في كلام العرب كقوله:

قربا مربط النعامة مني لقحت حرب وائل عن حيالي
قربا مربط النعامة مني شاب رأسي وأنكرتني عيالي

وهي طويلة على هذا النسق، وهذا التكرار يكون في الأمر العظيم كما هنا، فقوله: ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾[المرسلات: ١٥]، وقوله: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾[الرحمن: ١٣] عند النقم في الأول، والنعم في الثاني من هذا القبيل، وذلك لتكون العبرة حاضرة عند السامع مصورة في الأذهان، وكذلك تكون صور النعم غير منسية.

ثم قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴾ وفرعون أيضا من باب أولى ﴿ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا ﴾ وهي الآيات التسع ﴿ فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ ﴾ لا يغلب ولا يغالب ﴿ مُّقْتَدِرٍ ﴾ لا يعجزه شيء. انتهى التفسير اللفظي للقسم الثاني من السورة.

القسم الثالث: توبيخ قريش، وقياس حالهم على حال الأمم الماضية وأنهم سيهزمون كما هزم الأولون ويدخلون النار كما دخلوا

قال تعالى: ﴿ أَكُفَّارُكُمْ ﴾ يا معشر العرب ﴿ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰٓئِكُمْ ﴾ أي: أقوى وأشد من الذين أحللت بهم نقمتي مثل قوم نوح ومن بعدهم ﴿ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ ﴾ من العذاب ﴿ فِي ٱلزُّبُرِ ﴾ أي: في الكتب أنه لن يصيبكم ما أصابهم ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ﴾ أي: كفار مكة ﴿ نَحْنُ جَمِيعٌ ﴾ جماعة أمرنا مجتمع ﴿ مُّنتَصِرٌ ﴾ ممتنع لا نرام ولا نضام، أنذر الله الأمم السالفة وتم ما أنذر به، هكذا هنا يقول سبحانه: ﴿ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴾ أي: الأدبار، فكل واحد يولي دبره، وهذا من دلائل النبوة، إنهم هزموا يوم بدر وما بعده، ولم يكن له صلى الله عليه وسلم في مكة جيش بل كان أتباعه مشردين في الآفاق ومعذب بعضهم، قال عمر رضي الله تعالى عنه: لما نزلت لم أعلم ما هي، فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يلبس الدرع ويقول: ﴿ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ ﴾، فعلمته.

أقول: وليس ذلك قاصرا على يوم بدر بل استمر انهزامهم ﴿ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ ﴾ موعد عذابهم الأصلي، وعذاب الدنيا كالمقدمة لعذاب الآخرة ﴿ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ ﴾ أشد وأعظم داهية من الأسر والقتل يوم بدر وما بعده، والداهية أمر فظيع لا يهتدى لدوائه ﴿ وَأَمَرُّ ﴾ مذاقا من عذاب الدنيا ﴿ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَٰلٍ ﴾ عن الحق في الدنيا ﴿ وَسُعُرٍ ﴾ ونيران الآخرة ﴿ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ ﴾ يجرون فيها ﴿ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ﴾ ويقال لهم: ﴿ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ﴾ أي: ذوقوا حر النار وألمها، فإن مسها سبب للتألم، و« سقر »: علم على جهنم، تقول: سقرته النار وصقرته، إذا لوحته، ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴾ أي: مقدرا مرتبا على مقتضى الحكمة، وهذا يقرب من قوله فيما تقدم: ﴿ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴾ [الآية: ٣]. وأتبع تلك الحكمة بقصص الأمم وختمها بإنذار أهل مكة، ولما أتم ذلك ذكر النتيجة فقال: إن كل شيء مرتب على مقتضى الحكمة، فالأول كأنه قضية يراد الاستدلال عليها، ولما ذكر قصصهم

وإنذار مشركي مكة؛ ذكر الحكمة إشارة لسطوع البرهان وظهور النتيجة، وهذا كقوله تعالى: ﴿ مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ﴾ [الملك: ٣] فالعوالم متشابهة، وأحوال الأمم متشابهة، فالمصلحون كلمتهم نافذة منصورون، والمفسدون مقهورون معذبون. ثم أعقبه بأن هذا يسير عليه فقال: ﴿ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ ﴾ فعلة واحدة، وهو الإيجاد بلا معالجة ومعاناة، أو إلا كلمة واحدة ﴿ كَلَمْحٍ بِٱلْبَصَرِ ﴾ في اليسر والسرعة، ومنه أمر الساعة فهو كلمح البصر، وإذا ثبت لديكم أن كل أمر مستقر، وأن كل شيء خلقناه بقدر ونظام وحكمة بما قصصناه عليكم من أمر الأمم؛ فكيف تغفلون ولا تتعظون بعد ثبوت هذه الحكمة؟ وهذا قوله: ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ ﴾ أشباهكم في الكفر كما قصصناه ﴿ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ متعظ ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي ٱلزُّبُرِ ﴾ مكتوب في كتب الحفظة ﴿ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ ﴾ من الأعمال ﴿ مُّسْتَطَرٌ ﴾ مسطور في اللوح ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴾ كسبب، أي: أنهار، وإنما وحده لموافقة رؤوس الآي، وهي أنهار الجنة المتقدمة في سورة «القتال»، وقرئ كجنب جمع نهر ﴿ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ ﴾ في مكان مرضي، أو في مجلس حق لا لغو فيه ولا تأثيم ولا كذب، لأن الله صادق فمن وصل إليه امتنع عليه الكذب، فهو في مقعد صدق ﴿ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ مقربين عند من تعالى أمره في الملك والاقتدار، وهؤلاء هم الذين قال الله فيهم: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣] فهؤلاء هم الذين يحظون بالقرب من ربهم. انتهى التفسير اللفظي للقسم الثالث من السورة، والحمد لله رب العالمين.

لطائف هذه السورة:

اللطيفة الأولى: في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾ ﴾.

اللطيفة الثانية: في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ ﴾.

اللطيفة الثالثة: في قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾ ﴾.

اللطيفة الأولى: في قوله تعالى:

﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾ ﴾

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

اللهم إنا نحمدك على ما منحتنا من العلم، وحبوتنا من التيسير، وأفضت من الخير علينا، وعلى المسلمين في سائر الأقطار في هذا الزمان الذي به أشرق نور الإسلام وازدهر، وظهر نوره وانتشر، وأشرقت أرض الإسلام بنور ربها، وأظهرت أسراراً من الفرقان وعلوماً من العرفان لأمة الإسلام تناسب حالها، وتنشلها من وهدتها، وتوقظها من غفلتها، وترفعها من كبوتها، وتطلقها من عقالها، وتهديها إلى سواء الصراط. أقص اليوم السبت ١٢ ديسمبر سنة ١٩٣١م قصص ما كان بيني وبين صديقي العالم الذي اعتاد أن يحادثني في هذا التفسير، إذ حضر الليلة وأفاض علي من الأسئلة، وكلفني فوق طاقتي من المباحث، ولكني والحمد لله استعنت به سبحانه وأجبته بقدر طاقتي ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وسيظهر في الأمم الإسلامية بعدنا أناس لهم قدم صدق وخبرة وحكمة في كل زمان بحسبه، فالله لا يظهر الحكم والعلوم إلا مناسبة لزمان ظهورها.

قال صديقي العالم: إني قرأت اليوم سورة «القمر» فوجدت الله تعالى يقول في سفينة نوح: ﴿ وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾[القمر: ١٥]، ويقول: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾[القمر: ١٧]، وهكذا يقول في آخر قصة فرعون وعاد، وفي قصة ثمود، وفي قصة قوم لوط، ثم أعاد آية: ﴿ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾[القمر: ٥١] عند قوله: ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ ﴾[القمر: ٥١] كرر التذكر وطلبه سبع مرات بهيئة الاستفهام المقصود به الأمر، وهذا أبلغ في طلبه، والقرآن جاء لهدينا نحن، وإذا نحن أمرنا أن نفكر في سفينة نوح وأن الله تركها لنا آية، وفي هلاك من كذبوا من أمته، وفي قوم فرعون وهلاكهم، وقوم عاد وثمود ولوط وجميع الأمم التي كذبت، وهذه كلها غائبة عنا وتذكيرنا بها نافع، أفليس هذا يكون داعياً حثيثاً بالأولى أن نفكر فيما هو محيط بنا.

الله أكبر، إن هذه السورة فتحت لنا من العلم أبواباً، فتحت لنا أبواب العلم على مصراعيها، جلّ الله. جلّ الله. إن كل ما فيها تاريخ قديم، والتاريخ القديم أتبعه ما بعده وامتد الأمر إلى زماننا هذا. إن الله عز وجل هو الذي أمرنا بالاعتبار بتاريخ الفراعنة وهلاكهم بعد قوم نوح وهلاكهم. وبعبارة أصرح وأبين: إن المسلمين في زماننا يجب عليهم أن يعتبروا بقدماء المصريين ويدرسوا تاريخهم، وتاريخهم تقدم منه شيء في هذا التفسير ليكون أنساً لقرائه، وفيه عجائب دول المصريين القدماء من حيث تطور أحوالهم من الأحسن إلى الحسن إلى الرديء، وقد كانت كبوتهم وزوال ملكهم تابعين لانحرافهم وسوء سلوكهم، وهذا تقدم في سور كثيرة ومنها سورة «غافر» عند آية مؤمن آل فرعون، وهكذا بلاد حضرموت التي تقدم وصفها في سورة «الأحقاف»، وكيف كان بها قوم عاد، وأن آثارهم باقية، وهناك قبر هود عليه السلام، والمسلمون جميعاً مقصرون لأنهم لم يرسلوا من يفك تلك الرموز التي في ذلك القبر، كما أخبرني بذلك من شاهدوه هناك، وكذلك قبر صالح عليه السلام في تلك البلاد، فهذه الأمم التي بقيت آثارها يجب استقصاؤها بالدرس لمعرفة علومها والانتفاع بها، وكيف تدهورت واضمحلت حتى نجتنب نحن ما وقعت فيه تلك الأمم بالتفصيل، أما الإجمال فلا خير فيه، فالادكار المذكور في الآية يستحيل أن نناله إلا بالتفصيل، أما الإجمال فهو مقفل الأبواب معطل الحكمة، والتفصيل هو الخير وهو العلم والحكمة.

هذه الآراء أذكرها الآن لأني فهمتها من سابق هذا التفسير، فإن ما مضى من التفسير يجعلني أفهم هذه الآية على هذا الوجه، وأقول: إن أمم الإسلام المستقبلة ستكون فيها جماعات مختلفات موزعات على العلوم، لكل طائفة منها جماعة تدرسها، هذا هو الذي سيكون، وإنّما قلت: إنه سيكون، لأن ذلك تكرر مراراً في هذا التفسير والمسلمون يقرؤونه، فهم لا جرم سيقومون بهذا الأمر وهو توزيع العلوم على جماعات مستعدات للدرس الخاص، فأنا من هذه الوجهة مطمئن على تلك الأمم الإسلامية المستقبلة، إنّما الذي أريد أن أسأل فيه اليوم أمران: الأمر الأول: ما أشاهده في مصر من أن المسلمين قد جعلوا قراءة القرآن ذات هيئة خاصة في ولائمهم وأعراسهم وختان أبنائهم، وكذلك إذا استهلت أطفالهم بالولادة، أو مات أحياؤهم، فإني أراهم قد جعلوا أناساً اختصوا بالقراءة في هذه الأحوال بأجر معين، فالولادة والموت ووليمة العرس والختان وغيرها كل هذا يقرأ القرآن فيه

أناس مختصون، فالقراءة حرفتهم والناس يسمعونها لا سيما إذا كانت تلك بصوت حسن، فهل هذا من الذكر المذكور في الآيات؟ هذا هو الأمر الأول. أما الأمر الثاني: فهو ما نسمعه عن الصوفية أو نقرؤه في كتبهم من مذكرات آيات أشبه برموز لبعض المعاني الدقيقة، فهذا أيضاً من الذكر المذكور في الآية إذ يقول: ﴿ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾[القمر: ١٥]، وكيف يكون ذلك الذكر؟ وإذا كنا مأمورين أن نتذكر آل فرعون وعاد وثمود وغيرهم من الأمم البائدة أفلا تتذكرون؟ ونتدبر أمر هؤلاء الأولياء الذين هم أقرب إلينا وكتبهم بين أيدينا ومن هم أحياء الآن، وهكذا قراءة القرآن المتقدمة في الأمر الأول، فيجب علينا أن نتذكر ونتدبر في أمر هذه كل بحسب حالها، فما كان منها ضاراً اجتنبناه، وما كان منها نافعاً قبلناه، ومما قرأته من كلام هؤلاء الصالحين في كتاب «درر الغواص، على فتاوى سيدي الخواص» تأليف الشيخ عبد الوهاب الشعراني، فهذا الكتاب وغيره يقرؤه المسلمون ويجدون آيات لا مناسبة بينها وبين المعاني التي سيقت الآية لأجلها، فهل هذا ادكار أم هو أمر لا يليق بكتاب الله؟ فهاهنا يجب تمحيص الحقيقة، لأن هذا الزمان زمان مبدأ ظهور الحقائق، ومن ذلك ما يقوله الصالحون، ومنه ما هو مشاهد في عمل العامة في الأمر الأول، فالذي نشاهده في مصر من قراءة القرآن يجب درسه، والذي نسمعه عن الأولياء يجب تمحيصه بقدر الإمكان، ولقد جاء في كتاب «درر الغواص» ما فحواه:

(١) أولاً: إن الشيخ الشعراني سأل الشيخ الخواص الذي كان رجلاً أمياً لا يقرأ ولا يكتب عن الخواطر القبيحة هل تقع للخواص كما تقع للعوام؟ فقال له: كلا. إن الخواص لا يشاركون العامة في خواطرهم التي تطرقهم، ووصف أكمل الخواص بأن له النصيب الأتمّ من مقام العبودية لأنه منزه من أن ينحصر في وصف دون آخر من حال أو مقام، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ ﴾ [الأحزاب: ١٣]. هذا كلام الخواص للشيخ الشعراني. ثم استمر صاحبي في حديثه قائلاً: أين الآية وأين الكلام في وصف العارف؟ هل معنى الآية ينطبق على ذلك والآية في واد ووصف العارف في واد آخر هل هكذا يكون التذكر؟ وهل هذا تيسير القرآن للذكر؟ وهل يكون ذكر القرآن بأمور هو براء منها؟ فأين الثريا وأين الثرى؟ مدينة يثرب معروفة، والآية سيقت لأحوال العارف، والقصة في غزوة الأحزاب، وفي سورة «الأحزاب»، كل هذه أمور متناقضات لا بد من تمحيصها حتى نفهم هذه السورة، وكيف يقول الله: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾[القمر: ١٧]، أهكذا يكون تذكر الخواص من أمتنا.

(٢) يقول الشعراني: سألته رضي الله عنه عن قوله صلى الله عليه وسلم: «الجنة تشتاق إلى أربع: علي وعمار وسلمان وبلال» ما حكمة تخصيص هذه الأربعة؟ فأفاده الخواص بأن العلو والعمارة والسلامة من الآفات والبله، وهي برد القلب من خطور زوال ذلك النعيم، هذه المعاني الأربعة هي أركان نعيم الجنة، وإنهم لا يتم نعيمهم إلا بها، وهؤلاء الأربعة هم الموكلون بالأنهار الأربعة التي هي مظاهر العلوم والأعمال المكسوبة والموهوبة.

(٣) ثم قال: ويوضح ذلك: ﴿ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٦٤]، فأين علي وعمار وسلمان وبلال.

(٤) وأين أنهار الجنة والعلوم والمعارف والأعمال المكسوبة والموهوبة؟ وأين هؤلاء أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، وآية: ﴿ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ﴾[العنكبوت: ٦٤] أمور متباعدة قرنت معاً.

(٥) وسأله عن حقيقة الشجرة التي أكل منها آدم عليه السلام فقال: هي الأفعال المقابلة لما عليه الأنبياء وكمل ورثتهم من كمال الأفعال والأخلاق، والسر في ذلك إظهار منة الله على العبد، وحلمه عليه لا غير، والكل منه وإليه، لكنه لا يخفى تفاوت الناس في الذنوب، فربما كان ما تقرب به عبد يتوب منه عبد آخر، فأين الشجرة التي في الجنة؟ وأين أفعالنا نحن المغايرة لأفعال الأنبياء؟ وكيف يجعل الأكل من الشجرة نفس ذنوبنا نحن وأعمالنا؟ هذا أمر غير ما يقوله القرآن، فهل هذا ذكر؟ وهل هذا ينطبق عليه قوله تعالى: ﴿ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾[القمر: ١٧]، فأين الادكار هنا؟.

(٦) وسأله الشعراني: أيصغي لمدح من يمدحه؟ فأجابه بقوله: لا تركن قط إلى من يمدحك، فإن النفس تألف ذلك وأنت لا تشعر، وكل شيء ألفته نفسك تخلفت به عن اللحوق والتخلق بآداب العبودية التي من شأنها فقرك دائماً، وغنى ربك دائماً، إذ لا كمال يدعيه الإنسان إلا وهو في الحقيقة لله، وهو في ذلك منازع لأوصاف الربوبية من حيث لا يشعر، فحاله كحال فرعون والنمروذ وسواهما حيث ادعيا ما ليس لهما من صفات ربهما، وكان ذلك سبباً لهلاكهما، وقد وقع التوبيخ الإلهي لمن يدعي ما ليس له بقوله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾[الذاريات: ٥٦]. وقال: ﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ﴾[الرحمن: ٣٣] كل ذلك جاء إعلاماً للعبيد أن ينتبهوا لأنفسهم ويعترفوا بالعجز والذل والمسكنة، وأن لا يتعدوا صفات العبودية التي خلقوا لها، والله أعلم اهـ.

ثم قال صاحبي: فأين آية يأمرنا الله فيها بالعبادة وترك مدح المادحين؟ أفليس هذا اتساع في معنى الآية غير مألوف.

(٧) ثم قال: وقد سألته بلسان الافتقار عن الأحدية السارية في الوجود، ولشدة ظهورها مع صفائها ـ ظهور الأحدية وصفاؤها قد ظهر بعض سرها في سابق هذا التفسير ـ فأجاب بقوله: «ألـها» ثم سكت وقال: «كم» ثم «التكاثر» ففهمت، فأين آية: ﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴾[التكاثر: ١]، ومعنى سر الأحدية التي ظهرت في كل مخلوق، ولكن غفل عنها أكثر الناس مع أن الآية واردة في التكاثر في الأموال والأولاد، ووحدة الله السارية في الوجود المشرقة للخواص أمر آخر غير الوارد في الآية.

(٨) ثم سأله عن سبب تنوع طرق الأولياء وكثرتها مع أن المطلوب عند الجميع واحد لا تصح فيه القسمة ولا يقبلها. فقال: إنّما تعددت الطرق لتعدد القوابل والاستعدادات، لأنه لا يدرك الاثنان بصفة واحدة أبداً، ومحال أن يوجد الحق عند واحد ويكون مفقوداً عند آخر، كما أشار إلى ذلك قوله تعالى: ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴾[الرحمن: ٢٩]، واليوم هو الزمن الفرد الذي لا يدرك، وكذلك أشار إليه قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا ﴾[غافر: ٧]، فإن الرحمة غير الذات والعلم

صفتها، فآية: ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾[الرحمن: ٢٩] واضحة في نظام هذه العوالم، أما تنوع المعارف على حسب الاستعداد فذلك مسلك آخر.

(٩) ثم سأله عن خشوع الذاكرين الذي يذهب حالاً بعد تمام الذكر، لماذا يذهب سريعاً؟ فأجابه بجواب واسع أدخل فيه مسألة كرامات الأولياء، وأن كثيراً منهم تميل نفوسهم إلى الكرامات ليرتفعوا على أبناء جنسهم، وهذا من حب النفس، والحق لا يدرك لمحبة النفس وتكبرها وتلصصها على مراتب الأولياء، وإنّما يدرك تعالى به فضلاً ومنة: ﴿ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ﴾[الحج: ٧٨]، فسأله: ما ملة أبينا إبراهيم؟ قال: التسليم والتفويض لله رب العالمين، ثم قال له: إن ستر حالك عنك الآن خير لك، لأن من أعطي شيئاً من محبوبات النفوس في هذه الدار نقص رأس ماله وخرج من الدنيا بخسارة، اللهم إلا أن يعطيه الحق ابتداء من غير ميل للنفس، فذلك محمول عن صاحبه، إلى أن قال: فإياك أن تميل إلى شيء تألفه النفس فإن السم معه، ولا يعين السم إلا النفس، وانظر إلى قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ ﴾[البقرة: ٣٥] مع علم آدم عليه السلام بها حال تعليمه الأسماء، فلما أراد نفوذ قضائه وقدره ألف بينه وبين من كان سبباً لأكله من الشجرة وليست إلا حواء الخ.

قال صاحبي لي: فأين ميل النفس إلى الكرامات؟ وأكل آدم من الشجرة، وأين آية: ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾[الحج: ٧٨] الخ من مسألة ميل النفس إلى الكرامات وظهورها للناس، هذا ما أردت سؤالك عنه اليوم فأرجو الإجابة. فقلت: غداً إن شاء الله عسى الله أن يأتي بالفتح من عند وهو الفتاح العليم.

حضر صاحبي في الغد وأخذ يطالبني بالإجابة على ما سبق في المجلس السابق، فقلت له: إن سؤالك أمس يرجع لأمرين:

الأول: قراءة القرآن المعروفة اليوم بين المسلمين في الطرقات وفي المنازل والمقابر وفي الختان والولادة والموت وما أشبه ذلك، وجوابه أن أقول:

أيها الأخ الذكي، لقد كنت أيام الشباب أقف وأنا مدرس بمدرسة الجيزة الأميرية على شاطئ ترعة هناك وسط المزارع الجميلة، وأفكر في أمر الديانات واختلافها وكثرتها، ثم في أمر الفرق الإسلامية وتشعبها، وأقول: كيف يكون من الديانات ما يحصر الفكر ويضر العقل، ومنها ما يسرع برقي الأمم، ومن الديانات ما هو أرفعها وأصلحها، ولكن أهله جاهلون، فيرجعونه لطريقتهم، ويجعلونه على حسب مألوفهم، فما كدت أتم ذلك حتى رأيت الجواب في الحقول، وكأن الزرع والشجر تخاطبني قائلات: إننا نحن ثلاثة فرق: فرقة للغذاء، وفرقة للدواء، وفرقة للهلاك، فأكثرنا غذاء، وأندرنا للهلاك بالمواد السمية، والقليل للدواء. القمح للغذاء، الخروع للدواء، المواد السمية للهلاك، ولكل منا مزية خاصة لفائدة شريفة، وحذف أحدنا من الوجود نقص في الطبيعة وخلل في النظام.

ثم انظر إلى هذه البرك والمستنقعات، ألست ترى فيها حشرات وهوام وحشائش قذرة في مائها الراكد، ومع ذلك تكون هذه الحشائش مأوى لتلك الحشرات وتلك البرك، وما فيها زينة لتلك الحشرات ومرتع وغذاء ومتاع إلى حين، إن البرك ماؤها ضار ولكن أصله من ماء النيل السعيد المبارك فما مثل الديانات إلا كمثل النباتات اختلافاً، فلكل أمة عقائد ألفتها وإن كانت باطلة، ونحل ورثتها وإن كانت عاطلة، وملل اعتنقتها وإن كانت منحرفة، وهذه العقائد كلما كثرت فيها مناهج الأخلاق كانت أقرب إلى إصلاح تلك الأمم، وكلما كثرت الخرافات والضلالات والتواكل كانت أقرب إلى الإهلاك والتدمير، فالأولى أشبه بالقمح، والثانية أشبه بالسم في النبات، ولهذه نتائج في النظام العام العقلي كالنتائج المرتبة على النظام النباتي، والنظامان متناسبان المادي والعقلي.

وأقول الآن: ما مثل قراءة القرآن في الطرقات وعلى المقابر وفي حال الختان والولادة والموت وولائم العرس إلا كمثل تلك المستنقعات والبرك التي انقطع النيل عنها وتكاثرت فيها أنواع الميكروبات والحشائش والمياه القذرة وصارت تنفع لأدنى الحشرات وإطعام الميكروبات، وإذا أكلت منها الدواب استضرت بالأكل منها وأهلكت بعضها، فهذه فيها منافع للحشرات ولبعض الحيوانات وللإنسان، فإنه يصطاد منها السمك ويقتات به، ولكن سوائمه قد تعرض للخطر بالأكل من تلك الحشائش، حتى إن الفلاحين في بلادنا المصرية يقولون: فلان جاموسته مغشوشة، يريدون بذلك أنهم يجدون بعد ذبحها في بعض أحشائها أنواعاً من الدود والحيوانات الرخوة، كانت تهلك جثمانها في حال حياتها، فهؤلاء الفلاحون إذا ظلوا عاكفين على ما هم عليه والذي ألفوه فإنهم يأخذون في الانقراض والذل والخضوع، ولكنهم إذا أصلحوا ترعهم وقناطرهم، وسارعوا إلى إدخال ماء النيل في مزارعهم، فإن الوباء يخف والضرر يزول، وتصلح أرضهم للزرع، وعقولهم إلى العلم، ونسلهم إلى الكمال، هكذا هذه العادات الموروثة عند بعض أمم الإسلام كأمتنا المصرية، فإنها اتبعت دين الإسلام الذي نزل في جزيرة العرب، وحمله أجدادنا، وعملوا بقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤]، ورفع دولهم أيام الصحابة والتابعين، ولما زال ملك الأمويين وحل محلهم العباسيون؛ وحمل القرآن أمم غير عربية كالفرس والترك؛ وذل الناس وخضعوا للترهات، وتقلص ظل الدين، وأصبح رسوماً مرسومة، وأقوالاً محفوظة، ونزع لبها، وحفظ قشرها؛ هنالك أخذ الناس يقلدون الآباء وهم يجهلون علومهم، ويحفظون القرآن بلا علم ولا هدى ولا كتاب منير.

فقال صاحبي: إذن أنت تقول إن قراءة القرآن على هذه الشرائط وفي تلك الأحوال المعتادة في أمثال بلادنا المصرية غير محمودة. قلت: إني قد أوضحت بضرب المثل، وأقول أيضاً: إن قراءة القرآن على هذا النمط لها نفع ما، فإن الأموات إذا أحسوا بأن الأحياء يذكرونهم حصلت لهم مسرة بذلك، وإذا قرئ القرآن لأجلهم زادت مسراتهم، هذا حسن ولكن يظهر لي أن هذه الأمة نسيت أصل دينها، دينها إنّما نزل لتذكر الأحياء وتعليمهم، وترقيهم وإصلاح شؤونهم لا إلى الأموات، وغاية الأمر أنهم

لما ماتت نفوس الأحياء حولوا القرآن وقراءته للأموات، فقد فعلوا في أنفسهم ما حكاه لي أحد نظار المكاتب المصرية قبل الاستقلال الداخلي لبلادنا المصرية في أيامنا هذه، إذ دخل مفتش إنجليزي المدرسة الأولية، وأخذ يسأل هل عمل ناظر المدرسة بتعليماته؟ وما هي تعليماته؟ إنهم في أعمالهم يمثلون الميت محمولاً على النعش وهم يضحكون، ويفعلون قدام نعشه ووراءه مثل ما يفعله الفقهاء من الترتيل والأقوال المعلومة، تدريباً لهم على الاستخذاء والاستجداء والذل والمهانة، واتباع الجنازات، وتعليماً لهم أن يكون ما يحفظونه من القرآن وسيلة لجلب الرزق من هذه الناحية، إحياء للذل والجهل وإماتة للنخوة والعلم، فهذا تدريب لهم في حال الصغر، منه يضحكون لينشطوا في دروسهم، حتى إذا كبروا لم يعوزهم كبير عناء في الاستباق إلى اتباع النعش، وتحصيل أجور المشي في تشييع الأموات إلى قبورها، ومقاضاة الأحياء في أجورها، وهذا قصد جميع المستعمرين.

والمستعمرون على قسمين: قسم هذا شأنه وهو ظاهر فيما تقدم، وقسم آخر استعماره خفي، وهو استعمار الجهل الذي حاق بالأمم الإسلامية دهوراً، وأناخ بها قروناً، فأذل الأبناء وأضر البلاد، وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون، وهذه الطوائف بقيت في مصر مثلاً جعلها الله لنا تذكرة، كما جعل اللغة الهيروغليفية عند الأقباط بمصر في أديرتهم ومحال عبادتهم يقرؤونها تعبداً لأجل دينهم، وهم منهمكون فيها، حتى إذا جاء «شامبليون» العالم الفرنسي وحل هذه اللغة وألغازها، وأعانه على ذلك هؤلاء العبّاد ـ بتشديد الباء ـ فنشرها في العالم كله، وانتفعت نفس مصر بهذا العمل.

هكذا هذه العادات الموروثة وقراءة القرآن على هذا النمط إنّما أبقاها الله إلى أيامنا هذه لنفعل ما فعلته بلادنا المصرية، إذ ردمت المستنقعات، وروت البلاد بماء النيل، وحولت تلك البرك إما إلى مزارع نضرة يسقيها ماء النيل، وإما إلى بيوت وحدائق وجنات وأعناب وفواكه، فسيحول المسلمون بعدنا تلك المقارئ وعاداتها إلى أن يقيموا في تلك الأوقات وعاظاً فضلاء، مدربين على إلقاء المواعظ الحسنة، فيقفون وسط الجموع في ولائم أفراحهم، وختان أطفالهم، وأيام الولادة والوفاة، ويلقون لهم المواعظ مستشهدين بالقرآن الذي ألفوا سماعه، فذلك خير وأبقى، وذلك كما حول أهل بلادنا البرك إلى مزارع، وحول شامبليون الفرنسي اللغة الهيروغليفية المحفوظة في هياكل العبادات إلى لغة تحل بها الرموز وتظهر بها الكنوز العلمية، والأسرار الحكمية، المودعة في النواويس المخبوءة في المقابر والبرابي والأهرامات، وفي صناديق الأموات وعلى حيطانها، والله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين.

فقال صاحبي: الله أكبر، إني رأيت اليهود والنصارى يفعلون ذلك في محافلهم ومجتمعاتهم فيقوم خطيب واعظ يذكرهم بما في التوراة والإنجيل. فقلت: إن هذه أمم قد ترقت في العلم قبلنا في هذه الأيام، ففعلوا ذلك بعقولهم، وقد كانوا في غفلة مثلنا، ولذلك ارتقوا عنا، وإن كان دينهم منسوخاً، ونحن بعون الله سنرتقي سريعاً، ويكون ارتقاؤنا أسرع من ارتقائهم، لأن ديننا أرفع الأديان وهو الناسخ لها إلى آخر الزمان، ﴿ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [البقرة: ٢١٣].

فقال صاحبي: إن هذا المقام جميل وبديع، وهذا التشبيه الذي بنيت عليه الجواب قد أظهر الموضوع وجلاه فأصبح واضح المحيا جميل المظهر بديع المخبر، والحمد لله على نعمة العلم والحكمة، إنه هو السميع المجيب. وأرجو الشروع في الإجابة على الأمر الثاني، وهي: الحكم الملقاة على ألسنة الصالحين والأولياء.

فقلت: قد تقدم الكلام على ذلك في هذا التفسير في سورة «يونس» عند آية: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[الآية: ٦٢] الخ، فارجع إليه إن شئت.

اللطيفة الثانية: في قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَـٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾

القضاء والقدر

لهج الناس في كل زمان ومكان بذكر القضاء والقدر، ويقولون: إن الله يقول: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَـٰهُ بِقَدَرٍ﴾[القمر: ٤٩]، وإذا كان كذلك فلمَ العذاب ولمَ العقاب والعتاب؟ ثم إنه رحمن رحيم، فأين الرحمة للمعذبين؟ وأين السعادة للمظلومين؟ ولمن هم في عذاب الجحيم.

هذه حال الإنسان على أي ملة كان، وأي دين في مشارق الأرض ومغاربها، حيرة لا حد لمداها، وأسئلة لا جواب عليها إلا من أناس صفت نفوسهم وعلت عقولهم، فيكونون في نوع الإنسان أشبه بالعين. هذه صورة منطبقة على أهل هذه الأرض أجمعين، فهاك أيها الذكي فاستمع ما ألقيه الساعة إليك بقلبٍ صافٍ ونفسٍ واعية وتدبر فإنه لهذا الداء دواء. ولمرض الحيرة في القلب شفاء. وكن من المستبصرين.

لأضرب لك أولاً مثلاً برجل مهندس عبقري في الهندسة، عزم على أن يبني بيتاً، وهو بأنواع البيوت عليم، ففكر في صورها بعقله وانتزع منها صورة صورها في نفسه واصطفاها لمسكنه، ثم رسم ما اختاره وبناه وشاده على أحسن منوال وأجمل مثال، وفي البيت فرش مرفوعة، وأكواب موضوعة ونمارق مصفوفة، وزرابي مبثوثة، وعلى حيطانه أنواع الصور المختلفة الأشكال، البديعة الجمال، ويحيط به بستان تقر به عيون الناظرين، ويسر بمرآه جمهور الزائرين، فدخل البيت زائرون منهم العميان ومنهم المبصرون، ولما كان هذا المهندس كريم الشيم ترك للزائرين الحرية أن يدوروا في البيت كما يشاؤون، ويتفرجوا على فرشه ونمارقه وأشجاره وهم آمنون، فانطلق أحد العميان في المنزل، فاصطدم في أرض الحجرات بالأرائك، فخر على الأرض كالصريع، وما كاد يقف حتى لطمته الألواح المعلقات فأدمت أنفه، وما كاد يمسحه أو يغسله وقد مشى خطوات حتى سقطت رجله في المرحاض، فقعد حزيناً كئيباً، وأخذ يقول: إن رب هذا البيت رجل عظيم ورحيم، فكيف خاب ظني فيه؟ فأين الهندسة والنظام؟ وأين الكرم والرحمة للزائرين؟ ولم يزل كذلك حتى جاءه رجل مبصر فأخذ يشرح له دقائق البيت وما فيه من الجمال وحسن الإتقان، ففرح أشد الفرح وقال: هذا هو النظام، وهذه هي الرحمة والإحسان، هذا أيها الذكي المثل الذي ضربته لبيان هذا المقام. إن علم المهندس بنظام البيوت واصطفائه منها واحداً هو أجملها ضرب مثل للقضاء، فالقضاء راجع لما ثبت في العلم القديم

للمكونات، وإبراز البيت على ما قدره المهندس في نفسه على أحسن منوال ضرب مثل للقدر لأنه راجع لظهور المخلوقات على ما سبق به العلم القديم.

العميان ضرب مثل لجميع الجهلاء على أي دين كانوا، ولطائفة الملحدين والمتعلمين تعليماً ناقصاً في مدارس الشرق والغرب أجمعين، والمبصرين ضرب مثل لأناس جادت قرائحهم، وزكت نفوسهم، واشتد شوقهم للعلم والبحث، فلم يكونوا كأولئك العميان يهرفون بما لا يعرفون، فدرسوا هذه الدنيا دراسة متقنة من الرياضيات والفلك والطبيعيات، وأدركوا بصفاء عقولهم جمالها وبهاءها، ثم رجعوا إلى إخوانهم وأخذوا يخاطبونهم بما يفهمون، ويكلمونهم بما يعقلون، وسعدوا سعادة لا حد لمداها وكانوا من الفائزين. وهؤلاء يقال لهم: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى﴾[الفجر: ٢٧-٣٠]، فإذا سمعوهم يتحدثون في القضاء والقدر يخاطبونهم قائلين: أيها الأعزاء، ليس لامرئ أن يقصر في عمله محتجاً بالقضاء، فتلك حجة الكسالى الغافلين، فإذا ما أتمه على حقيقته واجتاحته الجوائح فهنالك يقول: القضاء سلوة المنكوبين وراحة البائسين، إن هذه المسألة ليست بنت اليوم، ألم تروا كيف يقول الله حكاية عن كفار العرب أيام النبوة: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ﴾[الأنعام: ١٤٨]، فرد الله عليهم مهدداً بالوعيد فقال: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾[الأنعام: ١٤٨-١٤٩].

ونقول: كما قامت حجة المهندس رب البيت على الأعمى، هكذا تقوم حجة الله على من يخوضون في القضاء والقدر وهم جاهلون، إن الأمم التي فتحت على نفسها باب القضاء والقدر هي التي قد استعدت للفناء وباءت بالوبال، ونسيت عقولها، وعدتها حملاً ثقيلاً عليها، لأنهم على الشهوات عاكفون، وفي غمرة الجهالة ساهون، وكيف يفتحون هذا الباب وهم يجهلون؟ وأنى للعميان أن يدركوا محاسن الجمال في الفتيات والفتيان. إن المسلم الذي شغله القضاء والقدر وهو بعد لم يدرس نظام الدنيا وعلومها لحري به أن يبوء بالخسران، فهذه الطائفة في الدين أشبه بأولئك الذين يجلسون في أماكن الشرب العامة ببلادنا المصرية، ويدور كلامهم على سياسة الدول وأسرارها وهم يجهلون سياسة منازلهم وأمتهم، فهم في ذلك مغرورون.

إن الناس ثلاث طبقات: عامة مصدقون، وحكماء محققون، ومتوسطون بين هذين مذبذبون متحيرون. فالفريقان الأولان مطمئنان، والفريق الثالث جعلت حيرته مهمازاً يسوقه إلى البحث، فإذا قصر فهو في ضلال مبين، وكيف يخوض في القضاء والقدر من يجهل تشريح جسمه وبدائع تركيبه، وأن في كل عين من عينيه سبع طبقات وثلاث رطوبات، ومن الطبقات السبع طبقة تسمى الشبكية، وهي لا تزيد في سمكها على سمك ورقة الكتابة، وهذه وحدها فيها ثلاثة ملايين مخروط وثلاثون مليون أسطوانة، وهذه كلها مبينة بالتصوير الشمسي واضحة، وبهذه الملايين يكون الإحساس والنظر.

بعد كتابة ما تقدم في هذا المقال وجه إلي أحد الأصدقاء اعتراضاً جاء فيه ما يأتي:

إن هناك فرقاً بين المثل والممثل له، فإن المهندس رب البيت ليس مسؤولاً عن العمى، فليس من حق الأعمى الذي حصل له الألم بشج رأسه أن يقول له: لمَ كنت أعمى؟ لأن المهندس لا سلطان له على عين الأعمى، ولكن الممثل له غير ذلك، فإن الذي أصبح متشككاً متحيراً هو نفسه من صنع الله، وإذن فالإشكال باق، والمسألة على حالها، والمثال لا يجدينا نفعاً، فأمن الحاضرون على كلامه، فقلت: لا إشكال، لا إشكال، فقال الحاضرون: أين أين البرهان؟ فقلت: هناك أسرتان: أسرة كبرى وهي نوع الإنسان، وأسرة صغرى وهي المعروفة، ألستم ترون في الأسرة الصغرى أن صاحب المنزل هو الذي يديره، وأن الخدم لا اعتراض لهم عليه في الغالب، وأن أطفاله لا يفقهون شيئاً مما يفعل أبوهم إلا بالتدريج؟ قالوا: نعم. قلت: فهل وجود الأطفال مع جهلهم المطبق بنظام المنزل يعتبر عند العقلاء خللاً وظلماً؟ قالوا: كلا. بل الأطفال نعمة وعدم وجودهم يعتبر نقمة. فقلت: إن العامة في العالم الإنساني يمثل لهم بالخدم، لأنهم يعملون ولا يفكرون إلا قليلاً. وأما رب البيت فهو ضرب مثل لصانع العالم، وأما الأطفال فيمثل لهم بالطبقة الوسطى من المتعلمين الذين ارتقوا عن العامة قليلاً وفكروا في نظام هذه الدنيا، فهؤلاء أطفال الإنسانية، والأطفال خلقوا ليجلسوا محل آبائهم، وهؤلاء هم المتعلمون تعليماً ناقصاً، فهؤلاء إذا أحسوا بحيرة فهذه الحيرة نعمة لا نقمة، لأنها تدفعهم إلى استيعاب العلوم ليصيروا حكماء، فإذا كسلوا وناموا كما هي الحال عند كثير من المتعلمين الحاليين فإنهم لا جرم يحيون حياة كلها اضطراب، ويرجعون القهقرى، وتكون الشهوات سلوتهم الوحيدة، وهذا هو السر في تأخر بعض أمم الشرق التي كثر العلم فيها، ولكن لا استقلال لها، لأن الرجال القائمين بأمرها يبنون حياتهم على أساس علمي غير مكين، فهل وجود أطفال الأمم خلل في النظام؟ قالوا: كلا. لأنهم يبحثون عن الحقائق كأطفالنا. قلت: إذن العميان في مثل المهندس رب البيت ضرب مثل لهؤلاء باعتبار نقصهم، وخلق الناقص المستعد للكمال حالاً أو مآلاً عدل وحكمة وكمال.

فقالوا: نعم. فقلت: الحمد لله إذ عرفتم الحقيقة. انتهى.

هذا ما كتبته في مجلة «المعرفة» تفسيراً لقوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾[القمر: ٤٩] وإن أردت أيها الذكي الزيادة فاقرأ ما كتبته في سورة «الفرقان» عند آية: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾[الآية: ٢]. وإلى هنا تم الكلام على اللطيفة الثانية، والحمد لله رب العالمين.

اللطيفة الثالثة: في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾﴾

يقول تعالى: خلقنا كل شيء مقدراً مرتباً منظماً على مقتضى الحكمة، وقد كان مكتوباً قبل ذلك في اللوح المحفوظ معلوماً عندنا، فمتى أردنا أمراً ما من أمورنا التي قررناها في علمنا، وقدرناها في لوحنا المحفوظ، فإننا نفعله فعلة واحدة، ونوجده بلا معالجة ولا معاناة، فقدرنا سابق، وقضاؤنا لاحق ولا قضاء إلا وهو مرتب على القدر السابق، وقولنا: ﴿كُن﴾[البقرة: ١١٧] هو القضاء. واعلم أن في أمم الإسلام السابقة قوماً يقال لهم القدرية، وهؤلاء يقولون: إن الله لا يعلم الأشياء قبل وقوعها،

وكل ما في الوجود مستأنف لم يعلمه الله فيما مضى، ولكنه يعلمها بعد وقوعها لا غير، فهم سموا قدرية لإنكارهم القدر. وقد قال أصحاب المقالات من المتكلمين: إن هذه الفئة قد انقرضت. ثم قالت طائفة بعدهم: الخير من الله والشر من غير الله، وهؤلاء كالمجوس ينسبون الخير إلى «يزدان» والشر إلى «أهرمن»، والخير يرجع إلى النور، والشر إلى الظلمة.

جمال هذا المقال

اعلم أن الله عز وجل علم قبل خلقنا أننا لا يتسنى لنا الوقوف على حقيقة التكوين ولا بدائع القدرة، فجعلنا نحن أشبه بمثل مضروب لذلك، ألا ترى رعاك الله أن هنا ثلاث مراتب:

المرتبة الأولى: العالم كله. المرتبة الثانية: الإنسان الواحد. المرتبة الثالثة: القوى الذهنية في الإنسان.

هذه هي المراتب الثلاث في الوجود: فالمرتبة الأولى والمرتبة الثانية من فعل الله عز وجل، أما المرتبة الثالثة فهي من فعله بواسطة أنفسنا.

جلّ الله، الله أكبر، المرتبة الأولى: العالم كله من العرش إلى الفرش هيكل واحد، وهذا الهيكل نشاهد فيه أجسامنا وصوراً شتى لا قبل لنا بحصرها، وهذه الكواكب التي لا يحصرها العد، والمجرات والسدم التي أصبحت تعد بالملايين، وكل مجرة وكل سديم يحوي من الشموس ومما هو في حكم الشموس ما يعد بالملايين، وتلك الشموس إما كشمسنا أو أكبر منها أو أصغر، وكل هذه نشاهد لها حركات منتظمات، وهكذا كل ما على أرضنا، وما في جونا، وما في بحارنا من المخلوقات، كلهن ذوات أفعال منتظمات مقدرات منظمات باعتبار خلقها، ولا جرم أن هذه الأفعال والصفات والأصباغ إنّما كانت بفعل عقل وحكمة، فلنسم ذلك عقلاً عاماً، وهذا العقل العام لا يمكن إنكاره، لأنا نشاهد آثاره المنظمة وأفعاله الجميلة.

أما المرتبة الثانية: فهي الأجسام الحيوانية والنباتية، وأخص ذلك كله جسم الإنسان، فله أفعال إرادية وله جسم كما أن العالم كله جسم وروح.

أما المرتبة الثالثة: وهي قوانا العقلية التي تحت تصرفنا نحن، فإنها تصور لنا ما شاهدناه وعلمناه.

يا عجباً يا ربنا وألف عجب! لا تكاد نفسي تتوجه للمجرات، ولا للشموس، ولا لحبيب، ولا لعدو حتى يحضر فيها كلمح البصر، فلندرس هذه القوى التي فينا فإنها كافية لنا في فهم لغز الوجود، وأنا أحس بصور لا عدد لها، صور تضارع صور هذا العالم المشاهد، فأرى الشمس في مخيلتي مثل ما رأتها عيني، وهكذا الأرض والسماء، ومتى تصورت صورة حسنة أو قبيحة أو مؤذية أو نافعة ظهرت في نفسي آثارها، وقد أتصور إنساناً يؤذيني، فأشعر في الحال بغم وتجديد عداوة وحقد وضغن، وقد يتصور المرء صورة ذات جمال فتهيج شهوته، إذن الصور الخيالية الحادثة في أذهاننا تبعث تارة على الشهوة وتارة على الغضب، وهذان عالمان لا منبع لهما إلا خيالنا، وهناك عوالم أخرى في الذهن،

ولكني من جهة أخرى أحس في نفسي بعالم آخر أرقى من هذه العوالم ينهى النفس ويقول لها: اطردي صور الأعداء، واطردي صور الشهوات، ويتحكم في هذه الصور ويقرب ويبعد.

إن في الذهن لصوراً كثيرة من فريقي الغضب والشهوة والجمال والشجاعة وأضرابها، وهذه الصور خاضعة لتأثير مؤثر نسميه القوة المفكرة أو العقل وهكذا، إذن هنا أمران: أمر هو كالصورة الجسمية، وأمر هو كالروح، فالذي هو كالصورة هي الخيالات، والأمر الذي هو كالروح هو الفكر. ثم ننظر فنرى هذه القوى الذهنية لها السلطان المطلق على الحواس، ومن الحواس البصر، والبصر يرى الصور على الشبكية، فالشبكية هي التي تقيد الصورة وتوصلها إلى القوة الباصرة في الدماغ فيراها الإنسان، وما الذي رآه؟ هو لم ير إلا صورة مرسومة دلت على صورة في الخارج، فالمرئي حاصل داخل العين، وهذه الصورة أقرب إلى الروحانية، وهي دالة على الصورة الجسمية الخارجية، أي: إن ما في النفس مطابق لما في الخارج.

إذن المعلوم ما ملكته النفس فيها وما في الخارج مطابق لها، إذن البصر في لمحة يرى صورة أقرب إلى الروحية دلت على ما يطابقها، وهي الصورة الخارجية في لحظة صغيرة من الزمان، فلننظر في سير هذه الصورة فنراها أصبحت في المخيلة، وصارت إحدى الصور التي وصفناها بأنها صورة مؤذية أو سارة أو شهوية أو غضبية، ولكنها بعد أن كانت أشبه بالروح وهي في العين أصبحت الآن في الخيال كالجسم، وأصبحت القوة المفكرة كالروح، وهذا الجسم وهذه الروح اخترعتهما أرواحنا بعناية ربها، اخترعتهما من العدم، ليس عند روحي مادة لتصوير صورها، ولا مادة ألطف لتصوير أفكارها، هكذا فعل الله في عالمه الكبير، ولا يعزب عن ذهنك ما قررناه غير مرة وبيناه في سورة «النور» أن هذا العالم لا مادة فيه، كلا. إنّما العالم حركات في أمر يشبه خيالنا سميناه الأثير، وما هو الأثير؟ هو خيال الكون، خيال الفضاء وهذا الخيال قوي متين أمتن من المادة، والحركات فيه تحدث نقطاً كهربائية، والنقط الكهربائية باختلافها كماً وكيفاً تتكاثف بنسب مختلفة لا حصر لها، فتظهر لحواسنا هذه الصور المشاهدة، وإلا فالحقيقة أن هذه العوالم ما هي إلا نور مضغوط مكبوس تبدى لعيوننا على هذا المنوال.

وبعبارة أخرى: العالم حركات لا غير، وهذه نظرية «أنشتين» والحركات تنقلب نوراً، وهذا النور هو هذه الدنيا، وبتنوع النور يكون جمال لا حد له ذو بهجة، وهذه الصور الحادثات في العوالم منها ما ينفعنا ومنها ما يضرنا على قياس الصور الذهنية. وملخص هذا المقام ما يأتي:

(١) كما أن الصور الذهنية لا مادة لها هكذا الصور التي في خيال الفضاء.

(٢) وكما أن الفكر ما ظهر إلا من أرواحنا بلا واسطة هكذا الأرواح منبعثة من العناية الإلهية خلقاً أولياً، ونظيره في ذلك أفكارنا.

(٣) وكما أن الصور في الأولى منها ما يضرنا ومنها ما ينفعنا؛ هكذا الصور الظاهرة في خيال العالم وهو هذا الفضاء.

(٤) وكما أننا نحن نتصرف في الصور الخيالية بواسطة عقولنا؛ هكذا نحن نتصرف في عوالم المادة من أنواع ما يعطينا منفعة وما يورثنا مضرة كالنحل والزنابير.

(٥) وكما أن فكرنا له الحرية المطلقة في إصلاح الصور الحاصلة في الذهن أو محوها أو إحداث غيرها محلها؛ كذلك نحن نفعل في أعمالنا المعتادة في الأرض.

(٦) تشابه العالمان: عالم الأذهان وعالم العيان.

(٧) ومثل ما رأينا في هذين العالمين يحصل في العالم العام.

(٨) ففي هذه العوالم نفوس وعقول نسبتها إلى هذه العوالم المادية كنسبة أفكارنا إلى صورنا الخيالية، وكنسبة عقولنا وقوانا المتصرفة إلى أعضائنا العاملة كاليدين والرجلين والحواس.

(٩) وكما أن نفوسنا وأفكارنا تتصرف في صور الخيال التي لا نهاية لها، وفي صور المادة التي لا حد لها فيما حولنا، هكذا تلك النفوس والأرواح العالية تفعل بنظامها في هذه العوالم العلوية والسفلية بقوانين منظمة مترتبة بقدر وحكمة، ويمتد من تلك الحكمة فروع تصل إلى عقولنا فتهديها إلى صراطها المستقيم.

(١٠) المادة كلها أنوار، بل حركات مضغوطات ومكبوسات، فأجسامنا وأجسام ما حولنا ما هي إلا أنوار ذات جمال حجبنا عنه، وهذه الأنوار حركات في الأثير، كما أن الصور المرسومات في أذهاننا أيضاً حركات أو أنوار في الأثير، فنحن نور يعيش في نور.

(١١) خلاصة الخلاصة أن هذا الموضوع كله توطئة لفهم قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴾[القمر: ٥٠]، والمقصود الأصلي سرعة الإيجاد بعد إرادة الفعل، وأدى ذلك إلى البحث في أمر الصور الذهنية، فالصور الجسمية، فالأرواح والأجسام، فالملائكة والعوالم كلها، وفي غضون ذلك برزت صور من علم الأخلاق ومحاربة القوة العاقلة قوتي الغضب والشهوة، وتنظيم صور لا نهاية لها كما ينظم العقل العام صوراً لانهاية لها في العوالم كلها، وبجهادنا للخلوص من علائق المادة نصل إلى النور الأسمى، والحمد لله رب العالمين، وهو حسبنا ونعم الوكيل. انتهى صباح يوم الخميس ١٩ نوفمبر سنة ١٩٣١م.

نور على نور

حضر صاحبي العالم الذي اعتاد مناقشتي في هذا التفسير فقال: إن هذا المقال حسن، فقد كان قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴾[القمر: ٥٠]، وحصر التمثيل بلمح البصر في الآية؛ وتقريب المعاني البعيدة بما نألفه؛ سبباً أثار تلك العجائب، وكان لمح البصر وما يرتب عليه من صور ذهنية وأخرى خارجية مخرجاً لما استكن من العلم، وموجباً الارتقاء في الأسباب طبقاً عن طبق، حتى وصلنا إلى مستوى يسمع فيه الأنبياء والملائكة صرير الأقلام المسطرات مقادير العوالم في اللوح المحفوظ، ولكن ألا تذكر أن هذا المقام له ارتباط وثيق وائتلاف، بل تكميل لما تقدم في سورة «القتال» عند آية: ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾[الآية: ١٩]، فقد ذكرت هناك رأي أفلاطون، وفيه

الكلام على المثل المسماة مثلاً أفلاطونية، وأن هذه المثل نبذها أرسطاطاليس بعده، وقال: إن العلم لا يعتمد إلا على ثابت، ولا ثابت إلا المادة وصورتها، وأن الرواقيين الذين جاؤوا بعده وكان رئيسهم «زينون» في القرن الثالث قبل الميلاد ردوا عليه كما رد هو على أستاذه، وقالوا: أنت لم تبين لنا كيف يكون ارتباط هذه المادة بصانع العالم الذي أنت توقن به، وما المناسبة بينهما؟ ثم إنك تقول: إن المادة مجرد إمكان محض، وتقول: إنها تشتاق للصور، وهذا كلام لا دليل عليه، لأنها إذا كانت مجرد إمكان فأين عشقها للصورة الذي تدعيه، وهل هي تعقل؟.

فلما رأى ذلك الرواقيون وبعدهم العلماء الذين جاؤوا بعد الميلاد وهم الفرع الإسكندري، والفرع الشامي والفرع اللاتيني نظروا في آراء الحكيمين، فقوم منهم أكبوا على العلوم الطبيعية كالطب وقوم أكبوا على الرياضة، وهؤلاء أكثرهم من الرواقيين، ثم إن هذه الفروع الثلاثة بعد الميلاد وفقوا بين الآراء واستخلصوا خلاصة، وإليهم ينسب كل ما وصل إلى علماء الإسلام، كابن سينا والفارابي والصوفية.

فهذه الحيرة التي فيها وقع القوم بعد الحكيمين سببها أنهما لم يوفقا لانتهاج خطة بها يصلان إلى الطريق التي بها يعرفون كيف توجد هذه العوالم من إله لا صلة بينها وبينه، فلا أفلاطون قدر أن يبين، ولا أرسطاطاليس كذلك، وهما السبب في اختلاف الأحزاب فيما بعد ذلك، وقد نقلت من كلام الأستاذ «سنتلانة» المكتوب بخطه في كتابه «تاريخ الفلسفة العربية» أن حكماء أوروبا لم يبرعوا في الفلسفة ولم ينالوا من العلم إلا ما كان من قبيل العلوم الجزئية كالطبيعيات والرياضيات، فاخترعوا وزرعوا وطاروا وحاربوا، أما العالم الأعلى وعجائب النفس وأصل التكوين التي لأجلها وضعت الفلسفة، والتي هي المقصود الأصلي لنوع الإنسان من أبحاثه، فهم فيها ليسوا بالنسبة لسقراط وأفلاطون إلا كنسبة البقة إلى الفيل، ولو أنهم عرفوا ذلك مثل هذين الحكيمين لم يكونوا إلا ملائكة.

هذا كله تقدم في هذا التفسير في مواضع كثيرة، وأنت قد رفعت صوتك عالياً، وقلت: إلى نوع الإنسان كله شرقاً وغرباً، أيها الناس، إذا كان «أفلاطون» و«سقراط» قد ضربا مثلين لأصل العوالم واختلف الأحزاب من بعدهم، وإذا كان الأستاذ «كانت» الألماني قد خالف طريقهما لما رآها وعرة المسالك، صعبة المرتقى، بعيدة المنال، مربكة العقول، عرج على أن يصل الإنسان لصانع العالم من طريق علم الأخلاق، وأبان أنه إذا لم يكن هناك إله يكون المجرم كالمحسن، فأثبت الإله من هذه الجهة الضعيفة، وقد نقلت أنت ذلك عن مترجم كتاب «الأخلاق» لأرسطاطاليس من اليونانية إلى العربية، وذكرت أنت أن هذا المترجم الفرنسي كما تقدم في سورة «حم فصلت» وهي «حم السجدة» عند آية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾[فصلت: ٣٠] الخ؛ جعل أفلاطون بالدرجة العليا والأستاذ «كانت» في الدرجة الوسطى، وأرسطاطاليس في أدنى الدرجات، كل هذا ذكرته أنت وأبنته في غير ما موضع.

هاهنا رفعت أنت صوتك عاليا وقلت: في سورة «القتال» في رسالة مرآة الفلسفة ما معناه ملخصا موضحا مشروحا بعبارة أوسع.

أيتها الإنسانية، اسمعي اسمعي، إن أفلاطون وأرسطاطاليس لم تكن الأمم في زمانهما لتعقل الحقيقة واضحة، فأعطيا العلم للناس على مقدار استعدادهم، وأعطى كل منهما صورة للناس يظن أنها تقبل عندهم، ومضى ٢٥ قرنا انتقلت فيها العقول وارتقت الأفكار فاستعدت لقبول الحقيقة.

أيتها الأمم، أيتها الأمم، اسمعي اسمعي، إن أفلاطون لم يقل المثل الأفلاطونية وهو نائم أو ساه، كلا.

إنه لما رأى أن المعقولات هي الفعالة والمؤثرات وما عداها لا حراك له قال مقالته ووضع قاعدته، ولكن أنا أنبئكم بالحقيقة، الحقيقة هي أننا لا يتسنى لنا معرفة العوالم الغائبة عنا إلا بما نشاهده في أنفسنا، وسبب ذلك أن أنفسنا أكمل هذا العالم، هي أرقاه، لأنها جمعت العوالم الجسمية والعوالم الروحية، ولنا صور ذهنية، وهذه الصور نحس بها، هي موجودة، نحن لا ننكرها، وهذه الصور لم تكن لها مادة تخلق منها، ولا وجود لها إلا من أنفسنا، فلا واسطة بينها وبين نفوسنا، أفلا نقول هكذا في العوالم.

إن العوالم حركات في ضمير الكون وخيال الفضاء، كما أن صورنا الذهنية حركات في خيالنا، فهاهنا انحل الإشكال، وفك العقال.

هذا معنى ما تقدم في غير ما موضع لا سيما سورة «القتال»، فهل لك أن تفيض في هذا الموضوع هنا ليتم المقام وينتظم شمله؟ فقلت له: حياك الله أيها الأخ وبياك، ألم تر ما كتبته الآن؟ ألم أذكر لك عشر جمل هي خلاصة ما ذكرته في هذا المقال هنا زيادة عما سبق. فقال: بلى. ولكني أريد زيادة تحقيق، نعم إنك في سورة «القتال» لم تذكر إلا الصور الذهنية، وهنا ذكرت الخيالية والفكرية وشرحتهما، فلتفصل لي المقال بعبارة أوضح وقول أبين، فقلت: إن كل ما نزاوله من أفعالنا، ونصنعه في مدننا وحقولنا وليلنا ونهارنا لا يصدر إلا عما قررناه في نفوسنا.

الله أكبر، لا معنى للإنسانية إلا الفكر، لو سلب الإنسان العقل لسميناه مجنونا، فيصبح ذا غريزة كالحيوان، فيأكل ويشرب ويتناسل، وهو صنو الحيوان لا فكر عنده ولا تمييز.

الله أكبر، الأرض وما عليها لا تساوي شيئا مذكورا في نظرنا لولا إدراكنا لها، إذن الإدراك والتعقل هما أصل كل شيء عندنا، إذا عقلنا فهناك الوجود، وإذا لم نعقل فهناك العدم. جرد المرء من شهوة الطعام إذن لا يعبأ به، جرده من شهوة الغضب إذن لا يحارب العدو، جرده من العقل لا يدري شيئا، فالإدراك هو الأصل، وما عداه تبع، فالوجود كله لا معنى له إلا إذا أدركناه، نحن علماء بالإدراك، نحن جهلاء بعدمه، العالم موجود عندنا لأننا أدركناه، غير موجود إذا لم ندركه، لا وجود للألوان إذا لم تكن عيون، أو كان الإنسان أعمى، لا وجود للأصوات إذا كان الإنسان أصم، لا وجود لهما إذا كان أصم وأعمى، لا وجود لهذا العالم لمن لا يحس بالحواس، بعض الموسوسين والمرضى

بالأمراض العصبية ومرض « الهيستريا » يسمعون أصواتاً ويرون صوراً لا وجود لها، ولكنها تفعل فعلها فيهم وتضرهم ضرراً بليغاً ويموتون، وأنا شاهدت بعضهم، وبعضهم يرى صوراً في الظلام، ومن شدة خوفه يرى صوراً تزعجه وهو مستيقظ ولا يشك في وجودها، يحلم الإنسان بصور وأشكال، وجمال وقبح، وصديق وعدو، وحقل وجبل، وهي عنده حقائق لا يماري فيها، ولها في ذهنه آثار، ولها في نفس حياته في اليقظة بعض الآثار، فبعضها يورث الفرح، وبعضها يورث الحزن الخ، دلالة على أن لها وجوداً، والشمس قدر المنخل باعتبار ما وصل إلينا بالعين لا بحسب الواقع، إذن الوجود كله الذي أدركناه يرجع إلى ما وصل إلينا في أنفسنا وما تقبلته وتصورته لا غير، وإن خالف الحقيقة، فإننا إذا أثبتنا المنفي لما أدركناه، ونفينا المثبت لما لم ندركه، نحن في نومنا نوقن بما ليس بموجود لما أدركناه، ونذعن بعدم ما هو موجود تبعاً لما تصورناه، فالعبرة بأنفسنا لا غير، ففيها سعادتنا وفيها شقاؤنا، وإذا تبدى لنفس ما يسعدها فهي سعيدة، وإذا تبدى لها ما يشقيها فهي شقية، والعالم الخارجي أمر آخر غير نفسي فهو صالح للأمرين، ولو أن الإنسان عاش أمداً وأبداً، وحياته كحياة النائم الذي يرى أنه في روضات الجنات، فهذا النائم سعيد سعادة حقيقية، وإن كان كل ما رآه لا حقيقة له، وإن رأى حيات وعقارب وسعيراً وزمهريراً ودام إلى الأبد فهو الشقي شقاء أبدياً، فنفوسنا لا يسعدها إلا ما أدركت ولا يشقيها إلا ما لديها مما هو مؤلم، فالنفوس إذن أصل الموجود عندنا، أليس هذا أيها الأخ الذكي هو السر الذي وصل إليه قول أفلاطون في أن أصل العالم هو العلم العقلي فإذا كان ذلك هو أدب نفوسنا وهي فروع لنفس أكبر تدبر هذا العالم؛ أفلا نقول: إن النفوس التي اشتقت منها نفوسنا هي على هذا النمط، فهي أصل لوجود العوالم، والمدار على تلك النفوس لا على ما تفرع منها من العوالم، وما هذه العوالم إلا صور لما في تلك النفوس العالية، لأن المدار عليها كما أن المدار في الوجود وعدم الوجود هي عقولنا وإرادتنا، وهي الحقيقة عندنا لا غير، فإن كان في المنام فالحقيقة ما نراه، وإن كان في اليقظة فالحقيقة ما نشاهده، وأصل الوجود هو الأثير والحركات فيه، واختلفت المناظر باختلاف أحوال الناظر فيها، وإذا كانت عقولنا ونفوسنا هذا دأبها فلنقل هكذا دأب العقول التي اشتقت عقولنا منها، وتلك العقول الأولى منزلتها من صانع العالم منزلة أفكارنا من أنفسنا، وإن كان هذا مجرد تشبيه لا غير، وليس موضحاً للحقيقة، والتشبيه ما هو إلا ضرب مثل لا غير.

وهذا الذي عولنا عليه إيضاح وتبيان للسر الذي ذكره أفلاطون، وبهذا الإيضاح سيزول إشكال الأمم في أصل وجود العوالم العلوية والسفلية، والله هو الولي الحميد.

مسامرتان

ولأذكر لك هنا مسامرتين:

الأولى: عن الإمام الغزالي.

الثانية: عن « باسمرك »

المسامرة الأولى

يقول الإمام الغزالي: لو أنك خبأت كنزاً ثميناً وفيه أموال عظيمة فإنك تجد نفسك به فرحاً مغتبطاً، ولو أن امرأً سرق ذلك الكنز وأنت لم تعلم به سنين عديدة لم يؤثر ذلك في فرحك، بل فرحك به دائم ما دمت معتقداً وجوده وأنه ملكك. انتهت المسامرة الأولى.

المسامرة الثانية

ما جاء في كتاب «مختارات الترجمة» باللغة الإنجليزية تحت عنوان: «لفافة التبغ التي تمتع بها باسمرك من غير أن يدخنها»، وذلك أنه كان في «كونيكارتز» وقد حمي وطيس الحرب، واشتد الكرب، وشمرت الحرب عن ساقها، وعم ضررها، ولم يبق لديه إذ ذاك لفافة تبغ واحدة، قال هو بنفسه ما يأتي:

إن قيمة لفافة التبغ لا تعرف إذا لم يكن لديك سواها وكانت آخر ما تملك من هذا القبيل، ولم يكن هناك سبيل لنيل غيرها، وفي «كونيكارتز» لم تكن عندي إلا لفافة تبغ واحدة، فحفظتها في أمتعتي، وحافظت عليها حفظ البخيل على كنز ماله مدة الحرب كلها، وقد قررت في نفسي أن العقل يقضي ببقائها، وليس من الحكمة تدخينها، ولقد كنت أحس بأجمل السعادات، وأبهى المسرات، وأعز الساعات، بعد أن وضعت الحرب أوزارها، حينما أتمتع بالنظر إليها وأشاهدها وهي قرة عين لي ببقائها، ولكن وا أسفاه قد وقع لي ما ليس في الحسبان، ذلك أن فارساً قطعت يداه أثناء الحرب أخذ يهمس ملتمساً ما يسلي نفسه المسكينة وينعش فؤاده الحزين، فأخذت أفتش في حقيبتي، فوجدت فيها النقود الذهبية، ولكنها لا تغنيه شيئاً مذكوراً، ولا تنعش قواه المنهوكة، فقلت له: اجلس أنا أعطيك لفافة التبغ العزيزة لدي، والتي هي سلوتي مدة الحرب، فأشعلت النار فيها، ووضعت فمها بين شفتيه الوالهتين، هنالك تبسم ذلك المسكين فرحاً مسروراً شاكراً، أنا لم أتمتع بلفافة تبغ مدة حياتي كهذه اللفافة التي تمتعت بها ولم أدخنها. انتهى.

هاتان المسامرتان أيها الأخ الذكي تلقيان شعاعاً على موضوعنا. شرح الله صدرك للحكمة وأنار بصيرتك بالعلم، وزين صدرك بالإيقان.

وما مثل هاتين المسامرتين إلا كمثل نور المصباح يلقي شعاعه على أصل الموضوع الذي أختمه بما يقوله الفلاسفة: إن الإنسان يمشي على الحائط فيقع، وما أوقعه إلا وهمه، وهو يمشي على الأرض في أقل من عرض الحائط. فالصور الذهنية مبدأ الشقاء والسعادة، فكأن الفكر أصل أعمالنا، والعالم الملكي الأعلى أصل عوالمنا، فأصل الوجود للعقول، وجميع العوالم إن هي إلا تابعات، والعوالم كلها أشبه بشجرة، وهذه الشجرة فيها زهرات كثيرات، والزهرات هي الأبصار التي ضرب بها المثل في القدر، فقال: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠]، فلمح البصر كترنح الأزهار على الأغصان، ووراء الزهرات الثمرات، كما أن وراء العين العقول والنفوس الأرضية والسماوية وترتيب القضاء والقدر، أفلا تعجب من سر القرآن.

فقال صديقي : إن هذا البيان عجب ، ولم أسمع مثل هذا السر في هذا التفسير . فقلت : الحمد لله رب العالمين . انتهت اللطيفة الثالثة في ١٠ جمادى الأولى سنة ١٣٥١ هجرية ، ١١ سبتمبر سنة ١٩٣١ ميلادية . انتهى تفسير سورة « القمر » .

تم بحمد الله وحسن توفيقه الجزء الثالث والعشرون من
كتاب « الجواهر » في تفسير القرآن الكريم
ويليه الجزء الرابع والعشرون
وأوله تفسير سورة « الرحمن »





فهرس الجزء الثالث والعشرين من كتاب
تفسير الجواهر

